أنطونيو بلتران هرنانديز

أمبراطورية الحرية

ترجمة

أحمد توفيق حيدر

ANEP ــ دار الفارابي

المحتويات

إهداء الطبعة العربية 9

المقدمة 11

بحيرة عامر الكبرى 11

طاليمامبو رقم خمسة 19

موكتيزوما II ونحن 25

ملحمة الفضاء 2001 29

تمهيد 33

القسم الأول
اميركا للأميركيين

الفصل الأول: ولادة أمة 47

الفصل الثاني: أفارقة وأميركيون منبوذون 51

الفصل الثالث 65

الفصل الرابع: وضع اليد على لويزيانا الغربية (1803) 69

الفصل الخامس: الحرب: كاليفورنيا العليا ونيومكسيكو (1846 ـ 1848) 75

الفصل السادس: الثورة التحريرية 87

القسم الثاني
العالم في الولايات المتحدة

الفصل الأول: العالم 145
الفصل الثاني: العالم لا يكفي 205
الفصل الثالث: النظام العالمي الجديد 269
العالم الأمثل 319

منتديات الكوكب العاشر

إهداء الطبعة العربية

مما لا شك فيه أن هذه الطبعة العربية ليست مهداة إلى الذين سقطوا في نيويورك ذات يوم في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. أعتقد أن هؤلاء كرمت ذكراهم في غير مكان من العالم وثمة اهداءات انتهازية عدية خصصت لهم. قد يكون من الأجدر بي أن أهديها إلى الذين سقطوا تحت ضربات طيران الولايات المتحدة وحلفائها ولا يحظون بأي تكريم. غير أن ذلك لن يكون أقل انتهازية. لا بل كنت أميل لإهدائها إلى أولئك الطيارين الذين تفوق مآثرهم مآثر كل الأزمان (تفوق مأثرة تلك المشاهد الخضراء للحروب اليوغوسلافية والعراقية أو الأفغانية لا بل تفوق حتى ما أنتجته هوليود من مشاهد). لكن معظم أصدقائي نظروا إلي بعيون أكثر من عيون الدهشة حينما حدثتهم عن فكرتي.

فإذن، لكي لا أثير غيرة أحد امتنع عن إهداء هذه الطبعة لأحد.

بحيرة عامر الكبرى

في شهر شباط/فبراير عام 1945، وأثناء عودته إلى أميركا عقب مؤتمر يالطا، عدل جارنا الطيّب (هذا هو الاسم الذي كان يريد أن يطلق عليه في قارتي)، الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت في خط سيره. كان على موعد مع عبد العزيز بن سعود، ملك المملكة العربية السعودية ومؤسسها، على ضفاف بحيرة عامر الكبرى الواقعة في قلب قناة السويس. وفي المحادثة جرى التطرق، لا مناص، إلى عذابات الشعب اليهودي. لقد حمل الرئيس الشمال أميركي طلباً إلى العاهل العربي على الشكل التالي:

ـ عانى يهود أوروبا على يد هتلر عذاباً رهيباً: النفي، التعذيب، المذابح. أخذت على عاتقي إيجاد حل لمشكلاتهم، هل من اقتراحات لجلالتكم في هذا الشأن؟

أجاب البدوي:

ـ إمنحوا لهم ولأحفادهم أفضل الأراضي والمساكن التي يملكها الألمان الذين عذبوهم.

ـ لكن، يا صاحب الجلالة، اليهود الذين نجوا من المحرقة يخشون خشية تفهمها، أن يبقوا في ألمانيا حيث قد يتعرضون لمعاناة جديدة؛ فضلاً عن أنهم يبدون مشاعر الحنين إلى فلسطين.

ـ أجرؤ على الاعتقاد ـ أجاب البدوي ـ بأن انكلترا وأميركا تريدان التخلص نهائياً من السلطة النازية. فلا أرى ما من شأنه أن يخيف اليهود إذا ما كان الحلفاء يخوضون حرباً جدّية. ولا أرى كيف يمكن لنا أن نتصور فكرة ترك العدو قادراً على الاستمرار في إلحاق الأذى.

ـ يا صاحب الجلالة، حسبت أن في وسعي الاتكال على الضيافة العربية الأسطورية لمساعدتني على حل المشكلة الصهيونية...

ـ فليدفع العدو والظالم الثمن، هكذا نحن العرب نرى الحرب. ليعاقب الجاني وليس البريء. إن عرب فلسطين لم يبيدوا اليهود. الألمان هم الذين فعلوا ذلك وأنا البدوي الفقير لا أفهم لماذا يا صاحب السعادة تميلون إلى الصفح عما اقترفته ألمانيا من جرائم. إن البدوي يخص أصدقاءه بعطاياه وليس أعداءه.

أعزائي القراء العرب، سوف تقرأون قبل قراء لغتي الأم، الإسبانية، قصة هذه المأساة المضحكة. في البداية عزّ عليّ أن يجهلني شعبي بالذات إلى هذه الدرجة، على الرغم من الجهود التي بذلتها في المكسيك لنشر كتابي بينما قرر ناشر عربي، من دون أي مسعى من جانبي، أن يترجم هذا الكتاب فينشره بالعربية.

لكنني الآن قد امتصيت صدمتي، ذلك أنني بدأت أفهم أننا حقيقة أخوة. نحن الأميركيين ورثنا عنكم، عبر إسبانيا، بعضاً من ملامح طبعنا، وطريقتنا في الغناء وحتى الكثير من الكلمات التي نستعملها في لغتنا. الفارق الأساسي الوحيد بيننا، أنكم تعيشون حاضراً ما عاشته قارتنا سابقاً طيلة القرنين المنصرمين. إنه لبالغ الجدوى لكم أن تقرأوا هذا الكتاب على سبيل تنشيط الذاكرة علكم تجدون فيه بعض العبر. أما بالنسبة إلينا فلقد فات الأوان: إن أميركا برمتها (باستثناء كوبا) أصبحت ملكية ذلك البلد الذي اغتصب لنفسه هذا الاسم كذلك.

دعونا نعود، قبل انقطاع حبل أفكارنا، إلى بحيرتنا، بحيرة عامر الكبرى.

عقب الحرب العالمية الثانية، عوقبت ألمانيا، كما اقترح الملك عبدالعزيز. قسمت أراضيها واحتلتها قوات أجنبية منعاً للعدو من إمكانية استمراره في الأذية. غير أن هذا العقاب انتهى في العام 1989.

بالمقابل ولأسباب مجهولة، عوقب عرب فلسطين أيضاً. على غرار ما جرى لألمانيا؛ قسم بلدهم إلى اثنين والسكان، تعرفون ذلك أفضل مني، عانوا من حربين شديدتي القسوة وهجروا (حوالى 700.000) والمساحة الضيّقة من الأراضي التي تركت لهم، احتلت لاحقاً من قبل قوات عربية أخرى، من شرق الأردن ومصر، ثم من قبل اسرائيل بعد حرب 1967. اسمحوا لي أن استعيد من الماضي بعض الوقائع التي تعرفونها ربما معرفة جيدة تظهر بوضوح عدالة المجتمع الدولي:

في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1947 صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 181 بتقسيم فلسطين في ظل الانتداب البريطاني دونما استشارة لأهلها (وقيل حتى، وقد صدقت ذلك حين كنت طفلاً، إنَّ فلسطين صحراء خالية من السكان).

في 1949، بعد حرب أطلق عليها البعض اسم حرب **الاستقلال** والبعض الآخر النكبة، جرى الاعتراف لاسرائيل بأراضٍ تفوق مساحتها تلك التي حددها قرار عام 1947 (78% بدلاً من 54% كما كان ملحوظاً).

في 1967، عقب حرب أخرى، احتلت اسرائيل بقية أراضي فلسطين التي كانت تحت سيطرة مصر والأردن (شرق الأردن سابقاً). في العام نفسه صدر قرار عن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقمه 237 بإجماع الأصوات، يدعو حكومة إسرائيل إلى **«تسهيل عودة السكان الذين نزحوا من تلك المناطق منذ اندلاع المعارك»**.

بعيد عدة شهور أمر القرار رقم 242 الصادر عن المجلس نفسه، بالإجماع، **«بانسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من الأراضي المحتلة أثناء الحرب الأخيرة»**.

وكجواب وحيد على ذلك أعلن وزير الداخلية الاسرائيلي، في 28 أيار/ ماي 1968، ضم الشطر العربي من مدينة القدس.

في 1973، عقب حرب إضافية **«طلب القرار 338**، الصادر عن مجلس الأمن، من الفريقين البدء فوراً، بعد وقف إطلاق النار، بتطبيق القرار رقم 242 (1967) الصادر عن مجلس الأمن بتاريخ 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1967، بجميع أجزائه». وطلب مرة أخرى إنهاء حالة الاحتلال.

وبدلاً من الانصياع، ضمت إسرائيل في شهر كانون الأول/ ديسمبر 1981 الجزء المحتل من الجولان السورية. وقد دان مجلس الأمن هذا التدبير بالقرار الصادر عنه رقم 497 الذي نص على **«الطلب من إسرائيل، القوة المحتلة، إلغاء تدبيرها دونما تأخير»**. مع العلم أن هذا القرار لم يسفر عن أي نتيجة.

مقابل ذلك، عندما اجتاح العراق الكويت عام 1990، أسفرت عن القرار 678 نتائج سريعة. لقد أجاز للدول الأعضاء **«إحلال السلام والأمن الدوليين في المنطقة»**. ولإحلال هذا السلام كان لا بد من قتل العشرات وربما المئات من العرب في تلك المنطقة.

في 2003 احتاج السلام والأمن والحرية مرة أخرى إلى الحرب أيضاً.

لقد تم الصفح عن ألمانيا منذ أكثر من عشر سنوات، للجرائم المرعبة التي

ارتكبتها. أي جرم هذا الذي نصت عليه شرعة الأمم المتحدة وارتكبه العرب حتى يستحقوا هذا العقاب الأبدي؟

بالنسبة إليّ، المتحدر من أميركا، الجواب بسيط جداً: خطيئة العرب تكمن في أنهم يقعون في مجال التوسع (المجال الحيوي ـ Lebensraum، حسب تعبير الألمان)، الخاص بأمبراطورية الحرية. فلأنني أميركي في الدرجة الثانية أرى بوضوح كافٍ أنكم بدأتم تشاطروننا مصيرنا. أولاً الفلسطينيون، وبالطريقة الأكثر فظاظة ـ مصيرهم شديد الشبه بمصير من يطلق عليهم اسم الهنود في أميركا. والآن جاء دور العراقيين. وتعلمون حق العلم أنكم لستم وحدكم على القائمة. الأفغان يعلمون بعض الشيء في هذا الشأن. ومن يدري ما يخبأ للإيرانيين بعد عدة سنوات. سبق أن عرضت في أول طبعة لهذا الكتاب تفسيراً لهذا الهجوم السريع على المنطقة: إنه منطق محاصرة العدو الوحيد الذي خشيته الولايات المتحدة ألا وهو الاتحاد السوفياتي السابق. لكن بعضهم قال إن في ذلك مصلحة للشعوب المعنية، وقد يعيد لهم ذلك حريتهم.

في جميع الأحوال، حينما كنت أكتب هذه المقدمة في 16 تشرين الأول/أوكتوبر 2003، كان مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قد أعطى بختمه الشرعية لاحتلال العراق من قبل أمبراطورية الحرية، بيد أن ذلك كله ليس سلبياً.

في مقدمة الطبعة الفرنسية من الكتاب وفي تعليلاتها (مقدمة تتلو مباشرة المقدمات الثلاث لهذه الطبعة العربية) كنت قد عبّرت عن أسفي الشديد للمبادرة المؤثرة لياسر عرفات وهو يقدم دمه لضحايا مجزرة الفضاء التي اقترفها **الطيارون الصعاليك**. ثم، أدركت كما لو جاءني ذلك في الوحي (بطريقة دائرية وتامة، حسب قول بورغيس) مغزى هذه المبادرة: لم يكن باستطاعة ياسر الشجاع أن يقرأ هذا الكتاب. إذ لم يكن قد صدر بعد.

حدثت أشياء كثيرة مذّاك. لقد تقدم أولاد عمنا الشماليون الأعزاء (حسبما نسمي نحن، سكان الولايات المتحدة)، بسرعة كبيرة وباتوا في بغداد الآن. هذا هو الجانب السلبي للأشياء، **الجانب المظلم** كما يقال في تعابير حرب **النجوم**، لكن ثمة أيضاً الجانب الإيجابي: هذا الكتاب متوافر، أقله بالفرنسية منذ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2002. وماذا حصل منذ صدوره؟ الواقعة الأكثر بروزاً أن الرئيس شيراك- الرجل الذي أيّد (لم يكن في السلطة في حينه) حرب العراق الأولى، والرجل الذي

كان حليف الولايات المتحدة المخلص أثناء حرب يوغوسلافيا، والرجل الذي أضحك الجميع أثناء حرب أفغانستان بإرساله حاملة الطائرات «شارل ديغول» في اتجاه المحيط الهندي لقطع الطريق على السيد ابن لادن والملّا عمر- شيراك هذا نفسه فاجأنا بإعلانه على التلفزة -متصدراً الأنباء فوق ذلك كله- أنه ليس فقط لن يدعم مبادرة حربية جديدة تقوم بها الأمم المتحدة (منظمة الولايات المتحدة كما أسميها)، لكنه سيستخدم حق النقض. واوو!!! ما الذي حصل؟ في البدء، فسّرت هذا التصرف كمناورة انتخابية وضيعة من قبل رئيسنا لتأمين تجديد انتخابه بلا نهاية تحاشياً للملاحقات القضائية التي تنتظره عقب خروجه من الإليزيه. غير أنني قلت لنفسي إن عليّ ألّا أكون على هذا القدر من التحفظ، وإن عليّ أن أكون إيجابياً بعض الشيء. ربما كانت جملته «في كل الأحوال ستقول لا» التي أطلقها في العاشر من آذار/مارس عام 2003 مردها إلى تأثير هذا الكتاب. ذلك ممكن. قد يكون قرأه. في كل الأحوال، ما هو أكيد أن موقفه الرافض ليس من شيمه.

وهذا ليس كل شيء. بمقدار ما ترك كتابي أثراً طيّباً في الأوساط الفرانكوفونية، وسعني الاستفادة بنفسي من تصرفات الولايات المتحدة كما حصل في الحالة التي سأروي لكم.

كان ذلك أثناء حرب العراق الأخيرة. دخل صديق عزيز، مصور على القناة كانال + (Canal+) من بغداد حيث انتهى لتوه من تغطية تحقيقاته الحربية التي شاهدناها على الشاشة مسترخين أمام التلفاز. لن أنقل لكم هنا الحكايات التي رواها لي عن فترة إقامته. سأحدثكم عن ذكريات مادية حملها معه من هناك. بما أنه كان على علم سابق بقصصي شبه المضحكة حول شجاعة الرئيس صدّام حسين الذي لم يدع مجالاً ليتأثر بتهديدات أكبر أمبراطورية في العالم، اشترى لي (بالتأكيد من إحدى البسطات التي تشبه كثيراً تلك الوفيرة في مدينة مكسيكو) شارة عليها صورة الرئيس مبتسماً، بشاربيه الكثين الشديد الشبه بشاربي الممثل المكسيكي أندريس سولر. كان شرطه قبل أن يسلمني إياها أن أعلقها على صدري.

بالطبع سأعلقها. وعندما يسألني أصدقائي عما إذا لم أواجه أحداً يريد ضربي في الشارع، أجيب بأكثر ما فيه من رو طبيعي في العالم قائلاً: يبال من سيخطر ذلك، في فرنسا، البلد الذي قال رئيسه لا للحرب. من المؤكد أنني لو كنت في الولايات المتحدة لتوجب عليّ أن أفكر في الأمر مرتين قبل أن أعلقها.

مع ذلك، في مرة من المرات النادرة التي استخدم فيها المترو، راح رجل يتأمل فيّ طويلاً ولم تتأخر نظراته فتحولت إلى سؤال وجّهه لي عما «إذا كنت عراقياً؟»؛ باعتبار أنني فهمت على الفور أن وراء هذا السؤال الشارة الصغيرة، حاولت أن أفسّر له أنني أعلقها لأنها هدية من أحد الأصدقاء حملها معه من بغداد، وأن لي شاربين كثين لأنني مكسيكي. إلا أنني أعتبرت أن لا جدوى من الشرح له بأن شاربي الرئيس نسخة عن شاربي الممثل أندريس سولر، إذ إن ثمة صعوبة حالت دون أن نتخاطب: فضلاً عن ضجيج العربات علت أصوات آلة نفخ موسيقية يعزف عليها رجل كسباً لبعض الفرنكات في ميترو باريس على غرار ما نجده في مترو مكسيكو. كان صوت محدثي محتداً بشكل غير طبيعي، ولو لم يكن زنجياً لبدأت أحسب نفسي مقابل فاشيّ يسعى لافتعال مشكلة. اتضح كل شيء حين صرخ عملياً: «الأميركيون مجرمون!».

وبالطبع، لم أفكر أنه كان يشتمنا نحن المكسيكيين ولا أنه يقصد إهانة أخواني الكولومبيين والأرجنتينيين أو الكوبيين ولا حتى الكنديين اللطفاء رغم أننا جميعاً أميركيون بالتمام والكمال. والواقع أن في بعض المناطق من العالم درجت العادة على تسمية «اليانكيز» بـ «الأميركيين». حينئذٍ أدركت أن غضب هذا الرجل الشجاع لم يكن موجهاً ضدي إنما ضد أولئك الذين اعتدوا على بلد الرجل الذي أحمل شارة وجهه قرب قلبي.

حينئذٍ حدث شيء غريب. علّكم أدركتم أنني لا أحمل الولايات المتحدة في المكان نفسه الذي علقت عليه شارة الرئيس صدّام، أي قرب قلبي. مع ذلك، رأيت نفسي أتحول فجأة أمام عنف محدثي: تحولت إلى مدافع عن «الغرينغوز» (الأميركيين) محتجاً أنهم ليسوا جميعاً مجرمين قتلة. «بلا، جميعهم!» أردف مصعداً لهجته، فبدأت حينئذٍ أتساءل عما إذا لم يكن مصاباً بخلل في رأسه.

إلا أنه بما أنني كنت غير مرتاح مما تحتويه محفظتي من نقود قلت لنفسي لعلّي كنت أمام شارٍ مثالي لكتابي، الكتاب ذاته الذي تقرأون الآن.

كم كانت مفاجأتي كبيرة حينما بدأت بالدعاية لكتابي فاكتشفت أن زبوني المحتمل قد أصدر كتاباً بدوره في دار آرماتان، وليس في دارٍ صغيرة كما في حالتي. عند هذه المعطيات، وصلت الحافلة إلى محطتي، فطلبت من الرجل أن يزوّدني بعنوانه الالكتروني لأرسل له دعاية عن كتابي. أخرج عندئذٍ بطاقة صغيرة وكتب عليها بسرعة رقم هاتفه النقال. تأملت وأنا واقف على الرصيف ملياً وبهدوء في البطاقة. لقد

حوت عناوين الكترونية عدة وعناوين غريبة في التوغو. وتحت اسم زبوني المحتمل وسعني قراءة همجية ألقابه: «صحافي، خبير في السياسة ومؤرخ». وجدت أن هذا الخليط لا يوحي بالجدية حقاً. لكن سواء كان جدّياً أم لا، أرسلت له مع ذلك دعايتي الافتراضية، إذ لو حصل أن اشترى الكتاب[1] يكون المال المدفوع جدياً بحق.

انقضت ثلاثة أيام. وكنت قد بدأت أنسى الحادثة حينما فاجأني سماع أن هذا الرجل الذي التقيته في الميترو ضيف تيري غارسين في حلقة متلفزة من برنامجي المفضل في الشؤون الجيوسياسية على قناة فرانس كولتور (France Culture) ألا وهو **التحديات الدولية**.

لم يكن الرجل أياً كان: فضلاً عن كونه متخرجاً من أرفع معهد في علم السياسة في باريس، إنه وزير إعلام سابق في التوغو. لذا فعندما دقت الساعة التاسعة تماماً هرعت إلى هاتفي النقال للاتصال به. لقد أعطاني بكل لطف موعداً لليوم التالي لأنه كان عابراً في باريس في طريقه إلى رومانيا حيث زوجته تقدم أوراق اعتمادها بصفتها سفيرة أنغولا.

تناولنا معاً فنجان قهوة في الحي اللاتيني كما لو كنا صديقين قديمين. تبادلنا كتابينا[2]، وتحدثنا عن مواضيع كثيرة وقد يأتي يوم نعمل فيه سويةً، من يدري. ذلك كله بفضل شارة صدام حسين، وبفضل «الغرينغوز» الذين جعلوا منه رئيساً مخفياً.

تلك هي قصة أخرى قد تعرفونها ولن أقصها عليكم. إنها قصة الإمام المهدي وعلي بن أبي طالب والحسن والحسين.

والقصة تبدو لي أليفة على أسماعي باعتباري مسيحياً. ذلك أن بعض المراجع الشيعية يعتبر أن المهدي هو الروح التي بشر بعودتها القديس حنا (XIV, 16-17): «وأنا **أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا**

---

(1) في وسعكم كذلك إرسال عنوان الكتاب إلى أي صديق.

(2) لا بد من تذكر اللحن أيضاً ولا يمكن سماعه هنا.

Yo soy um hombre sincero de donde crece
yo soy um hombre sincero de donde la palma crece la palma
Y antes de morirme quiero echar los versos del alma

يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم».

التفسير الإسلامي الدارج يقرأ «بريقليطس» بدلاً من «باراقليطس» في الأناجيل. «بريقليطس» تعني «أحمد». ويقابله بالعربية محمد. إذ إن باراقليطس الذي بشّر به المسيح هو النبي محمد. إلّا أن بشرى باراقليطس في التفسير الشيعي، هي إمام الخلاص، الإمام المخفي واسمه كذلك محمد.

والحال أنه في سنة 1424هـ ثمة رئيس اسمه حسين في هذا البلد العزيز، العراق، قد اختفى بصورة غريبة أثناء استشهاد شعبه، وقد استشهد ولداه وشنع بهما من قبل الجمهور. غير الأوفياء منهم أقسموا أنهما كانا وحشين وأن أبيهما كان طاغية، وأن جيش الحرية سوف يخلص البلد من نير حكمهم. لكن، أنا صاحب هذا الكتاب الذي يعرف تماماً أكاذيب غير الأوفياء هؤلاء (وهم غير أوفياء سواء بالنسبة إلي أم بالنسبة اليكم)، تساءلت حينئذٍ عما إذا كان ذلك الرئيس الغامض سوف لن يتحول بسحر الصليبيين إلى أن يصبح كليلة القدر التي بشرت بها السورة 97، تلك الليلة التي هي خير من ألف شهر؟ فتساءلت: هل نحن أمام اختفاء جديد، انتظار جديد، أمل جديد لا نهاية له؟ هل نميل إلى تصديق المثل القائل بأن كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء؟

لقد ذهبت إلى هذا الاستطراد الديني، كما في نهاية الكتاب، لأن حروب أمبراطورية الحرية هذه تشبه أكثر فأكثر ما يمكن اعتباره حروباً دينية حيث يقف شبح الخميني خلف محور الشر الذي تحدث عنه بوش بعد أن استبدله **إمبراطورية الحرية** لدونالد ريغن.

لقد مضت سنتان على اختفاء أحد أفراد آل ابن لادن. واليوم في 1424هـ يختفي صدام حسين التكريتي. دخل الاثنان في الأسطورة بفضل قوة أمبراطورية الحرية العتيدة.

لم يكن أي منهما شيعياً.

أنا كذلك.

هل سأنجح إذن، بفضل هذا الكتاب (الذي يغتصب حتى اسم الأمبراطورية) في لقائهما ببلد الرجال الخالدين ببحيرة عامر الكبرى هذه، وادي الدموع الشاسع هذا المتمثل بعالمنا؟

طاليمامبو رقم خمسة

كوميديا جيوسية بنهاية حزينة

1 ـ الحرية

الله أكبر! لا نعرف لغة صاحب الرقم خمسة، وهي الفارسية، لكن لحسن حظنا أن لغة ديانته الأصلية هي العربية مما يسمح لنا أن نفهم الكلمات الأولى التي يلفظها: **الله أكبر!**.

في الواقع، إنها معجزة. هو لا يدري ولا نحن أيضاً، كيف وصل إلى مياه الكاريبي الدافئة. تذكّر بصورة ضبابية، ونحن معه كذلك، زنزانته، والأسلاك الشائكة، والبنادق الرشاشة، والضربات بأعقاب البنادق، ونباح كلاب الحراسة. كان لا يفهم لغة هؤلاء، ولا لغة أولئك. ولم يفهم أيضاً كيف أمكن له أن يفلت من كل ذلك.

إنها لمعجزة حقاً الله أكبر: **الرقم خمسة**، لم يكن يعرف حتى كيف استطاع أن ينجو من الغرق في هذه المياه الشاسعة، وهو الذي لا يجيد السباحة، وهو الذي لم يرَ في حياته مثل هذا الكم من المياه مجتمعاً. حتى موسى وهو يمخر على النيل أو يشقّ البحر الأحمر لم يرَ قط مثل هذا الكم من المياه مجتمعاً. الرقم خمسة يعرف ذلك تماماً، إذ كان بالأمس طالباً مجتهداً يدرس الفقه.

الرقم خمسة من الطاليبان.

إنه عضو في شبكة القاعدة.

وهو نجا للتو بأعجوبة من الحراسة المشددة المضروبة على القاعدة البحرية–الجوية الأميركية في غوانتنامو.

فجأة، خاله أنه يرى سراباً. غير أن هذا مغاير لكل ما كان يراه في سهول تركستان الأفغانية: رأى أشجار نخيل غريبة وآرمة غامضة مكتوب عليها ما ليس بروسية ولا بإنكليزية:

BIENVENIDOS A CUBA

TERRITORIO LIBRE DE AMERICA

لم يفهم شيئاً، إلّا أنه أدرك بحدسه أنه استعاد حريته.

II ـ المساواة

بأعجوبة وصل الرقم خمسة إلى أحد الشواطىء. كان شبه ميت لكنه بأعجوبة لم يمت. وبأعجوبة مرّ مارتين بقربه فرآه. رأى مارتين أن له ذراعين وساقين وجذعاً ورأساً مثلما له. هذا كافٍ ليستخلص أن الذي أمامه هو إنسان.

وعندما نجح مارتين بأعجوبة، وبفضل مساعدة قرويين آخرين، أن ينعش الرقم خمسة وهذا الأخير، لمجرّد رؤيته وجوهاً لها عينان اثنتان، وأنف وفم، راح يصرخ مكرراً الجملة الوحيدة التي تعلمها من سجانيه: Number Five!, Number Five!, Number Five! استخدم مارتين ما في حوزته من خبرة ابن السبعين عاماً. فهو فهم أن الصرخات التي أطلقها الرقم خمسة هي بمثابة لغة واضحة. إنها تتابع لفظين يتكرران دون توقف؛ اللفظة الثانية من العبارة الثانية منطوقة بصورة انفجارية باستخدام كل قوة الحجاب الحاجز في البطن مما جعل العبارة تكاد أن تسمع. الكلمة الأولى باعتبارها منطوقة بطريقة محاكية كانت مفهومة: number نامبار وتشويه لفظي عن كلمة نوميرو (numero) بالإسبانية، باللغة الجرمانية الدارجة المستخدمة في القاعدة العسكرية المحظورة. بادر مارتين، مستقوياً بهذه الخلاصات ومشجعاً بالشكل المستطيل البيضاوي لوجه الزائر، إلى حلق ذقنه الناشئة تاركاً له شاربين فقط مع فاصل نحيف عمودي على الشفة السفلى. منحته هذه القصّة مظهراً مميزاً شبيهاً بالفقمة. وهو الاسم الجديد الذي سيحمله الرقم خمسة في الأرض الجديدة التي ستحتضنه: Cara é Foca، وجه الفقمة.

كان مارتين قد تصرف عن دراية كاملة بما يقوم به. الصرخات الحجابية وشكل

وجه الرجل الملقب بوجه الفقمة أوحى له بما لا يدع مجالاً للنفي ملامح داماسو بيريز برادو، مبتكر رقصة المامبو ومؤلف موسيقى المامبو رقم خمسة، الذي لا يضاهى، الرجل ذي الوجه الفقمي الذي كان يطلق صرخات عنيفة تخرج من حاجب أحشائه. للحظات معدودات-خاطفة لكنما كثيفة-، اندمج بيريز برادو ووجه الفقمة وكأنهما شخص واحد. لا بد من الإقرار بأنهما متساويان.

III ـ الأخوة

بما أنه يبدو على وجه الفقمة أنه لا يمانع في شيء وأن اللغة التي بدأ يستخدمها لا يفهم منها شيئاً، كان على مارتين أن يستنجد بمخيلته. استحضر آلة أسطواناته القديمة بما فيها أسطواناته وأخضع وجه الفقمة إلى اختبار سماع ألحان المامبو هذه حيث يستخدم بيني موريه، ترافقه فرقة بيريز برادو، لغة مجهولة لا سيما الـ Anabacoa والـ Barbarnbatiri. وجد مارتين تشجيعاً في أول ردة فعل، فحاول أن يستثيره بواسطة كلمتين غامضتين هما «koui ribouï» و «macalactchimba» في أغنية El Ruletero.

غير أن النتائج لم تكن مقنعة. حتى وإن لم يكن ثمة جدال في أن موسيقى بيريز برادو نجحت في شفاء وجه الفقمة شفاء تاماً من الصدمة التي لاقاها أثناء اعتقاله، بقي التواصل مع هذا الأخير عقبة كأداء. كان على مارتين أن يضاعف من حيله. نادى مارتينا خفيلته وأدار الآلة على موسيقى مامبو رقم خمسة، أغنية وجه الفقمة. الأصوات الأولية لآلات النفخ والصراخ فاجأت بعض الشيء المقاتل الشجاع. لكنه حينما رأى أن الجميع راح يرقص ولاحظ تموجات جسم مارتينا اللبقة، اقترب منها وحاول أن يقلدها. من حين لآخر كان وجه الفقمة يضرب على صدره، كلما سمحت له الموسيقى بذلك، بأصابعه العشر متوجهاً بالحديث إلى مارتينا قائلاً الكلمة ذاتها: «زاهر، زاهر». وفي نهاية العزف فهم الجميع أن زاهر هو اسم أخيهم الجديد.

IV ـ غوانتنمبرا

أنا رجل صادق من بلاد ينمو فيها النخيل
أنا رجل صادق من بلاد ينمو فيها النخيل

قبل أن يخطفني الموت أغني منشرح القلب.

هذه الأبيات من أغنية غوانتنميرا[1] يمكن تطبيقها دون تمييز على مارتين أو زاهر. وستفهم عبر جميع الحيثيات التي سنصورها أن ثمة مزيداً من الأشياء تجمع أكثر مما تفرّق بين هذين الرجلين.

لا شك أن نخيل الكاريبي لجوز الهند يختلف عن نخيل بلح منطقة البلخ لكن كلاهما شجر نخيل.

وعلى غرار ما أتيح للآلهة يوروبا أوسبون، لدى وصولها إلى كوبا، أن تعكس صورتها على صورة عذراء. إحسان النحاس ـ وصورة شانغو على صورة القديسة بارب (Sainte Barbe) ـ، فإن مارتين الشيوعي وزاهر المسلم وجدا نفسيهما وجهاً لوجه، فنظر كل منهما إلى انعكاس صورته في صورة الآخر. الشيوعية والإسلام عقيدتان مناهضتان جوهرياً للتقاليد والإيقونات لم تنجحا قط في التخلص نهائياً من بعض السير المعظمة والميل إلى شيء من الوثنية والتنجيم والسحر.

في ما مضى كان مارتين طالباً مجتهداً في الماركسية. إنه لا يزال مؤمناً بالشيوعية ليس باعتبارها وصفة سحرية، كما كان الأمر في السابق عندما قاتل في الأدغال ضد عدو مطلق القدرة، لكنما يعتبر أن أحداً لم يعثر بعد على طريقة أخرى للوقاية تقريباً من البؤس والعنف الذي يخنق جميع شعوب أميركا اللاتينية الأخرى.

لقد اضطر زاهر أن يغادر سهول مسقط رأسه بلخ للقتال، هو أيضاً، في الجبال، هو أيضاً ضد عدو مطلق القدرة. في معسكر داروتا، قرب جلال آباد تدرب على أيدي خبراء السي آي إي تدريبات كانوا ينظمونها مجانياً إلى المقاتلين من أجل الحرية. واتبع أولى دروسه في الفقه في أعماق سلسلة جبال الهندوكوش. لا يعتبر الإسلام وصفة، لكنما الإسلام دين أهله وأجداده وأجداد أجداده. إضافة إلى ذلك لم يجد شيئاً آخر للاحتماء من الجنود القساة اللذين أتوا دائماً حتى إلى حقوله فيقتلون أولاده، ورفيقات دربه.

(1) لنتذكر بآخر رسالة لآخر إمام قبل اختفائه...: «سوف يأتيكم من يدعي أنه رآني بأم العين. احذروا! إن من يدعي أنه رآني قبل هذه الأحداث النهائية لن يكون سوى كذاب مضلل».

٧ ـ بويناڤيستا

لم يتأخر زاهر في اكتشاف أن مضيفيه لديهم أدوات أخرى للاتصال، إذا ما استثنينا المامبو، وهي أدوات لم تقل فعالية عنها. وتسمى دانزيون، سون، غاراشا، رومبا. وقد رافقته طيلة رحلته الطويلة عبر رأس الجزيرة الشرقي.

إلا أنه جاء اليوم الذي رصدت فيه أجهزة الاستخبارات الكوبية زاهر فراحت حياته تأخذ منحى آخر. قدر أقل من موسيقى الرومبا وثماني ساعات من الاستجوابات يومياً حول طرق السي آي إي المتبعة في معسكرات التدريب وحول الترتيبات المتخذة داخل القاعدة البحرية ـ الجوية التي كان مسجوناً فيها.

هذه المقابلات لم تخلُ من بعض الإثارة والتشويق إذ اجتمعت الرقة الاستوائية مع السخرية القدرية الباشتونية مضيفاً إليها الهزل السلافي للمترجم الروسي.

في تلك الفترة كان على زاهر أن يغادر البيوت الريفية الجميلة ليحل ضيفاً في الفنادق المخصصة لموظفي الأجهزة في غوانتنامو ـ التي يذكره سوقها بسوق مزاري شريف ـ أو سانتياغو دي كوبا مهد ألحان السّون. لقد اكتشف في هذه المنازل أنغام الهاباتيراس الجذابة يعزفها على البيانو رجل ناهز المئة من العمر.

انتهى ذلك كله حين جاء مارتين ذات مساء ليقول لزاهر إنّ عليه مغادرة الفندق فوراً. لقد وصله خبر مفاده أن أجهزة الاستخبارات الكوبية قد اخترقها خلد ما (جاسوس معادي). وبما أن هوية هذا الخلد لم تكشف بعد طُلب من مارتين أن يتولى مسؤولية أمن زاهر.

VI ـ نؤمن بالله

أفضل مكان يعرفه مارتين لإخفاء رجل ما هو السييرامايسترا التي تقع على مسافة بضعة كيلومترات من سنتياغو. عاش الرجلان تجربة طريفة إذ إن هذه الجبال ذكرتهما بماضي كلٍ منهما.

عاد مارتين إلى الأمكنة التي شاطر فيها لأربعين سنة خلت ملحمة كاسترو وغيفارا. في تلك الفترة كان الجميع يعرف أنه فيما يتعدى نيتهم تخليص البلاد من دكتاتورية باتيستا، هناك رغبتهم في تحريرها من النهب المتزايد الوقاحة من قبل الولايات المتحدة.

لقد توجب على زاهر في الماضي أن يبحث أيضاً في الجبال عن مكان يحتمي فيه لمقاتلة السوفيات. لكنه وجد صعوبة في أن يستعيد ذكرياته لشدة ما كانت هذه الجبال مختلفة عن جبال بلاده. إن الجبال هنا مكسوة بالغابات حتى في أقسامها الأعلى ولا أثر فيها للبرد قط.

إلّا أن هذه المغامرة الجديدة لم تدم طويلاً. الله أكبر حقاً لكن في القرن الحادي والعشرين لم يعد اسمه لا ماركس ولا الله. عينه البصيرة على الدوام تحلّق بنا من أعلى السماوات ببرودة ولم يعد أحد ولا شيء يفلت من قوة ذراعه الشديدة ولا من عطشه للسلطة والانتقام الذي لا يرتوي.

ذات ليلة تهبط على معسكر بطلنا ثلاث طوّافات. تتولى فرقة كوماندوس مؤلفة من خمسة عشر رجلاً تصفية مارتين وجماعته تصفية فعالة. ثم تقفل الفرقة، ومعها زاهر، عائدة إلى قواعدها، حيث يعود زاهر ليحمل رقمه: الرقم خمسة.

هكذا يقول ربُّ الجنود: إنّني قد افتقدتُ ما عمل عماليقُ بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر. فالآن، اذهب واضرب عماليق وحرّموا كل ما له ولا تعفُ عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، جملاً وحماراً.
(صموئيل الأول 15، 2-3)

موكتيزوما II ونحن

أعزائي القراء في العالم العربي

هذه هي المقدمة الاستيفانية الثالثة لهذا الكتاب الصغير. عند قراءتكم لهذه الصفحات الأولى سوف تقومون بنوع من الرحلة في الزمن؛ إذ إن المقدمات اللاحقة التي ستقرأون تتحدث عن زمن قد ولّى؛ لكن قلت لنفسي إن هذه المناسبة ليست عديمة الجدوى في كتاب للتاريخ. فعلى سبيل المثال في المقدمة التي كتبتها لكم في نهاية 2003 (أو 1424هـ) تحدثت عن «رئيس مختفي». لقد «عثر» الآن على هذا الرئيس، أو أقله على أحد أشباهه. قد يكون ذلك مؤسفاً من وجهة نظر حدثية، بل صحفية إذ إن هذا الكتاب سيبقى دائماً لاهثاً وراء آخر ابتكارات أبناء عمي الشماليين الأعزاء[1].

لكن لحسن الحظ أنتم لستم بصدد قراءة جريدة يومية، ولا مشاهدة التلفاز. أنتم تقرأون كتاباً بكل ما يتضمن ذلك من حسنات وسيئات. وقد أمكن لي تحديداً تعميق أفكاري حول شعوبنا تلك التي أطلقت عليها فيما بعد في كتابي هذا تسمية الصغار أو الشرسين، بفضل قراءة كتاب في أواخر العام 2003. والكتاب الذي أشير إليه كناية عن سيرة مغلوطة لآخر أباطرة الأستيك، الأمبراطور موكتيزوما II، كتبها المؤرخ البريطاني الكبير هوغ توماس (Hugues Thomas). ما لفت انتباهي في هذا الكتاب هو ذلك النوع من الاحترام المفعم بالإعجاب الذي يكنه موكتيزوما للغزاة الإسبان. كنت

---

(1) هكذا نسمي تودداً في المكسيك أبناء الولايات المتحدة الأميركية.

بالطبع قد فكرت ملياً في السابق نوعاً ما على هذه النقطة من تاريخي الوطني، لكن للأسف، لقد تخلّيت في وقت ما في حياتي عن تاريخ المكسيك لصالح التاريخ، تاريخ العالم. في معاودة اكتشافي لتاريخ بلادي المكتوب بقلم انكليزي، وجدت في نظرة موكتيزوما هذه التي غلب عليها طابع الدهشة أكثر من التخوف، النظرة ذاتها التي يتطلع فيها بعض مواطنينا إلى آلة القوة والعلم العظيمة تلك المتمثلة بالولايات المتحدة.

إلا أن موكتيزوما لم يكن أبله، ولا همجياً، ولا هندياً كان الممثل الأرفع شأناً لحضارة متشيكا، واحدة من الحضارات الأرقّ في العالم. كان يدرك تماماً أن الوافدين الجدد من جهة البحر حملوا نوايا أكثر عدوانية، إذ لم يكفوا عن المجاهرة بذلك، ومع ذلك استقبلهم بالعناية التي تليق بأفضل الحلفاء. تلك هي الوقائع. أما تفسير هذه الوقائع فمسألة سيبقى يهجس فيها حتى آخر أيامه كل مؤرخ جاد مختص بأميركا.

لم يتمكن أحد قط من معرفة ما إذا كان موكتيزوما مدفوعاً بفعل الفضول، أم ضعف في الفكر، أم حسابات المصلحة، أم ذهنية تخريبية، أم لاعتقاده أن هؤلاء الغزاة كانوا في الواقع رسل الإله الأسطوري كيتزالكوتل. أم كذلك بفعل خليط من هذه الخيارات جميعاً. الحاصل هو أنه بعد وقت قليل من استقباله للغزاة، مات موكتيزوما وانهارت معه أمبراطوريته وكأن ذلك بفعل السحر.

بالطبع، لم يكن للسحر أي أثر في ذلك الانهيار. يقر جميع المؤرخين أن الورقة الرئيسة التي كانت بيد الإسبان والتي أثرت لصالحهم أكثر من تفوقهم في السلاح هي استياء الشعوب الخاضعة أو التنكيل بهم على يد المتشيكاس، لا سيما قوم التلاكسكالتيك. هذا الشعب المطوق من قوات الأستيك والذي أراد أن يستفيد من وصول المحاربين الوافدين من البحر ليتحرر من نير الأمبراطورية. نعلم جميعاً كيف انتهت هذه القضية: لم يطلق على البلد الذي حل مكان أمبراطورية الأستيك اسم تلاكسكالا، إنما إسبانيا الجديدة، وهكذا على وجه تمكن التلاكسكاتيكيون معه من الاحتفاظ ببعض الامتيازات داخل الكيان الجديد، ومع ذلك انهارت حضارتهم، ودويلة التلاكسكالا هي اليوم إحدى الدويلات الأفقر في المكسيك.

وسوف يوجد بالطبع من يقول (كما أقول) إنّ المكسيك بلد صغير جميل في نهاية المطاف.

نعم، هذا صحيح، فقد نشأت، بعد الصدمة وملايين القتلى، ثقافة جديدة، حيث تغتنينا الذكريات البعيدة عن الحضارة القديمة وبصورة مكثفة جداً. لكن لنكن صريحين، فهذه الحضارة لم يعد لها وجود، فقد أبيدت عن بكرة أبيها.

لعلّ في ذلك ما يدفع إلى التفكير عند بعض الأشخاص الذين اعتقدوا أنهم تحرروا بفضل القوة الضخمة والذراع القادرة والعاطلة لأمبراطورية الحرية.

إذا أردتم متابعة هذا التفكير أدعوكم لقراءة هذه المغامرة التي لا تقل إثارتها عن إثارة أفضل أفلام العنف الأميركية ألا وهي تاريخ غزو العالم من قبل أمبراطورية الحرية العجيبة.

أنطونيو بلتران هرنانديز

شباط/فبراير 2004

منتديات الكوكب العاشر

ملحمة الفضاء 2001

الحربُ هي السلام،
الحريةُ هي العبودية،
الجهلُ هو القوة.
على واجهة وزارة الحقيقة 1984 (جورج أورويل).

كان قد حلم بهذا ستانلي كيوبريك وحققه أسامة بن لادن. كان قلقي يكبر تدريجياً مع مجيء سنة 2001، فقد وعدنا ستانلي كيوبريك، وآرثر ك. كلارك بعدة وعود، مبالغ بها ومخادعة، لتلك السنة، ولا شيء مماثلاً كان يلوح في الأفق.

في البداية ولأجل تلك، الجراح، عُرض الفيلم (في آذار/مارس) في صالة باريسية رائعة، استطعنا قياس المسافة الشاسعة التي تبعدنا عن القمر، وعن المشتري، وعن «ما بعد اللانهائي»!

إنها أسئلة ساخرة، لم يكن علينا أن نهتم بها: سبق واخترعنا أسلحةً بما يكفي لتحطيم جمجمة كائننا البشري بشكل فعّال، وذلك لاستعادة ما كان قد سرقه منّا الكائن الذي سبق وتكلّمنا عليه.

ولكن كل العجائب الأخرى الموعودة في الفيلم أعطتني الإحساس بالتعاسة.

مكوك الركاب الفضائي التابع للبان آم (Pan am) لم يكن موجوداً (حتى البان آم، بناطحتها الأسطورية التي لطالما ملكت سماء نيويورك لم تكن موجودة!). كان في وسعنا أن نحلم بمحطة فضائية «هيلتون» وبصداقة سوفياتية ـ أميركية (وكذلك بأن

الاتحاد السوفياتي لم يعد موجوداً!) وبمستعمرات على القمر وبرحلات إلى المشتري وبأن نصبح أولاداً للنجوم...

ثم عدتُ ورأيت الفيلم مرّةً أخرى في الثامن من آذار/مارس سنة 2001؛ يوم عيد مولدي، وذكرى مصادرة ملكية البترول المكسيكي، لم يكن يفصلنا إلّا تسعة أشهر ونصف الشهر من ذلك التاريخ حتى نهاية العام. وكنتُ متأكداً من أنّ إنجاز مغامرة فضائية في وقت قليل كهذا (تسعة أشهر؟) من غير الممكن أبداً.

ثم فجأة -ربّما لاستذكار قصف القصر الرئاسي في تشيلي، الثلاثاء 11 أيلول/سبتمبر 1973- أنجز حفنةً من الجبناء (مثلي) رعاع (مثلي)، مسلحين بمشارِط ورّاقين (مثلي)، رحلةً جويةً، قادتهم إلى ما بعد اللانهائي. حينئذ كان جهاز التلفاز لدي قد تحوّل نوعاً ما إلى «بوابة نجوم». وبإشعاله كنت قد انتقلت إلى كوكب آخر، أو كون موازٍ. كانت الحرب العالمية الرابعة قد بدأتْ.

في البداية شعرت بعدم ارتياح بالغ. كنت أنهي التصحيح الأولي لهذا الكتاب، وقلت في نفسي إنّ هذا غير معقول، إذ ينبغي أن أبدأ من الصفر. في الدقيقة التالية، غُمرتُ بالفرحة، عندما فكّرت بأن ما حصل قد يكون ضربةً إعلانية مهمة لهذا العمل الذي يحلّل، من وجهة نظر جديدة، غزو الولايات المتحدة للعالم.

تبيّن لاحقاً أن ردّي الفعل الأوليين، كانا خاطئين وحتى حمقاوين. حتى لو أنني انتقلتُ إلى كون موازٍ، فإن الأمور لم تكن مختلفة لدرجة إعادة كتابة عمَلي، وحتى إذا كان اصطدام الطائرتين أيضاً برمزي القوة الأميركية مادة مناسبة أيضاً لالتقاط صورة مثيرة؛ هذا ما كان يعني أن ناشري حي سان سولبيس في باريس، سيتنازعون على مخطوطة الكتاب هذه، التي أنتجها شخص لا تتعدى سيرته الذاتية الجامعية أكثر من وجه ورقة بمقاس A4. فلن يرى هذا الكتاب النور إلّا بعد مضي سنة على المغامرة الجويّة أو (الملحمة الجوية) للرعاع الوراقين! وذلك فقط بفضل دار نشر شجاع (هذه الصفة أفقدت من شرفها لكنها تعكس تماماً ما أريد قوله) والذي لم يتراجع أمام منطق رعاع أميركي مثلي. فيما يبدو هذا المنطق، في بلد عالي التحضر كفرنسا، بسيطاً بعض الشيء.

فقد حصلت أمور عديدة، خلال تلك السنة الطويلة. وبفضل بند من ميثاق الأمم المتحدة يصلح لكل زمان ومكان، وهو البند نفسه الذي استخدمه الاتحاد السوفياتي لتبرير غزوه التحريري عام 1979. فقد حرّرت أفغانستان، كما حُرِّرت الأفغانيات.

وحرّر الأنتراكس (مرض الجمرة الخبيثة)، حدث هذا كله في إطار العملية المسماة الحرية المستدامة. وهكذا صارت الاسلاموية العدو الذي طالما كانت الولايات المتحدة تبحث عنه مستميتة منذ اختفاء الشيوعية وذلك لتبرير غزواتها. فقد أصبح منظم مجزرة «باناما»، وحرب الخليج، الجنرال كولن باول عديم الرحمة، أصبح أحد الحمائم. كما تحوّل مدير وكالة الاستخبارات الأميركية (CIA) المهيبة إلى رسول سلام في الشرق الأوسط، كما أصبحت عمليات روسيا في الشيشان حرباً شرعية على الارهاب، والتي وجدت نفسها محاصرة أكثر إن جغرافياً وإن عن طريق دمجها في هياكل منظمة حلف شمال الأطلسي.

وباختصار، إذا كنتُ أريد متابعة الأحداث الجارية، سأضطرُ لإعادة كتابة هذا العمل كل شهرين أو ثلاثة أشهر تقريباً. فقد دفعني الكسل أن لا أغيّر شيئاً في النص الأساسي، والاكتفاء بكتابة هذا الملحق البسيط لكي تفهموا لماذا لن تجدوا أي ذكر لأسامة بن لادن، بينما آية الله الخميني الذي أصبح اليوم موضة قديمة (وحتى ميتاً) مذكور مرتين أو ثلاث مرات. إنني مقتنع، على كل حال، بأن القارىء المتحمّس للمنطق المبسّط نوعاً ما لهذا العمل، لن يكون بحاجة إلى رسم صورة حتى يفهم أن الأحداث التي جرت بين نهاية 2001 وشهر أيلول/سبتمبر 2002 يكمن مصدرها في الرواية التي يحاول هذا الكتاب عرضها. إنه لمن الضروري أن تُكشف هذه القصة للعالم: فمن بين كل الأحداث التي حصلت منذ نهاية 2001، يبقى ذاك الذي أكثر ما أثّر بي أكثر من غيره بما لا يقاس- أكثر بكثير من مشاهد الأشخاص الذين رموا بأنفسهم من البرجين التوأمين- إنه مشهد ياسر عرفات متبرّعاً بدمه للناجين من البرجين إياهما. كيف (قلت في نفسي) كيف يمكن أن يعتقد أبو عمار بأن هذه الالتفاتة الأكثر أثارة للشفقة من غيرها، كيف يمكن لها أن تلطف عادات من هم مصدر كل هذه الآلام؟ جاءني الجواب من تلقاء نفسه، بطريقة دائرية غاية في الاتقان، كما كان يمكن لبورغيس أن يقول: هذا طبيعي، فالكتاب لم يكن موجوداً بعد، فلم يكن باستطاعته قراءته. إلّا أنني علمت بعد بضعة أشهر بأن التأثيرات المفيدة لهذا الكتاب غير الموجود بدأت تُعطي ثمارها. لا أعرف إذا كان ناشرو كتابي قد كشفوا مضمونه مسبقاً. إلّا أن القاضي الإسباني الذي أوقف الجنرال بينوشيه في لندن عام 1998، تذكر فجأة أن الدكتور هنري كيسنجر كان له صلة ما بما حصل من فظاعات في تشيلي. وهكذا قرّر أخيراً القاضي السيّئ الذاكرة «بالتزار غارزون» في الخامس عشر

من نيسان/أفريل 2002 وذلك بعد ثلاث سنوات والنصف بعد مذكرة الجلب بحق الجنرال التشيلي، قرر استدعاء كيسنجر بصفة شاهد. فوضعت اللجنة الدولية للاستجواب، ربما بسبب الاكتراث بمسألة الاعتدال، عنواناً لها في لندن حيث كان على د. كيسنجر المثول أمامها في الرابع والعشرين من نيسان/أفريل. لكن الاعتدال توقف هنا، أي عند هذا الحد؛ فبعكس ما حصل في حالة بينوشيه، ما كان المستشار، ووزير الخارجية الأسبق في إدارة الرئيس نيكسون، ليقلق. «فبالنسبة للقانون المرعي الاجراء في المملكة المتحدة، نستطيع أن نقرأ في تصريح للحكومة البريطانية، أنه من المستحيل الاستماع إلى شهود دون موافقتهم».

كان ذلك طبيعياً، فالكتاب لم يكن موجوداً بعد. تأثيره كمخطوط كان محدوداً جداً. لذا وجب استعجال نشره. كما كان يوجد سبب آخر مهم للاستعجال. لأن أشخاصاً طيّبين كثراً، تفاجأوا بضربة الطيّارين السفلاء. فمنذ نهب وحريق مدينة واشنطن من قبل البريطانيين خلال الحرب البريطانية ـ الأميركية بين 1812 ـ 1814، لم يجرؤ أحد مهاجمة أرض القارة الأميركية للولايات المتحدة. فصرّح الرئيس جورج بوش الثاني، مندهلاً، وعلى التلفاز: «إنني متأثر بأن يكون هناك سوء فهم لما هو عليه بلدنا، وبأن بعض الأشخاص يستطيعون كرهنا. إنني مثل معظم الأميركيين الشماليين، لا أستطيع تصديق هذا، لأنني أعرف بأننا خيّرون».

يحاول الكتاب هذا إذاً تسليط الضوء على هذا الشك الوجودي الرهيب الذي يلاحق سكان البلدان الامبريالية. كما سيحاول أن يظهر لهم في نهاية الأمر أنهم ليسوا خيّرين إلى هذا الحد. بكل الأحوال إنهم ليسوا أفضل منّا، نحن الأوباش.

تمهيد

حيوان خاتل دون أسنان، هو كالولايات المتحدة الأميركية، دون أسلحة (تُوِنُوْ).

إهداء موسّع جداً

حين ذهب الجنرال أوغوستو بينوشيه أوغارتي، في سنة 1998، وهو سيناتور مدى الحياة، في جمهورية التشيلي ليتعالج في مستشفى لندني، أصبح غرضاً لمذكرة توقيف دولية صدرت بحقه من قاضي التحقيق الاسباني بالتزاز غارزون. هذا الحدث أطلق موجةً من الفرح العارم في صفوف الحكومات الإشتراكية بمعظمها في الاتحاد الأوروبي، أعضاء هذه الحكومات -بينهم مناضلو اليسار، أو حتى يساريو الستينات والسبعينات- تذكروا بحنين واضح المظاهرات التي قامت ضد النظام الدموي الذي فرض من قبل العسكريين التشيليين. الشخصية الوحيدة (أو الشخصية السابقة) في أوروبا، التي استشعرت تعاطفاً ما مع الدكتاتور السابق، كانت مدام تاتشر. لم تكن تريد خيانة حليفها السابق في حرب المالوين. فكل شيء كان على ما يرام.

بالمقابل، في أوساط الحكومة التشيلية، كانت الأمور مقلوبة رأساً على عقب. فعدد من أصحاب المناصب في الحكومة، بمن فيهم الرئيس، الذين كانوا من ألدّ المعارضين للدكتاتورية العسكرية (وأحياناً كانوا ضحاياها) أجبروا من قبل زملائهم الأوروبيين على الوقوف وراء شخص يكرهونه أكثر من أي شيء في العالم، وبدت احتجاجاتهم أمام ما كانوا يسمونه «خرق القانون الدولي» -الذي لم يعد يعني شيئاً في

أيامنا الحاضرة- جوفاء وناشزة: كان من الواضح أنه كان ستعتريهم قلة راحة بدفاعهم عن القانون، وبتضامنهم مع الرجل الذي كان أداة أسوأ تراجيديا أصابت بلدهم.

لكنّ، لم يكن باستطاعتهم -وهنا تكمن المعضلة الرهيبة التي ذكرها هاملت لعدد مهم من سكان العالم الثالث- ترك القوى العظمى تُملي عليهم من جديد ما هو الخير وما هو الشر.

لأن مذكرة التوقيف للقاضي غارزون، صدرت في بلد أصبح من الناحية السياسية محترماً ومقبولاً منذ 1975 (اسبانيا)، وموجهة إلى بلد عرف دائماً أن يموه بلباقة الدم الذي أريق، بعض الشيء، أينما كان في العالم (انكلترا)، وأفضى إلى إذلال تشيلي، باعتبارها جمهورية موز بلون موز، وغير جديرة بمعرفة أين يوجد القانون الحق.

ولكنّ هذا العمل لم ينحصر بإذلال الديموقراطية التشيليّة. فمذكرة التوقيف هذه، دوليّاً، كان يجب أن توجّه إلى كل المسؤولين عن الجرائم المنسوبة إلى بينوشيه الذي لم يتصرف بمفرده، لأن هؤلاء الشركاء الموثوق بهم، وهم موظفون كبار في بلد رفيع الشأن عضو في مجموعة الدول السبع، لم تلحظهم عريضة القاضي. وجرياً على العادة في القضايا كهذه، بين الدول الكبيرة والدول الصغيرة هناك دائماً صيف وشتاء على سطح واحد.

فقد نسيَ القاضي الإسباني على الأرجح -لأنه لا يمكن ألّا يعرف هذا ـ أن الجنرال الكئيب لم يكن إلّا أداة السياسة الغليظة المفروضة من الولايات المتحدة في محميتها الأميركية. فقد كانت حكومة سلفادور اللندي جدّ اشتراكية ومستقلة كثيراً إلى درجة لا يستسيغونها على طريقتهم، وكان الأميركان قد بذلوا كل شيء لزعزعة استقرارها، خصوصاً بأيدي انقلابيي 1973. وبسبب هذا النسيان غير المعقول، لم تشر مذكرة التوقيف إلى رئاسة الولايات المتحدة الأميركية، ومدراء السي آي إيه. أو شركة آي تي تي. أمّا بالنسبة للدكتور هنري كيسنجر، مستشار الرئيس نيكسون والحائز على جائزة نوبل للسلام سنة 1973، فإنه لم يتلق أي استدعاء، تبعاً لهذا، لا يمكن أن يكون إلّا شاهداً بسيطاً.

ونعلم جميعاً أن هذا الأمر، لم يكن الجريمة الأولى ولا الأخيرة من هذا النوع. فأعضاء حكوماتنا الأوروبيون أنفسهم، الذين كانوا في شبابهم، يسيرون في الطرقات وهم يهتفون بشعارات ضد الدكتاتور بينوشيه، يتذكرون بالطبع أنهم كانوا يصرخون أيضاً «هو هو، هو، هو، هوشي منه! تشي، تشي، تشي غيفارا!». ويدعون في

المقدمة إلى وجهين من النضال ضد ما كنّا نسميه في تلك المرحلة «الإمبريالية الأميركية»، وهي اليوم، موضة بطلت حقاً. هذا الكتاب قد ينعش الذاكرة الأوروبية، ويعيد الاعتبار إلى الشعوب الصغيرة تلك التي لم تعرف أبداً أن تحكم نفسها، والتي يجب دائماً إعادتها إلى النظام بضربات العصي وضربات العمليّات الجراحية.

المشهد

إن كان هناك شيء أحبه في الولايات المتحدة إلى حد الجنون، فهو السينما خاصتها. فروائع السينما الأوروبية من برغمان إلى فلّليني، ومن تريفو إلى فيسكونتي لم تصل إلى أن تعادل حجم (للأسف وفي الولايات المتحدة كل شيء في النهاية هو مسألة حجم) انتاج الروائع السينمائية للولايات المتحدة الأميركية. نقصد تلك التي وُلدت أو نشأت على الأرض الأميركية الشمالية (مانيكفيتس، ككور، كازان، ويلس، بنّ، كيوبريك، كوبّولا لوميت، ليفنسن، إلخ)، أو تلك التي أدارها أجانب استخدموا في دور الانتاج في هذا البلد أمثال (شابلن فون شتيرنبرغ، فون شتروهايم، مورنو، سيوستروم، لوبيتش، ويلدر، هيتشكوك، سكوت، واير، الخ). فالعدد الهائل من المخرجين السينمائين كان قد أنشأ (صنع) أجمل الأفلام في العالم.

وقد بدأت هذه التجربة كمشروع وثائقي للتلفاز أو للسينما. وهي، بقسمها الأكبر تدين للأفلام التي تدور في رأسي. وسيكون من الصعوبة بمكان، نقل هذه الصور كلها إلى القارىء، ولكن سأحاول أن أعبّر عن مشاعري بالاستشهاد بهذا العمل أو ذاك من تلك الأعمال السينمائية الرائعة.

وسيكون هذا أيضاً طريقة لملاحظة تناقضات الولايات المتحدة. والمثل الأكثر وضوحاً واللاإرادي برمته هو المشهد المشهور لـ «ولادة أمة» لدافيد غريفيث حيث نبلاء فرسان الكوكلاكس كلان (المنظمة الارهابية العنصرية ضد السود) يسرعون وهم يحتمرون قبعاتهم البيضاء لنجدة مجموعة من المزارعين، وهم يحاصرهم لفيف من القتلة الزنوج. وأفلام أخرى بالمقابل، كانت مشبعة بحكم قوي مسبق، كان متعمداً من كتّابهم كمشهد الكائنات البشرية في فيلم Little Big Man للمخرج السينمائي آرثر بنّ. وكالكثيرين من فناني أميركا الشمالية، بعض المخرجين السينمائيين أدركوا الجانب المقلق في بلدهم، لكن بعضهم، مثل جورج لوكاتش، تكلموا عن

«الأمبراطورية» وعن «الفدرالية التجارية» وأيضاً عن «الجانب المظلم للقوّة» دون أن يدركوا(؟؟؟) أنهم كانوا يتكلمون عن بلدهم. وسأردّ، بذلك التحيّة إلى كل هؤلاء الفنانين الذين ساعدونا بشكل إرادي أو لاإرادي، وذلك بتوضيح ناحيتنا المتواضعة للحقيقة.

الكلام

إن طموحي ليس إحداث فضيحة. لأجل ذلك، فأنا لست من الذين يفكّرون، على طريقة آية الله الخميني، بأن الولايات المتحدة الأميركية هي الشيطان الأكبر على الأرض. ولا أصطفّ أيضاً إلى جانب الدعاية الشيوعية القديمة التي كانت تروّج دون كلل بأن النظام الأميركي الشمالي يؤدي إلى انحطاط وإذلال الإنسان.

ولكن لا أستطيع أن أؤمن بالإخلاص الكلّي للرئيس ويلسن، الذي أعلن في آخر الحرب العالمية الأولى عن «حق الشعوب في تقرير مصيرها». كما لا أؤمن بإنسانية الحروب الأخيرة التي أدارتها الولايات المتحدة.

يتحدّد اهتمامي بعودة متواضعة إلى الوراء أي إلى تكوين واتساع هذا البلد الكبير (أميركا). غير أنه، في المفهوم الجيوسياسي الحالي، يمكن أن يفسر كلامي كاستفزاز، لأن العدالة، كما تبدو اليوم، تسيطر في العالم بتوسعها الإنساني العسكري بفضل ألوان المجموعة السبعة، أعضاء الحلف الأطلسي، ومع ذلك يُجْبِرُني الماضي أن أرفض هذا الإفتراض.

الماضي

خلال السنوات الأخيرة للاتحاد السوفياتي، وفي الأوقات غير المتوقعة للبيرسترويكا، كان هناك رأي روسي مناقض للحقيقة يقول إنه حين يكون المستقبل مشكوكاً به، يُصبح الماضي غير متوقع. الآن وقد وصل التاريخ إلى نهايته، صار المستقبل صافياً مثل سماء هافانا في يوم صاف. وبالنسبة للماضي، فقد صار متوقّعاً أكثر. وبعد الحملات التأديبية ضد العراق ويوغوسلافيا عرفنا من سيكون فعلاً سيد العالم غير المنازع. هذا المستقبل المشعّ ألقى ضوءاً غير مبهرٍ على الماضي.

وها نحن نرى فيه، كما في السينما، الهجوم على مكسيكو، لاحتلالها ومن ثم

توقيع معاهدة غوادالوبة ـ هيدالغو، فتتخلى المكسيك بها عن أكثر من مليونين من الكيلومترات المربعة. وفي سنة 1884، نرى التدخّل الانساني في كوبا مبادرة نزيهة كما أشارت إليه النصوص في تلك المرحلة التي اختتمت بفرض سلطة حماية على كوبا، ومن ثم وضع اليد على بورتوريكو والفلبين. أما في سنة 1898، فتشهدُ المساندة للشعب البانامي كي «يقرر مصيره بنفسه» الأمر الذي يؤدي إلى فصل الأقليم الكولومبي عن باناما، والأقليم الخاص بالقناة. وأما في سنة 1953، فقد أعلن الرئيس تيودور روزفلت ذات يوم: «أخذتُ منطقة القناة وتركت الكونغرس يتجادل حول المسألة [. . .] ومن خلال تقدم الجدل حول القناة، تقدمت هي الأخرى. . .». ثم نرى بعد ذلك، الجنرال بينوشيه، يترأس الحكومة الاستثنائية التشيلية، لقطع الطريق أمام الشيوعية الدولية في قارة أميركا الجنوبية. وفي سنة 1973، كان من الواضح أن لا السي آي إيه ولا رئاسة الولايات المتحدة اعترفتا يوماً بالمشاركة في تفكيك نظام الرئيس سلفادور اللندي.

بعد تبصّر كل هذه المشاهد، فإن كاتب هذا العمل المتواضع قال لنفسه، بصرف النظر عن كل شيء، إنه يجب عدم محو الماضي ووضع في رأسه بأن يتفحص الأحداث بدقة، وبأمور أخرى كذلك والتي جعلت من الولايات المتحدة، تبعاً لحملة الرئيس جيفرسون، «تلك أمبراطورية للحرية كما لم نشهد مثلها أبداً منذ الخليقة».

المشروع

إن قضية هبة الحرية في العالم تقسم بوضوح في الولايات المتحدة، إلى قسمين، مع سنة 1917 كتاريخ مفصلي. لكن، قبل هذا التاريخ كان قادة الولايات المتحدة مسرورين في بسط أراضيهم نحو الغرب والجنوب، وهي صاغت بطريقها عقيدة «مونرو»، لتمسك جيداً بيدها القارة الأميركية كلها.

وتبدو الفلبين هي البقية الشرقية الباقية من الأمبراطورية الإسبانية أما جزر هاواي وبعض جزر الهادي فتبدو مستثناة من هذه العزلة الرائعة الأميركية. وهذا سيكون الجزء الأول من كتابنا «أميركا للأميركيين». وستهتم خاصة بالجهاز الانساني الحقوقي الثوري الذي كانت قد ابتدعته الولايات المتحدة لتقضم قليلاً، قليلاً، الممتلكات وحقوق جيرانها ومواطنهم الأصلية الخاصة بهم، وجرى قسم كبير من هذا التحليل في

الثلاثينات من القرن العشرين من قبل المؤرخ الكوبي رميرو غيرا في كتابه «التوسع الإقليمي للولايات المتحدة» (1935). ويعود الفضل في هذه الدراسة بشكل كبير إلى بصيرته.

أما في سنة 1917 فقد قررت الولايات المتحدة الدخول في الحرب العالمية الأولى. وقد عرض الرئيس ويلسون في كانون الثاني/جانفي سنة 1918، أمام العالم نقاطه الأربع عشرة المعدة لنشر المبادىء السياسية السخية لبلاده في كل مكان من العالم. إحدى هذه النقاط، وهي الشهيرة، «حق الشعوب في تقرير مصيرها نفسها بنفسها». وفي هذه المرحلة بالذات، فهم الشاب نغوين سين كون، أن شعبه كان يُعدّ بين الشعوب التي من غير المسموح لها تقرير مصيرها بنفسها وسيعود الرجل الشاب إلى أصله، ويلتحق بالحزب الشيوعي الفرنسي وسَيُعرفُ باسم «هو شي منه».

ولهذا سأسمي الجزء الثاني: «العالم في الولايات المتحدة» لأن أمة الولايات المتحدة منذ سنة 1917، بدأت تفهم أنها تستطيع جلب الحرية للعالم! وحتى لو مرّت سنوات أكثر بين 1776 و1917 مقارنة بين 1917 و2001 فإن هذه المرحلة الأخيرة كانت أكثر تعقيداً. وعليّ أن أقسمها إلى ثلاثة فصول كبيرة. في الفصل الأول، سنرى كيف أن الولايات المتحدة وعبر الحربين العالميتين، اكتشفت لنفسها دوراً حقيقياً دولياً الذي كان يجب أن يتعاظم بالمنافسة الشرسة مع الاتحاد السوفياتي. وفي الفصل التالي، سنكون جالسين أمام رقعة شطرنج رائعة بمواجهة الحرب الباردة. ولتبسيط هذه المتاهة الجيوستراتيجية المعقّدة، سنركز على الأمثلة الثلاثة الأكثر تقليدية: كوبا (التي يتصل تاريخها بتاريخ الولايات المتحدة، تقريباً منذ نشأتها). الفيتنام والتشيلي. وبدون إغفال المواقع الأخرى في الأرض، مع ذلك، حيث رسخت القوة الأميركية الشمالية، كما سنتطرق أيضاً إلى فقرة مثيرة جداً من تاريخ هذا البلد (أميركا). عندما تراخى الطوق الامبريالي دون أي شك، بعد الرئيس نيكسون، بدأت بنيته تتصدّع (في ايران، في باناما، في أفغانستان، في كوبا وفي أنغولا).

وستُنتهي هذا الجزء الثاني بفصل ثالث دقيق جداً بحيث أن الاسم قد أهدانا إياه جورج بوش الأول. «النظام العالمي الجديد»، وهو دقيق لأنني اعتبر أن التدخلات في يوغوسلافيا وفي العراق أو باناما، لم تكن لتحصل دون أفكار مسبقة. وهو دقيق، لأنني أعلم أن جزءاً كبيراً من رأي البلدان التي ستنشر فيها هذه الدراسة، هذا الرأي، يعتقد بأن من يفكر مثلي يجب أن يشطب من الخارطة. سأخاطر محاولاً أن أعبّر عن

نفسي، لأني أعرف أن حرية التعبير ليست كلمة مقيتة في هذه البلاد. سنرى جيداً أن كان هذا صحيحاً.

التاريخ

الحقيقة، التي يلدها التاريخ وهو تنافس الزمن وخزان الأحداث والشاهد على الماضي، والمثل والمعرفة بالحاضر والمحذّر للمستقبل.

هذا القول لبورغيس على لسان شخصية «كيخوته» سيوجهنا في مسيرتنا كلها. حتى لو أخذتني الرغبة بالسخرية من كل شيء، أطرح هنا على نفسي القيام ببحث تقليدي وجدّي، باعتبار أننا نشأنا على هذا القانون جميعاً. فالوثائق التي تشكل موضوعنا، هي متوافرة حتى الحرب الفيتنامية، والتوافق بين المؤرخين توافق عام تقريباً. ولكن تبعاً لوجهة نظر تواجدنا، فعديدة هي الدروس التي يمكن استخراجها من هذا التاريخ.

وجهة النظر

منذ زمن طويل، كانت الحال «موضوعياً» وصفة «موضوعي» العزيزين جداً على أصدقائنا الماركسيين قد أفرغتا من مدلوليهما وجعلتا غير قابلتين للتداول. وقد يكون من الخطأ تبنى وجهة نظر موضوعية، لذلك قررت أن «أتخابث»، وأن أتبنى وجهة نظر الذين كانوا منبع إلهامي ألا وهم الأشرار. وما يمكن أن أفقده من مصداقية، سأعوضه ربما حظوة. وبالفعل فإن الفرق المتأنقة لجيوش حلف شمال الأطلسي والأمم المتحدة والولايات المتحدة بهتت صورتها لا لشدة ما قصفت رشاشات تلفزاتنا. والفرق المكسيكية المخيفة للجنرال «سانتا آنا» التي ذبحت جون وين-دافي كروكت، نقلت لنا بكل تأكيد لوناً وزينة أكثر إثارة. كما أن هناك الفرق الإسبانية الأخيرة في كوبا، إضافة إلى الجيش الكولومبي في باناما، ناهيك عن النيكاراغويين، والدومانيكيين، وهايتيين، وغواتيماليين وإيرانيين، وكوريين (من الشمال) وفيتناميين (من الشمال أيضاً)، وتشيليين، وغريناديين وباناميين، وعراقيين، ويوغوسلاف دون أن ننسى أخيراً وليس آخراً الكوبيين العديمي الرحمة (في كوبا) الذين استماتوا بشكل

صارم على التوازن الرحيم (hépatique) لرؤوساء الولايات المتحدة منذ الرئيس كنيدي. وحتى لا أصدم الناس أو الشعوب، سأدعو كل هذه الشعوب صغيرة بدلاً من أشرار.

الأشرار

نحن كنا نعلم أنه خلال آخر عشر سنوات، صفق البعض للولايات في كل مكان من العالم المتحضر (مجموعة الدول السبع) بفضل (أو بسبب) تدخلاتها الجبارة على الساحة الدولية. لقد أمضوا كل هذه السنوات بمطاردة الأشرار الحقيقيين على كوكبنا الأرضي وسحقهم، بكل راحة ضمير؛ هؤلاء هم الأشرار، الذين ماتوا بسبب قضية سيئة، قد أوحوا لي بهذا الموضوع، هؤلاء المئات (الألوف؟) من الباناميين المثقلين بالمخدرات، هؤلاء الألوف من الصربيين الجافيين، ومئات الألوف من الصدّاميين، بينما كانت السيدة تاتشر تمسح دمعة أمام مشهد الجنرال العجوز بينوشيه الثقل، كنا نشاهد على التلفاز هؤلاء الأشرار المريعين جداً، القليلي المعشر، الذين كانوا يجعلوننا نفكر بشركائهم في الماضي: الهنود الحمر، الزنوج «اللاتينوس» «والقرود الصُفر»، الكوكو (اليابانيين).

إنني أتأسف لاستعمالي هذه اللغة الفظة وغير النظيفة في القرن الحادي والعشرين، ولكن هكذا كان يعبر متحضرو الماضي. وإذا نظرتم إلى أوضاع الولايات المتحدة في زمن الحرب ضد اليابان، فتعبير «القرد الأصفر» هو تقريباً مجاملة.

لنعطي الكلام هنا لتيودور روزفلت بمناسبة استقلال تكساس:

> «أي واحد كان قد عاش على الحدود ولو كان قد أدرك الأمور، لن يكون إلا جزئياً، قوي الروح، حاد الذكاء وغير مهجن، أي محافظاً على العرق الأميركي الشمالي. كان سيفهم فوراً أنه من المرفوض أن يستطيع المستعمرون التكساسيون الاستمرار بترك المكسيكيين يحكمونهم. وهذا أمر لا يمكن فهمه في أن نراهم يخضعون للعرق الضعيف وهم في طريقهم للحلول مكانهم».
> (Guerra).

لنستعرض رسالة جورج واشنطن إلى صديقه فيرفاكس حيث استعمل تعبيراً مجازياً «السود» لينقد الطغيان الانكليزي:

> وصلت الأزمة إلى درجة حيث علينا أن نؤكد على حقوقنا أو نخضع إلى كل الضرائب التي يريدون أن يرهقونا بها، إلى أن تجعل منا العادة التي تتبعها

عبيداً، أكثر جبناً وذلاً من السود الذين نسيطر عليهم بطريقة غير عاطلة. (واشنطن).

عندما قلق السناتو كراوفورد من ردات الجمعية الدولية غير الدائمة، بسبب اعتداء بلده للسيطرة على فلوريدا، ردّ عليه وزير الخارجية جون كوينسي:

إذا كان العالم لا يعتبرنا مثل الرومان، سيعتبرنا كاليهود، وبين هذين الطرفين، أفضّل الذي يحمل فكرة العظمة. (Guerra).

وتذكير أخير، يعود من جديد إلى قلم روزفلت بما خص عدم الاتفاق مع كولومبيا على قناة باناما.

التكلم على كولومبيا، باعتبارها نظاماً مسؤولاً يستطيع المناقشة معه كما توجب علينا فعله مع هولندا أو بلجيكا، أو سويسرا أو الدنمارك هو عمل محال جداً؛ علينا أولاً أن نبحث كيف نجالس مجموعة أشقياء، من لصوص صقلية أو جنوب ايطاليا، أو مع مرور الوقت مع [بانشو] فيلا وكرّانترا. (Thayer).

اللهجة

ينبغي أن تعرفوا لآخر مرة أن المادة الوثائقية التي تقرأونها الآن ليست تحليلاً لاخصائي. لكنها وجهة نظر لرجل متوسط الذكاء، ومثقف لا يتحمل أبداً أن يرى كيف أن إنسانية الحرب تكمن في عقل انسان كائن مثله. لهذا السبب اخترت أن لا أذوّب شخصيتي في صيغة جمعٍ واقية من أجل أن يعلم المشاهد ـ القارىء، وفي كل لحظة، أنني أنا المتكلم، شخص محدد جداً يتحدث إليه.

بعد تفكير طويل، كان يظهر لي أن اللهجة المناسبة يجب أن تكون السخرية الرقيقة؛ ربّما لاحظتم ذلك. ومن أجل هذا، إن أخذنا وجهة نظر الخاسرين، فليس لنا الخيار إلا ما بين اللهجة المبكية واللهجة المجملة. هذه الأخيرة، المتأكلة قليلاً بفعل جهد حقيقي لالتصاقها الدائم بالوقائع التاريخية، كانت خياري، لأني لا أريد بالرغم عن كل شيء، أن أهرب قرائي، فارضاً عليهم نحيب الشعوب المغلبة مرة أخرى. وهي الطريقة العملية التي كانت العملة المتداولة عند زملائي العاملين في التلفيزيونات.

الشهود المأجورون

إن الذين سيوضحون، بطريقة فعالة جداً، آلة الولايات المتحدة الأميركية، سيكونون هم أنفسهم إدارييها ومؤسسيها: توماس جونسون (الذي أهدانا عنوان كتابنا)، جورج واشنطن ودافيد رامسي، تيودور روزفلت، وروبرت ماكنامارا، ريتشارد نيكسون، الدكتور كيسينجر، زبيغنيو بريجنسكي، رولاند ريڤان جورج بوش الأول وويليام جفرسون كليتون، فقد قدموا لنا شهاداتهم لكي يثبتوا مدى الظلم الجوهري (قصور العدالة) للنظام الذي ساهموا في بنائه وتوسيعه. بريجنسكي وهو مستشار الرئيس كارتر كان قد كتب حينها:

> أوروبا الغربيّة، تبقى بنسبة كبيرة، خاصة [للشمال] الأميركي، ودولها تذكر ما كان عليه قديماً الأقطاعيون ودافعوا عن الحرية في الأمبراطوريات القديمة.

وكنتُ قد فهمت أن الكتّاب ومحامي الغزاة استطاعوا أن يصبحوا المروّجين لهم، عندما شاهدنا على شاشة الـ CNN وجهة نظر صحافة الحلف الأطلسي ووزارة الدفاع البريطانية خلال الضربات على يوغوسلافيا. لا أعلم إن كنتم تستطيعون أن تدركوا الإحساس الغريب الذي اجتاحني وأنا أنظر إلى جنرال وهو يشرح لنا، بلكنة إنكليزية جذابة جداً، التصويب الساحر (nicely) الذي أنجزه قاذفو القنابل التابعون له. وأتذكر بنفس الجاذبية (nice) وصف الانفجار الذي كنا نراه على شاشاتنا[1] والشيء الوحيد الذي كان ينقصنا هو الشاي.

والأسلوب الساحر هذا كان قد نجح في التأثير على قلبي، وبما أن هدفي ليس إحياء الجروح القديمة لتأجيج الكراهية، سآخذ مثلاً، وبنفس الطريقة الهادئة وغير المقيّدة برؤية محددة للأشياء، بهدف وصف كيف أن هذه الجيوش نجحت في وضع العالم على ركبتيه، لتعطيه الحرية!

الهدف

لن أطلب تسديد ضربات مهما كانت جراحية، بالرغم عن كوني مكسيكياً، نفي

---

(1) على شاشة CNN في أيار/ ماي 1999.

الأصل، فلن أحاول أن أجيّش فرقة عسكرية غير نظامية لأقصف واشنطن أو نيويورك وسياتل، من أجل أن تعيد الولايات المتحدة للمكسيك المليونين والنصف من الكيلومترات المربعة التي سلبتها منا. أميلو باكول، المخرج التشلي الذي طلب مني هذا المشروع ـ الفيلم، لن يوجه مذكرة توقيف دولية ضد د. هنري كيسنجر أو ضد مسؤولي الـ سي آي إيه من خلال البريد سنة 1973. ولا يريد حتى تحريك الدعوى على الرئيس نيكسون بعد مماته.

حتى لو كنت أريد أن أحرر قارتنا الأميركية من سلاح الولايات المتحدة المخيف (NBC) (نووي، جرثومي، وكيميائي) فإنه لن أطلب لها نظام مقاطعة (حصار) الذي سيجوّع شعب الولايات المتحدة حتى تستسلم حكومته. فأنا مع ذلك، أحب هذا الشعب، بقدر ما أحب الشعب العراقي، ولا أستطيع أن أعيش دون مشاهدة أفلامه (السينما الأميركية).

لا أدّعي إجبار شعوب وحكومات ودول المجموعة السبع وتوابعها على اعتبار، الشعوب والحكومات الأخرى متساويين معهم. أعلم أن هذا يتطلب الكثير من الأموال.

ولا أريد أن أوجّه نداءً للعالم الحر لتحجيم سيطرة الولايات المتحدة. فالثيران المحقونة بالهرمونات والأجسام المعدلة جينياً تكفّل بذلك بشكل رائع.

لا أريد أيضاً أن أتوسّل إلى رئيس الولايات المتحدة وأصدقائه الأوروبيين، حتى يتوقفوا عن أخذنا على متن مركب، وهم يرون أنهم يعملون من أجل خير الانسانية عندما يرمون قنابلهم النووية.

أريد، بكل بساطة، (وهذا أمر ربما مطلوب كثيراً) من قرّائي في المرة القادمة أن يروا طوابير اللاجئين وهم يمرون على شاشاتهم التلفزيونية، وسيذرفون دموع الفرح وهم يلحظون السرعة التي حولت فيها هذه الصور إلى بيوتهم. وسيعرفون عندها أن القوة إلى جانبهم، وأن دولة الأمبراطورية لا تحكم بتاتاً.

القسم الأول

اميركا للأميركيين

إن تكلمتم بلطف وحملتم العصا الغليظة، ستصلون بعيداً.

منتديات الكوكب العاشر

ولادة أمة

تاريخ المَلِكِ الحالي لبريطانيا العظمى هو تاريخ متتابع من الظلم والجور والمظالم، والسلب والاغتصاب المتكرر.

«من إعلان استقلال الولايات المتحدة».

فلنسدل الستار على كل ما مضى.

وضع رجل قصير القامة، منذ أكثر من خمسين عاماً نصين تأسيسيين لحقوق الإنسان.

«جميع الناس يولدون متساويين. لقد أعطانا الخالق حقوقاً مقدّسة: حق العيش، الحق أن نكون أحراراً وحق تحقيق سعادتنا». هذا الكلام الخالد مأخوذ من إعلان استقلال الولايات المتحدة الأميركية في سنة 1776. وبمعنى أوسع، هذه الجملة تعني: أن جميع الشعوب لهم الحق في الحياة، وأن يكونوا سعداء وأحراراً. أما إعلان حقوق الإنسان والمواطن للثورة الفرنسية في سنة 1791 فيؤكد أيضاً «يولد الناس أحراراً ويبقون متساويين في الحقوق». إننا هنا أمام حقائق لا يمكن إنكارها.

ومع ذلك، فخلال أكثر من ثمانين عاماً، اغتصب المستعمرون الفرنسيون، مستغلين راية الحرية، أرضنا وظلموا مواطنينا.

إن الإنسان الذي تلفّظ بهذه الكلمات يدّعي المبادىء النبيلة لبلد كان قد استغلّ شعبه خلال قرن تقريباً، لا بل خلال قرن آخر، وخلال عشر سنوات، بعد ذلك، سيحلّ على بلده وابلٌ من الحديد والنار باسم الحرية. ففي الثاني من أيلول/سبتمبر

أعلن هوشي منه، عند ذلك ولادة أمة الجمهورية الديموقراطية لفيتنام. لن أتكلّم عن أسس هذه الأمة هنا والتي رأت النور في تلك السنة 1945، حيث كنّا نفكّر أن العدالة ستسيطر أخيراً على الأرض، ولن أتوقف أمام انحلال حقوق الإنسان والمواطن بعد قيام الجمهورية الفرنسية بقليل. سأكرّس نفسي للأقدم، والأقوى بين هذه الجمهوريات الثلاث والتي حسب زبيغنيو برجنسكي:

> تراقب مجموع المحيطات والبحار، ولذلك تتطلب قوى برمائية، تسمح لها بالتدخل أينما كان. أمّا فرقها تلك فتحتل مواضع منيعة للأطراف الشرقية والغربية للقارة الأوروبية ـ الأسيوية. وتراقب الخليج الفارسي. فدافعو الجزية، والتابعون لها، حيث أن البعض منهم دفع بإشارات الولاء إلى درجة أنهم يتمنون روابط أكثر التصاقاً مع واشنطن، توزعوا على كامل القارات.

هذه الجمهورية، ليس لها اسم خاص بها. لقد استعارت اسم القارة حيث رأت النور، تدعى الولايات المتحدة الأميركية.

أظن أنه من الضروري، كأمر لا بد منه، القيام بعودة إلى الوراء للتعرّف على هذه القوة التي ادارت، حديثاً جداً، في العراق ويوغوسلافيا، حربين، باركت الدم الغربي، ولكنها تسببت بمئات الآلاف من الضحايا الأبرياء. لا أعرض هنا جدالاً حول حق هذه القوة إدعاء السيطرة، وهو حق أكتسبته بعد قرنين من الانتظار الصبور والعمل القاسي؛ بل سأحاول أن أقوم فقط بعرض هذا العمل وأبرز شكوكاً حول ادعائها السلطة الأخلاقية.

إنه النضال الأخير

أنا لستُ أخصائياً في الجيوسياسية ولا في التاريخ. وإن كان هناك مجال، أستطيع أن اتباهى به عرضياً هو كوني إلى حد ما خبيراً فيه، فهو مجال السينما. لقد هضمت، بشكل جيد كل الكلاسيكيات؛ وقد شارفت أن أكون متعصباً جداً لبرغمان (Bergman)، إلى حد أنني تعلمت اللغة السويدية. ورغبتُ للعيش بعض الوقت في السويد. ولكن هذا لم يمنعني أن أتسلّى مع كبار المنتجين في الولايات المتحدة، بشكل جنوني. تماماً كما كان عمّي كونزالو، في هذا الوقت، يأخذني لأرى أفلام الحرب والرعب والخيال العلمي. هذا الولع بالسينما هو تجربة، ربما كانت تعتبر في

معظم الأوقات دولة قائدة. كان بعضهم يقول بأنها ربّما تكون مضرّة. ولكن، يمكن لي أن أؤكد لكم بأنها تسمح لي أحياناً بأن أتنبأ ببعض حركات الامبراطورية. مثلاً، الفيلم الرائع لـ «باري ليفنسن» (Barry Levinson) مع داستن هوفمان. وروبير دونيرو (Wag the dog) رجالٌ نافذون كان قد ساعدني كثيراً أن أفتح عيني. في سنة 1998، تنبأ بتدخل اصطناعي في البلقان، مثل التدخل الحقيقي سنة 1999. سأستشهد عدة مرّات بهذا الفيلم في الجزء الثاني من هذه الدراسة. حتى الأفلام السيئة ساعدتني كثيراً. وعلى سبيل المثال، فيلم ڤولفغانغ بترسن (المخرجون الألمان، مثل بترسن أو امْريخ، كانوا قد أصبحوا بدون شك التابعين الأكثر خضوعاً في هوليوود) (طائرة الرئيس) Air Force one، نفّذ سنة 1997، كان قد بدأ في تحضير الرأي الدولي إلى تدخل في محيط روسيا. واقرأوا، لكي أقنعكم، الخطاب الذي أعلنه الرئيس (هاريسون فورد) في موسكو بعد عملية مشتركة روسية ـ أميركية، من أجل خلع الدكتاتور الشرير في كازاخستان (سجّلوا جيداً أن عدد ضحايا هذا الدكتاتور المشؤوم هو نفس عدد ضحايا حرب الخليج).

لقد جئت، هذا المساء، ليهنّئوني. ولكن وفي اليوم نفسه وعندما كنت أقوم بزيارة إلى مخيمات الصليب الأحمر التي تغص بمدّ من اللاجئين الذين كانوا يهربون من رعب كازاخستان. فهمت أنه لم يكن هناك شيء يهنئوني عليه. ولا يوجد شخص بيننا يستحق ذلك. لقد تدخلنا في الحقيقة، في وقت متأخر. لقد تحركنا فقط في الوقت الذي رأينا فيه أنّ أمننا الوطني أصبح مهدداً. نظامُ (راديك) قتل أكثر من مئتي ألف رجل وامرأة وطفل. لقد رأيناه في الأخبار، وتركناه يفعل ذلك؛ كائنات بشرية عوقبت بالموت خلال أكثر من سنة. لقد طبقنا عقوبات اقتصادية. بأي حق؟!... «الأموات يتذكرون...».

السلام الحقيقي ليس غياب الصراع، بل هو يكمن في وجود العدالة. جئت هذا المساء مع وعد في التغيير في سياسة الولايات المتحدة. لن أسمح أبداً بعد الآن أن تكون منافعنا السياسية، تمنعنا من التصرف بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تعتبرها اخلاقية وعادلة. الشراسة والارهاب ليسا بأسلحة سياسية. وأقول إلى الذين يستخدمونهما: إن حكمكم ولّى. وحتى المساومة انتهى. لن نتساهل بأي شيء. لن نرتجف أبداً. جاء دوركم.

الفصل الثاني

افارقة واميركيون منبوذون

«إنها أرض الحُرّ وبيت الشجاع» (النشيد الوطني للولايات المتحدة) إنها أرض الحرُ:

عيد أمبراطورية الحرية

لقد كان هناك وقت، وصل فيه وَلَعي السينمائي بشكل كنت أستطيع أن أرى بضمير هادىء، مجموعة المشاهد من ولادة أمة. حيث في سنة 1915، إبتكر دايفيد غريفيث التركية السينمائية بشكل متوازٍ. فنحن أمام مزارعين بؤساء، يهاجمهم لفيفٌ من القتلة الزنوج (بلون القمر)[1]، فيأتي فرسان الكوكلاكس كلان البيض، الرائعون، وهم يمتطون جيادهم البيضاء مزينين بأقنعتهم البيضاء المؤثرة، يتسارعون لنجدة أخوتهم البيض الشجعان. كان هذا الفيلم، وإلى جانبه الأفلام النازية لليني ريفنشتال، تبدو من روائع الإنسانية، يُعتبر كجزء تأسيسي للسينما المعاصرة. أظن اليوم أن هناك نماذج سينمائية مقبولة ومفضلة للعرض أكثر وبشكل أدق لسرغي ميكايلوفيش ايزنشتاين (المدرّعة بوتمكين 1925) الذي أعاد بناء اللغة السينماتوغرافية، عارضاً مشاهد انتفاضة شعب ضد الطغيان. لقد أُقحمت ـ ليس من دون سبب ـ على أن هذا العمل قد نفّذ بعد عشر سنوات، وأن سرغي ميكايلوفيش اعترف بنفسه بأنه كان يدين كثيراً

(1) تعبير للسخرية.

لغريفيث وما أعطاه. فلنترك إذن الأسياد المؤسسين للسينما هادئين، ولنقم بقفزة لثمانين عاماً بعدهم.

أحد السينمائيين الأكثر شهرة في العالم، ستيفن سبيلبرغ عرض في Amistad، مشهداً حقيقياً لفخر بلد، الذي حرّر في 1839 بعض العبيد السود من مخالب المملكة الاسبانية المظلمة. هذا البلد حامي السود، ما هو إلا الولايات المتحدة الأميركية. إنني متأكد بأن كل شخص لم ير هذا الفيلم، سيعتقد بأنني أمزح. واقرأوا إذن، من أجل اقناعكم، الشكوى الرائعة للرئيس السابق جون كونسي آدامس، والذي أصبح بالمناسبة محامي العبيد الأفارقة، والتي مثلها بشكل رائع انطوني هوبكينز ممثل فيلم (هنيعل آكل لحوم البشر) «Hannibal le cannibale».

«أيها السادة، يجب أن أقول بأنني لست موافقاً مع «عقول الجنوب الباهرة» ولا مع رئيسنا، الذي شاركهم أفكارهم ظاهرياً، أنني ألمّح إلى أن الحالة الطبيعية للإنسانية ـ وأنا أعلم بأن هذه الفكرة مختلف عليها ـ هي الحرية. الحرية. والبرهان عنها هو الألم الذي سيقدّمه أي رجل، امرأة أو طفل في سبيل استرجاعها. هذا الرجل سيحطم قيوده، سيقتل بالعشرات أعداءه، سيحاول، ويحاول ويحاول أيضاً التصدي بكل نقد، وضد كل حكم باطل إلى أن يرجع حراً. سنكي (Sinki)، أرجو أن تقف حتى يراك الجميع؟

هذا الرجل أسود. إننا نراه جميعاً. ولكن هل نستطيع أن نرى بنفس السهولة حقيقة أخرى؟ وهو أنه البطل الوحيد في قاعة الاستماع هذه. لو كان أبيض، ما كان ليمثل أمامكم لإنقاذ حياته. لو كان أبيض، «كسجانيه البريطانيين» ما كان ليتماسك وهو واقف بسبب ثقل الميداليات والأوسمة التي فتحت له. كنّا سنكتب عنه الأغاني. وكبار الكتاب سيملأون عنه كتباً. وكانت قصته ستروى وتروى في قاعات الصفوف. وسيعرف أطفالنا، لأننا نسهر على ذلك، اسمه كما يعرفون جيداً اسم باتريك هنري. ولكن إذا كان الجنوب على حق، ماذا علينا أن نفعل بهذا التقرير المزعج والممل. إعلان الاستقلال؟ ماذا نفعل بهذه الادعاءات؟ جميع الناس ولدوا متساوين في الحقوق، حقوق لا تباع. حياة حرية. الخ. ماذا سنفعل بذلك؟ لدي إيحاء متواضع...

مزّق جون كوينسي آدامس، دون أن يتلفظ بكلمة، وليكن أيضاً أكثر بلاغة، كرّاسه. كان يمسكه بيده ليُظهر دمار إعلان الاستقلال.

إن إيماء جون كوينسي أدامس الهوليودي لم يكن سيئاً أبداً: تمزيق إعلان الاستقلال. هذا ما تمارسه عادة وطبيعياً كل البلدان الحديثة عندما يعتبرون أن نصوصهم الشرعية أو قوانينهم أصبحت بالية. ولهذا السبب نفسه سمحت بنفسي في الطريق بإيحاء متواضع آخر: فلنمزّق أيضاً، طالما نحن فيه، دستور سنة 1787. وفيما يختص بذلك، لم أدرك تماماً كيف أن هذا البلد يستطيع أن يسمح لنفسه أن يعطي دروساً عن الإنسانية في العالم، بينما نجد في نصوصه التأسيسية ـ واردة أينما كان بكل فخر ـ مقاطع بمقدورها أن تجعل مدافعينا الحساسين عن حقوق الإنسان، يرتجفون من الرعب. سنعود لاحقاً إلى إعلان الاستقلال؛ أريد هنا أن أعطيكم بعض المقاطع من دستور 1787 لقراءتها والتي هي حالياً ذات سطوة في الولايات المتحدة:

البند الأول:

الجزء الثاني [...] ممثلو الضرائب والضرائب المباشرة ستتوزع بين مختلف الولايات التي يمكنها أن تكون جزءاً من هذا الاتحاد، نسبة إلى عدد سكانها؛ والذي يمكن تحديده بالإضافة إلى العدد الكلي للأشخاص الأحرار، ومن بينهم هؤلاء الذين كانوا مأجورين لعدد محدد من السنوات ما عدا الهنود الذين لا يخضعون للضرائب، وأيضاً ثلاثة أخماس لكل الأشخاص الآخرين غير الأحرار.

وبالرغم من الميزة المملة إلى حدّ ما لهذه الجملة، ستلاحظون أن تركيبة «كل الأشخاص الآخرين» هي تخفيف لكلمة «عبيد». فلنلعب أبعد من ذلك، ففي نفس البند الأول:

الجزء 9: إن هجرة هؤلاء أو استيراد مثل هؤلاء الأشخاص لا يمكن أن يكون مرفوضاً من الكونغرس قبل سنة 1808، باعتبار أن إحدى الولايات الموجودة حالياً تقبل به. ولكن ضريبة ما أو ثمن ما، لا يتجاوز 10 دولارات للرأس يمكن أن تفرض على هذا الاستيراد.

يبدو لي أن ميزة «البضاعة» الموازية لتركيبة «مثل هؤلاء الأشخاص» تبدو أكثر وضوحاً هنا فلننهِ استعراضنا الدستوري بالبند 4:

الجزء 2 [...] إن كل شخص مرتبط بخدمة أو يعمل في ولاية بموجب القوانين الموجودة فيها، فإذا هرب إلى ولاية أخرى، لن يتحرر من هذه

الخدمة أو العمل بموجب أي قانون أو أي اجراء لهذه الولاية المعنية، ولكن سيترك لمقتضيات الجزء الذي يمكن أن يتعلّق بالخدمة أو العمل.

هذا المقطع، الأكثر قساوة، هو واحد من المقاطع التي أقلقت البلد بشكل تراجيدي. فبعض الأشخاص ذوي الإرادة الطيّبة، لم يتوصلوا إلى فكرة العيش في بلد يُعلن عن نفسه أنه حرّ وأنه تأسس، في الوقت نفسه، على مثل هذه النصوص. وشيئاً فشيئاً، استيقظت بعض العقول التي كانت معارضة بشدة لهذا الدستور، الذي لم يكن فقط يتساهل مع الرق، ولكن كان يجعل ملاحقة العبيد الهاربين شرعية، وبينهم هؤلاء المهاجرون إلى ولايات، يقال عنها إنها حرّة.

وفي سنة 1839، وهي السنة نفسها التي جرت فيها عملية أميستاد، ظهر كتاب (الرق الشمال اميركي كما هو). كاتبه تيودور ويلد ركّز أساساً على مقالات وإعلانات الصحف الجنوبية حيث أن ميزتها البغيضة غاب عنها التعليق. من بين تلك الاعلانات، تقديم مكافأة لإيجاد عبد هارب. ولمساعدة صائدي الجوائز الأقوياء، يبرز الاعلان التفصيلي التالي:

«إن من المحتمل أن يختبيء في عشب السافانا، لأنه يقال بأن له أولاداً ليسوا بعيدين من هنا».

وظهر إعلان آخر في صحيفة النوفيل أورليَنز:

عبيد للبيع ـ عبدة في الرابعة والعشرين من عمرها، وولدان أحدهما في الثامنة والآخر في الثالثة. سيباع هؤلاء العبيد بشكل منفصل، أو بيعة واحدة، حسب رغبة الشاري. (مكفرسون).

إن كتاب تيودور ويلد كان مفعماً بالمعلومات بالنسبة إلى هارييت بيتشر ستوف وقد استخدمته لتوثيق كتابها «كوخ العم توم» حيث حاولت بشكل أساسي أن تنقل للبيض الأحاسيس التي يمكن أن يشعر بها السود في وجه المواقف المزعجة جداً.

لأجل ذلك كله. كان المحسن وليام للويد غاريسون قد عرض قديماً نسخة مختلفة بعض الشيء عن إيعازي بتمزيق دستور الولايات المتحدة: لقد كان يفكّر بأنه من المستحسن إحراقه. وكان يقول إنه، أي الدستور «اتفاق مع الموت»، و «ميثاق مع

الشيطان»، منذ ذلك الوقت الذي جعل وجود الرق في الجنوب وحمايته في الشمال، مع القانون المطبّق على الهاربين ممكناً. (Raynaud).

وهكذا إذن نرى أن هذه الولايات المتحدة، التي تتجه نحو أواخر القرن العشرين، المدافعة الحصرية عن حقوق الإنسان، اخطفت طريقها بشكل سيّىء إلى حد ما. ولكن ذلك لم يكن في الحقيقة خطيئة لا تغتفر.

فلا أحد كاملاً. حتى الأقزام بدأوا صغاراً. فالوثائق التأسيسية لمعظم البلاد لم تكن أبداً معصومة عن الخطأ، منذ البداية. والدساتير غير الكاملة، يمكن بكل تأكيد وضعها جانباً أو تمزيقها، أو رميها في سلة المهملات، أو حرقها كما قلنا سابقاً. ولكن المشكلة الملتصقة بالنظام الدستوري للولايات المتحدة، أن هذا البلد يفضّل المحافظة على نصه الأصلي غير المنقوص، ويصحح كيفما كان، فظائعه، بواسطة تعديلات، وهذا ما يبدو بديهياً لأول مرة، لأن في الولايات المتحدة ومنذ الآن يوجد سوء فهم، في التفريق بين كلمتي «فظاعة» و «خطأ». وبسبب هذه الطريقة الغريبة حتى لو صححت الفظائع، فهي تبقى مكتوبة بكل حروفها في الدستور، وذلك ربما إلى الأبد.

أمّا أنا لو كنت مكانهم، لكنت أرسلتُ هذا النص ليُرى بعيداً جداً في كل مكان آخر. ولكنني لا أريد أن أتدخل هنا في القضايا الداخلية للبلاد. فبئساً لهم. هذه قضيتهم.

من جهة أخرى ولإظهار شجاعتنا في الملمات. هذه الطريقة الغريبة بعدم التخلّص من دستور سنة 1787، من أجل توفير الأبحاث الشاقة لإظهار التناقض الواضح كون الولايات المتحدة حملت ميداليات به منذ نشأتها. «جميع البشر ولدوا متساويين». وهذا ما يؤكده لنا إعلان الاستقلال، ولكن العبيد (كلهم من السود) مولودون عبيداً ويتناسلون عبيداً. حتى وهم محرّرون، لم يحصلوا على حقّ المواطنية في كل البلاد إلا بعد حرب الانفصال. ويعلم الجميع بأن هذه المواطنية، خلال الستينات على الأقل من القرن الماضي (العشرين) (أي بعد مئة سنة من الحرب المذكورة سابقاً) لم تكن سوى اسم بلا مسمى، لا فعل لها في جزء كبير من البلد. وقد حاول دافيد رامسي، أحد الأباء المؤسسين، شرح هذا التناقض مستعيناً بكلمات تقنية تقريباً. فالعبيد هم من (يسكنون في أميركا) أو القاطنون فيها وليسوا المواطنين. (Marienstras).

والسود الذين، من جهتهم، ينبغي ألّا يكونوا أغبياء وجاهلين كلياً، كانوا على حسّ مبكر بالتفسّخ في تصرف الثائرين الذين كانوا «يناضلون من أجل الحرية. بينما كان لديهم عبيد في منازلهم». وعندما أعلن المستعمرون استقلالهم باسم الحقوق العامة عن طريق توقيع عريضة (13 كانون الأول/ديسمبر 1777) فإن عبيدهم وصفوهم في سبيل التزام مبادئهم:

> كل المبادىء التي أوصلت الأميركيين للانفصال عن الانكليز كانت لمصلحتنا أكثر ما كان يمكن أن تفعله آلاف الاحتجاجات. (Marienstras).

يقدّر المؤرخون إن نسبة 20% من العبيد هم الذين تحرروا بمناسبة ثورة الشمال الأميركي، وكان البعض ممن تلقى وعوداً كثيرة بالإذن لهم في إدارة الأملاك، نجحوا بالانخراط في الجيش الثوري. أما البعض الآخر فقد بحث عن ملجأ عند الانكليز الانفصاليين أو عند السكان الأصليين. والذين انخرطوا عند البريطانيين ـ الذين وعدوهم بملجأ، وأراضٍ وأدوات ـ كانوا بأكثريتهم خائبي الآمال، أو تفرقوا في اسكتلندا، في الانتيل، وفي لندن. والبعض منهم قُبِضَ عليهم من قبل الأميركيين الشماليين، وحكم عليهم بالعمل في مناجم الرصاص، أو أعيد بيعهم في أنحاء الدولة.

وفي حادثة 1839، المكتوبة في أميستاد أن جون كوينسي أدامس، كان قد استعان بكل موهبته الخطابية للدفاع أمام المحكمة العليا عن بعض الأفارقة الهاربين من مخالب ايزابيل الثانية الإسبانية الخبيثة، هذه الحادثة لا تبدو لي إذن أكثر من شعار رائع، ومحاولة من ستيفن شبيلبرغ لتحويل جون كوينسي أدامس كنوع من انديانا جونس قضائية. فربما تكون قصة دريد سكوت أقل جدارة بالعالم السبيلبرغي. ودريد سكوت هو عبد لطبيب جرّاح (عسكري) في الجنوب، لحق بسيّده، عندما رحل السيد ليقيم في «الأراضي الحرّة»، في الشمال. وفي سنة 1846 (أي بعد سبع سنوات من قضية اميستاد، اتصل بعض دعاة إلغاء الرق بدريد سكوت، لينصحوه بأن يطلب عتقه هو وزوجته، بما أنهما متواجدان في أرض انجلى عنها الرق. لا أعلم إن كان دريد الطيّب، يعرف القراءة ولكن، إن ما كنت متأكداً منه هو أنه لم يقرأ الجزء الثاني من البند 4 من دستور بلده:

> كل إنسان، ارتبط بخدمة أو عمل في ولاية ما، بموجب القوانين الموجودة

فيها، وهرب إلى ولاية أخرى، لن يكون حراً [...] بموجب أي قانون أو أي إجراء في هذه الولاية.

وهكذا، ففي سنة 1857، رفضت المحكمة العليا في أمبراطورية الحرية أن تعطيه الحرية، لأن دريد هو ملكيّة، ثروة، هو شيء لا يمكن أن يترافع أمام القضاء بشأنه. إن القرار المتعلق بدريد سكوت هزّ عندها البلد. ليس بسبب التأثر بشكل خاص بمصير دريد سكوت، ولكن لأن بعض الشماليين فكّر أن هذا القرار كان يمكن أن يمنح سلطة مفرطة لرجال الجنوب. سلطة مثل هذه كان يمكن لا بل يخشى أن تمتد إلى الشمال من خط عرض '36°60 والذي قسّم الولايات المتحدة منذ سنة 1820 إلى بلد حر وبلد رق. ويرى بعض المؤرخين في هذه الحادثة أنها أحد المؤشرات لحرب الانفصال التي سوف تدمي الولايات المتحدة ما بين سنة 1861 و1885 (Fohlen). وسنعود بعد ذلك، إلى هذا الخط الذي تعودنا أن نسميه اتفاق ميسوري، والذي قسم البلد إلى قسمين.

وبما أننا بصدد الحديث عن حرب الانفصال، فهي لم تكن في كل ما أمكن قوله في هوليوود، بالرغم عن ذلك، حرباً لتحرير السود. وسأنهي هذه الملاحظات الموجزة عن عبيد أمبراطورية الحرية، بقول غريب والذي أغرقني بدهشة عميقة. فخلال تلك الحرب نُقل عدة أفراد من خمس قبائل هندية (تشيروكي، تشوكتاو، تشيكازاو، وكريك وسمينول) خلال ثلاثين سنة تقريباً، إلى الأراضي الهندية لهذه الأمم الخمس المتحضرة[1]. ثم تحالفوا مع حلفاء الجنوب، لأن البعض بينهم كان يملك عبيداً (Fohlen)، وبعد ذلك، سنعود إلى هذا التحالف مع الجنوبيين لانتزاع جزء كبير من سيطرة الأمم المتحضرة الخمس على هذه الأراضي. ولن أتغاضى في العودة إلى هذه الحادثة التي تضاهي في قسوتها أسوأ ما تخيله كافكا من أوضاع.

---

(1) هذه الأراضي الهندية، أصبحت بعد ذلك ولاية أوكلاهوما، 000 85 من السكان الأصليين تقريباً نقلوا إليها. سأحاول أن أتحاشى استعمال كلمة «هندي». تعلم جميعاً بأن الأميركي سمي هندياً خطأً. فكولومبوس لم ينزل في بلاد الهند، ولكن على قارة جديدة. فتسمية «هندي» للأميركيين الأصليين ربما تعود إلى تسمية «يابانيين» للكوريين، لأن بعض الناس اعتقد أن جزيرة كوريا هي سيبانغو أي نيبونغو في اليابان.

إنه يت الشجاع:

التطهير العرقي لأمبراطورية الحرية

لنترك، في هذا الوقت، لفيلم أرثور پنّ الكبير، الرجل الصغير الكبير (Little Big Man)، العناية بعرض المشهد، والذي يمكن أن ينسينا مجموعة مشاهد، حيث تتواجد في مخيم الشيين (قبيلة هندية)، ثم نبدأ بالاستماع، ومن بعيد، إلى جنون المزمار والطبل؟ ومن خلال غيمة كالضباب خفيفة، يظهر جيش اليانكي رويداً رويداً. يبدو في البداية صغيراً ضمن الإطار. ثم وبكل صفاء، يقترب الجنود نحونا وعلى صوت هذه الموسيقى الحربية الحماسية المثيرة للسخرية بعض الشيء. وفجأة، هاجم الجنود وارتكبوا مجزرة منظمة، «ديمقراطية» ومتوازية، لا يفرقون في السن، وفي الجنس، أو في الظروف. فقط نجا الرجل الصغير الكبير (Little Big Man) (داستن هوفمن) وجده، بالتبني، نجيا هاربين. وفي مخبأه رأى الرجل الصغير فقط (لأن جدّه كان كفيف النظر) كيف أبيدت زوجته ومعها طفلها.

وفي إعلان الاستقلال سنة 1886، كانت إحدى الدعاوى التي تقدم بها شعب الولايات المتحدة في الكونغرس ضد ملك بريطانيا العظمى هي التالية:

> لقد حثّ في جلب الهنود إلى حدودنا وسكانها. أولئك المتوحشون، وبدون شفقة طريقهم معروفة بالبدء بالحرب. وهم يذبحون كل شيء دون تمييز في العمر والجنس ولا في الظروف.

هذه الجملة الصغيرة الكبيرة، مترجمة إلى الفرنسية من قبل جيفرسون نفسه؛ أقنعتني كلياً أن جون كوينسي أدامس الذي صوره شپيلبرغ، لم يكن على خطأ عندما حاول إقناع مستمعيه بأن يمزقوا هذا الاعلان (إعلان الاستقلال)، (وأضيف) أن يرموه في سلة المهملات، خشية أن أكرر القول (ولكن يجب أن أصرّ، على الأقل للمرّة الأخيرة) بأنني لم أتوصل إلى فهم لماذا، بدل أن تتبع النصيحة العاقلة لجون كوينسي أدامس الهوليوي، فالولايات المتحدة تنتهز أصغر مناسبة لترفع، بكل فخر، هذا الإعلان عندما تشعر بتوق للدفاع عن قضية تعتبرها عادلة من الصعب معرفة ذلك. هل من المحتمل بأنهم لم يتغيروا.

ولكن لنغيّر وجهة النظر:

إن وقعتُ أنا في أيدي أولئك المجرمين، فسأكون ضحية لأنبل قضية. قضية الحقوق العادلة لوطني. وأتشوق لأستحق تسمية المنقذ لأمتي.

فالوطني الذي عبّر هكذا سنة 1787، هو قائد هندي كريكي (نسبة إلى قبيلة كريك (Creeck)). إنه الكسندر ماكغلليفري Alexander MGillivray، القائد المشهور من السكان الأصليين ومن دم إسكتلندي، الذي ناضل، من أجل استقلال قبيلته، منذ بدايات حرب الاستقلال الشمال الأمريكي ضد المستعمرين القدماء. بتحالفهم مع البريطانيين واجه الكريك والسنكا، والشيروكي والموهاوكس، وقبائل أخرى، بنضالهم الخاص الوطني نضال الأوروبي-الأميركي. فأعاقوا جهدهم في الحرب ثم أخروا انتصارهم على العرش وأعلنوا عدم صدقية الثوار الذين تهيّأوا باسم معاداة الإمبريالية لتدمير استقلال الشعوب الأصلية وسلبهم أراضيهم (Marienstras). ولكن في سنة 1783 عندما وقع الانكليز في فرساي معاهدة السلام مع المتمردين، لم يعر العرشُ (التاج الملكي البريطاني) اهتماماً لحلفائه من السكّان الأصليين (اللذين يكرههم بدون شك) ونقلوا إلى الولايات المتحدة الأميركية ليس فقط الثلاث عشرة مستعمرة الأساسية، بل الأراضي الباقية التي تملكها في جنوب كندا. هذه الأراضي «حسب السكان الأصليين» تمثّل الأرض الأكثر اتساعاً التي تمتدّ من حدود المستعمرات الثلاث عشرة إلى نهر المسيسيبّي والتي تعود، عملياً على الأقل[1]، إلى قبائل الكريك والتشكتاو والتشيكازاو والشيروكي، هذه القبائل إضافة إلى قبيلة السمينول تؤلف الأمم الخمس المتحضرة. ولكن بعد تلك المعاهدة سنة 1786، أدرك السكان الأصليون أن الانكليز، لم يكونوا أبداً حلفاء يوثق بهم.

كان هذا التحالف، ظاهرياً، ضد الطبيعة. لم يكن في الحقيقة يثير الدهشة، بالرغم من النهاية الحزينة التي عرفها. وقد حاول الأميركيون الحقيقيون، على مدار تاريخهم التحالف مع الغزاة الأقل عنفاً لمحاربة الغازي الأكثر خطورة. ويمكن لنا أن نضيف، دون خطر الوقوع في أيّ خداع، بأنه خلال تلك الحقبة، فإن الأميركيين لم يكن لديهم الحظ إطلاقاً. وقد كان هذا قد بدأ سيّئاً عندما لم يجد «التلكسكالتيك»

(1) على الورق، كانت هذه ملكية انكليزية تُركت في فرنسا سنة 1763.

(Tlaxcaltèque) طريقاً أفضل من التحالف مع «هيرنان كورتيس» (Hernan Cortes) للتحرر من ظلم المكسيكيين.

وإذا كان صحيحاً أن «التلكسكالتيك» نجحوا بالحصول على بعض الامتيازات الحقيقية جداً من العرش الإسباني فما كان صحيحاً حقاً هو أن حضارتهم مع ذلك إنهارت وأدت إلى خسارتهم.

وبالنسبة لتحالفات أخرى، فقد كانت أقلّ مأساوية، ولكن في أحسن الأحوال، فقد تحالف الأميركيون مع الخاسر عند ذاك. ففي الحرب الكبرى للأمبراطورية ـ حرب السبع سنوات، (1756 ـ 1763)[1]، لقد اختير الفرنسيون كحلفاء لعدد من القبائل، لأنهم كانوا حتى ذلك الوقت قد ظهروا محترمين أكثر من البريطانيين في التغلغل في أراضي المواطن الأصلي. ولكن بما أن الحظ لم يكن إلى جانب المواطنين الأميركيين وقوتهم، خسر الفرنسيون الحرب.

ووصلت سنة 1783 المقدرة حيث رأى الإنكليز يتدخلون عبر تحالفهم مع المواطنين الأصليين، ويحولون الولايات الأصلية من الضفة الغربية للمسيسيبي إلى المستعمرين العتاة المتحصرين. وبما أن هذه الولايات الأصلية، في هذه الشروط قد لعبت دور صمام الأمان بين الثلاث عشرة مستعمرة ولويزيانا المدارة من إسبانيا، هذه الأخيرة أرادت بشكل طبيعي أن تدعم السكان الأصليين فقد كانت واعيةً بأن الأمة الجديدة الأميركية، يخشى أن تكون جاراً مزعجاً بصورة خاصة. ولكن سواء أحمل السكان الأصليون الحظ العاثر لكل العالم، أو كانت إسبانيا قد دخلت في انحلال لا رجعة عنه؛ فالواقع أن هذا التحالف الجديد لم يؤدِ إلى شيء مهم. وشيئاً فشيئاً، ألحقت ولايات السكان الأصليين، وبصعوبة بالولايات المتحدة. وفي هذه الشروط فإن سكان هذه «الصحراء الأميركية الكبيرة»، وهي ليست صحراء إلى هذه الدرجة إلّا حين بدأوا يتعرضون للطرد نحو الغرب.

لم يكن بالإمكان تفادي الحرب حقاً، كما كتب تيودور روزفلت وأضاف:

---

(1) هذه الحادثة صورت بطريقة رائعة في الفيلم الراقي لمايكل مان (Michael Mann). «آخر الموهيكانز» (Le dernier des Mohicans). لقد تأثرت بصورة خاصة بمشهد الهجوم على الحصن الانكليزي من قبل الفرنسيين أو الهجوم الذي تجاور فيه ماوا (Mawa) بالتساوي مع الجنرال مونتكالم دو سان فيران، قلّمه باتريس شيرو.

لقد كانت هناك ادعاءات ومتطلبات من كل جانب لا يمكن التصالح بينها. فلم تكن الهدنة والمعاهدات سوى مسكّنات بسيطة، لم تتوصل حقيقة أن تمسّ عمق المسألة. فقد كان الرجل الأبيض قد قرّر أن يستملك الأراضي التي يطوف فيها الهندي، وهذا الأخير لم يكن يهتم بتملك الأراضي بكل معنى الكلمة. ولكنه كان عازماً دائماً على طرد رجل السلسلة والبوصلة، رجل الفأس والبندقية خارج أرض جيدة، وكذلك الرجل الذي يجري خلفه، منقباً وبانياً أكواخاً، زارعاً الذرة والتبغ. وكان هو بنضاله وصراعه يمكن أن يصل إلى الموت. كانت المواجهة وحدها فقط يمكن أن تحل هذا الصراع المفتوح. ففي الحروب الهندية، لم يكن هناك خيار آخر. إنه جنون، ظلم وباطل أن لا نعتبر ذلك كغلطة من حكومة الولايات المتحدة، والإدعاء بأنه كان يمكن تفاديها هو أيضاً مخالف للصواب.

فالرجل الأبيض، استثنائياً، كان يستطيع أن يستولي على أرض هنا وهناك، دون أن يستخدم معايير القهر الصارم عندما تكون القبيلة ضعيفة أو مسالمة، بواسطة معاهدة، ولكن استعمال هذه المعايير لم يكن دائماً ممكناً مع قبائل محاربة وقوية. وإن أخذنا وجهة نظر النتيجة النهائية نلاحظ فرقاً بسيطاً بين الوسائل السلمية، أو الوسائل القاهرة المستخدمة لامتلاك الأراضي. فالهندي ديلاوار في النهاية لم يكن سعيداً مقابل المسالم كواكر أكثر من الهندي وانباتواغ مقابل الطُّهراني البروتستانتي العديم الشفقة. (Guerm).

من الصعوبة بمكان أن نأخذ جورج واشنطن على محمل الجد عندما كتب في سنة 1783 في ذلك النص.

> إن حصن أميركا [الشمال] مفتوح ليس فقط، للأغنياء والغرباء المحترمين، ولكنه مفتوح أيضاً، للمظلومين والمضطهدين من كل الأمم والأديان.

هذا الحصن، لم يكن مفتوحاً في الحقيقة للمظلومين والمضطهدين في داخل الولايات المتحدة. وإن فتح بشكل فعّال للأفارقة **المظلومين والمضطهدين** فذلك لجعلهم يعملون من دون مقابل. لنتذكر أن الدستور سمح باستيراد العبيد حتى عام 1808، ولنتذكر أيضاً أن جورج واشنطن نفسه كان قد كتب في صيف 1774، رسالة إلى صديقه فيرفاكس Fairfax حيث استعمل الاستعارة **السود** لينقد الطغيان الإنكليزي:

> كانت الأزمة قد وصلت إلى درجة علينا أن نثبت فيها حقوقنا أو نخضع

لكل الضرائب التي يريدون أن يكبّلونا بها حتى تجعل منا العادة التي يمكن أن نعتادها، عبيداً وجبناء وقليلين كالسود الذين نسيطر عليهم بطريقة متعسفة. (Marienstras) .

وفي أوائل السنوات العشر من القرن التاسع عشر، كان وضع المظلومين والمضطهدين من كل الأمم الوطنية، متفاقماً أكثر. وفي سنة 1830، طُرد 000 85 عضو من الأمم الخمس المتحضرة نحو الغرب. كما اتخذت الحكومة فيما بعد قراراً بقيام «حدود هندية دائمة» رسمتْ تقريباً على خط الطول 95° (أي إلى حدود أركنساس وميسوري).

فوراء خط الحدود ذاك، كان الهنود أحراراً في التنقل على هواهم، في ما أسماه المستكشف زيبولون بايك Zebulon Pike الصحراء الأميركية الكبرى. إلّا أن فكرة الحدود الهندية الدائمة لم تكن تستمر لحدود عقد من السنوات. فالهجرات نحو الغرب براً وغزو الأرض المكسيكية، واكتشاف الذهب في كاليفورنيا يبرهن جيداً بأن المنطقة كانت «مقرّرة علناً» للأميركيين البيض. لقد أحيت الحكومة إذن رعاية المفاوضات مع القادة الهنود للتخلّي عن قطع شاسعة من الأراضي مقابل قسط سنوي، زال بسرعة عن طريق شراء «ماء النار» وغيرها من البضائع المفروضة من التجار المهرّبين البيض. وبما أنه لم يعد يوجد حدود غربية، من أجل الوصول إلى ساحل المحيط الهادي، يطرد الهنود من بعدها، فقط وضعت في الحال، سياسة تتوقف على حصرهم في «محميات» حيث كان يمكنهم تعلم خصال البيض، أو يموتون. وقد كانت معظم هذه المحميات تقع على أراضٍ فقيرة والعديد من الهنود لم يرغبوا أن يتعلموا العيش مثل البيض: فكانوا إذن يموتون. وفي ولاية كاليفورنيا الوحيدة، فإن المرض وسوء التغذية و «ماء النار» والقتلة قلّل عدد الهنود من 150 ألفاً تقريباً في سنة 1815 إلى ثلاثين ألفاً فقط في سنة 1860. بينما السهول الشاسعة والجنوب الغربي الصحراوي بقيا خاليين من أي وجود أبيض، فقد أعلنت سياسة المحميات المصير الذي عرفه المحاربون الفخورون في هذه المناطق بعد ذلك بعشر أو عشرين سنة (McPherson).

وفي أيامنا هذه، وفي أوائل القرن الواحد والعشرين، أطلق الفلسطينيون اسم (Bantoustans) الكانتونات، أو فتات الأراضي التي تكرّم الاسرائيليون بإعطائها

للفلسطينيين. هذه التسمية تذكّر بالسياسة التي كانت متبعَة في جنوب أفريقيا في زمن التفرقة العنصرية، حيث كان قد تقرّر خلق أنواع من «الدويلات الوهميّة» التي تجمع (وتقصي) قسماً كبيراً من الشعب الأسود (Bantu Homelands Act, 1971). ولكن لا يمكن وضع هذا الاختراع لمصلحة الجنوب ـ أفريقيين. فليست البانتوستانات سوى نسخة جنوب أفريقية من المحميات أو الأراضي الهندية التي أنشأتها الولايات المتحدة على مدار القرن التاسع عشر. حتى وإن صدمنا من قساوة هذا النظام، فلا يمكن إنكار أنه جلب للبلاد التي مارسته الانسجام العرقي والثقافي اللذين هم بحاجة إليهما لضمان ازدهارهم.

أما البلاد الأميركية الأخرى التي لم تتبع الطريق نفسه فقد دفعت الثمن غالياً. ومنذ حوالي نصف قرن قبل إعتاق السود في الولايات المتحدة (1865)، وحصولهم على حقوقهم المدنية الأولى (1868)، ومنذ أكثر من قرن قبل حصول السكان الأصليين في أميركا الشمالية على المواطنية (1924) فإن معظم بلاد أميركا نالت استقلالها (1816 ـ 1821). وأول القرارات المتخذة من قبل الدول الجديدة كان إزالة الرق[1]؛ وأي بلد من هذه البلاد تقريباً لم يتجرأ أن يسجل في دستوره، حرمان قسم من سكانها من المواطنية على الأقل ليس بطريقة وقحة جداً (Marienstras)[2]. لم ترتكب الولايات المتحدة هذا الخطأ. وتصرفت بكثير من الحذاقة: وتحديداً في الوقت الذي أعلنوا فيه بأن جميع الناس هم متساوون في الحقوق بادروا إلى إصدار حكم يعيّن أي نوع من الإنسان هو متساوٍ وأي نوع آخر ليس كذلك. وهذه التركيبة السيئة الغريبة سمحت لهم بالوصول إلى تماسكهم الرائع، وحقيقة أن الكونفدرالية التي انشئت في بداية حرب الاستقلال سنة 1776، خضعت خلال بعض السنوات إلى قوى مركزية صارمة، أوصلتها إلى حافة الانفجار. ولكن كتابة الدستور الفدرالي واستحسانه سنة 1787 أنقذ الاتحاد. ويبدو لي أن أحد عوامل هذا النجاح كان التجانس الكامل

(1) أزيل الرق في المكسيك، نهائياً سنة 1829، بعد ثماني سنوات من الاستقلال كما أزيل في نيكاراغوا في سنة 1824.

(2) في الاصلاح الرابع عشر للدستور سنة 1863 الذي سمح للعبيد بإدارة الأملاك تستطيع أن تقرأ «ستكون التقسيمات موزعة بين مختلف الولايات بشكل نسبي تبعاً لسكان كل منها. ويكون ذلك بعد جميع سكان كل ولاية باستثناء الهنود غير المكلفين». ولم يستطع الأميركي الهندي أن يصبح مواطناً في هذه البلاد إلا في 1924.

لمؤسسات البلد نتيجة التمييز العنصري (من أجل استعمال هذه الكلمة العزيزة على الدكتور كوشنير، من جديد، عندما كان حاكماً في كوسوفو) حيث أن هذه الدولة كانت تمارسها على سكانها غير البيض. بينما كانت الدول الأخرى الأميركية، أقل خيالية (والتي ربّما طالتها العدوى من بذرة الثورة الفرنسية)، أصدرت أيضاً مرسوماً بأن جميع الناس متساوون، وآمنوا بذلك، وبذلك حرموا من فوائد سياسية ماجنة وخبيثة (حسب وجهة النظر تلك) ولكن واقعية وفعّالة بشكل مروّع، وكان تيودور روزفلت قد لاحظ هذا الفرق الأساسي بين بلده والجمهوريات الأميركية الأخرى:

لو أن الانفصالية كانت قد انتصرت، فإن أميركا الانغلو ـ ساكسونية كانت مسرحاً لمختلف الكونفدراليات المتخاصمة، الثورة الشمال ـ أميركية، كانت ستشبه إذن في حروب الاستقلال، بمستعمرات إسبانية. ولن تكون أيضاً ملحوظة في تاريخ العالم، إلّا في صراعاتها، وفي النضال من أجل ذلك، يوجد دائماً تشابه؛ ثم يتوقف فجأة التوازي بين الأمور. فحملات القادة المكسيكيين والجنوب ـ أميركيين، لا تتميز عن حملات جنرالات الثورة الشمال ـ أميركية؛ ولكن في الجاليات الإسبانو ـ أميركية، لا يوجد شيء مثيل للعمل المنجز من رجال الدولة الذين بنوا الاتحاد. فالقدرة، على تحويل بقايا كونفدرالية منهارة تقريباً إلى أمة متّحدة وقوية، تشير إلى اختلاف، لا ريب فيه، بين أميركيي الشمال والعرق الناطق بالإسبانية في الجنوب. فإن الانفصالية في الولايات المتحدة ومع كل جيل كشفت عن تشابه متعاطف مع الجماعة الهمجية للدكتاتوريين اللذين مارسوا شروراً كثيرة، خلال أكثر من قرن، من الأرجنتين إلى المكسيك، فالرجال الذي أسسوا الاتحاد، لم يجعلوا لهم أقراناً في أميركا الإسبانية.

الفصل الثالث

فلتبدأ الأعمال: الأبلاشي والمسيسيبي وشمال فلوريدا الغربية (1795)

> لقد صنع العديد من الوظائف وأرسل إلى هذا البلد فلولاً من الموظفين الجدد ليتحكّم على شعبنا وليبتلع جوهره.

وثيقة إعلان استقلال الولايات المتحدة

لقد خالفت في الفصل السابق بطريقة أو بأخرى القاعدة التي ألزمت نفسي بها منذ البداية: ـ عدم التدخل في السياسة الداخلية للدول ـ الأمم. في ظل هكذا قاعدة، كنت زاعماً (وما زلت أزعم) التوجه بعكس تيار الدول الغنية التي تصرّ دائماً على حشر أنفها (وقذائفها) في أمور كل العالم، متذرعين بأنهم وحدهم يمكنهم معرفة ما هو الصحيح من عكسه. لكنني أعتقد أنه من الضروري ـ وأتمنى ألا يخالفني قرائي الرأي ـ، لمحاولة فهم عقليّة من وضعوا كل الإمكانات لتوسّع الولايات المتحدة، ألا نغفل عن ذكر، ولو بإيجاز، الأمور الكريهة التي تتعلق بهذه المسألة.

بالإضافة إلى ذلك، يجب الأخذ بعين الاعتبار التالي:

حتى سنة 1868، الزنوج لم يكونوا معتبرين كأميركيين، وحتى 1924 عدد مهمّ من السكان الأصليين كانوا أجانب بكل معنى الكلمة في بلدهم الأصلي.

في هذا الفصل والفصول التي ستلي، سأحاول جاهداً تحليل التقنيات المختلفة التي استعان بها بلد الحرية للسيطرة على كل أميركا وليتماشى مع «قدره الجلي» الذي ـ «يجعل سماوات جاهه وعظمته تدوي وينير البشر بمنارته القوية» (Marienstras).

بالطبع، هذه التقنيات لن تفاجىء بأي شكل قرائي الفرنسيين والبريطانيين لأن حكوماتهم قد استعانت مراراً من خلال سياساتهم الخاصة للتدخل بشؤون الغير بطرق مماثلة، أقل فظاظة من تلك التي استعملها البرتغاليون أو الاسبان. ولكن الولايات المتحدة طبعتها بأسلوب خاص جداً لا يخلو من الروعة لشدة حرصها على الشرعية. وهي الروعة نفسها التي كان يجدها جنرال بريطاني في الضربات الجراحية للحلف الأطلسي على يوغسلافية في آخر القرن العشرين.

قبل أن أبدأ بقائمتي الصغيرة، عليّ أن أحدد بأنه لكي يُغفر لها استطاعت الولايات المتحدة أن تستنجد بمثل اسباني قديم: «Ladrón queroba a ladrón tiene cien años de perdón». (السارق الذي يسرق سارقاً يستمتع بمئة سنة من السعادة).

مع ذلك، فأميركا التي احتلتها أو هيمنت عليها رويداً رويداً الولايات المتحدة ـ بمعنى أميركا الإسبانية أو البرتغالية ـ قد بُنيت بهاتين القوتين الإيبيريتين (Ibérique) بقوة العنف والسلب. إن ذلك صحيح كلياً. ولكن الصحيح أيضاً أن مئة سنة من السعادة ـ الصفح ـ وصلت للنهاية منذ زمن، وأنه بكل الأحوال لا أزعم اتهام احد وإدانته أيضاً. أصدقاؤنا في الولايات المتحدة يستطيعون النوم على أذنيهم الإثنتين: التزمت في مقدمة هذا العمل بألّا أدبر أي انتقام عسكري مهما صغر حتى للرد على أكبر غلطة. أريد فقط أن أوجه إلى عنايتهم وعناية بقية العالم، من باب التذكير كي لا ينسوا الطريقة التي اتبعوها لتحرير أميركا وبقية العالم وقد لا يكون ذلك غير مجد كلياً.

تم إجتياز الخطوة الأولى في فلوريدا.

لا أريد أن أجعلكم تصدقون بأنني أوكلت السيّد آل غور Al Gore أن ينظم لنا مسرحية الانتخابات السيئة لسنة 2000 للبدء بهذا الفصل بزخم. فالمهرجون الجيّدون، هم نحن، الفقراء، وليس أنتم الأغنياء[1]. إلا أن فلوريدا أصبحت بفضل الثنائي بوش ـ غور، على الموضة في نهاية سنة 2000. ولكن غور لم يكن أول من أراد الإمساك بفلوريدا. عائلة بوش فعلت ذلك قبله ومنذ القرن الثامن عشر. وهذه المنطقة كانت مسرحاً لمعارك ضارية. بين أواخر الستينات وبداية الثمانينات للقرن الثامن عشر،

(1) لا تفكروا خاصة بأنني أقول إنني فقير، إنني أشير إلى فيلمين مكسيكيين لاسماعيل رودريغيز: (Nosotros los pobres et ustedes los ricos).

ارتكبت أسبانيا خطأً استراتيجياً فادحاً لاستعادة الجزء الغربي لفلوريدا الذي كانت انكلترا قد انتزعته منها قبلاً؛ ساندت نضال المستعمرين الأميركيين المتمردين الذين حاربوا ضد انكلترا. بهذه الطريقة استطاعت اسبانيا، مستغلة الضعف البريطاني، أن تستعيد فلوريدا الغربية، والاستيلاء على فور باتلر (Fort Butler) وناتشيز (Natchez على المسيسيبي وكذلك على موبايل (Mobile) وبنساكولا (Pensacola) على خليج المكسيك. ولنتذكر أيضاً بأنه بمعاهدة فرساي سنة 1783، موقعة بعد حرب الاستقلال للولايات المتحدة تخلت انكلترا عن كل ممتلكاتها في جنوب كندا. فليس فقط أنها أقرت باستقلال المستعمرات الثلاث عشرة، ولكنها تخلت للمتمردين عن أراضي شاسعة تمتد من الأبالاشي إلى المسيسيبي، ونقلت لهم حق الإبحار على هذا النهر وتركت لهم بقعة أرض في فلوريدا التي تزعم أنها ما زالت تملكها وهي بين خطوط العرض 31° و26 32°. وقد لا يكون مستحيلاً بأن يكون الإنكليز قد قاموا بهذه التنازلات للأمة الجديدة الأميركية مقابل الانتقام من هؤلاء الأسبان الجبناء الذين دحروهم من فلوريدا مستغلين ضعفهم. الواقع أن اسبانيا تتواجد مع ذلك في وضع غير مريح بشكل خاص: لقد دخلت في صراع مباشر مع الولايات المتحدة لأنها تدعي هي أيضاً، أنها كسبت في نهاية آخر حرب لها مع الإنكليز، الحق الحصري بالإبحار على المسيسيبي وملكية فلوريدا بأكملها.

الواقع أن الجمهورية المولودة والأمبراطورية الاسبانية القديمة دخلتا بإحتكاك مباشر هو بنفسه منبع لصراع أكيد. فلنتذكر أن الديبلوماسيين الأسبان أجبروا بترك أراضي الأبالاشي لملكية السكان الأصليين، اللذين أصبحوا حلفاءهم الموضوعيين[1]. أمام الأمة الجديدة الأنكلوساكسونية. لقد اعتمدوا على هؤلاء السكان الأصليين للبقاء بعيدين عن الولايات المتحدة التي أبدت مبكراً احتقارها إزاء اللاتينيين. وحسب رأي أحد أفراد عائلة أدامس، المؤرخ المشهور هنري أدامس:

> الكره تجاه الإسباني كان طبيعياً لرجل تنيسي (Tennessee) ككرهه تجاه الهندي، واحتقار حقوق الحكومة الإسبانية لم يكن بأي شكل أقل من احتقار حقوق أي قبيلة من الحمر، مستعمرة الغرب لم تكن تقبل فهم

---

(1) مثل الكستدر ماك غليفراي Mc. Gillvray، الذي كان عليه أن يجد في العرش الإسباني حليفاً جديداً بعد أن تخلى عنه الإنكليز.

> وجود أي قانون يتعلق بالهنود والإسبان، لم يكونوا يفكروا إلّا بطرد العرقين في البلد واستملاك أراضيهم.

تكلم هنري أدامس هنا خاصة عن رجل الغرب، هذا الذي تواجد باحتكاك مباشر مع الهندي والإسباني. ولكن شعب الولايات المتحدة في الشرق، وربما لأسباب أكثر تجارية (ليبرالية) احتقر وبنفس الزخم الإسبان، وأراد التخلص منهم إلى درجة أن نظامهم التجاري وصل به الأمر إلى حالة حرب مضمرة مع النظام التجاري الإسباني. واسبانيا، وبنفس طريقة فرنسا وانكلترا، احتفظت بمبدأ الاحتكار التجاري في مستعمراتها، ولكن النظام الإسباني كان لا يزال أصلب لأن تنظيمه الاقتصادي أقل تطوراً. كما أقر به هنري أدامس، صارعت الولايات المتحدة، بالعكس، للوصول إلى الحرية التجارية الأكثر امتداداً:

> في هذا القطاع، لقد تبنوا أيضاً لهجة أخلاقية عالية. الشمال أميركي يناضل لصالح المدنية والنوع البشري. المعركة لحرية التجارة لم توظف فقط للحصول على معروف أناني، ولكن لصالح كل الإنسانية. كانت اسبانيا تمثل الاستبداد، التعصب والفساد في أميركا. فمحاربة نظامها كان واجب حكومة شعب حر.

أخيراً، وبعد عشر سنوات من المشاجرة والاتهامات المتبادلة، ثمة صراع ليس له في الظاهر أي صلة تذكيرية. قد عجل الأمور في فلوريدا، ألا وهو الصراع الخفي بين فرنسا الثورية وانكلترا ـ في سنة 1795، في بال Bâle، وقّعت اسبانيا اتفاقاً سرّياً مع فرنسا يسمح بدعمها ضد العرش البريطاني ـ وبذلك فضل غودوي (Godoy) وزير شارل الرابع في إسبانيا التنازل لمتطلبات الشمال أميركيين على أن يراهم يتحالفون مع الإنكليز في الصراع الحاصل. قبل إذن بالإقرار بمجمل متطلبات الولايات المتحدة شاملاً شمال فلوريدا الغربية وحرية الإبحار على المسيسيبي.

> معاهدة سنة 1795، هي من إحدى المعاهدات الأكثر فائدة غير الموقعة من الولايات المتحدة، لم تتلق الاحترام العالي الذي كانت تستحقه من الرأي الشمال أميركي. لم يسلم لإسبانيا بأي اعتراف بالجميل للتنازلات التي وافقت عليها.

كان الجميع يعلم بأنها ليست بوضع يخولها القيام بأدنى إلزام للولايات المتحدة (Henry Adams).

وضع اليد على لويزيانا الغربية (1803)

لقد تحالف مع آخرين ليخضعنا لحكم غريب (أو أحكام غريبة) عن دساتيرنا وغير معترف به في قوانينا.

وثيقة إعلان استقلال الولايات المتحدة.

لا أعرف إن كان كثيراً من قرائي قد رأوا (الفيلم) الكلاسيكي الفرنسي والذي يدعى «نابوليون» وهو من إخراج أبيل غانس (Abel Gance) عام 1927. إن كانوا قد رأوه، فأعتقد أنهم لم ينسوا المقطع الذي يتخيّل فيه نابوليون بأنه سيجلب للعالم الجمهورية الكونية. لا أريد أن أخيب أمل الفرنسيين اللذين يترحمون على «دكتاتورهم الكبير» (أدعوه هكذا لأنّ هذيان فيلم غانس (Gance) يجعلني أفكر بفيلم معين لشابلين (Chaplin)) لكن يجب أن نعترف بأن بونابارت (Bonaparte) لم يخترع شيئاً، فكان يريد فقط أن يعيد بناء أمبراطورية من الطراز القديم، على الشاكلة اليونانية، الرومانية أو من الممكن الكارولانجية. فكرته الرائعة بنشر الخير والعلوم في أرجاء العالم كانت قد أطلقت قبل بضع سنوات من قِبل زملائه في أميركا الشمالية. في «كليوباترا» (فيلم Cleopatra) يحكي سيزار (ريكس هاريسون Rex Harrison) لصديقته الجديدة ليز تايلور (Liz Taylor) أن الإسكندر الكبير بكى عندما علم أنه لم يبق له عالم ليغزوه. ومن الممكن أن (مواطننا) الكورسيكي الوطني قد شعر بإحباط مماثل عندما تبيّن له أن اكتشافه الإنساني المتفرد كان قد أدرج ضمن حق الاختراع.

ولكن، لمعالجة الخلط (أو التشوش) عند الفرنسيين (أو على الأقل عند الفرنكوفونيين أريد أن أذكّر أنه في الحقبة عينها، عاشت شخصية أكثر غرابة من

نابوليون، نسخة سلبية من نابوليون، نابوليون الخفي، توسان لوفيرتور الشخصية الفائقة الوصف (Toussaint Louverture) لتفتح من جديد كتب التاريخ خاصتنا.

الملحمة التي هزت فرنسا حوالي العام 1789 أنتجت شعاراً إعلانياً ضمّ (بما فيه من مفاهيم) كلمتي حرية ومساواة.

إن رقيق هايتي (Haïti) الذين لم تكن لديهم التلفزة ولم يكونوا مدربين بعد في تلك الحقبة على معرفة أسرار الإعلان، اعتقدوا بكل تأكيد أن تلك الكلمة كانت تنطبق عليهم أيضاً. واستخفافاً بالمفردة الثالثة من الشعار، مفردة الأخوة، قرروا إذاً الثورة لكي يصبحوا على الأقل أحراراً، بما أن كل شيء أفهمهم بأنهم لن يستطيعوا أن يكونوا سواسية. وبعيد مضي عشر سنوات. هدأت تماماً موجة الابتكارات الخاصة التي اخترقت فرنسا، ونظم بونابرت انقلابه في الثامن عشر من بروميير الشهر الثاني من روزنامة الجمهورية (10 novembre) وفترة وجيزة بعدها مدفوعاً من قبل وزير خارجيته تاليران (Talleymnd)، وضع (نابوليون) خطة رسم موسّعة لإحياء الأمبراطورية الفرنسية غير المحدودة إلى ما وراء البحار والتي كانت قد فُصلت إلى أجزاء من قبل البريطانيين في الجزء الأول في القرن الثامن عشر.

كانت استراتيجية بونابرت محسوبة بحكمة. فبشكل طبيعي، كانت أهدافه الأوليّة الأملاك الواقعة تحت سيطرة إسبانيا، حيث يمكنه التلاعب بهذا البلد بسهولة كبيرة. فهو كان يريد الحصول على فلوريدا، وإذا كان بالإمكان أيضاً على الجزء الإسباني من السان دومينيكان. لكنه كان يريد خاصة استعادة لويزيانا وتحديداً لويزيانا الغربية تلك التي أوليت للإدارة الإسبانية عام 1762، إلّا أنه، إذا أردنا وضع أنفسنا في معطيات تلك الحقبة، لا يجب علينا أن نتفاجأ كثيراً عندما نعلم بأن الحاجز الرئيسي أمام الطموحات النابوليونية لم يكن إسبانيا، التي كانت رغم ذلك مسيطرة على الأرض، إنما جمهورية الولايات المتحدة اليافعة. فيما بعد، ظهر حجر عثرة جديد غير متوقع إطلاقاً هذه المرة: جمهورية الهايتي الحديثة جداً والصغيرة. لقد رأينا كيف خطفت «دول الأبالاش الأصلية» بسرعة من قبل الولايات المتحدة رغم معارضة إسبانيا التي كانت تريد أن تجعل منهم «دولة حاجزة بينها وبين الأميركيين الشماليين الحيويين». في ظل هذه الأوضاع، حتى ولو كان ملك إسبانيا شارل الرابع يرفض دائماً التخلّي عن فلوريدا التي يعتبرها كإسبانية؛ لقد كان مُتنبهاً أنه بواسطة التخلي عن لويزيانا لفرنسا فإنه سيحصل أخيراً على دولته الواقية يظلل بها ممتلكاته الأميركية.

كان تاليران، الذي عاش في الولايات المتحدة، يعرف تماماً أن هؤلاء (الأميركيين) سيكونون غير سعداء برؤية فرنسا تقطع بشكل تام توسعهم نحو الغرب من خلال لويزيانا ونحو الجنوب من خلال فلوريدا. إلّا أنه، هو وبونابرت كانوا عازمين على قطع هذه الخطوة عندما يحين الوقت المناسب. كما كان متنظراً، لم يتخل شارل الرابع عن فلوريدا لكنه لم يكن بحاجة لأن يترجّوه كثيراً ليتخلى عن لويزيانا، أضف أن الجمهورية الفرنسية تعهدت في ايطاليا بتعظيم شأن ولي العهد دوق پارما، دون فرديناند بإعطائه لقب «ملك» ومن خلال باطلاق وعود جمّة بخصوص توسيع مساحة مملكته (Alcaraz) وبهذه الطريقة تمكنت فرنسا، بأعلى درجة من السرّية من استعادة لويزيانا في معاهدة سان ايلديفونسو (San Ildefonso). ولتوطيد فكرة حمايتها من الولايات المتحدة، حصلت إسبانيا على بند تتعهد فيه فرنسا ألّا تنقل ملكية لويزيانا إلى طرف ثالث (قوة ثالثة). نحن في تشرين الأول/أوكتوبر من العام 1800. الخطوة الثانية من استراتيجية الغزو والنابوليونية تقوم على حماية لويزيانا دون إزعاج في غير أوانه للولايات المتحدة من خلال نقل كثيف لأفواج الجنود.

هنا يدخل نابوليون الأسود الساحة. بعد عدة تقلبات في مجريات الأمور، تمكن العبد الأسبق توسان لوفرتور السيطرة على هاييتي وأعلن في عام 1801 استقلال الجزيرة الذي ضمن الجمهورية الفرنسية. في الحقيقة، من انقلاب بونابرت عام 1791، لم يكن لهذه الجمهورية صلة بالجمهوريين إلّا الاسم ورغم بعض الملاطفات والوعود المطلقة من قبل مرسلي القنصل الأول، لم يكن هناك أي حكومة أوروبية لتسمح بترك الثورة دون عقاب الملكية للعبيد السود الذين تجاسروا على الاعتقاد بأن ثورة 1789 تخصهم. بالنسبة للمؤرخ الكوبي راميرو غويرّا (Ramiro Guerra)، خطة نابوليون كانت نوعاً ما بسيطة: كان على جنوده الـ 20000 سحق الجمهورية الثائرة ثم إرسالهم إلى لويزيانا دون أن يكون للولايات المتحدة الوقت للإحتجاج. يكون بذلك قد حقق هدفين بضربة واحدة دون أن يغفل أن هدفه الأساسي نشر قواته في لويزيانا. المشكلة أنه لم يكن أحد ليتصور بأن زمرة من السود يمكنهم كسر قوات نابوليون، مما أعاق مشاريعه لإعادة السيطرة والغزو. بالفعل، لم ينتزع الجنرال لوكلير (Leclerc) النصر إلّا بعد ثلاثة أشهر من القتال الضاري الذي أسقط عشر الجيش الفرنسي. وقع توسان في الأسر بواسطة خدعة، ولكن عندما وصلت شائعة إيجاد العمل بنظام الرق بالغواطوب (Guadeloupe) (22 أيار/ماي 1802)، إلى هاييتي،

عادت الثورة على أشدها. ولم يعد باستطاعة أي نوع ترهيب إيقافها. حتى لو كان نابوليون قد أراد الحدّ من هذا الفشل، كان كل شيء يشير، دائماً حسب غويرا، أنه في هذه اللحظة بالذات قرر نابوليون تغيير استراتيجيته. تخلى عن مشاريعه الإستيطانية (الكولونيالية) ليقدم على شيء أكثر خطورة بكثير، لكن أكثر طموحاً أيضاً وبالتالي أكثر عظمة: غزو أوروبا. ولكونه جاهزاً لمواجهة البريطانيين، فقد أصبح عازماً على بيع لويزيانا للولايات المتحدة. كان يعتقد بأنه سيجني ثلاث فوائد من هذا البيع. بادئاً ذي بدء سيحصل على عدة ملايين لتمويل مجهود الحرب، وهذا ليس بالأمر النكرة، ومن ثم التأكد من حسن حياد الولايات المتحدة. وأخيراً، سيساعد بالمناسبة عينها على تمتين هذه الأمة، أمة ستصبح حسب توقعاته المنافس الرهيب لبريطانيا. وحرب 1812 بين هاتين القوتين الأنغلوساكسونيتين ستبين أن بونابرت لم يكن مخطئاً، على الأقل ليس في هذه النقطة.

مع كل هذا، لم تتم مسألة البيع هذه بسهولة. إلا أنه لا يجب التفتيش عن العائق من جانب إسبانيا، رغم البند في معاهدة سان إلدفونسو الذي يمنع أي نقل لملكية لويزيانا. كان حجر العثرة موجوداً، حتى ولو بدا ذلك متناقضاً، في داخل الولايات المتحدة. لمزيد من الفهم، علينا الدخول باختصار في آليات الديموقراطية الأميركية.

توماس جيفرسون (1809 ـ 1801)، أحد الآباء المؤسسين لهذه الأمة، لكن أيضاً أب الإمبريالية الأميركية، لم يكن حاكماً مطلقاً، كمثيله الفرنسي. بين الذكور البيض المسيحيين، يعمل الجدال الديموقراطي في هذا البلد على أكمل وجه، قليلاً كما كان عند مخترعي الديموقراطية، أثينا بيريقليس (أثينا أيام بيريقليس) حيث على 000 400 نسمة كان هناك 000 200 رقّ (أو عبد)، وعبقرية الولايات المتحدة تكمن في مسألة أنها استطاعت المحافظة على ديموقراطيتها عندما شرعت على بناء أمبراطوريتها. فكان يلهم في الوقت عينه الديموقراطية والأمبراطورية. فعندما غزا الإسكندر المقدوني العالم بعد أن دمّر طيبه وأخضع أثينا، توقف الحديث عن الديموقراطية. وفيما بعد، سقطت الجمهورية الرومانية عندما تمتنت الإمبراطورية. على عكس ذلك، لم يتخل الحكم في الولايات المتحدة عن صيغة القيادة الجماعية، حتى في أوقات الغزو والمحن، وبرغم السلطة الكبيرة التي يتمتع بها الرئيس، يجب أن نبقي هذه القاعدة حاضرة في ذهننا.

كان الحزب الفيدرالي، منافس حزب جيفرسون الجمهوري ـ الديموقراطي، يعتقد

أن ضم لويزيانا «يحمل معه خطر تذويب إضافي، لنفوذه الخاص، المركّز في الولايات الشمالية الشرقية (McPherson). الحاجز أمام هذا التوسع الجديد في مساحة الأرض، موجود إذاً داخل كونغرس الولايات المتحدة الأميركية وفي التركيبة السياسية والاقتصادية الداخلية. في ظل هذه الظروف ـ ليفينغستون (Livingston) ومونرو (Monroe)، اللذان كانا يخشيان أن يغير بونابرت المندفع العنيف رأيه من جديد ـ كان على جيفرسون أن يكون أقل ديموقراطية بقليل وألّا يحترم بعض المراحل الشرعية لإتمام هذه الصفقة. (غويرا). لا يلام على ذلك لقد عرفت حالات أسوأ.

وبمجرّد أن ذلّلنا هذا العائق الداخلي، لم يبق هناك إلّا ذلك البند الشهير من معاهدة سان إيلدفونسو، والذي لا يشكل في الحقيقة مشكلة، فقد رفع الماركيز دي كازا إيريخو، سفير إسبانيا في واشنطن احتجاجاً.

> لسوء الحظ فإن شارل الرابع الذي لم تتجرأ سياسته الضعيفة على الوقوف بوجه الرجل غير العادي، والذي كان، بكل تأكيد سيصبح ملك أوروبا (سيد أوروبا)، خشي أن يزعج هذا الاعتراض نابوليون بونابرت، وأمر سفيره بسحبه. (الكاراز).

وهكذا فقد سلّم الحاكم الإسباني في العشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1803 الأقليم إلى الوالي الفرنسي لوزا. وخلال المناسبة عينها تخلى لوزا فعلياً عن لويزيانا إلى كليبورن الحاكم المعيّن من جيفرسون فيما خص ذلك.

وتوفي «توسّان» في السابع من نيسان/ أفريل من السنة عينها 1803 في سجنه الواقع في قصر «جو» في «الجورا»، وبعد أقل من عشرين عاماً، مات نابوليون، وهو أيضاً أسير وبعيد عن بلاده. وخلال الأيام الأخيرة من عمره، أعترف أنه اقترف خطأً في هاييتي. فبالطبع، لا يمكن للمالك الذي نظم المجازر قبل الحقبة الصناعية، بحق البيض في أوروبا، لا يمكن له طبعاً أن يشعر بأي ندم لإسالته دماء سكان الجزر المسخّرين والسود. وبعد حملته الكارثية على روسية لم يستطع أيضاً أن يشعر بأي وخز أو عذاب ضمير بسبب النحس الذي لاقته قوات لوكلير في هاييتي. ولكنه تنبه ربّما وبكل بساطة إلى أن ذلك الأسود البائس ـ هكذا كان يدعو توسّان ـ كان قد أجبره على تغيير خطط غزواته، دافعاً إياه لمواجهة زملائه الأوروبيين الجبابرة. وفي الحقيقة لم يكن لا توسان ولا نابوليون-أول السود وأول البيض، عبارة استخرجها توسان في

رسالة إلى نظيره (نابوليون) ـ لم يكونا يعرفان لمن يعملان: لقد ساهما بسخاء في ازدهار الأمة الأميركية الكبيرة واليافعة. ومن أجل مبلغ زهيد -60 مليون فرنك فرنسي- حصلت الولايات المتحدة على أرض شاسعة[1] جداً وإمكانية نمو غير محدودة.

وبتواصلهم المباشر مع إسبانيا الضعيفة، أمكنهم المحافظة على سياستهم الحيادية تجاه النزاعات الأوروبية وحرية عمل كاملة. والتي ما يزالون حتى أيامنا هذه ينعمون بها. وبالمقابل لم تعُد إسبانيا تستفيد من المتراس الفرنسي، وقد طردتْ إلى الأبد من أميركا. وكان قدر فلوريدا وتكساس نيو مكسيكو وكل المستوطنات اللاتينية في أميركا فعلياً قد حسم في ذلك الزمن باللات (Guerra).

(1) لويزيانا هذه هي لويزيانا الفرنكو ـ اسبانية أو لويزيانا الغربية، وهي مساحة أرض واسعة جداً لا علاقة لها بحجم ولاية لويزيانا الحالية. إنها قرن طويل وكبير جداً وفير الثروات تتبع الضفة اليمنى للمسيسبي والتي تضم تقريباً الأراضي الحالية للويزيانا أركنساس، الميسوري، أيوا، مينوسوتا، وايومينغ وكنساس، داكوتا الجنوبية والشمالية، نبراسكا، مونتانا والأوكلاهوما.

الحرب: كاليفورنيا العليا ونيومكسيكو (1846 ـ 1848)

«لقد نهب بحارنا، خرّب شواطئنا، أحرق مدننا وذبح أبناء بلدنا» (من وثيقة إعلان استقلال الولايات المتحدة).

ستغزو الولايات المتحدة المكسيك، ولكن هذا سيكون كمن يبتلع الزرنيخ الذي سيتمكن منه ممن ابتلعه في مدى قريب. «المكسيك ستسممنا». فقد كتب جايمس م ماكفرسون معلقاً على نبوءة الشاعر المناهض للعبودية رالف ڤالدو إيمرسون:

> لقد كان إيمرسون على حق. والسم كان نظام العبودية (أو الرق). فالأمبراطورية المناصرة للحرية، والغالية على قلب جيفرسون كانت قد أصبحت، بقسم كبير منها، أمبراطوريةً للعبودية. منذ حرب الاستقلال كانت المكتسبات، على صعيد الأراضي قد أدخلت في الاتحاد ولايات لويزيانا، ميسوري أركنساس، فلوريدا وتكساس المعتمدة على نظام الرق، بينما وحدها آيوا، التي قبلت في الاتحاد عام 1846، جاءت لتجعل صفوف الولايات الحرة أكبر. كما أن عدداً كبيراً من مواطنينا كانوا يخشون من قدر مماثل لهذه الأمبراطورية الجديدة الجنوب ـ غربية.

ومن الممكن أن يكون المكسيك قد سمّم الولايات المتحدة ومن الممكن أيضاً أن تكون تلك الأراضي قد زرعت الفتنة بين الشمال والجنوب التي أدت، بعد خمسة عشر عاماً إلى حرب الانفصال الأميركية. ولكن ما هو أكيد، أن المكسيك لا علاقة

لها بالعوارض المرضية المشابهة للدكتور جيكل Jekyll والسيد هايد (Hyde)، التي قسّمت الولايات المتحدة إلى جزءين والتي دفعت الجزء المعتمد على نظام العبودية إلى التوسّع بأي ثمن نحو الجنوب. ولا يقل عن هذا حقيقة أن هذا السم القوي، أي الأراضي المنتزعة من المكسيك من قبل الولايات المتحدة، قد هضم جيداً في يومنا هذا. وبهذه الطريقة، يجد بلدٌ نفسه مبتوراً من مليونين ونصف مليون كيلومتر مربع (إذا حسبنا مقاطعة تكساس) بينما يجد الآخر نفسه موسعاً بالمساحة عينها. ولا بد أن نشير إلى غاية أولئك الذين ليسوا بارعين في الحساب، بأن هذه المساحة تمثل عموماً (دون الدخول في التفاصيل) خمس مرات مساحة فرنسا أو إسبانيا. وفي نهاية الأمر، لم يكن السُم مضراً إلى هذه الدرجة.

ولكن لنمسح دموعنا. فأنا لا أريد أن أجعل قرّائي يفرّون.

فهؤلاء القراء عينهم، ربّما قد تنبهوا إلى أننا نقفز قفزة كبيرة من 1803 إلى 1846. فلن نتوقف عند ضم فلوريدا وتكساس ـ ليس لأن هذه المراحل غير جديرة بالاهتمام، بل على العكس، لأنها قد جرت بواسطة تقنية فعلاً جديدة وحديثة وثورية ممّا جعلني أضعها في فصل خاص، مخصص للحداثة في التوسع الأميركي. فضم كاليفورنيا العليا ونيو مكسيكو قد تم بطريقة كلاسيكية ومبتذلة أكثر بكثير، بواسطة حرب توسعية مشابهة لكل تلك التي عرفناها منذ آلاف السنين. إلّا أن تأريخ هذا الغزو يُبرز جيداً جوانب مثيرةً.

تبدأ قصتنا في العام 1844. كانت فلوريدا قد ضُمّتْ سابقاً من قبل الولايات المتحدة (1821). أمّا تكساس وبعد حرب الانفصال عن المكسيك (1835)، فقد أصبحت بلداً مستقلاً معترفاً به من قبل «المجتمع الدولي» الدائم الوجود، وأصبحت لديها، بعد اتفاق الصداقة الفرانكو ـ تكساسي، سفارة في الطابق الأول في ساحة الفاندوم الساحرة في باريس (بحيث يمكن لأي كان أن يستنتج ذلك بقراءة اللوح التذكاري على حائط المبنى). وفي العام 1844، أنتخب جايمس نوكس بولك رئيساً للولايات المتحدة. رجل مميّز إذا ما وصف، بالرغم عن أنه ليس معروفاً من قبل الجمهور عموماً، وهو قد قدّم لبلاده بعض الأراضي وهي أكبر اتساعاً من تلك التي قدمت من قبل الإمبريالي العظيم الذي كان يمثله جيفرسون. وزاد بولك، خلال ولايته الممتدة لأربع سنوات، مساحة الولايات المتحدة حوالي الثلثين، وذلك بموافقة الكونغرس، وهو إنجاز لم يستطع حتى جيفرسون تحقيقه من خلال لويزيانا. ولكننا لن

تكون قساة جداً مع «الأب المؤسس» الذي، وأن كان صحيحاً أنه بقي ثماني سنوات في قيادة الأمة، كان يعمل على أرض أكثر تعقيداً بكثير. فجمهوريته اليافعة كانت تحاول جاهدة أن تنهي مرحلة التحضير، وكان عليها، إضافة إلى ذلك، أن تهتم بإسبانيا وبفرنسا نابوليون بونابرت المزعج، دون نسيان بريطانيا التي لم تكن سهلة المعاشرة. وفي المقابل كان بولْك يفاوض جمهورية تكساس المنحازة كلياً إلى قضيته، وكان يفاوض بريطانيا المستعدّة للتنازل عن جزء مهم من الـ «أوريغون». كما فاوض خصوصاً مع «المكسيك» البلد الأكثر حداثة في السن من الولايات المتحدة، والضعيف أكثر بسبب السمة المتقلبة لسياسته الداخلية.

ولكن مهمة بولك لم تنتج سعادة وحسب. فقد كان عليه أن يقاتل بحزم في ذاك المكان المريب الذي كان (ولا يزال) كونغرس الولايات المتحدة الأميركية.

وفي انتخابات 1844، كان بولْك قد تقدم باسم الحزب الديموقراطي الذي أنشىء في نهاية 1820 على يد الجنرال النشيط جداً آندرو جاكسون، والذي كان قد تغيّر بسحق السيمنول والكريك في جورجيا وفلوريدا سلمياً خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر. وكان جاكسون قد ساهم أيضاً بشكل متواضع (سرّياً) في استقلال تكساس بين سنتي 1829 ـ 1837، عندما كان على رأس الإدارة. وكان الحزب الديموقراطي يريد استعادة تقاليد حزب جيفرسون الجمهوري الديموقراطي والتي بقي منها ما يمكن أن ندعوه في أيامنا هذه «السياسة التوسعية» أو «الإمبريالية». وخلال تلك السنوات، في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر، أطلق على هذه الفكرة تسمية فيها كثير من الأبهة وهي القدر الجلي. وهو التعبير الذي انتشر أولاً شفهياً بدون شك، وصار شعبياً خالداً بواسطة صحافي هو جون أوسُلفان (John O'sullivan) حين ذكر في إحدى المجلات: «قدرنا الجلي تغطية القارة المخصصة من العناية الإلهية لحرية وتوسع ملايننا من السكان الذين تتضاعف أعدادهم سنة بعد سنة» (Fohlen). وقد لخّص ماكفرسون هذه العقلية بطريقة مقلقة أكثر أيضاً:

منذ اليوم الذي انتصر فيه توماس جيفرسون في المعارضة الفدرالية في شراء لويزيانا، أشاد الديموقراطيون بتوسع مؤسساتهم الأميركية[1]، من طرف إلى آخر في أميركا الشمالية، أعجب هذا أم لا السكان الأصليين: هنود، إسبان، مكسيكيين،

---

(1) يريد أن يقول مؤسسات الولايات المتحدة الأميركية.

كنديين آخرين، وعندما كان الله قد أمّن بنجاح الجنود الأميركيين خلال حرب الاستقلال، كما شرح ذلك نائب ديموقراطي في عام 1845، لم يكن «يريد أن تكون الولايات الأصلية أماكن العيش الوحيدة للحرية على الأرض. على العكس، لم يعتبرها سوى المركز الكبير حيث ما زالت تشع منه دائماً الحضارة والدين والحرية إلى أن تستطيع القارة بأكملها أن تنهل من خيراتها» «نعم، أكثر، وأيضاً أكثر، ودائماً أكثر» صرّح بهذا جون أوسُلفان، أب عبارة «القدر الجلي» دائماً المزيد [...]! إلى أن يكتمل قدرنا الوطني وأن [...] تعود هذه القارة غير المحدودة إلينا كلياً.

في هذا السياق، ليس عجيباً أن يزيّن مرشح الحزب الديموقراطي برنامجه الانتخابي بمطالب توسعية مهمة في الأرض. ولكن هذه المطالب يجب أن ترضي بالطريقة نفسها الشمال والجنوب، وهو شرط يبدو أنه متوافر في مشروع بولك فبدأ التفكير باستقبال الأخت الصغيرة التكساسية وتوسيع أرضها حتى الريّو برافو (المسماة غراندي من البعض). وهذا سيرضي الجنوب. ويجب عندئذٍ ضمّ أرض الأوريغون أيضاً والتي كانت معتبرة حتى ذلك الحين، نوعاً من المستعمرة المشتركة الأنكلو ـ أميركية Condominum. وهذا سيرضي الشمال. مليون ونصف مليون كيلومتر مربع من الغابات عملياً خالية من السكان للشمال ـ إذا ما اعتبرنا، كما رأينا سابقاً أن السكان الأصليين لم يكونوا محسوبين. ونصف مليون كيلومتر مربع للجنوب منظمة قبلاً داخل دولة تكساس. وبهذه الطريقة تظهر الأمور متوازنة توازناً كافياً. لكن، عندما ترك بولك البيت الأبيض في العام 1849، كان قد حصل على نتيجة مختلفة تماماً. ففيما نص الجزء الشمالي، لم يصل إلى خط العرض '40 °54، كما كان الشمال يتمنى. وكان عليه الاكتفاء برسم الحدود بين الأوريغون وكندا عند خط العرض °49. وفيما خص الجنوب، بالمقابل، لم ينجح بالحصول فقط على موافقة ضم تكساس موسعة حتى الريو برافو، بل إنه نجح أيضاً بالاستيلاء على نيو مكسيكو (أكبر بكثير من نيو مكسيكو الحالية) وبالمناسبة عينها أخذ نصف كاليفورنيا (أي كاليفورنيا العليا والتي كانت تمتدّ إجمالاً على ولايات نيفادا وكاليفورنيا الحالية). هذا التوسع بالأراضي (من حيث المساحة) في جنوب الولايات المتحدة يطابق الولايات التي تحمل في أيامنا هذه أسماء تكساس، كاليفورنيا، نيفادا، يوتاه، أريزونا، الجزء الأكبر من نيو مكسيكو وبعض أجزاء من الأوكلاهوما وكولورادو والوايومنغ. وفي الشمال يطابق التوسع ولايات واشنطن، الأوريغون والايداهو. فكبر الشمال إذاً بأقل

من نصف مليون كيلومتر مربع بينما كبر الجنوب بحوالي مليونين ونصف مليون كيلومتر مربع. وقد بدت اعتبارات التوازن هذه بعض الشيء غير منطقية للذين لا يعرفون تاريخ السياسة الداخلية للولايات المتحدة. ولكنها تستعيد كل معناها عندما نعرف أن البلد في تلك الحقبة، كان عملياً مقسوماً إلى قسمين بالخط الذي يمتد على طول خط العرض '30 °36. فإلى شماله كل أراضي غنمتها الولايات المتحدة قبل عام 1820 هي حرّة، بينما الأراضي المكتسبة إلى جنوبه هي مستعبدة. وبما أن هذا التفاهم يدور حول انتساب «الميسوري» إلى الاتحاد ـ آخر ولاية على شمال هذا الخط انتسب إلى الاتحاد كولاية مستعبِدة في العام 1820 ـ أخذ هذا الاتفاق اسم «تفاهم الميسوري».

نرَى إذاً أن بولْك لم يفِ بوعوده الانتخابية أو بالأحرى، فقد ذهب أبعد بكثير من آمال محازبي الجنوب محبطاً بذلك أماني أولئك السكان في الشمال الذين كانوا يريدون رؤية بلدهم يمتد إلى روسيا الأميركية، التي أصبحت فيما بعد، معروفة تحت اسم ألاسكا. ثم تعقّد لاحقاً، كل شيء أكثر. لأن الخط الشهير '30 °36، قسّم بدوره الأراضي المأخوذة من المكسيك، ممّا لا يسهّل إمكانية حلّ النزاعات بين الأخوة الأعداء، في الشمال والجنوب. فنشأ عندها ما يدعوه المؤرخون باسم تقني «النزاع التقسيمي» (McPherson) أي الميل للتموضع في الرقعة السياسية، لا حول الأحزاب ولكن حول أقسام جغرافية. وبهذه الطريقة، برزت ثلاث مناطق تأثير: الجنوب، الشمال الشرقي والشمال الغربي (الغرب الأوسط). وكانت هذه الحالة، حسب المؤرخين أنفسهم، أحد الأسباب الرئيسية لحرب الانفصال الشهيرة في الولايات المتحدة. ولكن بولْك، كنظيره اليوغوسلافي سلوبودان ميلوسفيتش أي بعد مئة وخمسين عاماً، هو ركن فاعل في التاريخ (وليس مؤرخاً)، والذي كان مقتنعاً بأنه وطني يعمل لخير أمته. فكان يعتقد بأن الاضطرابات التي كان الكونغرس يثيرها اعتراضاً على ضم الأراضي المكسيكية، هي ليست «سيئة القصد فحسب بل إجرامية» (McPheron). وبالفعل أعفاه التاريخ من هذا الخطأ: اليوم فإن الأغلبية الواسعة لسكان الأراضي المستولى عليها من قبل بولْك، يشعرون بالفخر، كونهم مواطنين أبديين لهذه «الولايات المتحدة». ولتأكيد هذا الكلام، دعونا نثير مسألة أنه عبر الوقت الذي مرّ، كان ملايين من المكسيكيين يحتازون باستمرار هذه الأراضي الحدودية، ليس لاستعادتها، ولكن لمحاولة الاندماج في طريقة العيش الأميركية. فالسم

المكسيكي الذي طالما كان يخشاه إيمرسون، كان قد هُضم إذاً بشكل رائع منذ أجيال.

ولكن، كيف كان بولْك قد استولى على هذه الأراضي؟ في الشمال، بواسطة معاهدة، تفاوض فيها مع بريطانيا. وفي الجنوب، عبر اتفاق مع جمهورية تكساس، وحرب توسيعية مع المكسيك.

وفي الواقع فإن ضمّ (في اللغة الألمانية (Anschluß) تكساس، كان قد وضع الشروط التي أدّت إلى اندلاع الحرب مع المكسيك. هذه الجمهورية الصغيرة (صغيرة، ولكن ذات مساحة أكبر من فرنسا) كانت ترغب بشدة في الانخراط في الاتحاد منذ نشأتها في العام 1836. إلّا أن سياسة التوازن بين الشمال والجنوب في الولايات المتحدة كانت تحبط دائماً تطلعاتها. خطا بولك خطوته وأثار في ذلك استياء المكسيك الذي كان من قبل قد وجد صعوبة في هضم مسألة استقلال تلك الجمهورية العصية. وقد عرف بولْك كيف يوظف عداء المكسيكُ وقد أفهمتنا تصرفاته بصورة جلية أنه كان يفكر باستمرار أن يشن حرباً في حال لم يتمكن من شراء الأراضي المكسيكية. تُظهر كتاباته أنه لم يكن يريد فقط النجاح بضم تكساس بل كان يُمنّي النفس بإطالة حدود تكساس بشكل أفقي حتى المحيط الهادىء. إن منطقه بسيط شبيه بمنطق حسابات بائع أملاك. كانت المكسيك مُدينة للولايات المتحدة بشكل ضخم. خصوصاً بسبب التمرد على إسبانيا. والحروب الأهلية التي أتت بعد استقلالها لم تضبط الأمور. فاقترح بولْك إذاً بحل هذه الصعوبات الاقتصادية مقابل الكاليفورنياتين (العليا والسفلى) ومقابل نيو مكسيكو.

> قلت له [لبو كانان، وزير الخارجية]، أقرّ بولك في مذكراته، أنني كنت أعلم بأن حكومة المكسيك ليس لديها أية وسيلة لتدفع لنا ما في ذمتها (Nevins).

أمام رفض المكسيك، لم يعد هناك سوى إيجاد حجة لإثارة حرب. هذا سهل.

وبعد وقت قليل من وصوله إلى الرئاسة، أصدر بولك أمراً إلى أسطول الهادىء بأن يُجهّز للاستيلاء على المرافىء الكاليفورنية كإمكانية لوقوع حرب مع المكسيك. وفي خريف 1845، وتبعاً لمثل أحداث فلوريدا وتكساس، أعطى تعليمات إلى قنصله في مونتيري عاصمة كاليفورنيا لإثارة شعور مؤيد للضم من قبل الولايات المتحدة لدى

سكان المستعمرات الأميركيين وكذلك لدى المكسيكيين غير الراضين. وهذه رسالة من الرئيس بولك موجهة في أوكتوبر 1845 إلى القنصل لاركن في مونتيري، تدل بوضوح عن ذهنيته:

> لن يقوم الرئيس بأي مجهود، ولن يستغلّ نفوذه بحث كاليفورنيا بأن تصبح إحدى الولايات الحرة والمستقلة في الاتحاد. ولكن إن رغب هذا الشعب أن يقرن مصيره بمصيرنا، سيستقبل كأخ (Morrison).

في السنة التالية، عندما وصلت شائعة الحرب بين المكسيك والولايات المتحدة إلى وادي سكرمنتو طالب فريمونت الاختصاصي بمسح الأراضي وبعض سكان المستعمرات، باستقلال كاليفورنيا ورفعوا علم الدب grizzly الشهير.

وتبعاً للمنطق نفسه، أخذ بعض المتطوعين في ميسوري وفرقة من الجيش النظامي، درب سانتافي واتجهوا نحو عاصمة نيو مكسيكو:

> على رأسهم ستيفن واتس كيري، هؤلاء التنينين، احتلوا المدينة في 18 آب/ أوت سنة 1846 بلا نزاع (McPherson).

ولكن لنعد إلى تكساس، بما أننا هنا سنجد مصدر الحرب الرسمية، تلك الحرب التي أقرّت من الكونغرس.

كانت المناطق الإسبانية المحيطة بتكساس منذ الأبد، محدودة في الجنوب من الريو نويسز (Nueces) التي تنفذ على خليج المكسيك على مستوى كوربوس كريستي (Corpus Christi). ولكن، وبعد وقت قليل من ضم هذه الجمهورية في سنة 1845 من قبل الولايات المتحدة، بدأ القول إن حدود الولاية تقع أبعد بكثير في الجنوب، وعلى طول ريو برافو (او غراندي). وكان هذا الطرح يرتكز على حجتين مبهمتين إلى حد كافٍ.

الأولى تعود إلى لويزيانا الكبرى في القرن الثامن عشر. عندما كان التعبيران لويزيانا وفرنسا الجديدة يشكلان تعبيراً واحداً أيضاً. وفي هذه الحقبة كانت الممتلكات الأميركية لفرنسا لها حدود غير واضحة مبهمة بما يكفي، فالبعض يدّعي بأن تكساس توجد داخل لويزيانا التي تصل إلى حدود النهر الذي يسمى عندها (غراندي). ولكن حدود لويزيانا التي أعادتها إسبانيا إلى فرنسا سنة 1803، أي لويزيانا الغربية، لا تحوي تكساس. وفي حال أن هذا التحديد ما كان كافياً، فإن

هذه الحدود سيعاد تحديدها. كما سنرى، باتفاق على فلوريدا الذي وُقّع سنة 1819 من الوزير الإسباني أونيس (Onis) وعزيزنا جون كوينسي آدامس، وزير خارجية الرئيس مونرو آنذاك. إعتبرت تكساس عندئذٍ ككيان تحت السلطة الإسبانية ومنفصل عن لويزيانا. ومنذ ذلك الحين، فالحدود بين المنطقتين هي دائماً نفسها حتى اليوم: الريو سابينا (Rio Sabina) والريو روخو (Rio Rojo).

الحجة الثانية التي تدعي زيادة مساحة حدود تكساس حتى الريو غراندي (التي أخذت، مع الوقت اسم برافو)، هي أيضاً أكثر غرابة. فقد حصل أحدهم على طلب مصاغ من كونغرس تكساس في كانون الأول/ديسمبر سنة 1836، يؤكد بأن حدود تكساس من الجنوب تقع على هذا النهر. هذا الطرح لا يستند إلى أي شيء إضافي. ولكن هذا التفصيل هيّأ مع ذلك الشرارة التي أشعلت فتيل النزاع. ففي حزيران/جوان سنة 1845 أقام الجنرال تايلور (الذي أصبح رئيس الولايات المتحدة بعد أربع سنوات) معسكرة في كوربوس كريستي، على الضفة اليسرى من ريو نويسز. وفي 15 كانون الثاني/ جانفي سنة 1846، تلقى أمراً باجتياز نويسز. كما وصلت في 28 آذار/ مارس مجموعاته العسكرية إلى الضفة اليسرى من ريو برافو. ومدينة ماتاموروس تمتد من الجهة الأخرى للنهر. وكان يستفز حين ذاك الجيش المكسيكي، الذي كان قد تلقى أمراً بعدم الهجوم أو المهاجمة أولاً. ولكنه لم يتأخر بأن قام بذلك. وأمام هذا الهجوم غير المحتمل في أراضي الولايات المتحدة تبنّى الكونغرس، بالرغم عن تحفظ المعارضة الكبير، حلاً يعلن حالة الحرب ضد المكسيك (Alcaraz).

كانت المعارضة مؤلفة بشكل أساسي من الـ «ويغز» ـ الحزب الوارث الليبرالي لحزب Whig الانكليزي ـ ولديها ميل بدعم هؤلاء الذين يفكرون بأنه من غير الصائب بما يكفي أن تفرض المثل الأنسانية بقوة العصي الغليظة أولاً.

وقد أعلن، عند ذلك، في سنة 1846، المبشّر المعادي للرق تيودور باركر بأن الإنسانية ستقوم بخطوة كبيرة:

> إن كان يمكن لنا نشر فكرة أميركا في المكسيك ـ فكرة أن كل الناس يولدون أحراراً متساويين في الحقوق ـ إنما علينا أولاً جعل هذه الأفكار حقيقة ماثلة في بلدنا الأم (MacPherson).

ولم يكن باركر المبشر الطيّب، ربما يعلم بأن المكسيكيين سبق وعرفوا منذ وقت

لا بأس به بأن الناس كانوا قد ولدوا أحراراً ومتساويين. وكانت الدروس، في الواقع، يمكن أن تعطى بالاتجاه المعاكس. لأن الرئيس المكسيكي غيريّو، في بداية سنة 1830، كان قد منع الأميركيين الذين كانوا يريدون تأسيس العبودية من الهجرة إلى تكساس التي كانت آنذاك ما تزال مكسيكية. ولكن ينبغي ألّا نكون قساة مع المبشر باركر الذي لم يكن، بدون شك، على علمٍ بما كان يجري في المكسيك، والذي كانت لديه بكل تأكيد نوايا طيّبة. وواحد آخر كان لديه نوايا جد طيّبة هو نائب من الويغ (Whig) الحزب الليبرالي، وهو وافد جديد حصل على مقعد في مجلس المندوبين بفضل انتخابات سنة 1847.

إنه ذاك الصبي الكبير، المفكك المفاصل في حركته، ذو وجه محدّد الزوايا، ومثقوب بعينين رماديتين، يعلوه شعر أسود مبعثر، والمرتدي لثياب غير متناسقة، بشكل دائم، كان قد قدّم قراراتٍ تطالب بمعلومات عن المكان المحدد الذي كان المكسيكيون قد اطلقوا العداوات لإسالة الدم الأميركي. فرّد المجلس (الكونغرس) مقررات ابراهام لونكولن، ولكنه صدق على واحد، وهو، بالمقابل، مقرّر من ليبرالي آخر، وقد كان يؤكد بأن الحرب كانت «ثورة من الرئيس بدون جدوى وضد القانون». (McPherson).

ومع ذلك، فإن هذه الحرب ما كانت ضارة أو ضد القانون. لقد حصلت حقيقة وعرفت النجاح الأكثر دويّاً. وفي سنة 1846، عندما صادقت الأكثرية الديموقراطية على إعلان الحرب، شعر الليبراليون بأنهم مجبرون باللحاق بالحركة، وصادقوا كما الأغلبية، على ميزانية الحرب. ولكن نائباً ليبرالياً، وهو الشاهد قديماً، على زوال الحزب الفدرالي بسبب معارضته لحرب 1812 ضد بريطانيا العظمى، أكّد بسخرية بأنه، منذ الآن، مؤيد «للحرب، للطاعون والجوع» (McPherson).

أوليس س غرانت جنرال ورئيس الولايات المتحدة فيما بعد، لم يكن خلال الحملة على المكسيك إلّا ملازماً أول في الجيش شاباً ومع ذلك كان لامعاً، قد أشار، هو أيضاً، في مذكراته إلى فرسان الرعب الهائل لأنه يعرف بدون شك جملة النائب الليبرالي:

لقد أرسلونا لإثارة معركة، ولكن من الملح جداً أن تبدأها المكسيك. لم يكن متأكداً بأن الكونغرس يمكن أن يعلن الحرب. إلّا أن المكسيك هاجمت

فرقنا العسكرية. فالإدارة السياسية يمكن أن تعلن: «نحن الآن في حالة حرب نظراً للوقائع... الخ» وأن تتابع المعركة بحماس. وقد علمتنا التجربة بأن الإنسان الذي يعارض حرباً التزم فيها بلده، لا يهم إن كانت عادلة أو ظالمة، فإنه لن يحصل على مكانة مرغوبة لا في الحياة ولا في التاريخ، فمن الأفضل أن يقف إلى جانب «الحرب، الطاعون والجوع» بدل أن يعاند ويعارض حرباً كانت قد بدأت (Grant).

بعد حرب سنتين تقريباً، وتبعاً لتحليل غرانت فإن فكرتي العدالة أو الظلم لم تكونا جديرتين لأن تؤخذا بالاعتبار، شمال المكسيك محتل بشكل واسع ومدينة مكسيكو استبيحت من قبل فرق عسكرية تغلغلت في شرق البلد من مرفأ ماراكروز. وفي شباط/فيفري سنة 1848، كان على الجمهورية المكسيكية أن تذعن لتوقيع معاهدة غوادلوب ـ هيدالغو عقدت بموجبها اتفاق سلام وصداقة مع الولايات المتحدة وباعتها الأراضي الواسعة في كاليفورنيا العليا ونيومكسيكو. مما يعني نصف البلد. هذه البيعة[1] جعلتني أفكر بذلك المشهد من فيلم «العراب» حيث روى ميكايل كورليوني (آل باتشينو) إلى خطيبته ديان كيتون (Diane Keaton) حكاية والده الذي ذهب مع مرافقه لوكا برازي، لإقناع قائد أوركسترا بإلغاء عقد لأحد أبنائه بالمعمودية ليقدم له عرضاً لا يستطيع رفضه: فقد صوّب لوكا برازي مسدسه على صدغ قائد الأوركسترا، وقال له دون كورليوني ما هو خياره: إما أن يعارض التوقيع على هذا التنازل أو أن دماغه سيصبح أشلاء.

ولكن هذا ليس كل شيء. معاهدة السلام هذه، حب ومال، كادت أن لا توقع. ليس لأن المكسيك قد برهنت عن بعض سوء النية لأن المسدسات على الأصداغ تلطف الخصائل كثيراً، بل لأن المعاهدة تعرضت للخطر من أولئك السادة الديموقراطيين في الكونغرس الأميركي. لننظر إلى السهولة التي تغلغل فيها جنودهم في المكسيك ـ كما في الزبدة[2] ـ فتصوروا إذاً بأنهم يستطيعون أخذ المكسيك كلها ـ أو على الأقل بعض الولايات ـ ولا يريدون الاكتفاء بالنصف. ففي شهر تشرين

---

(1) 1515 مليوناً من الدولارات نقداً وإعادة شراء ديون مكتسبة من المكسيك لدى المواطنين الأميركيين.

(2) بما أننا كنا قد أشرنا الى العراب مع مارلون براندو، لنتذكر الآن مشهد الزبدة في (فيلم) «آخر تانغو في باريس».

الثاني/نوفمبر أصيب بولْك بالعدوى، فندم مجدداً على كونه أوفد مندوبه نيكولا تريست من أجل قطع المكسيك إلى قسمين. بهذا الشكل أصبح تريست لا حاجة كبيرة له: فلم يكن وحده فقط تعيساً لتعاسة وضعه ولكن ويا للتعاسة صار العالم كله تعيساً جداً جداً، عالم تعيس تماماً كتعاسة النمور الثلاثة في لعبة الكلمات الإسبانية، فتتردد الأحرف في جملة قصيرة. فالليبراليون الطيبون، ماتوا لأنهم لا يريدون تقاسم المكسيك. وتأسف الديموقراطيون بتعاسة للقرار التعيس باعتبارهم قد طلبوا القليل جداً. لا تطلبوا مني أن أصف التعاسة التعيسة للتعساء المكسيكيين المتعسين بشكل تعيس، لأن هناك حدوداً لكل شيء.

طلب بولْك إذاً من موفده العودة إلى واشنطن، ولكن «تريست» الذي يرى بتعاسة أنهم يطلبونه في الوقت الذي كان المكسيكيون فيه على استعداد للاستسلام، لم يطع الأوامر ووقع المعاهدة التعيسة التي أغرقت الجميع في التعاسة الأكثر عمقاً.

ولكن نهاية القصة كانت سعيدة:

> عندما وصلت معاهدة غوادلوب ـ هيدالغو إلى واشنطن في شباط/فبراير سنة 1848، تعامل معها بولْك في البداية باحتقار. وبعد تفكير معمق، أثناء ذلك، عرضها على مجلس الشيوخ حيث كان الليبراليون قد تجهزوا بعدد كاف، من الأصوات لردّ كل اتفاق موجّه إلى ضم قطعة أوسع من الأراضي المكسيكية. ولكن ربّما سيقبلون بإجازة وثيقة تمحو مظاهر الغزو بتعويض مالي. فقد بدت هذه الاستراتيجية نافعة؟ وهكذا صادق مجلس الشيوخ على المعاهدة بثمانية وثلاثين صوتاً ضد أربعة عشر، خمسة من أولئك الأخيرين، ينتمون إلى الديموقراطيين الذين لا يريدونها اطلاقاً (McPherson).

ابتلعت عندئذٍ الولايات المتحدة نصف المكسيك، ولتصديق إيمرسون، فقد تسمموا وعندها دخل الأميركيون في الطريق الذي ساقهم بعد 12 سنة إلى حرب أهلية دامية، أبادت خلالها 000 620 مواطن من البلد المختار من الله لإنارة العالم! وبفضل ذلك فإن النصف الآخر من المكسيك، وبقية العالم الآخر على الدرب، عليهم أن يتعلموا معنى كلمة الحرية برفس الأرجل، ولكن الاستراحة كانت قصيرة.

الفصل السادس

الثورة التحريرية

«لقد أثار بيننا العصيان الداخلي»
من إعلان استقلال الولايات المتحدة

في التدخل الإنساني

أريد أن أقول للمرّة الأخيرة وليكن هذا واضحاً تماماً: لا أفكر بأن الولايات المتحدة ابتكرت التدخل الإنساني، فالإسبان كي لا نذكر الأهم، سبق ومارسوه بسخاء على مدى القرن السادس عشر، لبناء أمبراطوريتهم. وقد طبقه دون هيرمان كورتيس، في البلاد المعروفة الآن تحت اسم المكسيك لتحرير شعب مقهور بعاداته الخاصة السيئة. لنستمع إلى قصة برنال ديار دل كاستيللو، أحد مرافقي الغزوات الأولى لكورتيس:

> كل يوم كانوا يضحّون أمام أعيننا بثلاثة أو أربعة هنود وكانت قلوبهم مهداة للأوثان. وكان الدم يضرّج الحيطان ثم كانوا يقطعون سيقانهم وأذرعتهم وأفخاذهم ويأكلونها [...] حتى أنني سحقت بأنهم كانوا يبيعونها في التيانغيس (Les Tiangues) أسواقهم؛ وقد [قلنا] لهم إنهم اذا ابتعدوا عن أعمال مخزية كهذه، وما عادوا يمارسونها مطلقاً، لن نصبح أصدقاءهم فقط، ولكن، سيصبحون أسياداً في أقاليم أخرى. ولقد أجابهم جميع قادة القبائل العقلاء، الروحيين، والمحترمين بأنهم لا يجدون في مذهبهم ما يجعلهم يتركون أوثانهم وذبائحهم وبأن آلهتهم وهبتهم الصحة والزراعة الجيدة،

وكل ما هم بحاجة إليه. أما بالنسبة لموضوع العلاقات الجنسية الشاذة، فلا يرون أنهم يريدون التخلص منها. لقد رأينا كل هذه القساوة والفظاعات [...] ولم نستطع أن نتحملها أكثر. [...] عاجلنا كورتيس بأن نستثمر عقائدنا المقدسة والحسنة، كيف يمكن لنا أن نشعر بأننا محترمون ـ قال لنا ـ إن لم نتصرف باسم الله لإزالة هذه الذبائح التي يقدمونها لأوثانهم؟ وقال لنا أن نكون جاهزين للقتال إن أرادوا يوماً أن يمنعونا في إطاحتها، ولكن وفي هذا اليوم بالذات ولو كلفنا ذلك حياتنا يجب أن ترمى هذه الأوثان أيضاً.

إن أكبر المدافعين عندنا عن عقيدة التدخل الإنساني المناضلة برنار هنري ليفي، والدكتور كوشنير على رأسهم ما كان لهم أن يظهروا هذا القدر من الفصاحة. إننا واعون (على الأقل اتمنى هذا) من كبر الأضرار الجانبية من تدخل كورتيس. ومع ذلك يجب تلطيف تحليلنا بعض الشيء. إن كان هيرنان كورتيس وغيره من الشخصيات الشهيرة قد اتكبوا على العمل المضني العظيم في تعليم العالم ما يجب أو لا يجب عمله، فينبغي أن نعرف أن الولايات المتحدة أعطت للتدخل الإنساني الشكل الأكثر اتقاناً الذي يُمارس في أيامنا. لقد اتقنوا تقنيةً خاصة، والتي سأسميها باسم **الثورة الموجهة من بعد**، والتي تقوم أساساً على مساعدة الحركات الثورية التي تصبّ في معنى العدالة الأميركية، وفي حالة الإخفاق، ينبغي خلق هذه الحالة بكل الوسائل.

وسيجعل الاتحاد السوفياتي، بعد قرن، وهو التلميذ الأفضل لأمبراطورية الحرية، كما سنرى، من هذه التقنيات، تقنياته لبناء أمبراطوريته الخاصة به. طبعاً، إن كورتيس، سبق واستعمل طرقاً شبيهة للتغلب على ثوار المكسيك، ولكنه كان محدوداً بالقيام بتجارب تطبيقية، لأن الحظ لعب دوراً لا بأس بأهميته كذلك. وفي المقابل فإن الحركات التحررية مدعومة أو محرَّضة من الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر، حتى وإن ما زال لديها جانب كبير من النزعة العملية، هذه الحركات تحمل الآن ختم التجربة العلمية المميزة جداً للبلد الذي نجح أن يسير هناك «حيث لم تطأ قدم الإنسان أبداً»، أي أن يسير على سطح القمر(*).

لن أستطيع لسوء الحظ أن أحلل هنا كل الحركات التحررية مدعومة أو مبتدعة دون

(*) Hergé, *On a marché sur la lune*, *Casterman*, 1982, p.29'.

أساس من الولايات المتحدة منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى النقاط الأربع عشر الشهيرة للرئيس ويلسون في كانون الثاني/جانفي 1918. ففي الجزء الأول ذلك، اقترح القيام فقط بقفزة من فوق فلوريدا، تكساس، باناما، نيكاراغوا، نعجة أميركا «الجربانة»، كوبا التي لا تعاشر وغير المحتملة. وسألقي في المناسبة نفسها ضوءاً خاطفاً على عقيدة مونرو الشهيرة، آلة الحرب الديبلوماسية الرهيبة التي ارتكزت عليها الذراع الواقية التي وجهتها على قارة أميركا.

فلوريدا 1810 ـ 1821

لنعد إلى سنة 1810، بعد أربع سنوات من شراء لويزيانا، وقبل ثمانٍ وثمانين سنة من سلب كاليفورنيا العليا ونيو مكسيكو. ففي الفصل السابق، رأينا كيف أن شراء لويزيانا أعطى الحجة بأن تدّعي الولايات المتحدة بعض الحقوق على تكساس. وفلوريدا، الأقليم الذي هو أيضاً مجاور للويزيانا، والذي لم ينج من الانجرار إلى الأجواء المضطربة الناجمة عن تلك الصفقة.

لقد رأينا بأنه كان واضحاً بأن ما أعادته إسبانيا إلى فرنسا بمعاهدة سان إلديفونسو، تصل حدوده إلى لويزيانا التي كان قد عهدها لويس الخامس عشر إلى إسبانيا سنة 1762، عنينا أرضاً لا تحوي إطلاقاً أقليماً بدايته تقريباً من باتون روج ليصل موبايل، لأن هذه المنطقة سنة 1763 ـ مثل كل ما يتواجد على الضفة اليسرى من المسيسيبي ـ سيستولي عليها البريطانيون. فعندما باع نابوليون لويزيانه الزائلة (لم يملكها إلّا خلال دقيقتين) إنه لواضح تماماً أيضاً، (وهو منطقي) بأن يتنازل للولايات المتحدة فقط عن الأرض التي استرجعها من إسبانيا والتي لا تحوي إقليم باتون روج الذي انتزعه الإسبان في وقت ما من الانكليز في 1780. ولكن الأميركيين استغلوا جملة صغيرة موجودة في المعاهدة المعقودة مع بونابرت لخلق تشويش حقيقي: تتخلى فرنسا عن لويزيانا «ضمن نفس الامتداد الذي تملكه اليوم عندما كان بين أيدي إسبانيا، والامتداد الآخر الذي كان عليه عندما كان يعود إلى فرنسا». **الذي كان عليه عندما يعود إلى فرنسا**، هذا التحديد غير الدقيق فتح ثغرة قانونية لا يمكن أن تمر مرور الكرام. فحسب رأي هنري آدامس إن ليفنغستون الذي وقع اتفاق 1800 مع بونابرت برهن أن هذه الجملة تعود إلى تلك الحقبة البدائية عندما كانت سهول أميركا الشمالية

الشاسعة الفرنسية تُسمّى فرنسا ـ الجديدة أو لويزيانا. وبموجب هذا المنطق كان يتوجب على فلوريدا الغربية أن تدخل آلياً إلى ملكية الولايات المتحدة خلال بيع لويزيانا في سنة 1803. وكان رفض إسبانيا يمكن استخدامه كـ «ذريعة مناسبة» لشن حرب للغزو. ولكن الحرب لم تكن أسلوب جيفرسون بالحقيقة لأنه كان ينصح دائماً بسياسة الانتظار الصبور، بمقدار ما يعرف بأن صراعاً في هذه المنطقة يمكن له أن يجلب عداء بونابرت الكثير الحركة. فجيفرسون وفريقه من الرئيسين اللاحقين (ماديسون وزير الخارجية، ومونرو مسؤول الأعمال في باريس) اختاروا إذاً، ضمن الحدود الممكنة، السعي لاستقطاب للحصول على بركات القنصل الأول. لقد تفهموا جيداً تاليران، عندما أعلن بأمر من نابوليون، بأن «الولايات المتحدة ليس لها أي حق بالمطالبة بفلوريدا الغربية» فارتأى جيفرسون إذاً شراء مباركة الفرنسيين. «لسنا بحاجة لمعرفة من سيجني المال» قال هذا جيفرسون فيما خص المبلغ المقدر للشراء المحتمل لفلوريدا الغربية من إسبانيا وأضاف: «إن زيادة هذا المبلغ يمكن أن يكون طعماً لفرنسا»، ولكن نجاحات نابوليون بعد سلام تلسيت الموقع مع روسيا في 7 تموز/ جويليه 1807، فتحت له أبواب مملكة إسبانيا ولهذا السبب، فإن المستعمرات الإسبانية يجب أن تبقى على حالها دون تغيير، بما أنها يجب أن تقضي بعد ذلك تحت أمرة الأمبراطور. وفي غضون ذلك تأرجح التوازن من جديد مع الثورة الإسبانية في 2 أيار/ماي سنة 1808. فقد أراد الشعب الإسباني التخلص، بهتاف «تحيا السلاسل»، من الحرية التي أهداه إياها الفرنسيون وأمبراطوريتهم الثورية. لم يتأخر الانكليز في دعم هذا الهجوم المضاد، وقد هزم ويلنغتون (Wellington) الأمبراطور في تالافيرا في جويليه 1809. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد يهتم نابوليون بسلامة الأمبراطورية الإسبانية التي خرجت مذّاك من دائرة نفوذه. وهكذا فإن سياسة الانتظار الصبور التي أوصى بها جيفرسون، بدأت تحمل ثمارها تحت رئاسة ماديسون (1809 ـ 1817). ففي الفترة الأولى، قرر السكان الشمال أميركيون لغرب فليسيانا في فلوريدا الغربية تشكيل فريق سيحكم مع السلطات الإسبانية. وفي 25 تموز/جويليه 1810، اجتمع مجلس وطني، وقد اتهم الحاكم الإسباني، بعد وقت، بالخيانة وهاجم باتون روج، العاصمة، لإعلان الدولة الحرة المستقلة في غرب فلوريدا. وبعد عدة أيام، تلقى روبير سميث وزير خارجية الرئيس ماديسون رسالة من رئيس غرب فلوريدا مطالباً بإلحاح، الارتباط بالولايات المتحدة. ولكن ماديسون، لا يستطيع

عملياً أن يضم أرضاً، أعتبرها في تلك الساعة جزءاً مكمّلاً للولايات المتحدة. فأخذ إذن تدابير من أجل أن يحتلّ حاكم لويزيانا الأقليم بفرقهِ العسكرية، دون أن ينتظر هذه المرة موافقة الكونغرس.

إن الاستيلاء على باتون روج أمّنت للولايات المتحدة السيطرة المطلقة على ضفتي مصب المسيسيبّي. ولكن جمهورية غرب فلوريدا القصيرة الأمد ليست سوى جزء من فلوريدا الغربية. وللإمساك بالباقي وبالتالي بفلوريدا الشرقية، لم يكن على ماديسون إلا أن يستمرّ بسياسة جيفرسون الصبورة التي نصحه بها دائماً في وقت سابق. وحدث ظرف غير مرتقب، ساعد أولاً الرئيس: فقد شعر فلوش الحاكم الإسباني على ما تبقى من فلوريدا الغربية، شعر بنفسه مهملاً من حكومته المثقلة بالحروب النابوليونية وأوائل انتفاضات الاستقلاليين في المستعمرات الأميركية. ولخوفه من هجوم ضد موبايل من قبل الثوريين غير المراقبين، فضّل فلوش أن يعلم وزير الخارجية روبير سميث بأنه اذا لم يتلق مساعدة من قبل إسبانيا قبل أول كانون الثاني/جانفي سنة 1811، فإنه سيقبل أن يضع أرضه تحت حماية الحكومة الأميركية. اغتنم ماديسون الفرصة، ليس لأنه لم يؤمن موافقة الكونغرس هذه المرة ولكن بسبب قلة حظ ما، عندما التقى مفوض الرئيس، الجنرال ماتيوس، فلوش، كان هذا الأخير قد أعاد اتصاله مع حكومته.

أدرك ماتيوس عندها فكرة تصدير نموذج الباتون روج إلى فلوريدا، الاستنجاد بشعب الإقليم. وفي رسالتين مؤرختين على التوالي في 28 حزيران/جوان و3 آب/أوت 1811، شرح مخططاته إلى وزير الخارجية الجديد الرئيس القادم مونرو:

> «سأدير هذه القضية بالطريقة الأكثر سرية لأتحاشى تعرض الحكومة للخطر»[1] (Henry Adams).

كان ماتيوس في الحقيقة قد حضّر فرقةً من مئتي رجل في پوينت پتره Point Petre قرب نهر ريو سانتا ماريا الذي يوضّح (وما زالت إلى اليوم) الحدود بين جيورجيا وفلوريدا على الواجهة الأطلسية، وقد كان رجاله متطوعين من ميليشيا جيش جيورجيا، وهم جنود من پوينت پتره ومغامرون من الجوار.

---

(1) جملة ماتيوس هذه جعلتني أفكر في بداية المسلسل التلفزيوني «مهمة مستحيلة» حيث حذّر الشريط المسجل قائد الكوماندوس بأن الحكومة ستنفي عنها كل مسؤولية إن وقع مرتزقته في الأسر.

وفي عبورهم نهر ريو سانتا ماريا في 16 آذار/مارس 1812، هاجموا فرنندينا، أول مدينة في الساحل الشرقي من فلوريدا. ولم يكن المتمردون وحيدين. للملك فإن سُفناً أميركيةً، قادمةً من مرفأ جيورجي من شارلستون بإدارة الكابتن كامبل، أخذت مواقع لها على النهر. أما لوپيز، قائد الأسطول الإسباني في فرنندينا، فقد استعلم لدى كامبل إن كانت أساطيله ستهاجم في حال إن اطلق هو النار على المتمردين. وأمام الجواب الإيجابي، أراد الإسباني أن يسلّم المنطقة بشرف، باستسلامه لماتيوس، النقيب عند شارلستون وعلى الأقل لقائد الفرقة الآتية من پوينت پتره. فأجابه الجنود الشمال أميركيون بأنهم لا يريدون التدخل في شؤون المتمردين، فلم يستطع لوپيز أن يسلّم أمره إلّا إلى قائدهم، الكولونيل آشلي.

وهكذا رأت جمهورية فلوريدا النور. فانتخب ماكنتوش، جنرال شرس، الذي أقام بعض الوقت في هذه المنطقة الإسبانية والذي أقام أيضاً لفترة قصيرة في سجون هاڤانا، حاكماً للجمهورية. وكان قائد الجيش هو الجنرال آشلي:

> كان عَلَمُ الأمةِ الجديدة مؤثراً: جندي في زيه الرسمي الأزرق، يبرز بوضوح على رقعة القماش البيضاء ممتشقاً الحربة. وكان شعار «صوت الشعب هو القانون الأسمى» يكمل الرمز. وسلطات شعب فلوريدا الجديدة سارعت في الالتئام، وكما قُدّر، ضُمّت «الجمهورية» إلى الولايات المتحدة وحوّلت سلطاتها إلى موظفين شمال أميركين. (غويّرا).

3 كانون الثاني/جانڤي 1813 هو تاريخ الضم الرسمي. فقد ساق راميرو غويّرا الشرح التالي:

> «إن سابقة الباتون روج تتكرّر حرفياً».

ومع ذلك فإن هاتين المحاولتين السابقتين، إحداهما في الغرب والأخرى في شرق فلوريدا الإسبانية أفادت في بناء قواعد حرب انفصال تكساس.

ولكن علينا ألّا نتسرع، فليست الأمور بهذه البساطة.

لقد رأينا أنه منذ العام 1820 قسّم البلد إلى قسمين باتفاق ميسوري. وفي الحقيقة إن البلد مجزأ منذ إنشاء الولايات المتحدة تحديداً، ممّا يعني منذ إعلان دستور

1787. وفي تلك السنة اتخذت ترتيبات الشمال ـ الغربي التي منعت التشريع الخاص (كلمة ملطّفة. استعملت للإشارة إلى الرق) في أراضي الشمال الغربي الجديدة. ومنذ ذلك الوقت تحدّدت الفروقات ونقاط الخلاف بين الشمال والجنوب، كما بدأت مسألة التوازن بين الفريقين تصبح أساسية[1].

دعونا نقارن هذه الوضعية بتلك الوضعية المتفجرة التي كانت سائدة في أوروبا الوسطى قبل الحرب العالمية الأولى: لم تستطع أية قوة أن تمسك بأرض أو منطقة نفوذ دون أن تخلق فوضى حقيقية عند الآخرين. ونعرف كيف انتهى ذلك، ولأجل هذا السبب، فقد بدأ الشماليون وقد وضعوا أمام احتمال ضم فلوريدا الإسبانية كلها، وليس فقط جمهوريات غربية صغيرة «كغرب فلوريدا» أو شرقية «كجمهورية فلوريدا»، قلنا إنّ الشماليين بدأوا بالتفكير بأن ذلك يمكن أن يخلق خللاً والذي بدوره يمكن أن يكون غير مناسب.

ولتعقيد الأمور، حصل هذا كله على أساس الأزمة مع بريطانيا العظمى. وهكذا أخذت قضية فلوريدا شكلاً من أشكال الوضع الجيوسياسي والجنرال ماتيو الذي كسب أرضاً في فلوريدا الشرقية بتقدمه نحو سان أوغوستان، ما فتئ أن شكره على ذلك الرئيس ماديسون الذي وضع على رأس الثورة، ميتشل، حاكم جيورجيا المجاورة. هكذا كانت حالة الأمور عندما أعلنت الحرب على انكلترا في 18 حزيران/جوان 1812:

> كان ضم كندا مرغوباً بقوة من رجال الشمال ـ الغربي. كان الجنوب يسعى [...] للإمساك بفلوريدا، كما وجد رجال الكونغرس، في وجه معارضة عدد من ولايات إنكلترا الجديدة [الشمال الشرقي] ـ التي لا تريد قطع العلاقة مع البريطانيين ولا ترك الجنوب ينمّي قوته بواسطة كسب أراضٍ جديدة ـ، وجد

---

(1) ربما من هنا أتى ولع الولايات المتحدة بتقسيم كل شيء إلى قسمين. بعد أول تقسيم في 1787، قسّموا مرة أخرى بلدهم إلى قسمين في سنة 1820 على خط 30' 36° خلال اتفاق ميسوري. ثم قسّموا المكسيك وكاليفورنيا الى قسمين. وبعد ذلك تسلّوا بتقسيم كولومبيا الى كولومبيا وباناما. ثم باناما إلى منطقة القناة ومنطقة حرة. بعد الحرب العالمية الثانية هذا الولع أصبح هوساً تقريباً: أوروبا، ألمانيا، برلين، كوريا، الصين، فيتنام، العراق، البوسنة والهرسك ـ يوغوسلافيا. ولكن هذا كله لم يكن سوى خطأ الشيوعية. يصعب معرفة ذلك!

هؤلاء الجزئين الداعمين للتوسع [الشمال ـ الغربي ـ والجنوب] فائدة مشتركة. وقد تصبح كندا ملحقة وكذلك فلوريدا. استيلاء يوازي الآخر. فقد قدم نائب من جيورجيا، هو ثروب، بموافقة رئيس السلطة التنفيذية، حلاً لمجلس النواب، في اليوم التالي من إعلان الحرب، حيث يطلب فيه الأخذ بالاعتبار الموافقة على أمر الرئيس باحتلال جزء ما من فلوريدا الغربية الذي بقي تحت أمرة الإسبان وفلوريدا الشرقية كلها (غويًرا).

ومع ذلك، وبالرغم من أن مجلس النواب تبنّى مشروع الحل، فقد أعاده مجلس الشيوخ بـ 16 صوتاً مقابل 14 وبقي الوضع إذاً محصوراً بمناوشات شبيهة بتلك التي كانت مدبّرةً من ماثيوس أو ميتشل. وهكذا فإن جمهورية فلوريدا الصغيرة والوحيدة المقامة حول فرنندينا، استطاعت أن تنضم سنة 1813. وضمٌّ كهذا، لا يمكن له مع ذلك، أن يصمد وقتاً طويلاً، كما سنرى فيما بعد. وفي غضون ذلك، ظهر اندرو جاكسون وتقلّد إمرة جيش تنيسي لتنظيم بعض عمليات التطهير العرقي ضد السيمينول مما أعطاه حجة ممتازة لاجتياز حدود فلوريدا.

وفي السنة التالية سيأتي دور قيصر كل روسيا، الكسندر الأول بافلوفيتش، لدخول المسرح. وفي الوقت عينه، خُدع القيصر من نابوليون الذي وجه غزوته الشهيرة ضد روسيا عدوة الكورسيكي اللدودة فدخلت انكلترا الحرب مع الولايات المتحدة. هذه المصادفة لم تمرّ بكل تأكيد خفيةً في سان بطرسبورغ. وبالتالي فإن الوساطة الروسية لتهدئة النفوس في أميركا، لم تحصل إلّا بعد سنة تقريباً عندما كانت الجيوش النابوليونية قد انسحبت من روسيا. وهكذا يتمثل الوضع: إسبانيا وانكلترا، متحالفتان ضد نابوليون، وهما في الوقت نفسه، الحليفتان الموضوعيتان للقيصر. ولكن صراعهما مع الولايات المتحدة كان سبباً في إضعافهما. فلنحاول معالجة هذا الوضع، فالسفير الروسي في واشنطن، داتشكوف، اقترح وساطته في 8 أيار/ماي سنة 1813، وذلك بأن تُحلّ بأسرع وقت ممكن الصراعات التي تواجه الولايات المتحدة مع إسبانيا وانكلترا. فلم يمنع ذلك، حتى وإن خفّ التشنج بينهم، الانكليز من أن يقدموا خدمةً لم يستطع إنسان آخر (حتى اليابانيون) أن يقدمها منذ ذلك الحين: نهب واشنطن وإحراقها. وفي المقابل اصطلحت الأمور في فلوريدا بينهم. فتخلت الولايات المتحدة عن فرنندينا وانسحب الجيش النظامي وحتى ميليشيا القائد اندرو جاكسون

توجّب عليها أن تتوارى لبعض الوقت. وخلال ربيع 1814 أكّد الرئيس مجدداً على هذه الترتيبات بقطع كل علاقة مع وطنيي فلوريدا، وانتهت الثورة بانطفائها. ثم عقد السلام مع انكلترا. وفي هذا الوقت كان نابوليون قد وجد نفسه في حالة الدفاع كلياً.

بعد ذلك في 1817، ستعطي المكسيك الحجة لتدخل جديد في فلوريدا. فقد رست مراكب مغامر فرنسي، هو لوي أوري، الذي شارك مع الحكومة المتمردة في المكسيك، عند مدخل ريّو سانتا ماريّا. فقام ثوار فرنندينا لمساعدته؛ قبل أوري بذلك ولكن بشرط واحد وهو أن يرى علم المكسيك يرفرف فوق المدينة. وهذا ما حصل في تشرين الأول/أوكتوبر فلم تحتمل حكومة الرئيس الجديد مونرو (1817 ـ 1825) صنعاً هذه السلطة الجديدة. فأرسل بسرعة جنوده إلى منطقة فرنندينا.

خلال هذا الوقت، في الطرف الآخر من حدود فلوريدا، وفي الجزء الغربي هبّ أندرو جاكسون من جديد لمطاردة السيمينول والذين لم يرضوا عن الحياة التي فرضها عليهم الغزاة. فقد حثّ نزاع بالغ الدموية افتعله السيمينول في أواخر 1817 (Debo) السلطات الفدرالية بأن تحاول إيجاد حل نهائي للقضية الهندية. في 26 ديسمبر 1817 (Debo)، نقل الجنرال غينز المقيم في فرنندينا التي كان قد احتلها، أمراً للجنرال جاكسون بمعاقبة الحُمر بقساوة. وقد قبل الجنرال الثائر فوراً. وحسب راميرو غويّرا، ربما كان هو صاحب هذه الجملة: «الهندي الميت هو الهندي الجيد». حتى وإن أخذ هذه الجملة من ذهنية أكثر خيالية من ذهنيته، فمن المؤكد أن كرهه للسكان الأصليين هو نفسه، على الأقل، الذي يشعر به نحو الاسبان. وهكذا قد يدخل بحبور إلى فلوريدا مبرهناً ـ وهذا ليس بالتأكيد خطأ ـ أن السيمينول يبحثون في اللجوء إلى الأماكن الإسبانية وبأنهم يتلقون مساعدة من قبلهم. ولم يتوقف إلا في بنساكولا على خليج المكسيك، وهو بصدد أخذ اتجاه الشمال ـ الشرقي ليسير نحو سان أوغوستان على بُعد بعض الكيلومترات من جنوب فرنندينا، على شاطىء الأطلسي. عندها أوقفه أمر من الحكومة الفدرالية في الحال. هذا التغيير المفاجىء لسياسة واشنطن يرجع، بطريقة غير مباشرة إلى حماسة الجنرال نفسه الذي أعْدمَ انكليزيين اثنين متهمَيْن بأنهما شريكان للهنود والذي سبب حادثاً ديبلوماسياً مع بريطانيا العظمى. هكذا تفصيل، مقترناً بالصراع الذي ولّده هذا الاجتياح لإسبانيا أدّى إلى انسحاب جديد للولايات المتحدة من فلوريدا.

وقد أدرك ملك إسبانيا، مجهداً من كل هذه التقلبات مع جاره العنيد، فكرةً، لا تبدو سيئة على الورق. بما أنه يحضر سنة 1820 حملةً كبيرة لإعادة مستعمراته الأميركية المتمردة، فقد كان عليه أن يتذكر التقديمات النقدية من جيفرسون لاكتساب فلوريدا. وهكذا، سيموّل حملته ويتخلص من هذه الأراضي التي لا تَجْلُبُ له إلّا أوجاع الرأس. فاستغلّ الفرصة لتحديد حدود الأمبراطوريتين، للمرة الأخيرة. في المعاهدة الموقعة في 22 شباط/فيفري 1819 من الوزير المفوض لإسبانيا، دون لويس دي أونيس، ووزير الخارجية جون كوينسي أدامس فمن الواضح أن تكساس منطقة من إسبانيا الجديدة، ويفصلها عن الولايات المتحدة نهرا ريّو روخو وريّو سابينا وحدود أخرى ـ حسب الانهار وخطوط الطول وخطوط العرض ـ حدّدت الملكيّتين حتى البحر الكبير الجنوبي على الهادي. والبند الثالث الذي رسم ووصف هذه الخطوط، انتهى على النحو التالي:

> تعهّد الفريقان الكبيران المتعاقدان على التنازل والتخلي عن كل حقوقهما، ومطالبهما وادعاءاتهما المتعلقة بالأراضي المحدّدة على هذا الخط. وينص على أن صاحب الجلالة [فرديناند السابع] يترك ويتخلّى إلى الأبد باسمه وباسم ورثته وخلفائه عن كل الحقوق التي يملكها على الأراضي في الشرق والشمال من الخط المذكور؛ والولايات المتحدة بالطريقة نفسها تترك لجلالته وتتخلى إلى الأبد عن كل الحقوق والمطالب والادعاءات المتعلقة بكل أرض واقعة في غرب وجنوب الخط نفسه المذكور سابقاً (Alcaraz).

وفي 10 تموز/جويليه 1821، بعد سنتين من توقيع هذا الاتفاق، أقيم احتفال انتقال فلوريدا في سان أوغوستان، وهي مدينة تأسست في سنة 1565، التي أصبحت عندئذٍ الأقدم في الولايات المتحدة. وسُمّي الجنرال العدواني جاكسون حاكماً لهذه الولاية الناشئة.

ولكن شهيّة القوة العاتية إلى الأراضي لم تتوقف هنا. فما أن تنتهي من هضم قطعة حتى تريد أخرى. وتكساس كانت الطبق التالي المسجل على لائحة الطعام. ولكن ذلك لم يكن أبداً مشكلة إسبانية. ولأجل هذا، وخلال السنة نفسها 1821، انهت المستعمرات الإسبانية نضالها للاستقلال. وأصبحت تكساس مكسيكية. وبقي مبلغ بيع فلوريدا المقدّر مبدئياً لتطويع متمردين في جيب فرديناند السابع في هكذا ظروف، وقد أتى هذا في محله، بما أنه بحاجة لمواجهة الثورة الدستورية في بلده نفسه، وهي

ثورة، وبسخرية القدر، قد اندلعت في الأندلس من قبل العسكر الذين كانوا من المتوجب عليهم أن يلعبوا لغزو أميركا.

مع ذلك، فإنّ خبراً، بعد سنتين، بدأ ينتشر بالنسبة لحملة إعادة غزو أوروبية-إسبانية. وهكذا اكتشفت الأمم الجديدة أن لها أخاً كبيراً يقدّم لها بسخاء نوعاً من الدرع المضاد للقذائف سابقاً للعصر.

الانسداد الأول: أميركا للأميركيين (1823).

في 16 سبتمبر 1821 وضع القيصر الكسندر الأول توقيعه على قرار قيصري (oukase)، يمنع فيه الجميع، ما عدا شخصيات روس معينة، الصيد والتجارة والإبحار داخل بحر بيرنغ وحتى مئة ميل إيطالي أي حوالي 148 كم، في الشريط الساحلي الغربي لأميركا الشمالية ذهاباً حتى خط عرض 51.

وفي ربيع عام 1821، دخلت الفرقة العسكرية الفرنسية بقيادة لوي انطوان دارتواز، دوق أنغوليم (Angoulême)، إسبانيا لإخضاع ما تبقى من الحكومة الليبرالية، لكورتيس دو كاديكس (Cortès de Cadix) وإعادة فرديناند الثاني كملك مطلق. وعندها بدأت شائعات تروج فيما خص ميثاق التحالف المقدس (روسيا، بروسيا والنمسا) وفرنسا لويس الثامن عشر لمساعدة إسبانيا على إعادة غزو مستعمراتها الأميركية.

لقد فكّرنا مطولاً (وكذلك في أيامنا هذه بعض المؤرخين يعلمون هذا) بأن هاتين الحادثتين، قرار (Oukase) القيصر والغزو الإسباني، هما مصدر الرسالة الشهيرة في 2 كانون الثاني/ جانفي 1823، والتي تحمل اسم عقيدة مونرو. فرسالة الرئيس هذه للكونغرس الأميركي تُظهر بشكل أساسي مطلبين جديدين بالسياسة الخارجية: إغلاق القارة الأميركية على إنشاء مستعمرات جديدة أوروبية ومنع كل محاولة تدخل في الجمهوريات الأميركية الجديدة المنعتقة من إسبانيا. عندما رأت أن الولايات المتحدة، فرضت نفسها ضامناً لاستقلال الجمهوريات الجديدة ضد كل تدخل أوروبي سواء كان هذا التدخل إسبانياً أم غيرها، فقد فسّرت بعض الحكومات الأميركية هذا الإعلان باعتباره الضمانة حسنة بالنسبة إليهم. ولكن، ومنذ وقت طويل سبر المؤرخون العمق المبهم لرسالة الرئيس مونرو التي أصبحت مع الوقت شديدة العدوانية. وقد لخص المؤرّخ كلود فوهلن بالطريقة التالية تطور عقيدة مونرو:

> بالنسبة للولايات الجديدة في أميركا اللاتينية، تُرجمت هذه العقيدة بسياسة اللاتحالف النظامي (رفض التدخل في كونغرس باناما 1826)، وبالنسبة للقوى

> الأوروبية استخدمت عقيدة مونرو، بمناسبة هذا التدخل أو ذاك، لتبرير سياسة الصدّ: كما حصل في المحاولة الانكلو ـ فرنسية، خلال قضية تكساس 1845[1] بتهديد انكليزي وإسباني على يوكاتان في 1848[2]. وكانت التطبيقات نادرة، وقد رأينا ذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر وبطريقة دفاعية دائماً. والقصة الحقيقية لعقيدة مونرو، تبدأ مع نهاية القرن التاسع عشر، وعندما أصبحت عدوانية وتستخدم لتبرير الضم الأميركي: من منع التدخلات الاوروبية، أصبحت تبريراً للتدخلات الأميركية[3]. (فوهلن 1969)

وراميرو وغويّرا، الذي كتب في الثلاثينات من القرن العشرين، كان واعياً لكل هذا. فقد أظهر استراتيجية وزير الخارجية اللامع جون كوينسي آدامس: في الحقيقة إن آدامس لم يتقبّل نص مونرو لدحض القيصر أو التحالف المقدس لأنه لا يخاف منهم.

> إن الترجمة المغلوطة كانت وما زالت تتكرر، ولكن الحقيقة التاريخيّة مختلفة تماماً [...] كان إعلان العقيدة نتيجة مباشرة للمواجهة بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى في كوبا سنة 1822 وسنة 1823. لقد مثلت هذه العقيدة عدائية ديلوماسية ضد الانكليز. وكان هدفها العميق هو خدمة أسباب التوسع. إن مذكرات آدامس لم تترك أي شك بصدد ذلك، فإعلان العقيدة هو جزء من سلسلة المنافسة الأنكلو ـ أميركية في أميركا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ وفي معنى أكثر حصرية، الحرب الديلوماسية بين آدامس وكانينغ. (Guerra)

---

(1) «إن إنكلترا وفرنسا عملتا لحث التكساسيين على التمسك باستقلالهم. لقد تمنتا جعل الجمهورية الجديدة حصناً ضد التوسع الشمال ـ أميركي في الغرب، وبالاستفادة من التصرف الذي اتخذته إسبانيا بالنسبة إلى أول رجال الحدود قبل أن تتنازل عن لويزيانا. مع العلم أن بريطانيا العظمى كانت تفكر أن توسع زراعة القطن في تكساس يمكن لها أن تتخلص من خضوعها إزاء الصناعة القطنية في جنوب الولايات المتحدة. وإن الجمهورية الجديدة يمكن لها أن تقدم سوقاً لإنتاجها المصنّع. وقد حاول الفرنسيون والانكليز بدعم من روسيا، إقناع المكسيك بالاعتراف بتكساس مقابل بعض الامتيازات لكي يطمئن التكساسيون في هذا الاعتراف ودعم القوى الثلاث الأوروبية والتخلي عن فكرة الانضمام». (Guerra)

(2) خلال فترة الاستقلال النصفي ليوكاتان، كانت هذه الولاية من المكسيك، قد طلبت الانضمام الى انكلترا أو اسبانيا مقابل الحماية التي هي بحاجة إليها.

(3) لنقرأ «الولايات الأميركية»، طبعاً.

فقد أظهر لنا غويّرا (Guerra) كيف أن كانينغ وزير الخارجية، رغبة منه باستغلال التهديد الروسي وخاصة تهديد التحالف المقدس، قام بالتحرك الأول كي يحاول أن يكبح التوسع الأميركي في أميركا. وفي 29 آب/أوت؛ 1823 تلقى راش سفير الولايات المتحدة في لندن رسالة من كانينغ الذي عرض عليه تحالفاً لتثبيت الوضع القائم القاري، إن التزمت الدولتان بالتخلي عن التوسع. فوزير الحرب الأميركي كالهون الذي صدّق الخطر، أصبح البطل المدافع عن عروضات كانينغ:

> وزير الخارجية آدامس الذي لا يؤمن بفعاليّة تهديد التحالف ـ المقدس، اصطفّ بحزم مع الطرح المعاكس. لم يكن آدامس يؤمن بخطر التحالف المقدس فقط، بل كان مقتنعاً بأن كانينغ لا يخاف منه أيضاً. فقد كان آدامس يعرف مثل كانينغ، أن المملكة المتحدة، سيدة البحار المطلقة انطلاقاً من الطرف الأغر تعتمد على أسطول قادر على تحييد الخصم. هذه الحجج، سمحت لآدامس باستنتاج أن الخطر الذي يخاف من حقيقة كانينغ، كان خوف الولايات المتحدة وأن الرجل السياسي الانكليزي يحرك شبح التحالف المقدس فقط في هدف احتواء الشمال أميركي. (Guerra)

وفي مذكرات آدامس المنشورة بعد هذه الأحداث، كان كل شيء واضحاً. وكان وزير الخارجية يرى الأمور بهذا الشكل.

> فظاهرياً، كان هدف كانينغ الحصول على بعض الضمانات العامة من جهة الولايات المتحدة ضد التدخل المسلح للتحالف المقدس في إسبانيا وفي مستعمراتها؛ ولكن في الحقيقة، وبطريقة ما، كان يبحث في جعل الولايات المتحدة نفسها تتخلى عن غزو أي قطعة من الملكيات الإسبانية في أميركا [...] وقد مال السيد كالهون نحو منح الحق الضروري بشكل كبير، سلطات استنسابية للسيد راش من أجل الوصول إلى إعلان ضد تدخل التحالف المقدس، حتى وإن كان يوجب علينا العهد بأن لا نأخذ كوبا أو منطقة تكساس وذلك بسبب أن بريطانيا العظمى تملك وسائل أكثر للاستيلاء عليهما، فستكون محظوظين إن انتزعنا منها تصريحاً مشتركاً. وأظن أن الحالتين ليستا متوازيتين. فليس لدينا النية بالإمساك بتكساس أو كوبا بقوة السلاح. ولكن سكان إحدى هاتين المنطقتين أو الاثنتين، يمكن أن يستعملوا حقوقهم العادلة ويلتمسوا الاتحاد معنا. إنه من المحتمل ألّا يطلبوا ذلك إزاء بريطانيا العظمى.

ووصولنا إلى الاعلان الذي تقترحه علينا، سيكون باعطائهما ضمانة جوهرية وصعبة ضد أنفسنا، دون أخذ شيء في المقابل، حقيقةً. فعدم رغبتهم، في الوقت الحاضر أن يطرحوا علينا أي سؤال في خصوص وجوب ضم تكساس أو كوبا، فيتوجب علينا على الأقل الاحتفاظ بملء حريتنا في الحركة. وحتى نستطيع التصرف أمام كل طارىء ولا نرتبط بأي مبدأ، يمكن إنْ يستعمل ضدنا أن أصبح ذات يوم سارياً. (شارل فرانسيس آدامز).

إن عرض كانينغ بالقيام بإعلان مقرون أنكلو ـ أميركي أرّخ، كما سبق وقلنا، في آخر آب/أوت 1823. لقد رأينا أن القنبلة الموجهة من مكتب الخارجية أحدثت بعض التأثير، لأن مناقشاتٍ حادةً جداً حصلت داخل حجرة الرئيس مونرو. هذا الأخير، مغموراً بالشك، كثّف اتصالاته مع سلفيه ماديسون وجيفرسون عندما كان شريكاً مقرباً لهما خلال حكمهما المتتاليين. لكن المتصلب والحلق جون كوينس نجح أخيراً في تخفيف المخاوف الناتجة عن فرنسا والتحالف المقدس:

لا أنفي بأن المخاوف تلك يمكن لها أن تولّد شعوراً مؤثراً كثيراً بصورة مؤقتة خلال اربعة أو خمسة أيام، ولكنني أظن بأنه من الممكن أيضاً أن التحالف المقدس يرمّم السيطرة الإسبانية في أميركا، وأن تغرق شيمبورازو (بركان) في المحيط. (Guerra)

قدّم الرئيس مونرو إذاً في 2 كانون الأول/ديسمبر عقيدته إلى الكونغرس والعالم، والتي كانت بالفعل مصاغة من آدامس. فهو يريد وضع نقطة نهائية بالتالي للطموحات الأميركية بالنسبة لجميع القوى الأوروبية حتى لو كانت انكلوساكسونية. فأعلنت الولايات المتحدة نفسها على هذا الوجه الخاص، كما كتب جون كوينسي أدامس في مذكراته، بأنها حرة باستقبال كل أمة مسكينة وتشعر بحاجة إلى الدخول في حصنها الواقي.

وهنا تكمن طريقة أخرى لترجمة الجملة الشهيرة لجورج واشنطن الذي أعلن بأن حصن الولايات المتحدة مفتوح **للمظلومين والمضطهدين من جميع الأمم وجميع الأديان.** وهكذا وهبوا حماية لجميع دول أميركا. إنني متأكد بأن عصابات شيكاغو ونيويورك يفهمون جيداً عن أية حماية يتكلمون.

حرب الانفصال الأولى: تكساس (1835 ـ 1836)

في سنة 1829، صادقت حكومة الجنرال غيريرو، بطل حرب استقلال المكسيك، على إبطال العبودية وقررت معاقبة ممارستها على الأرض المكسيكية بقسوة. كان هذا التدبير موجهاً بوضوح ضد المهاجرين الشمال أميركيين القادمين من تكساس، من الجهة الأخرى للحدود. فولّد هذا التدبير التمييزي المنافي لليبرالية، معارضة عارمة حقيقية، لأنه يمسّ المصدر الرئيسي لمداخيل هؤلاء المهاجرين المساكين.

لنرى ما الذي أوصل إلى هذا التحريم غير المحتمل.

كانت تكساس، قبل بداية حرب استقلال المكسيك (1810) وحتى قبل شراء لويزيانا (1803) قد تواجدت في خط نقطة الهدف للفدرالية الأميركية الشابة. وقد فكر راميرو غويّرا بأن الاغتصابات المرتكبة في تكساس بين 1799 و1801 من قبل مغامر باسم فيليب نورا، كانت تنفّذ في إطار مهمة من جيفرسون بإدارة ويلكنسون القائد العسكري القادم للويزيانا. بعد ذلك، وخلال حرب الاستقلال المكسيكية، دخل بعض المتمردين باتصال مع الولايات المتحدة للحصول على مساعدة، وبما أن تكساس قد تواجدت بتماس مباشر مع الولايات المتحدة بفضل شراء لويزيانا، فالعديد من سكان الحدود اهتموا إذاً باعتبارهم معنيين بالأراضي التكساسية. وفي مقابل امتيازات الأراضي كان هؤلاء مستعدين لمساعدة المكسيكيين لطرد الاسبان من المنطقة. وأتصور أن محركي المكسيك لا يعرفون بعد أنهم في طريق ترسيخ مصير نصف البلد الذي يريدون إنشاءه.

أما برناردو غيتيرّيز دِ لارا، موفد الثوار المكسيكيين في واشنطن 1812، فلم يحصل على مساندة الرئيس ماديسون الذي باشر، في الوقت نفسه بمعركة في الكونغرس بالنسبة لفلوريدا والحرب ضد إنكلترا. ولكن بمعرفته بذهنية رجال الغرب، راح المتمرد، تحت الإدارة العسكرية لملازم سابق في الجيش الشمال أميركي الملّقب باسم ماجي (Magee) ينظم في تسي غزواً ضد تكساس.

> حصلت الدعوات (للالتحاق بالغزو) بشكل مفتوح في صحف ناشفيل، ابتداءً من نهاية شهر نيسان/أفريل لكن كليبورن، حاكم لويزيانا، وتبعاً لأوامر الحاكم الفدرالي وجّه في 12 آب/أوت إعلاناً ضد المشروع. ولكن ذلك لم يمنع الغزاة من اجتياح تكساس في أيلول/ سبتمبر. (Pratt)

فقد نجحوا بالسيطرة على سان انطونيو وقتل حاكم المنطقة قبل أن ينجح الجيش الإسباني في دحرهم.

أمّا التسلل الأميركي في تكساس فقد بدا أثناء ذلك أكثر فعالية بطريقة هادئة. هنا ظهر على الساحة البطريرك الكبير موزس أوستن، هذا الرجل المتحدّر من كونكتيكوت البعيدة، بدأ ذات يوم بحج بطيء نحو الغرب. وبعد تقلبات كثيرة، وبمؤازرة غير متوقعة من نبيل ألماني والذي خدم العرش الاسباني، نجح أوستن سنة 1820 بالحصول من إسبانيا ـ الجديدة، له ولثلاث مئة عائلة، على هيئة من الأراضي الواسعة إلى الجنوب ريو برازوس. وبعد استقلال المكسيك (1821)، صادق ستيفن ابن موزس أوستن على الامتياز الممنوح من الحكومة الجديدة، ثم حصل، بعد ذلك، على إذن بتنظيم جيش للإمساك بالنظام وإدارة العدالة تحت سلطة حاكم تكساس. (Guerra)

فخلال فترة الأمبراطورية المكسيكية (1821 ـ 1823) حصل نهوض الاستعمار الأجنبي في أراضي الشمال. أعطيث الأرض وأعفيت من الضرائب، إضافة إلى أن استيراد الحاجات الضرورية للمستعمرين كان أيضاً غير خاضع للضرائب. هذه الظروف هي جد استثنائية إلى حد أن رجلاً سياسياً شمال ـ أميركياً، هو هنري كلاي، والذي لا نستطيع اتهامه بأنه توسعي، إذ إنه عارض انضمام تكساس، وعارض الحرب ضد المكسيك، هذا الرجل صرّح قائلاً:

> «فوائد قليلة جداً تجبر المكسيكين على الاحتفاظ بتكساس. بما أنهم بصدد التخلي عنها!». (Cosio Villegas)

فالجمهورية التي حلّت في مكسيكو ابتداءً من 1823 لم تغيّر موقفها. ويجب أن نصدق بأن القادة المكسيكيين الجدد لم يأخذوا أي درس من المغامرات الإسبانية السيئة. وفي أواخر 1823، خطت عقيدة مونرو خطوة إضافية نحو الرؤية التي أصبحت فيما بعد تسمى «القدر الجلي» الذي نصّب الولايات المتحدة عندها كعرّاب الجمهوريات الأميركية الجديدة والضعيفة. ولا أريد أن أصدق بأن إداريي البلاد الجديدة كانوا مغفلين إلى درجة الاقتناع بحذافير عقيدة مونرو ـ آدامس ولكن هذه الكلمات كان عليها أن تبدأ بالتغلغل في لاوعي بعضهم بعضاً. وهذا حدث في 1825، أثناء اتحاد كواهويلا مع تكساس لتأليف دولة فدرالية واحدة، فإن المشترع لم

يتردد بإيجاد قانون جاهز لجذب أكبر عدد من المهاجرين من غرب الولايات المتحدة أيضاً. فوصلوا بأعداد كبيرة جداً، جذبهم منح اقطاعات الأراضي المغرية. 4 000 جاءوا في 1821، ووصلوا إلى 10 000 سنة 1827 والى 20 000 سنة 1830. فأنتجوا ما قد تسميه حكومتنا الفرنسية اليوم «نسمة هواء منعش» (un appel d'air). وأصبح المهاجرون الأميركيون كتلة بشرية أكبر من المهاجرين المكسيكيين والذين هم متهمون، في أيامنا هذه، باكتساح هذه الأراضي نفسها. وفي ذلك الوقت، كان يوجد فقط 3 400 من المكسيكين في 24 700 من سكان تكساس (Cosio Villegas).

ولكن في سنتي 1829 ـ 1830، حاولت حكومة الجنرال غيرّيرو لجم الوضع لأنه لا يوجد سوى فاسدين في مكسيكو، بالرغم من كل ما استطاع أن يكتبه تيدي روزفلت. فقد فضّل المؤرخ الكبير ورجل الدولة لوكاس ألامان، في رسالته إلى الكونغرس في 6 نيسان/أفريل 1830، الطريقة المفضلة للشمال أميركيين، لترتيب انضماماتهم بشكل جيد: إحداث ثورة، مطالبة بالاستقلال، التماس المساعدة الأميركية وطلب الانضمام (Guerra). وكان ألامان قد درس الأحداث في فلوريدا، واقتنع بأنها ستتكرر في تكساس إن تركت تحصل. ومع ذلك فقد سبق وفات الأوان. فقد صوّت الكونغرس على قوانين تمنع الهجرة بدءاً من البلاد الحدودية والعقاب بقسوة دخول العبيد إلى المكسيك وفرضت جوازات سفر قنصلية مكسيكية للأجانب الذين يريدون الدخول إلى الجمهورية. ولكن منذ 1831 ثار المهاجرون غير الشرعيين (دون جوازات). وفي الجهة الأخرى من الحدود، كانت الحكومة الشمال أميركية قد عيل صبرها وهي تحاول أن تبدي تحفظاً ملحوظاً. ومع ذلك لم يستطع أي مؤرخ حالي أن ينفي التأثير الحقيقي للولايات المتحدة في انفصال تكساس. ويجب الاعتراف بأنه إلى جانب الميل الطبيعي لنظرية التوسع الخاصة بكل أمة كبيرة (وعلى قرّائي أن يعرفوا على ما أتكلم) فإن رجال واشنطن والغرب، كان لديهم حجج عظيمة للمطالبة بتكساس. وهذه ثلاث منها على الأقل:

أولاً: معاهدة أونيس-آدامس سنة 1819 في موضوع فلوريدا تنص بوضوح على التخلّي عن تكساس. ولهذا السبب يمكن اعتبارها معادية للدستور، وليس لها قيمة حتى، أو وجود، باعتبارها تترك قسماً لا يمكن بيعه من الوطن الذي حسب الولايات المتحدة، يعود إلى لويزيانا المبتاعة من نابوليون، قد وافق الجنرال المحارب جاكسون مع ذلك عام 1819 على هذه المعاهدة لعلمه أنه سيحصل على مركز حاكم فلوريدا:

> إنني مع رأيك بشكل واضح، والذي بموجبه يجب علينا، في الوقت الحاضر أن نرتضي بفلوريدا. (McElroy)

وبعد ذلك بعشر سنوات، وعندما أصبح رئيساً للولايات المتحدة، غيّر جاكسون رأيه، مصرّحاً بأن آدامس، مفاوض المعاهدة ـ والذي كان أيضاً منافسه في الانتخابات ـ هو خائن، فأعلن بأن الاتفاق ليس له قيمة أو وجود حقاً.

ثانياً: أدركت ولايات الجنوب المستعبدة، وبعد توقيع تفاهم ميسوري، أنهم كانوا مخدوعين، ويجب إذاً إعادة التوازن مع حجم التوسع في الشمال، وذلك بضم تكساس.

ثالثاً: إن جون كوينسي آدامس، الذي يمكن تصنيفُهُ بين رجال الدولة الشمال أميركيين الأكثر لطافة، بدأ الندم يضنيه لكونه وقّع بيدِهِ التخلي عن تكساس، عندما كان وزيراً للخارجية. وقد حاول، بعد قليل من توليه الرئاسة (1825 ـ 1829) أن يمحو هذه اللطخة من مسيرته المهنية، وذلك بدفع وزير خارجيته الجديد، هنري كلاي من أجل البحث عن شراء ممكن لتكساس.

ومع ذلك، لم تُستَعَدْ تكساس، لا بواسطة الشراء الذي أوصى به آدامس، ولا بالحرب المباشرة التي أوحى بها في وقت ما، جاكسون المحب للحرب في بعض الجمل الجارحة.

> يجب علينا استعادة تكساس، بالطرق السلمية، إذا أمكن، أو بواسطة حرب، وهذا ينبغي أن يكون واجبنا. (McElroy)

التُقطت تكساس بالطريقة التي اختبرت في فلوريدا: ثورة، استقلال، انضمام. وهكذا أصبح سام هيوستن رجل الموقف.

فالجملة الشهيرة التي تفوّه بها طوم هانكس في فيلم أبولو 13: «هيوستن، يا هيوستن لدينا مشكلة» يمكن لها أن تكون قد قيلت لأول مرّة من الرئيس أندرو جاكسون (1829 ـ 1837). فقد عرف صاموئيل هيوستن، وهو متحدّر من تينسي حيث كان حاكمها، تغييراً مفاجئاً في حياته، ممّا دفعه للجوء عند الشيروكي، حيث قُبِلَ كفرد يتمتع بكامل الحقوق في القبيلة (الهندية) حيث اكتسب هناك، وسأترككم تتخيلوا لماذا، اسم الشارب الكبير والسّكير الكبير. ولكن، ومع مضي الوقت، وذات يوم، علم بأن قائده القديم الجنرال جاكسون، الذي طارد تحت أوامره وعاقب

الكريك والسيمينول في جورجيا وفلوريدا، أصبح نزيلاً في البيت الأبيض. ومن دون تبديل زيّه تقريباً، رحل هيوستن إلى واشنطن حيث ظهر مجدداً مرتدياً اللباس الهندي مثل بيتر أوتول في فيلم لورانس العرب عندما تقدم في زيه على أنه الشريف حارث. وقد شرح أوغستوس بوبل (1904)، أحد كتّاب سيرة هيوستن، عند ذاك لقاء هذا الأخير مع جاكسون:

> فعند التحقق بأن القوى التكساسية كانت بحاجة إلى قائد، اختار جاكسون أحد مأموريه الأكثر وفاءً في زمن حروب الكريك وحملات فلوريدا ولويزيانا ليستلم الحكم في تكساس: سام هيوستن.

وحسب ماك إلروي (McElroy)، وهو مؤرخ أميركي آخر، فقد استأذن هيوستن من رئيسه للانصراف وتفوّه بهذه الكلمات:

> أذهبُ إلى تكساس كي أصبح من جديد، رجلاً في بلد جديد سأصبح رئيساً لجمهورية كبيرة. وسأقدّم هذا للولايات المتحدة.

ومع ذلك، طوال حرب انفصال تكساس، لم تتوقف حكومة جاكسون عن إرسال تعاميم، تدعو فيها إلى التزام السلطات الرسمية الحياد الأكثر صرامة. ومن وجهة نظر ديبلوماسية دقيقة، فإن المكسيك لا تستطيع أن تشتكي؛ «إنه عذاب صيني»، لأنه من الممكن أن يكون المكسيكيون أغبياء، ولكنهم يعرفون جيداً من أين تأتيهم هذه الحرب.

وفيما يتعلق بآليتها، فإن هذه الحرب تتبع خطوة خطوة تقديرات لوكاس ألامان. مؤتمر نيسان/أفريل 1832، بعد الثامنه، صادق على دستور. ولتفادي مواجهة قبل أوانها، أعطى المهاجرون لحركتهم هيئة تجمع لمصلحة الليبراليين المكسيكيين وليس كثورة ضد الحكومة الفدرالية. فأوفد ستيفن أوستن إلى مكسيكو لإقرار الدستور، ولكن، بينما كان أوستن يفاوض، عُزلت السلطات المكسيكية في تكساس وطردت من الدولة وفتحت الحدود مع الولايات المتحدة. وكان كل متطوع يذهب ليناضل من أجل الدفاع عن تكساس، يتلقّى قطعة أرض جيّدة. (Guerra)

هذه النقطة الأخيرة، تستحق التفاتة خاصة، فالحرب التي اندلعت في عام 1835، شهدت المكسيكيين الانكلو ـ ساكسون، مدعومين من المتطوعين الأميركيين، يواجهون جيش الرئيس المكسيكي الجديد غير المتوقع الجنرال سانتا آنا. ولكن حتى

قبل نهاية العداوات، فإن الحكومة الثورية في تكساس، عدا عن هبات الأرض إلى المتطوعين، لم تتردد في بيع امتيازات الأراضي المقتطعة والمناجم لشركات شمال ـ أميركية. إنه إجراء ممتاز، حسبما ارتآه المؤرخ ماك إلروي. إنه يسمح ليس فقط بتعويم صناديق التمرد، ولكن، في الوقت نفسه، ينجح بتفعيل المالية الأميركية في النضال. إضافة إلى ذلك فإن المتطوعين الذين ذهبوا إلى الجبهة، عهدوا بامتيازاتهم إلى رجال أعمال أميركيين. وكلما تصاعد القتال، كانت الأسعار ترتفع. ويطلق المضاربون أسهماً بفوائد، ويحصلون على قروض مضمونة بأراضٍ مكسيكية والتي يمكن مبادلتها في المراكز المالية للاتحاد. وفي سنة 1837، أعلن وزير مالية تكساس بدون قلق بأن رؤوس الأموال أو الثروات ليس لها هدف سوى جعل تكساس تستقطب الرأسماليين والبنوك الأميركية. وباعتبارها ثمرة الخيال الأميركي الخصب والطليعي، كانت ثورة تكساس في الحقيقة مغامرة ومراهنة ضخمة. (Guerra)

والحرب... استدرك أنني لم أتكلم عن الحرب نفسها، لأن ذلك في الواقع لا يستحق العناء أن نتكلم عن الشيء الحزين نفسه: مهاجمة قوات سانتا آنا، انتصارات في غوليات وإل آلامو، هزيمة نهائية في سان خاسينتو؛ والشيء الوحيد الذي يستحق الاهتمام والذي يمكن أن أقوم به، سيكون التعليق على إدخال سانتا آنا في القاموس المصوّر لأسماء العلم، «روبير الصغير». هذه الموسوعة المحترمة والمعتدلة جداً وصفت بضربة قلم صفات الرئيس المكسيكي والقضية التكساسية: «سياسته المركزية العنيفة أتاحت الفرصة لانشقاق تكساس...». وإننا نرى بهذه الطريقة بأنه لم يكن ضرورياً انتظار ولادة سلوفودان ميلوسوفيتش لاستخدام شخص سلطوي بعض الشيء ذريعة لتبرير الطموحات الأميركية.

وقبل الختام، لنترك عزيزنا تيدي روزفلت يأتي ويعطينا رؤيته اللذيذة جداً للوقائع:

> لقد وضعت العبودية في المقدمة كسبب أساس، إن لم تكن السبب الوحيد، لتمرد الشمال ـ أميركي في تكساس، والحقيقة الأصح هي أنها لم تلعب في ذلك أي دور. فمسألة العبودية غذّت فرصة مباشرة الصراع. ولكن أسبابه كانت أكثر عمقاً [...] وأي إنسان عاش على الحدود، كان سيعرف، أقله معرفة جزئية، الروح الجادة، المندفعة، والمواظبة الحثيثة للعرق الشمال ـ أميركي وسيقتنع فوراً بأن من غير الممكن تصور أن المهاجرين التكساسيين يستطيعون الاستمرار في ترك أنفسهم محكومين من المكسيكيين.

لقد كان من غير الممكن التصور إذاً بأن نراهم يخضعون للعرق الضعيف الذي كانوا، في وقت ما يحلّون محله. ما إن نضع جانباً كل تلك الحجج، يجب البحث عن الأسباب الحقيقية في الفروقات العرقية العميقة والصافية [...] وفي عدم الأهلية الكليّة للمكسيكيين في حكم أنفسهم، والسبب أكبر، في حكم غيرهم. (Guerra)

بعد الحصول على الاستقلال، كان ينبغي على تكساس أن تحول التجربة تلك بنجاح إلى الانضمام (للاتحاد). ولكن هذا أصعب بكثير. لأنه، بالرغم عمّا استطاع روزفلت أن يقوله فالصراع الأكثر حساسية ليس الذي يواجه المكسيكيين مع التكساسيين الأميركيين، ولكنه، وبشكل نهائي، الذي يضع البعض ضد الآخر، مناصري سياسة التوازن من الشمال ومن الجنوب، أي الأميركيين المستعبِدين والآخرين غير المستعبِدين. لقد حصل هذا الصراع، كالعادة، في الكونغرس، وأحبط أمنيات التكساسيين (التكساسيين، كما لقبّوا في فيلم جون واين El Alamo) والذين، في وقت مبكر، وفي أيلول/ سبتمبر 1836، صوّتوا للانضمام بأكثرية ساحقة. حتى الرئيس اللاذع اللسان جاكسون أجبر على كبح جماحه وتطبيق السياسة الجيفرسونية (نسبة لجيفرسون) في الانتظار الصبور الذي لا يتناسب كلياً مع أسلوبه. يجب الانتظار (بصبر) الرئيس بولْك الذي وضع سنة 1845 أوريغون على الطرف الشمالي للميزان، للنجاح في حل المعادلة فاستطاع إهداء تكساس للاتحاد. وطالما كان بولْك هناك، فقد أخذَ في طريقه ما تبقى من شمال المكسيك.

كوبا: ما دام هناك رجال (من الآن إلى الأبد 1898)

ضوئنا الساطع بين الأضواء، جون كوينسي آدامس، وعندما كان لا يزال وزيراً للخارجية، حرّر ذات يوم البيان التالي:

ثمة قوانين للجاذبية السياسية، شبيهة بقوانين الجاذبية الفيزيائية، ففي الطريقة نفسها التي تنفصل فيها التفاحة عن الشجرة بقوة الريح، لا تستطيع، حتى وإن كانت تريد ذلك، أن تمنع نفسها من السقوط. فكوبا، ما إن انقطع الرابط الذي جمعها بإسبانيا يوماً، ورأت نفسها بعيدة عنها (إسبانيا) وغير قادرة بنفسها على الصمود، توجب عليها بشكل محتوم الانجذاب نحو الاتحاد الأميركي،

وحصرياً نحوه. هذا الاتحاد، من جهته، سيرى نفسه واقعاً في المجال، بموجب القانون نفسه، إذا عدل عن قبولها في حضنه. (فورد Ford).

وفي الوقت الذي أكتب ما أكتب، في سنة 2001، سنة فيلم ستانلي كيوبرك ذاك حيث ترى الكرات تنجذب حول الشمس، حول المشتري والمجسم البدائي، نستطيع أن نلاحظ بأن كوبا امتنعت دائماً بإطاعة قانون الانجذاب السياسي لجون كوينسي آدامس. وربّما لهذا السبب، كانت الجزيرة قد اصبحت نوعاً من الدولة ـ المارقة، أو نوعاً أسوأ أيضاً، نوعاً من دولة مارقة سابقة في أوج الانحطاط. إنها حالة فريدة في القارة الأميركية. تستطيعون أخذ كلمة «فريدة» في معناها المحايد، إذا أردتم، أو أخذها في معناها الأنبل الأمثل والأغرب. هذه الجزيرة الصغيرة (صغيرة ولكنها الأكبر في الكاريبي) التي أصبحت، مع المكسيك وكولومبيا والأرجنتين، واحدة من الأقطاب الأربعة الثقافية في القارة الأميركية. إنها أول مركز تجريبي كبير للإمبريالية الحديثة قبل أن تثور، كما لم يفعله أبداً أي إنسان على قارتنا، وتوصيل العالم إلى حافة الحرب النووية وإلى ما بعد حدود الدهشة!

ولكن لنبدأ من البداية. بالرغم من حجمها الصغير (مقارنة لخمسة ملايين كلم^2، مساحة إسبانيا الجديدة)، هذه الجزيرة تحتل منذ نهاية القرن الثامن عشر، أي منذ ولادة الولايات المتحدة تقريباً، مكانةً مهمة في هوامات أوساط واشنطن العليا، الوضع الذي لم يتغيّر أبداً اليوم. حتى قبل أن تتوصل بلاده بالاستيلاء على أراضي خليج المكسيك (فلوريدا وتكساس)، وضع جيفرسون الأكبر، وهو متحمس للتوسع في تلك الحقبة، مخططات لغزو الجزيرة الكاريبية. وفي لقائه في 20 نوفمبر 1805، مع ميري (Merry) السفير البريطاني في واشنطن، أعلن أنه إذا دخلت الولايات المتحدة الحرب مع إسبانيا بسبب قضية فلوريدا الغربية يتملكون كوبا بلا أدنى شك.

امتلاك الجزيرة، تابع جيفرسون، كان ضرورياً لتأمين الدفاع عن لويزيانا وفلوريدا، لأنها مفتاح الخليج[1]. وبالنسبة للولايات المتحدة، سيصبح الغزو سهلاً. (هنري آدامس)

---

(1) الخليج الذي لمّح إليه جيفرسون هو طبعاً خليج المكسيك، هذا الذي يرسل إلى أوروبا التيار الشهير الذي يعطيها مناخها المعتدل اللذيذ والذي أصر عدد كبير من الفرنسيين على تسميته باسمه الانكليزي بدلاً من استعمال اسمه الحقيقي أي تيار خليج المكسيك.

ومع ذلك لم يكن هذا سهلاً إلى هذه الدرجة، لنتذكر أن سلام تيلسيت أراح الجانب الشرقي لنابوليون ليفتح له أبواب إسبانيا ومستعمراتها طبعاً. حيث تعتبر كوبا جوهرة ثمينة. وعندما احتجت إسبانيا لدى الأمبراطور (دخل مورا (Murat) قائد فرنسا العسكري إلى مدريد في 23 مارس 1808)، إنقلبت الأمور بشكل سيّء بالنسبة إلى جيفرسون الذي كان يفضل أن يرى الأراضي المرغوب بها باقية بين أيدي الإسبان أفضل من أن يراها تنتقل إلى أيدي الضابط الكورسيكي الشرس. وبعد عدة أشهر تحسنت الأمور مع ذلك: انتفاضة الشعب الإسباني، أستُقبِلَتْ بقبول من الرئيس الشمال ـ أميركي، أما نابوليون الذي مارس قرصنةً دون حياء في حقوق إنتاج أو نسخ امبراطورية الحرية لم ينجح في تسويق سَلْطاته التحررية للإسبان الذين فضلوا قيود الداخل على الحرية المستوردة. عندها كتب جيفرسون في 27 تشرين الثاني/نوفمبر إلى حاكمه في لويزيانا كليبورن متأكداً برضى كامل أن بلاده تبقى المورد الوحيد لهذه البضاعة:

> إذا انتصروا [الإسبان]، ستكون نحن راضين بأن كوبا والمكسيك تمددان خضوعهما راهناً؛ لأنه لن يسعدنا أن نراهما ينتقلان إلى طاعة فرنسا أو انكلترا سواء أكان سياسياً أم تجارياً. فمصالحهما ومصالحنا هي نفسها. همهما مثل همنا، يجب أن يكون منع كل تأثير أوروبي عن نصف الكرة الأرضية هذه (Guerra).

نجد هنا قواعد العقيدة الجيفرسونية الشهيرة التي تحمل اسم مونرو والتي تدعو إلى ترك الأراضي المرغوب فيها بين أيدي الضعفاء.

وفي مارس 1809 ترك جيفرسون مقعده لوزير خارجيته، وهو جنوبي مثله: ماديسون. وفي مرات كثيرة، كان يشجعه عن طريق الرسائل بأن يضع يده على الأراضي الأسبانية لخليج المكسيك. كانت سلطة نابوليون لا تزال تُمارس على الأمبراطورية الإسبانية، ولكن منذ انتفاضة 2 أيار/ماي من السنة الماضية (1808) أعطي الأمبراطور إشارات عدم اهتمام إزاء الممتلكات الإسبانية في القارة الأميركية وهو مدرك لإمكانية هدم السلطة الفرنسية في إسبانيا من قبل الانكليز. (مثل هذا الأمر أصبح حقيقة الحالة في تالافيرا في تموز/جويليه 1809). فكتب جيفرسون إلى ماديسون في أيار/ماي).

إني افترض أن غزو إسبانيا سيوصلك حتماً إلى طرح سؤال حساس فيما خص فلوريدا أو كوبا، بلدين يقدمان نفسيهما. وسيسمح نابوليون بدون شك بسهولة بأن نضم فلوريدا، ويجب أيضاً أن يسمح، ربّما بطريقة أقل سهولة بأن نضم كوبا. (Guerra)

وبعد ثمانية أيام، وفي 27 نيسان/أفريل، وفي رسالة أخرى إلى ماديسون، يكرر جيفرسون بأن نابوليون لن يسمح بإرادته بأن تأخذ الولايات المتحدة كوبا، ولكن سيفعل ذلك اذا عملت الولايات المتحدة على عدم مساعدة ثوار إسبانيا الجديدة. «سيكون ذلك صفقة جيدة». وفي الرسالة نفسها، تجد اللؤلؤة الجميلة التي أهدتنا عنوان كتابنا:

إذاً، لن يبقى لنا بعدُ إلّا إدخال الشمال [كندا] في فدراليتنا. سنفعل هذا طبعاً عند أول حرب آتية، سنمتلك عندئذٍ امبراطورية للحرية كما لم نرَ هذا أبداً منذ بداية الخليقة.

وأضاف مزايداً:

إنني مقتنع بأن نظاماً كنظامنا لم يتواجد أبداً لإدارة أمبراطورية في كامل نموها ومستقلة تماماً [. . .] وقد يعترض أحد بالقول إنه، إذا تسلمنا كوبا، فلن يعود عند ذلك أية طريقة لوضع حد لمكتسباتنا. نستطيع الدفاع عن كوبا، من دون أسطول. يؤسس هذا الفعل المبدأ الذي يجب أن يحدد أهدافنا. ولن نقبل شيئاً على أن يضطرنا إلى اللجوء لأسطول من أجل الدفاع (عن كوبا).

فقد ترجم راميرو غويّرا هذا الحديث بوضوح يؤكد أن جيفرسون يعتبر مؤسساً حقيقياً للأمة:

نتيجتان واضحتان: 1) اكتساب الأراضي، المتجاورة يمكن لها أن تستمر إلى ما لا نهاية، 2) في اليوم الذي سيصبح فيه للولايات المتحدة أسطول، لن يكون هناك أبداً حدود لتوسعها.

واليوم، في بداية القرن الحادي والعشرين هذا، جميع أعزائي القراء هم واعون بأن نبوات غويرّا لم تكن إطلاقاً مغلوطة عمّا قلناه: الولايات المتحدة هي الآن عند نقطة إنجاز هبة الحرية للعالم. ولكن في تلك الحقبة، لم تكن الأمور بسيطة جداً. فإن

حرب 1812 ـ 1814 مع انكلترا لم تنته بدخول كندا في الاتحاد. كان على فلوريدا أن تنتظر حتى 1819 لتستطيع الدخول إلى «الحرية». أما بالنسبة لكوبا، فإن هذا الغزو السهل، حسب رأي جيفرسون، هذا الكويكب الذي يجب أن يؤلف حتماً جزءاً من الحقل الانجذابي الأميركي؛ حسب قانون جون كوينسي، فإنهم ينظرون دائماً.

ومع ذلك لم تُترك الجزيرة كلياً ـ فقد اختبرت كوبا عند ذاك لأول مرة، قبل فلوريدا، الأسلوب الأميركي للتدخل الإنساني الذي سيصل إلى الكمال أثناء الثورة التكساسية. إنه الأسلوب الذي أصبح اليوم كلاسيكياً، من دورة الثورة ـ الاستقلال ـ الانضمام (أو الخضوع) التي يجب أن توصل البلاد الممانعة بأن تصبح حرةً حتماً. لنلتفت إذاً إلى التجارب الأولى لأمبراطورية الحرية.

ففي أواخر عهده (1808 ـ 1809) أرسل جيفرسون إلى كوبا صديقاً قديماً، على عجل، وهو شخص غامض إلى حد ما والذي كنا قد تحدثنا عنه فيما خص تكساس: إنه الجنرال ويلكنسون. وحسب العملاء البريطانيين (الذين لم يكونوا إطلاقاً في هذه الحقبة حلفاء للولايات المتحدة) فقد التقى ويلكنسون شخصياتٍ من هافانا، حرروا طلبات انضمام إلى الولايات المتحدة. وقد نفت الولايات المتحدة أمام طلب التفسير من لندن، كل تدخل، ووصفت هذه الزيارة بالخاصة جداً (Guerra). مع أن لدينا اليوم متفقاً على رسائل جيفرسون، رسائل مؤرخة في نيسان/أفريل 1809، أي بعد عدة أيام من عودة ويلكنسون إلى نيو أورليانز، تُظهر بوضوح كيف أن الرئيس السابق شجّع خلفه بالاستيلاء على كوبا في أول فرصة. ولكن ويلكنسون بنفسه، يعبّر، في مذكراته، بشكل مضمر، عن هذه المهمة الخاصة التي أوصلته إلى بنساكولا (كانت فلوريدا لا تزال إسبانية) وإلى هافانا.

ولمحاولة فهم هذه الأمور كلياً، يجب علينا أن نعرض جيداً المجتمع والزمن الذي نتواجد فيه. نحن في الثلث الأول من سنة 1809. حوالى سنة ونصف فيما بعد، اندلعت الانتفاضات الأولى التي أوصلت إلى استقلال كل أميركا الإسبانية. كل أميركا ما عدا كوبا.

الجزيرة عزلت نفسها بنفسها في هذا السياق لسبب دقيق جداً: ففي أواخر القرن الثامن عشر، أرادت تحديث النمط الزراعي الاستعبادي المطبق بنجاح في جنوب الولايات المتحدة. فقد استعملت التجارة الحرة للعبيد الأفارقة مجدداً لإمكانية تزويد العالم بالسكر. وعند ذاك، أصبحت كوبا، كما سيكتب عنها هومبولد (Humboldt)،

جزيرة السكر والعبيد. ولكن الفوائد الاقتصادية التي، لا شك فيها لهذا النشاط، قد انقلبت بسرعة بتوسع مناخ القساوة والخوف. هذا الخوف العظيم لثورة العبيد على الطريقة الهايتية (Haitienne)، لجم خلال عشرات السنين الحماسة الاستقلالية للشعب الكوبي من أصل أبيض حتى وصل البعض منهم إلى استنتاج بأن الانضمام إلى الولايات المتحدة هو الحل الوحيد للتخلص من الوصاية الإسبانية دون خطر. إنهم هم بكل تأكيد، الذين التقى بهم ويلكنسون أثناء رحلته إلى الجزيرة. ولكن الأمور لم تتدِ، وقتها، إلى أي شيء ملموس.

ومع ذلك، وبعد اثنتي عشرة سنة، تطورت الأمور بطريقة جعلت حكومة الرئيس مونرو تأخذ بجدية التفاوض لأجل انضمام كوبا المحتمل إلى الاتحاد بعد أن قدم مواطن كوبي غامض يدعى سانشيز إلى واشنطن عام 1822 لهذا الغرض. ولكن الانكليز، حلفاء الحكومة الدستورية الإسبانية، يعلمون بأن جزءاً من الرأي الكوبي ربما يكون مؤيداً للانضمام إلى بريطانيا العظمى. ولن يبقوا مكتوفي الأيدي إذا فكّر الشعب الكوبي بالانضمام إلى الولايات المتحدة.

وفي السنة التالية، وبعد خسارة الدستوريين الاسبان عرف كانينغ، المسؤول الداهية في الخارجية البريطانية كيف يستخدم نصف السقوط هذا لسياسته، لإرباك الشمال أميركيين بعرضه ميثاقاً ضد التحالف المقدس. لقد رأينا أن الهدف الحقيقي لكانينغ، كان بإيصال الولايات المتحدة لتوقيع نص، يتعهدون فيه بلجم توسعهم. ولكن، رأينا أيضاً كيف عرف الأدهى آدامز كيف يبطل مفعول هذا العرض الخبيث بطرحه عقيدة مونرو. وبهذه الطريقة، وإن كانت التفاحة الكوبية لا تستطيع أن تقع في السلة الشمال أميركية بسبب الضغط الانكليزي، فقد تركها آدامز، حارّة في ذلك الوقت، بين أيدي إسبانيا الضعيفة، لأنه يعلم بأن هذه الأمبراطورية، مقدّر لها أن تترك عاجلاً أم آجلاً كل أميركا..

ونعلم في موضع آخر أن سبباً آخر من الأسباب التي تتعاكس مع قانون الجاذبية لآدامز، والتي تؤخر بالنتيجة سقوط كوبا في حضن الولايات المتحدة، هو اللعبة السياسية الصعبة التي تدور داخل الكونغرس. فعندما قسّم الخط 30' 36°، في سنة 1820، الاتحاد إلى ولايات حرة وحرّة بامتلاك عبيد، بدأ بعض رجال السياسة المعادين للعبودية يقلقون من هذيان العظمة لرجال الجنوب. وبعد عدة سنوات، فإن انفصال تكساس والغزوات المكسيكية للرئيس بولك، ستُحيي هذا الهذيان؛ وبعد قبول

المعاهدة في مجلس الشيوخ، فيما خصّ كاليفورنيا ونيو مكسيكو (1848)، فوراً، حدّد بولك هدفه المقبل:

إنني مؤيد بحزم لشراء كوبا لنجعل منها إحدى ولايات الاتحاد. (Quaife)

فقد أعلن السيناتور جفرسون دايفز في تلك السنة نفسها 1848، معتقداً بقوة بأن خليج المكسيك هو نوع من بحيرة للولايات المتحدة (كما سيصبح الهادي الشمالي هكذا بعد قرن):

[كوبا] يجب أن نمتلكها [لكي] تزيد عدد الدوائر الجهوية المناصرة للعبودية. (May)

وكان بولك قد أمر سفيره في مدريد بأن يقدم 100 مليون دولار لشراء الجزيرة. فأجاب الاسبان بشكل طبيعي بأنهم، قبل أن يبيعوها، يفضلون «رؤيتها تغرق في المحيط». وقد وعى عدد كبير من رجال الكونغرس في الشمال، التعقيدات التي قد يطرحها، على الاقتصاد الليبرالي، شراءُ جزيرة مأهولة بنصف مليون عبد تقريباً، وكان الليبراليون الويغز قد استعانوا، إضافة إلى ذلك، ومن أجل الفوز في الانتخابات سنة 1848، بالحيلة المدهشة وذلك بتقديمهم مرشحاً هو الجنرال زاكاري تايلور أول قائد مسؤول في الحرب ضد المكسيك. هذا العسكري وهو الأداة لأحد أكبر الانضمامات، أصبح إذاً بطل «الويغز» الليبراليين الذين هم حقيقةً معادون للانضمام، الأمر الذي وضع الجهود الرسمية من أجل ضم كوبا في الخفاء.

إن آمال المؤيدين للانضمام، لم تنعدم مع ذلك كلياً، لأنهم يمكن لهم أن يستلهموا المثل من تكساس فقرروا بالتالي أن يتسببوا بثورة من النوع نفسه. ونارسيزو لوبيز، وهو مغامر كوبي نفي في سنة 1848 لمحاولته تحريض ملاّكي الأراضي، ورائد عمليات إنزال المرتزقة في كوبا، منذ أكثر من قرن، قبل الانزال الشهير في سنة 1961، بيلايا جيرون (Playa Giron) في خليج الخنازير. حاول لوبيز لمرتين أن يحرر بلاده بتجنيد مغامرين ومنفيين كوبيين وقدماء الجيش في حرب المكسيك. وأول غزو أوقف من الحكومة الفدرالية الأميركية التي أرادت أولاً تهدئة الأمور. أما الغزو الثاني، الذي نجح خلاله أن ينزل ويرتكب بعض النهب، فقد انتهى بإعلان التدخل

الوشيك للجيش الاسباني. واستُقبِل لوبيز كبطل في 12 من مدن الجنوب عند عودته إلى الولايات المتحدة، فأعلن ألبير غالالاتين براون، وهو نائب عن المسيسيبي:

أريد كوبا، وأعلم جيداً أنها عاجلاً أم آجلاً ستكون لنا.

وأراد المزيد أيضاً فقال:

أريد تامولياس، اليوتوزي، وولاية أو اثنتين مكسيكيتين أريدها كلها للسبب نفسه ـ لزرع العبودية وانتشارها فيها:

وكانت صحيفة ساوثرن ستاندارد (Southern Standard) قد اقترحت رؤية أعظم أيضاً:

إضافة إلى كوبا وسان دومينيكان ستضبط إنتاج المناطق كلها الموجودة على مداري الكرة الأرضية. وبفضل هذا ستضبط تجارة العالم بأكمله، ومن ثم السيطرة على البسيطة كلها.

الجو حار إلى درجة أن لوبيز كان عليه الإحساس أن يقوم بمجهود ما. فنظم عند ذاك في 1851 غزواً ثالثاً ولكن هذه المرة، كانت السلطات الإسبانية في انتظاره. وعند ذاك، وصل لوبيز إلى هافانا ولكن كي ينهي أيامه مكبّلاً بالأصفاد. يروى أنه قبل موته صرخ قائلاً: «لن يبدّل موتي شيئاً في مصير كوبا».

طيلة حوالى سنتين تركت الحرية فسحةً صغيرة في كوبا. ثم في 1853، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من هناك رفض السلطان عبد المجيد الاعتراف بوصاية القيصر على أورثوذوكسيّي الأمبراطورية العثمانية. وفي مقابل ذلك، احتل الروس تاراً المقاطعات المولدو ـ فالاكية، ودمّروا أسطولاً تركياً. وبمحصلة ذلك بسبب توازنات جيواستراتيجية، تحالف الفرنسيون والإنكليز مع الأتراك للهجوم على الروس في القرم. «جاءت اللحظة للتحرك» كما علّق على ذلك بوضوح رجل سياسي في جورجيا (الولايات المتحدة) «بينما تكون انكلترا وفرنسا منشغلة في مكان آخر» (May). وبالنسبة إلى ماكفرسون كان كل شيء يسمح بالاعتقاد بأن الرئيس فرانكلين بيرس (1853 ـ 1857)، تحاور خلال شهر تموز/ جويليه في السنة نفسها 1853 مع حاكم ميسيسيبي القديم، جون كويتمان، أحد أولياء نعمه لوبيز. فشرح ماكفرسون نوايا الرئيس على الشكل التالي:

إن البراهين التي وصلت إلينا تسمح بالتفكير أن الحكومة كانت تأمل، في

المقابل، أن تُشعل في الجزيرة ثورة «على الطريقة التكساسية، مدعومة باجتياح للقراصنة. والأوامر المرسلة من وزير الخارجية إلى [السفير في إسبانيا] سوليه (Soulé) كانت تشترط بأن محاولاتٍ جديدةً لشراء كوبا «غير مناسبة»، ولكن الولايات المتحدة تأمل رؤية الجزيرة «تتحرر أو تكون متحررة من حالة الهيمنة الاستعمارية الحالية».

ولحسن حظ الراغبين بالقيود، فالقسم الذي حققته الأرض المكسيكية للولايات المتحدة بدأ يعطي مفعوله، مثل فيروس معلوماتية: فقد وجدت كنساس ونبراسكا عندها في حالة غليان كامل، وهما محتاجتان لتجربة الإخضاع للعبودية. وهذا ما أقنع الرئيس بيرس بأنه من الأفضل تأجيل تحرير كوبا إلى يوم آخر.

لذلك دخلت أمبراطورية الحرية، بعد عدة سنوات، بين سنة 1861 و1865، في صراعها الشكسبيري الشهير الذي تتواجه فيه الليبرالية وحرية فرض نظام الرق. إنني لا أختلق إطلاقاً هذه المفارقة، جميع هذه الولايات الأميركية، جديرة بالخضوع لأمبراطورية الحرية، وهي تتقاتل بالطريقة الأكثر حرية والأكثر منطقية في العالم، ليس لشيء سوى الحرية. ويخاطر رجال الشمال بحياتهم الثمينة للدفاع عن حرية شراء وبيع. العمل البشري ورجال الجنوب يخاطرون بحياتهم الثمينة للدفاع عن حرية شراء وبيع الكائن البشري. والفرق دقيق وقد خفي على كثيرين، لما ظهر ذلك في العنوان الأصلي «معركة صراخ الحرية» «Battle Cry of freedom» للكتاب الرائع الذي كرسه ماكفرسون لحرب الانفصال، والذي كان عنوان نشيد لمسيرة شمالية كتب في صيف 1862. لقد أصبح عملاً غنائياً رائجاً، إلى درجة أن الجنوبيين اقتبسوه وقاموا ببعض التغييرات الطفيفة على النص.

الصيغة الشمالية:

مهما كان فقيراً فالمرء لن يستعبد إن أطلق عالياً صرخة الحرب: واحرّيتاه!

الصيغة الجنوبية:

شعارهم المقاومة، لن نخضع للمستبدّين! فلنطلق صرخة الحرب: واحرّيتاه!

إنني أعي أن الكثير من قرائي، في المرحلة هذه، قد يتخبطون بصعوبة بين حريتي، وليبرالية وحرية فرض الرق. الشيء الوحيد الذي يمكن لي فعله محاولاً مساعدتهم ليروا بوضوح أكثر، هو أن أنصحهم بالذهاب لمشاهدة (أو المشاهدة مجدداً) سلسلة الأفلام من انتاج جورج لوكاس حرب النجوم (Starwars) التي تعالج مفهوماً يسمى القوة، وهو معقد ومبهم مثل حرية الولايات المتحدة. لأنه يمكن له أن يكون جيداً، أو سيئاً، متوحشاً أو سامياً حسب الطريقة التي يتطرّق إليها.

إلا أن الصراع طيلة هذه السنوات بين وجهي الحرية قد برّد الهجوم التوسعي كلياً. وبما أن مناصري حرية فرض الرق قد هزموا، فالحزب المناصر للانضمام الكوبي، الذي كان دائماً مناصراً، غرق في الانحطاط.

لننتقل الآن إلى الثورة الأولى الكوبية الحقيقية، وهي ثورة سنة 1895، ثورة خوسي مارتي، وهو شخصية، كان يمكن أن يصبح اليوم ارهابياً مشهوراً بموجب المعايير المطبقة على الفلسطينيين، على الباسك أو على الإيرلنديين، ولكن يمكن له أن يصبح بطلاً بموجب المعايير المطبقة على التيبت وعلى الشيشان أو على ألبان كوسوفو (ولو أن هذه الأخيرة أصبحت حالياً في طريقها إلى الانزلاق بكل هدوء نحو المجموعة الأخرى).

ووضّح رامير وغويرا:

> كان مارتي يخشى الولايات المتحدة لأنه كان يعلم بأن هذا البلد يرغب بكوبا، وكان يخشى أيضاً أن تجعل الولايات المتحدة في كوبا قاعدة للاستيلاء على الكاريبي، أميركا الوسطى وربما الجنوبية. والشمال أميركيون، حسب رأيه يستطيعون مهاجمة إسبانيا وينتزعون منها الجزيرة. لن يخاطروا في إتمام عمل كهذا ضد كوبا مستقلة، مبنية على قواعد جمهورية منتظمة وديموقراطية، دون إثارة كل عداوة القارة الأميركية واحتجاجات العالم المتحضر. فقد كان استقلال كوبا أساسياً لأجل أمن القارة كلها.

واليوم، للأسف، لا نستطيع أن نغني جميعاً على إيقاع الرقصة الشهيرة «مارتي تي تي ما كان يجب أن تموت، أوه لقد مات!» لأن كل شيء بعد موته حصل بدقة عكس تمنّيات أب الاستقلال الكوبي: لأسباب إنسانية بشكل دقيق تدخلت الولايات

(1) أميركا هنا تعني الولايات المتحدة.

المتحدة في الصراع فاحتلت كوبا واستولت على بورتوريكو وغواتنانامو، ومنحت نفسها الفليبين جائزة.

وبعد ستين من موت (أوه!) مارتي في سنة 1897، وقبل سنة من التدخل الإنساني في كوبا، ظهر كتاب جيوسياسي للكابتن في البحرية، أ. ج ماهان، وهو عمل عرف بعض النجاح في المكتبات، *The interest of America in Sea Power* (اهتمام أميركا بالقوة البحرية)، وهو يوضح سلسلة من ردات الفعل الاستراتيجية العرقية (سبق وتكلمنا عن الخطر الأصفر)، والفلسفية وأيضاً الصوفية، التي أفضت إلى الاستنتاج بأن الولايات المتحدة يتوجب عليها متابعة غزو الغرب، من البحار. فمن الضرورة امتلاك غواتنانامو للوصول إلى هذه الغاية، وكي يتمكنوا من مراقبة قناة الريح (Canal du vent)، وحماية ممر البرازخ الفاصلة بين المحيطين. ثم تخطّت الحقيقة أسوأ كوابيس مارتي بشكل واسع: هاجمت الولايات المتحدة إسبانيا عند ذاك وأخذت منها الجزيرة نظرياً بفضل اتفاق سنعالجه فيما بعد، هو إصلاح بلات (L'amendement de Platt). وهكذا لا يبدو أمن القارة فقط مهدداً ولكن على المدى الطويل، أمن العالم بأكمله، خاصة سنة 1962.

ولكن بأية وسيلة تحقق هذا الغزو؟ لنتذكر أنه خلال السنوات الممتدة من 1850، نصح الرئيس بيرس بثورة على الطريقة التكساسية لقلب حواجز الكونغرس، ولكن الأحداث التي نتحدث عنها الآن حصلت على عتبة القرن العشرين. يجب إذاً إيجاد وسائل أكثر ثورية أيضاً. (ثـ ث ثـ ورية، كما يقول كاسترو). ففي هذه الحقبة، اتخذ التدخل الإنساني شكله الحديث مطوراً كل وسائل النجاح التي تحملها اليوم: 1) حملة إعلامية واسعة في وسائل الإعلام التي كانت تتمثل بشكل أساس بواسطة الصحافة المكتوبة ـ حيث يُميّز أشرارُ اليوم الذين يجب قتلهم، والطيبيون المؤقتون الذين يجب مساعدتهم؛ 2) تدخل عسكري قاسٍ ضد الخبثاء حيث أن الطيبين حتى يتلقون بعض الهزائم المذلة في طريقهم، ولم تكن تسمى بعد جانبية؛ 3) انسحاب للجيش لتحل محله مراقبة اقتصادية وسياسية صارمة.

وكل معجب بالسينما ويحترم نفسه، يتذكر مشهد (Citizen Kane) حيث أن كين يتلقى برقية من مراسله في هافانا، يعلمه فيها بأن الكوبيات للذيلات وبأنه وجد القصائد النثرية التي كان يفتش عنها. لكن، ليس هناك حرب في كوبا. ولنتذكر جواب (Kane) كين، لقد كان ذاتياً وكاملاً، كما قال بورجس Borges:

«عزيزي ويلر، أنتم تنظمون القصائد النثرية، وأنا أجهز للحرب».

فالصحافة عندئذ، وليس فقط صحافة الخطر وليم راندولف هيرست (المواطن كين من ويلس)، لعبت دوراً مهماً في الحل الإنساني-التجاري لهذه الثورة. والآليات المستعملة هي نفسها التي ستستعمل في تحريك الحرب اليوغوسلافية 1999، بعد 101 سنة فيما بعد. إن شراسة الحكومة الاستعمارية الإسبانية (وهي حقيقية جداً)، كانت معروضة أمام الرأي الشمال أميركي الأبيض الأكثر حساسية، الأنكلوساكسوني والبروتستانتي، وهو رأي، يمس بدوره مشاعر الكونغرس (الإنتخابية).

لم يستطع المجلس أن يبقى فاقد الحس بهذا المد الحقيقي، فقط أولناي (Olney)، وزير خارجية الرئيس كليفلاند (1885 ـ 1889 ـ 1893 ـ 1897) بقيَ متحفظاً وبراغماتياً:

> فقد أعلن لرئيسه بعد وقت قصير جداً، كوبا ستجد نفسها غارقة في دمها أو ستكون معروضة للبيع في المزاد. (Bernis)

ولكن كلما تقدمت الثورة ولاحظنا بأن الثوار يهاجمون الممتلكات الصناعية، والتجارية، والزراعية، سواء أكانت مملوكة من إسبان أو أميركيين، فإن ميول كليفلاند (إن وجدت) تعددت ألوانها بشدة في رسالة إلى أولناي مؤرخة في 26 نيسان/ أفريل 1898، انتقد سياسة الرئيس الجديد ماكنلي واعتبر الثوار الكوبيين مثل «المجرمين الأكثر لاإنسانية ووحشية في العالم» (McElroy). قبل ستة عشر شهراً، في 7 كانون الأول/ديسمبر 1896، في آخر عرض حال إلى الكونغرس، اقترح كليفلاند حلين للمسألة الكوبية: إما الشراء وإما التدخل المباشر. إن الحلّين حقاً إنسانيان فقط:

> بدا لي أنه لم يكن نافلاً بتذكير الكونغرس، أنه يمكن أن يأتي وقت تكون فيه سياسة ذات بصيرة وصحيحة، حامية لمصالحنا كما لمصالح أمم أخرى لمواطنيهم، وتهتم بالاعتبارات الإنسانية وبرغبة رؤية بلد، غني وخصيب، مرتبط بنا بمودة صادقة، ويكون بعيداً عن تدمير كامل، تجبر حكومتنا باتخاذ المعايير الضرورية لحماية كل مصالحنا وخدمتها وفي نفس الوقت، لتأمين حسنات السلام لكوبا وسكانها. (Richardson)

لو كنا لا نعلم أن ذلك يتعلق بوثيقة وضعت بتاريخ 1896 لكنا اعتقدنا أن تحت أبصارنا خطاباً للرئيس كليتون محضراً الرأي للتدخل في يوغوسلافيا. وسنلاحظ أيضاً أن في هذه الأوقات البعيدة سبق للإنسانية وكانت ملتحمة بالفكر السائد: في الوثائق

الخاصة للرئيس كليفلاند، نجد رسالة، صنّفها هو نفسه على أنها سرّية جداً، حيث قال فيها بأن مجموعة من المصرفيين الإنكليز هي في طريقها للمساومة على ترك الجزيرة للولايات المتحدة مقابل ثمن من 20 مليون جنيه استرليني.

مع ذلك لا أحد ينفي القمع الرهيب للسلطات الإسبانية، خاصة تحت أمرة الجنرال ويلر (Weyler): تجميع الفلاحين، حرق منازلهم، إبادة الماشية والمحاصيل الزراعية، كما إلى حد ما في زمن تدخل الولايات المتحدة في جنوب فيتنام. مقابل هذا الوضع، لم تغير إدارة ماكنلي الجديدة (1897 ـ 1901) من تصرفها حيال إدارة سابقيها. وإن أول شكوى رسمية للإدارة الجديدة ظهرت في 26 حزيران/ جوان 1897. عبرت الولايات المتحدة عن سخطها لدى الحكومة الإسبانية على السمة البربرية وغير الإنسانية للقمع، بينما، في الوقت نفسه، كانت فكرة شراء الجزيرة ما زالت متداولة: منتهزاً فرصة الإحتفالات بيوبيل الملكة فكتوريا، أوفد عميل خاص إلى لندن لجسّ نوايا الوفد الإسباني في هذا الشأن.

إلّا أن الوضع تغير بعد عدة أشهر في إسبانيا بعد مقتل كانوفاس ديل كاستيلو. انتقلت الحكومة إلى أيدي الحزب الليبرالي وفي 8 تشرين الثاني/نوفمبر، حل الجنرال بلانكو مكان ويلر. حاول الإسبان عند ذلك أن يظهروا بأنهم هم أيضاً يستطيعون أن يحاربوا بطريقة إنسانية وعلقوا سياسة اعتقال الفلاحين الذين صح لهم باستعادة أراضيهم ومعاودة أعمالهم. ولكن لم يتغير شيء في تصرف الولايات المتحدة التي تجهل حتى قيام حكومة ذات حكم ذاتي في كوبا وفي بورتوريكو في هذا الوقت، حينما وجدوا أنفسهم محرومين من الحجج الإنسانية، فإن انفجار (في كانون الثاني 1898) السفينة المدرعة ماين الموفدة في زيارة صداقة إلى مرفأ هافانا، وقع في الوقت المناسب لإثارة النقاش مجدداً.

إن الجدل حول أسباب انفجار ماين ما زال مفتوحاً في أيامنا، ولكنه ليس أساسياً. فنحن نتناول وثائق أكثر أهمية. كشف لنا غويّرا، مثلاً، عن وجود رسالة غريبة من السفير وودفورد إلى الرئيس ماكنللي حيث أخبره عن مقابلة غير رسمية «من رجل لرجل» مع الوزير الإسباني موري يطلب منه هذا الأخير بأن يعبر بحرية وأن يعرض عليه العقلية الحقيقية لحكومته. في 18 آذار/مارس 1898 كشف وودفورد أوراقه حيث قال:

لا أظن أن الحكم الذاتي تحت الراية الإسبانية يمكن أن يجعل السلام

يخيم على كوبا. لا أظن أن المتمردين يستطيعون تأمين السلام والنظام لكوبا في ظل حكومة حرة ومستقلة. حزبكم الإسباني قوي جداً. لا أرى شيئاً آخر على هذا الطريق سوى الفوضى، وعدم الأمان للناس ودمار الثروات. العلم الأسباني لا يستطيع أن يضمن السلام، لا يوجد إلّا سلطة واحدة وعلماً واحداً اللذين يمكن لهما أن يضمنا السلام، فرض السلام.

وصفت رسالة وودفورد ردة فعل الوزير الإسباني قائلة:

بقي موريه (Moret) جامداً لبعض الثواني؛ رأيته يشحب بشدة. ثم تماسك مجدّداً وطلب مني من جديد: «إلى ماذا تلمح؟».
(Foreign Relations)

وبكلمات لائقة جداً ومحبية جداً حتى يتحاشى اعتزاز النفس الإسباني، عرض وودفورد شراء الجزيرة بمراقبة لجنة مختلطة مع ملكة بريطانيا كحكم. إلّا أن المصالحة لم تتم. ملكة إسبانيا، ماري ـ كريستين النمساوية، تملصت بسرعة من كل مسؤولية فعلية بأنها تفضل الرجوع إلى ديارها فيينا على أن تنقل إلى ولدها الفونسو إرثاً منقوصاً. في 23 مارس، كان غولّون (Gullón)، وزير الأرضي ما وراء البحار أكثر صرامة، وجارحاً:

لا نستطيع أن نفعل شيئاً في هذا الاتجاه دون المشاركة الأساسية لبرلمان الجزيرة.
(Foreign relations)

أبعد الشراء عندئذٍ. عاد التدخل الإنساني مجدداً عندها وهو الطريق الوحيد لمنقذي كوبا.

بعد ثلاثة أيام من رفض غولّون، تلقى وودفورد برقية من رئيسه، وزير الخارجية داي. أرجو منكم أن تقرأوها بانتباه شديد يا قرائي الأعزاء، لأنها تحوي جميع النقاط الموسعة من قبل محاربينا الإنسانيين في يومنا.

أمنية الرئيس هي السلام. لا يمكن أن يتأمل إلّا برعب، آلام ومجاعة كوبا القاتلة. إن مجمعات الاعتقال في مدن محصنة برجال ونساء وأطفال متروكين للموت جوعاً هو غير محتمل في عيون أمة مسيحية وعالم متحضر أينما كان

حيث نعرف مساحة هذا الوضع وميزته. في تشرين الثاني/نوفمبر، أجري اتصالٌ مع الرئيس بأن تخفف فوراً حكومة بلانكو الآلام وأن تغير في الحال نظام ويلر كي يسمح للذين يمكن أن يكون لديهم إمكانية القيام به باستعادة منازلهم وزراعة الحقول التي كانوا قد طردوا منها. لم تقدم أي نجدة للجائعين ما عدا التي أتت من الشعب الشمال اميركي. لم تلغ مجمعات الاعتقال في الواقع. لم يكن هناك أي أمل في السلام بواسطة الأسلحة الإسبانية. بدت الحكومة الإسبانية عاجزة عن القضاء على المتمردين. كان أكثر من نصف الجزيرة موجوداً تحت سيطرتهم. خلال أكثر من سنتين منح شعبنا الهدوء والصبر. لقد طفنا بدورياتنا طول سواحلنا بدقة وبكلفة كبيرة. لقد منعنا بنجاح إنزال كل قوة مسلحة في الجزيرة. إن الحرب أخلّت بهدوء وسكينة شعبنا. نحن لا نريد الجزيرة. لقد وضع الرئيس دائماً في المقدمة أمنيته لصون ومتابعة العلاقات الودودة مع إسبانيا. لقد استجاب لكل التزاماته الدولية. كان يرغب بسلام مشرف. لقد شجع لعدة مرات إسبانيا بتأمين هذا السلام. ما زالت إسبانيا قادرة على القيام به. ناشد الرئيس إسبانيا ودعا إلى التصرف بكل اعتبار للعدالة والإنسانية. هل كانت لتريده؟ أمنيته الوحيدة هي السلام. (Foreign Relations)

أنهى داي برقيته عارضاً الوساطة الأميركية إن علّقت سياسة المتجمعات. إن ما نسيه داي (أو ما لم يرد سماعه)، هو أنها كانت قد علقت منذ عدة أشهر، منذ رحيل ويلر في شهر أكتوبر من السنة الماضية.

غير أن، هذا التناقض استبدل بغيره، أكثر دقة بكثير. لقد لاحظتم بدون شك أنه يوجد في نص داي جملة صغيرة تبعد قليلاً عن السياق الإنساني للرسالة: «نحن لا نريد الجزيرة» ترجمه راميرو غويرّا كتلاعب من حكومة ماكنلي لتكريس الموقع الأخلاقي لإعلانه ومحو كل محاولات الشراء التي جرت سابقاً.

يبدو لي أنه بفضل قرن من التراجع الذي نستفيد منه، نستطيع أن ندقق في الأمور أكثر. مثلاً، سنة 1999، بعد مئة سنة من تدخلهم في كوبا لإنقاذ الشعب الكوبي من المخالب الإسبانية، تدخلت الولايات المتحدة في يوغوسلافيا لإنقاذ الشعب الألباني ـ الكوسوفي من مخالب الصرب. في أحد الأيام، سقط صاروخ ذكي على السفارة الصينية في بلغراد، مودياً بحياة أربعة عاملين. «لقد ارتكبنا خطأً نأسف له»، عاجلت السلطات الشمال أميركية بالإعلان أنها قبل أن تكشف، بعد عدة أيام سبب خطأهم:

«لقد كان لدينا خريطة قديمة لبلغراد، متأسفون». هذا العذر الأحمق، المثير للسخرية، والذي لا يصدق (حتى أصدقاؤنا الألبان لم يبتلعوه)، هو السليل المباشر للجملة الصغيرة: «نحن لا نريد الجزيرة». وبنفس الطريقة التي أعلنت الولايات المتحدة في بلغراد عن اعتذارها المثير للسخرية بأنها في الواقع كانت تريد امتحان ردات فعل الصين، كانت جملة داي الخارجة عن السياق تعلن عن الإرادة بالاستيلاء على كوبا.

في الجزء الثاني من هذا البحث، سنضيف بعض التفاصيل على هذا النوع من الدقة، ولكن في أي حال كانت الوقائع أبلغ بكثير من أي تفسير: بعد عدة أسابيع، في 25 نيسان/أفريل، إن حرب استقلال كوبا التي كانت لا تزال جارية قطعها إنزال الفرق العسكرية للولايات المتحدة. وكان تيودور روزفلت ـ الذي كان قد عين في السنة السالفة سكرتيراً مساعداً في البحرية ـ استقال من مهامه (ليلعب وينظم أول سرية متطوعة من الفرسان، «الفرسان الفظين» (Rough Riders)، التي هزمت الجيش الإسباني قرب سانتياغو دِ كوبا. من جهتها، أقامت الحكومة الأميركية حصاراً قاسياً للجزيرة الذي تفاقم بشكل «غير طبيعي وفظيع» ـ حسب الشهادة المباشرة لراميرو غويرّا ـ الآلام والجوع ونسبة وفيات الكوبيين خلال أربعة أشهر تقريباً. كان لا يزال طفلاً في تلك الحقبة حين روى لنا في شيء من الدهشة:

> إن جوع الكوبيين المخيف، حيث أن تمديده لا يمكن أن يتحمل يوماً زيادة من بعد 26 آذار/مارس من قبل حكومة ماكنلي، لم يؤخذ في الحسبان عند صدور مرسوم الحصار بعيد عدة أيام. هذه الخطوة كانت أيضاً قاسية، في تلك الأوقات من الرهق والفقر، كمجمعات الاعتقال الخاصة بويلر. لو أن إسبانيا صمدت مدة أكثر لكان «الحصار» أباد الذي نجوا من مجمعات الاعتقال.

فلنكن رؤوفين مع راميرو غويرّا. لا نندهشنّ لدهشته، فالتدخل الإنساني الحديث كان في بداية نشأته. في أيامنا، نحن معتادون على هذه التدخلات، وخاصة بعد الحصار الحقيقي الذي فرضته منظمة الولايات المتحدة على العراق منذ عشر سنوات. بكل إخلاص، لا أظن بأن المؤرخ الكوبي الأكثر تبصراً في الثلاثينات من القرن المنصرم، كان يستطيع التصور أنه يمكن الوصول إلى أقاصي الحدود هذه. وأخيراً، فإن مكافآت العمل غير النفعي والدونكيشوتي للولايات المتحدة لم يطل انتظارها. فقد أدخلت بورتوريكو والفليبين في الاتحاد. وبقيت كوبا بعد رحيل جيوش الاحتلال سنة

1902، مراقبة بشدة وطبقاً لتوقعات الكابتن ماهان، انتقلت قاعدة غوانتانامو العسكرية إلى أيدي الأميركيين. في سنة 1903، أدرج بروتوكول، دُعي إصلاح بلات مضافاً على الدستور الكوبي: بمقتضى كلمات هذا الاتفاق، ارتبطت كوبا بقوة مع الولايات المتحدة على الصعيد الاقتصادي، السياسي والإستراتيجي. هذا الاستقلال المراقب ترك أيضاً بعض الآمال لمؤيدي ضم الجزيرة وسمح بتدخل جديد ما بين سنة 1905 و1909.

هكذا تم تلبية جميع الشروط الضرورية على أحسن وجه من أجل تدخل إنساني حديث يطابق المعايير المحددة سابقاً، إعلان، تدخل، سيطرة عسكرية، سيطرة اقتصادية وسياسية صارمة. غير أنني تركت للنهاية تفصيلاً مهماً للغاية: للمرة الأولى توقفت القوتان الأنكلو ـ ساكسون عن وضع العصي في الدواليب. لقد رأينا كيف أنه خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، رغبت أيضاً القوى الأوروبية ممارسة بعض السيطرة في القارة الأميركية. أراد القيصر أن يبسط نفوذ روسيا الأميركية إلى خط العرض 51° حتى أنه وصل إلى المطالبة بكاليفورنيا. وقال التحالف المقدس وفرنسا بأنهما يريدان مساعدة إسبانية بإعادة غزو مستعمراتها التي خسرتها. وانكلترا التي تحتفظ بكندا وبيليز (Belize)، هددت بالاستيلاء على كوبا ويوكاتان وأن تؤمن السيطرة على الكاريبي وبرزخ نيكاراغوا. حتى أن العرش البريطاني نجح سنة 1850 بإجبار الولايات المتحدة بإيقاف توسعها وقتياً نحو الجنوب بواسطة معاهدة كلايتون ـ بولوير (Clayton-Bulwer)، كما سنراه فيما بعد.

ولكن العصور تتغير. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عرف التوسع الاستعماري نهضة جديدة. فرنسيون، إنكليز، ألمان وبلجيكيون انطلقوا بحماوة إلى غزو ما تبقى من العالم. فرنسيو نابوليون الثالث ولا بد من القول أيضاً، أصبحوا مدعاة للسخرية برغبتهم ـ بنذالة إلى حد ما ـ في غزو المكسيك بينما كانت الولايات المتحدة تتخبط في حربها الأهلية. ما إن انتهت تلك الحرب، حتى ذهبت فلول نابوليون الثالث على الفور (مما لم يمنع المكسيكيون من القول بأنهم هم الذين هزموهم) وفهمت الجمهورية الفرنسية الثالثة بأن المستقبل يتواجد في آسيا وأفريقيا. طيلة تسعينيات القرن التاسع عشر، انخرط الفرنسيون والإنكليز في سباق افريقي محموم حيث أن أول من يطأ أرضاً، من دون أناس بيض يستطيع أن يستملكها. هذه المنافسة الشرهة ـ خاصة حادثة فاشودا، التي ستراجعونها في كتب التاريخ ـ أضعفت

كثيراً التفاهم الودي بين فرنسا وبريطانيا العظمى في وجه المثلث (المانيا، النمسا وايطاليا). في الصين، تناقش الغربيون واليابانيون بشراسة في قسمة قالب الحلوى (الكاتو).

فعند ذلك فهم رئيس الوزراء الإنكليزي لورد ساليزبوري على الأرجح بأنه من غير المنطق الاستمرار بإحباط نوايا الولايات المتحدة في غزوها لأميركا. أن وضع وزن هذا البلد الكبير في الجهة الجيدة للميزان (ميزانه)، سيستطيع عندها إعادة ترتيب توازن العالم لمصلحة بلاده. يكفي أن يقول لورد ساليزبوري «تلك ليس من شأننا». في ما يتعلق بالتدخل الشمال أميركي في كوبا حتى يشير إلى نهاية نظام أبطل مفعول القوتين في القارة الأميركية. في حين إعلان الحرب بين إسبانيا والولايات المتحدة، شوهدت في كل مكان رايات صغيرة أميركية وانكليزية متشابكة، وراحت صحافة الولايات المتحدة تمدح الود العاقل للبريطانيين (Guerra). هذا الوضع أدى في السنة الأولى من القرن العشرين إلى إلغاء معاهدة كلايتون-بولوير التي حلت محلها معاهدة جديدة تلغي العقبة الأخيرة أمام التوسع الأميركي على حدودها الجنوبية. وبهذه الطريقة أخذ أول برعم للتحالف القاري شكلاً في شمال الأطلسي. ولكن ما لم يستطع تصوره اللورد ساليزبوري لثانية واحدة هو أنه بصدد مسيرة ستوصل بلده إلى أن يصبح، بعد قرن، عبداً لمستعمرته الأميركية القديمة حسب ما قال زبيغنيو بريجنيسكي.

القضية الحق الأولى: باناما (1903)

لا أفهم كيف أن الولايات المتحدة كان بإمكانها أن ترى دخولها في القرن العشرين بغير سلوك طريق على مثل درب مشع حيث أن قدرها الجلي يتقدم بكل هدوء نحو أكبر نصر للحضارة. وبفضل الحروب المكسيكية، وصلوا إلى سواحل الهادئ، وبفضل الحرب الرابحة مع إسبانيا، نجحوا بالهيمنة على خليج المكسيك وأن يتواجدوا على أبواب الصين عن طريق الاستيلاء على الفيليبين. عليهم الآن أن يجدوا وسيلة بحرية سريعة بين المحيطين. التدخل الإنساني في كولومبيا هو الحل الأفضل لهذه المشكلة. إن قرائي سيظنون بأنني هذائي قليلاً أو شوفيني، ولكن ماذا تريدون، فهكذا: بدأت هذه القصة مرة أخرى في المكسيك.

في الوقت الذي تغلغلت فيه الفلول الشمال أميركية مثل مارلون براندو في فيلم

«آخر تانغو في باريس»، قد يكون موظف من واشنطن فكّر بأنه، بما أنهم سيقتطعون من المكسيك نصف أراضيها، لن يكون من العسير الحصول مجاناً على امتياز لبناء طريق سكة حديد على برزخ تيوانتيك Tehuantepec. وتخثرت المايونيز: هذه الفكرة ظهرت حقيقة في المشروع الأول للسلام والصداقة الذي كان قد اقترحه التعيس تريست (Trist) إلى الحكومة المكسيكية التعيسة سنة 1847 (Alcaraz)[1]. وكانت المسألة تتعلق بإنجاز مشروع بناء ضخم لشبكة سكك حديد للقيام بالوصل بين خليج المكسيك والهادىء عبر البرزخ المكسيكي.

لقد رأينا بأن الأمور لم تكن مع ذلك بهذا القدر من اليسر، وبأن الرئيس المسكين پولك قد اخترقه نوعان من القلق الميتافيزيقي عذاباً كلياً. من جهة، أصيب بحمى أولئك الذين يؤكدون بأنهم في طريق طلب القليل جداً وبأنهم يستطيعون أخذ المكسيك كلها (مما، في معنى آخر، يمكنها تيسير الأمور المتعلقة بالممر بين المحيطين).

ولكن من جهة أخرى، كان يخشى إن طلب الكثير، ألّا يمكنه الانتصار على أولئك الذين لا يريدون في الكونغرس الضم، حتى ولو اقتصر على نصف المكسيك. في غضون ذلك، نجح التعيس تريست بجعل معاهدة غوادالوبي ـ هيدالغو موقعة من المكسيكيين الأكثر تعاسة أيضاً، كما أشرنا إليه سابقاً. هذه المعاهدة أقل تعاسة (بالنسبة إليّ) بما أنها لا تسلم كاليفورنيا السفلى ولا الامتياز على برزخ تيوانتبك. إننا نعرف أن پولك، بعدما فهم بأنه يستطيع عندئذ التوصل إلى الحصول على توافق بين المتطرفين والمعتدلين، ارتضى أخيراً بتقديم المعاهدة للكونغرس. إن استرجعنا صورتنا للنمور الثلاثة التعيسة (الليبراليون والديموقراطيون، والحكومة المكسيكية)، سيمكن لنا القول بأن النمر التعيس المؤيد للضم عليه أن يتخلى عن بلع الحصة الهزيلة المعروضة عليه، ولكن على أن يبقى قابعاً في زاوية، منتظراً مناسبة جديدة كي يبلع أراضي أخرى لأنه، بخلاف ما كان يقوله عادة الرئيس ماو، بأنه إن كان النمر حزيناً، فهو ليس من ورق.

في الواقع، إن فكرة بناء ممر بين المحيطين عبر تيوانتبك يتطلب غزواً عسكرياً أكثر

(1) هذا المشروع كان يشمل أيضاً التنازل عن الكاليفورنيتين، العليا وأيضاً السفلى ونصف خليج كاليفورنيا. استعملت هنا الاستعارة المايونيز، ولكن بالنسبة لمارلون براندو لنتذكر أن المادة الأولى، كانت الزبدة.

من إجراءات تقنية. فذلك البرزخ لم يكن أبداً في الحقيقة معبداً كممر مثالي لإنجاز وصلة سكك حديد بين المحيطين. ولم يباشر الكلام مجدداً وفي جدية إلّا حديثاً عن سكة حديد كهذه بفضل التقنيات الحديثة. في المقابل، في نيكاراغوا، كانت بحيرات ماناغوا ونيكاراغوا تؤلف ممراً عملياً أكثر، وأكثر من ذلك أيضاً في الجنوب، في القسم الكولومبي من باناما، حيث اليابسة أكثر ضيقاً أيضاً. إن قصة فشل قناة نيكاراغوا هي مزج دقيق من الجيوسياسي والدعاية البريطانية. قرابة سنة 1845، فإن الانكليز، الذين كانوا قد ضغطوا في الوقت نفسه مع الروس والفرنسيين كي تبقى تكساس مستقلة، شعروا بالإحباط من ضمها الوشيك والحرب التوسعية المحتملة ضد المكسيك. فهمت لندن بأن وصول الشمال أميركيين إلى الهادي، سيُوقظ اهتمامهم بالبرازخ. عندما استعاد اللورد بالميرستون زمام الخارجية سنة 1846، كان اعتقاده الراسخ بأنه يجب وقف جماح القدر الجلي الأميركي في أميركا الوسطى. (Morrison)

كان الإنكليز يملكون في هذه المنطقة من العالم المستعمرة القديمة الهندوراس البريطانية (Belize) ويمارسون انتداباً إلى حد ما فعالاً على ميسكيتوس (Miskitos). الموسكيتوس، كما كانوا يسمون أنفسهم في تلك الحقبة، يحتلون منطقة تبدأ من رأس غراسياس في ديوز، في الشمال، حتى أرجاء ريو سان خوان في الجنوب، مما يتطابق عملياً مع كل الساحل الكاريبي الحالي لنيكاراغوا. تواجهت حكومة البلد في عدة مرات مع البريطانيين الذين باسم ملك موسكيتيا، مارسوا بعض الهيمنة على المنطقة. إن قدوم اللورد بالمرستون وخطه الجديدة في الحزم جعل التوتر يرتفع إلى أقصى حده. والنيكاراغويون القلقون أرسلوا فلولاً إلى سان خوان ديل نورتي وارتكبوا الخطأ التقليدي في طلب مساندة الولايات المتحدة. في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1846، كتب بويتراغو (Buétrago) وزير خارجية نيكاراغوا إلى وزير الخارجية الأميركي بوكانان:

> استولت [انكلترا] على مفتاح القارة ذلك، فهذا لم يكن لحماية القبيلة الصغيرة «موسنيك»، ولكن من أجل تثبيت سلطتها على الطرف الأطلسي للخط الذي سيصبح فيه قناة يربط المحيطين الأكثر تداولاً، وتثبيت نفوذها على القارة، وكذلك علاقاتها المباشرة مع آسيا، وبلاد الهند الشرقية وبلاد أخرى كبيرة في العالم. (Richardson)

يبدو لي أن بوكانان كان على علم بكل ذلك وإنه ليس بحاجة خاصة بأن يأتي وزير بلد ـ صغير (micro-pays) ينعش له ذاكرته. على كل حال، فإن وزير الخارجية لم يزعج نفسه حتى في الإجابة على نظيره. والولايات المتحدة تتسلى الآن بما فيه الكفاية باحتلال مدينة مكسيكو وليس بحاجة في هذا الوقت على الأقل للهوٍ إضافي حقيقة.

بين 1847 و1848، تنازع النيكاراغويون المطالبون بحقهم والإنكليز باسم ملك موستيك إذاً على ملكية مدينة سان خوان ديل نورتي التي أصر البريطانيون على تسميتها غريتاون (Greytown). ولكن نتيجة الحرب بين المكسيك والولايات المتحدة كانت كوقع قنبلة قوية على شعوب أميركا الإسبانية. وعلى أثر ذلك، فالإنكليز الشرسون الذين كانت أعمالهم في السلب أسطورية على امتداد الساحة الكاريبية، أصبحوا صبيان مذبح إلى جانب الجمهورية ـ الأمبراطورية الجديدة والضخمة. في 7 آذار/مارس 1848 بعد شهر تقريباً من توقيع معاهدة الصداقة والسلام بين المكسيك والولايات المتحدة، عاجلت نيكاراغوا إلى توقيع اتفاق مع انكلترا تعالجت بموجبه مع هذه الأخيرة ومع من تحميهم من الموستيكاس. في هذه الطريقة عندما وصل الشمال أميركيون طامعين بالممر بين المحيطين، إلى نيكاراغوا، وجدوا جون بول (John Bull) مستقراً بهدوء في منطقة حيث كان يجب أن تتواجد فيها فتحة القناة قيد الإنجاز.

أصبح الوضع عندئذٍ معقداً، بما أن الوجود البريطاني يعارض بشكل صريح للمبدأ نفسه لعقيدة مونرو التي تمنع كل تدخل أوروبي في الأمور الأميركية. الولايات المتحدة التي وقعت، مع ذلك، سنة 1846، اتفاق حماية مع غريناد الجديدة (كولومبيا) حصلت بموجبها حق المرور بحرية ببرزخ باناما، لم تتوصل أن تعتاد على فكرة قدوم الانكليز ليلعبوا على ملعبهم يخص: الأميركيين دون سواهم. وقد يكون حل هذه المشاكل، حلاً بسيطاً في نهاية الأمر، لكنه ليس عادياً نظراً لحجم العدو حيث أن قدرته البحرية معروفة. إضافة إلى ذلك، فالجنرال تايلور، الفائز في انتخابات 1848 وبطل الحرب ضد المكسيك، يمثل في المناسبة الليبراليين، الأقل عدائية بما لا يقاس من الديموقراطيين. في ظروف كهذه، قررت الولايات المتحدة أن تتحاشى المواجهة المباشرة مع بريطانيا العظمى ووقعت اتفاقاً فيه نقاط كثيرة مشتركة مع الاتفاق الذي كان كانينغ يريد أن يدفعها إلى توقيعه في حقبة عقيدة مونرو.

وباتفاق كلايتون ـ بولوير نيسان/ أفريل 1850، تكفلت القوتان بعدم أخذ أي موقع عسكري أو بحري، وعدم الاستعمار، وأن لا تمارسان لا انتداباً ولا سلطة بأي شكل في كل أميركا الوسطى. وتكفلتا أيضاً بعدم عقد أي تحالف أو معاهدة بهدف إعطاء فوائد خاصة لجالياتهما في المنطقة. فإنكلترا التي كانت فائدتها الأولية هي إبقاء الباب مفتوحاً لتجارتها في العالم، نجحت أخيراً في كبح القدر الجلي للولايات المتحدة. لنقرأ استنتاج راميرو غويرّا:

> في هذا المعنى، فإن معاهدة كلايتون ـ بولوير كانت الورقة الصافية الكبرى (Magna carta) للاستقلال وسلامة أراضي أمم أميركا الوسطى، والضمانة بأن لا يصبحوا مفككين كما الحالة الجديدة في المكسيك، لأن القوتين الوحيدتين القادرتين على القيام بغزوات في أميركا تخلتا عن ذلك. التاريخ يبرهن ذلك، لأنه حتى إبطال الاتفاق وإبداله بمعاهدة هاي ـ بونسيفوت (Hay-Pauncefote)، ما عادت هكذا غزوات ترى النور.

ولكن الفرنسيين تكفلوا بتحريك الأوضاع في الكاريبي الراقد.

نجح فرديناند دو ليسيبس الشهير، باني أشهر قناة أيضاً، وقناة السويس، في الحصول من الحكومة الكولومبية على امتياز لأراضٍ بهدف بناء قناة بين المحيطين ينطلق من مدينة باناما في الهادىء، إلى مدينة كولون في الكاريبي. عرف هذا المشروع شهرة كبيرة، خاصة بسبب الإفلاس الفضيحة الذي لطّخ سمعة غوستاف إيفل نفسه. جرت الأمور بشكل سيّئ جداً لدرجة أن شركة قناة باناما اضطرت أن تبيع الامتياز لشركة جديدة بإدارة مهندس فيليبيني برونو ـ ڤاريللا بشكل رئيسي. ولكن الشركة الجديدة لم تنجح في تدبير الأمور أفضل بكثير من القديمة.

حصل هذا كله في الوقت نفسه الذي توصل فيه اللورد سالين ساليزبوري إلى استنتاج بأنه من الأكثر حكمة التفاهم مع أولاد عمه الأميركيين: فهو لم يغرق لندن فقط بالرايات الانكليزية الصغيرة والأميركية المتشابكة مع بعضها خلال الحرب الإسبانية ـ الشمال أميركية، ولكنه بدأ بإجراء المفاوضات التي انتهت بإلغاء معاهدة كلايتون ـ بولوير. فمعاهدة هاي ـ بونسفوت سنة 1901، جعلت الولايات المتحدة أخيراً حرة التصرف في المنطقة.

إذن كل شيء جرى وكأنه على طاولة روليت، في البداية على الأقل. في أواخر

سنة 1901 بعد أن أبقت الولايات المتحدة التهديد بإعطاء الأفضلية لفتح القناة في نيكاراغوا، قبلت الشركة الجديدة الـ 40 مليون دولار المقدمة من الشمال أميركي بدل الـ 109 ملايين المطلوبة. في 27 كانون الثاني/ جانفي، حددت معاهدة هاي ـ هيران امتياز القناة الكولومبي. وقع عليه مجلس الشيوخ الأميركي في 17 آذار/مارس، لكن ومن الجهة الكولومبية، بدأت الأمور بالتوقف، مما أطلق العنان فيما بعد لشتائم الرئيس تيودور روزفلت (1901 ـ 1909).

ما الذي تعطل عن الدوران؟ عند الانطلاق، إنها في الظاهر مسألة مبالغ كبيرة. ولكن عند الوصول، وجدت كولومبيا نفسها أن إقليماً منها قد تم اقتطاعه، والولايات المتحدة تمتعت بعد ذلك بنوع من الحدود الجنوبية خارج أسوارها.

لنلق نظرة على الوقائع. الشركة (وفيما بعد الشركة الجديدة) لم تستطع أن تجيّر الامتياز دون إذن مسبق من الحكومة الكولومبية؛ ولا شيء يشير بأن هذا الإذن يجب أن يتحقق بشكل مجاني. فمجلس الشيوخ الكولومبي، وبالرغم من أنه حرّ كلياً بنقض المعاهدة هاي ـ هيّران، فضل قبل أن يوقعها إيجاد اتفاق مسبق مع الشركة الجديدة بهدف الحصول على تعويض. فبدل محاولة تهدئة اللعبة وأن تُفهِّم الشركة الجديدة بأنها معرضة لخسارة كل شيء عند انتهاء صلاحية عقدها ذي السنوات الست مع كولومبيا، تضامنت الولايات المتحدة كلياً مع الممولين في باريس. بدأ الرئيس روزفلت يتوتر ويصف الكولومبيين باللصوص. في 9 حزيران/جوان (جرت القضية فقط خلال سنة واحدة 1903) وجه وزير الخارجية هاي إلى سفيره في بوغوتا رسالة:

> إنه من الواضح بأن حكومة كولومبيا لا تعي خطورة الوضع [...]. إن نقضت كولومبيا المعاهدة أو أخرت بطريقة غير شرعية توقيعها، فعلاقات أصدقاء بين البلدين ستتعرض للخطر إلى درجة قد يأخذ فيها المؤتمر في الشتاء القادم تدابير لا يمكن لأي صديق لكولومبيا إلا أن يأسف لها. (Foreign Relations)

في 9 تموز/جويليه، قرر مجلس الشيوخ الكولومبي أن يطلب 10 مليون دولار من الشركة الجديدة وزيادة 5 مليون دولار من المبلغ المتفق عليه مع الولايات المتحدة. في 5 أوت/ آب أشار السفير بوبريه للحكومة الكولومبية بأن عليها توقيع المعاهدة دون أي تعديل «اذا كانت كولومبيا تتمنى حقيقة المحافظة على علاقات الصداقة

الموجودة بين البلدين» (Foreign Relations). التأثير الملموس لهذه الرسالة هو دفع مجلس الشيوخ الكولومبي إلى رفض مجمل المعاهدة لإبقاء الباب مفتوحاً على مفاوضات جديدة.

في أيلول/سبتمبر، عند رؤية الأمور تتعقد حقاً، أراد كروموبل محامي الشركة الجديدة أن يجد اتفاقاً مع كولومبيا خوفاً من فقدان كل شيء بدون شك. وفيما بعد وفي ملاحظة شخصية، بدرت عن هاي وزير الخارجية ردة الفعل التالية:

> يجب على [كروموبل] أن لا يشتكي من فشل المعاهدة بسبب بخل الكولومبيين ورفض شركة القناة إرضاء هذا البخل. إن كانت الشركة معرضة للاستنزاف، فلماذا لم تقل ذلك في وقته؟ (Thayer)

في 17 تشرين الثاني/نوفمبر، أعلم بويريه حكومته بأن الكولومبيين جاهزون للتفاوض على اتفاق جديد. في 22 منه، أجاب هاي بأن ذلك دون فائدة: لقد قرّر الرئيس أن يأخذ طريقاً آخر. إن أول ردة فعل لتيودور روزفلت أمام امتناع كولومبيا عن توقيع المعاهدة هي الاستيلاء على البرزخ بالقوة وبالبدء بفتح القناة مع إغفال تام لحقوق كولومبيا (روزفلت 1916). إلّا إنه، لاحظ بأنه يستطيع الحصول على القناة عبر طريق أسهل وأكثر فخراً: مساعدة القضية المحقة للشعب الباناني.

بما أن باناما تستوفي معاييري لبلد صغير، لا أريد هنا الحكم على كيفية وصولها للاستقلال. سأكتفي إذن بوصف الوقائع: أربع سفن من البحرية الأميركية تدخلت في النزاع ومنعت الجيش الكولومبي من اتخاذ تدابير ضد الثوار؛ وسأشير أيضاً بأن فيليب بروتو ـ فاريللا، مدير الشركة الجديدة، بعد علمه بالتاريخ المحدد للانتفاضة، في 3 تشرين الأول/أوكتوبر، أوصله للولايات المتحدة، وسأشير أخيراً بأنه، ليل الثالث من تشرين الأول/أوكتوبر نفسه، أرسل الدكتور آمادور، قائد المتمردين، إلى وزير الخارجية هاي برقية تقول:

> إن استقلال البرزخ كان قد أعلن دون أن تهرق الدماء. لقد أنقذت معاهدة القناة. (Bemis)

طبعاً، لقد برر روزفلت تدخّله بحجج تستعمل أيضاً في أيامنا: «مشاعر إنسانية»، «منع إراقة الدماء»، «إحباط خطط العصابات الكولومبية» (غويرا). بعد ذلك، في سنة

1911، عقب بحث لمجلس النواب، فهم روزفلت بأنه لا فائدة من الاستمرار بالنفي بأن هدفه هو فقط الاستيلاء على القناة.

> إنني مهتم بالقناة، لأنني بدأت بها. فلو اتبعت الأساليب المعتادة، لكنت قدمت للكونغرس تقريراً جدّياً ومناسباً؛ من المحتمل، مئتي صفحة، وربما كان لا يزال الحوار يُتابع [...] ولكنني استوليت على منطقة القناة وبعد ذلك تركت للكونغرس [...] في حين كان النقاش يتقدم، كانت القناة أيضاً هي تتقدم (Granger).

مقابل هذه التصريحات، لم تستطع كولومبيا أن لا تتحرك. بدأت بدعوى تعويض طويلة التي ربحتها سنة 1914، حصلت على اعتذارات، 25 مليون دولار وبعض الامتيازات في القناة. المعاهدة الموقعة في السنة نفسها اعترفت بخلطة روزفلت. ولكن أصدقاءه في الكونغرس، والذين لا يريدون قبول هذه الإتهامات، عرقلوا توقيع الاتفاق. وليس إلّا في سنة 1922، بعد موت روزفلت وخاصة بعد اكتشاف آبار نفطية في كولومبيا، قرر الكونغرس أن يوقعها؛ لم يفت الأسياد الكبار والشيوخ أن يصرحوا لكي يوقعوا المعاهدة المعلنة في آذار/مارس 1922:

> [بـ] أنهم أخذوا بعين الاعتبار الفوائد الاقتصادية التي ستلحق مع إعادة بناء علاقات الصداقة مع الأمة الكولومبية.
> (Hacker et Kendrick)

دبلوماسية الدولار: نيكاراغوا (1912 ـ 1916)

نتكلم قليلاً بالنسبة لنيكاراغوا، وخاصة إن قارنا ذلك مع الاهتمام الذي كرسناه لكوبا. مع ذلك، فإن الحقبة الساندينية (Sandiniste) في الثمانينات 1980 أظهرت أنه بلد لا يساق بسهولة بدرب الحرية. لنلقِ إذن نظرة خاطفة على حالته.

لنبدأ قصتنا في خمسينيات القرن التاسع عشر وفي السياق الأوسع لأميركا الشمالية والكاريبي. لقد رأينا كيف أن الحماسة المتأتية من الغنيمة المكسيكية استحثت الفكرة التوسعية. كان الرئيس پولك قد حاول شراء كوبا. والرئيس بيرس، المعارض في البداية لهكذا عملية تجارية، عندما رأى أن محاولته تحرير كوبا بواسطة ثورة على

الطريقة المكسيكية لم تصل إلى غايتها، حاول هو أيضاً شراءها. في سنة 1854، مستغلاً الصعوبات الاقتصادية للحكومة الإسبانية، أمر الرئيس أخيراً سفيره المشاغب في مدريد، سوليه (Soulé)، بعرض مبلغ في حدود 130 مليون دولار. إن رفضت إسبانية، فيجب على سوليه أن يركز على جهوده «للهدف المنشود القادم و [هو] سلخ الجزيرة عن الأمبراطورية الإسبانية». (McPherson) (1991) حلل هذه الحقبة بالشكل التالي:

«لا نعرف الكثير عما كانت تعني بالتحديد هذه المعلومة الغامضة، ولكن إن كانت الحكومة قد توقعت رؤية سوليه يتحرك بالطرق الدبلوماسية السرية، فإنها أساءت اختيار رجلها. في أكتوبر 1845، التقى سوليه في أوستاند (Ostende) في بلجيكا السفيرين الأميركيين في بريطانيا العظمى وفرنسا، جيمس بوكانان وجون ماسون. يعلم الله كيف توصل مواطن لويزيانا النشيط أن يقنع ليس فقط الساذج ماسون، ولكن بوكانان أيضاً، اليقظ عادة، أن يوقعا مذكرة سميت فيما بعد بيان أوستاند. «إن كوبا ضرورية أيضاً للجمهورية الشمال أميركية كما أي فرد من أسرة دولها [...] الحالية»، هذا ما أعلنته الوثيقة الشهيرة. اذا قررت الولايات المتحدة بأن أمنها ـ يمرّ عبر الحصول على الجزيرة وإذا اصرت إسبانيا على الرفض في بيعها إياها، عندئذٍ ستكون المحاولات [الأميركية] في سلبها من إسبانيا مبّررة من جميع القوانين، الإنسانية والإلهية».

كما كان ذلك متوقعاً، فقد أفشى سوليه، الذي لا يمكن ضبطه، كل شيء للصحافة، مما أثمل العالم كله وأطلق فضيحة في مدريد كما في واشنطن. وقامت الصحافة المناهضة للعبودية في الولايات المتحدة ضد «بيان اللصوص ذاك الذين يريدون السلب والسرقة والقتل والإثراء على حساب المناطق وتعب العبيد». وذهب مشروع الشراء إذاً في إدراج المحفوظات بإنتظار فرصة أفضل.

في الواقع، الشراء الوحيد الذي أوصله بيرس إلى النهاية، هو الذي أسماه المؤرخون «شراء غادسدن» (l'achat Gadsden) نسبة لاسم المفاوض الرئيسي، جيمس غادسدن. رجل أعمال مختص في سكك الحديد. أوكل إلى غادسدن السفارة في المكسيك لهدف واحد هو التفاوض لشراء قطعة صغيرة من أراضي المكسيك التي قد

تسهل بناء خط يوصل نيوأورلينز بالهادئ: العملية التجارية هي نوع من عرض لا يمكن رفضه، ومما سمح بإضافة 000 76 كيلومتر مربع للاتحاد في سنة 1854.

في جهتها، انطلقت المبادرة الخاصة هي أيضاً في سباق للتوسع. في 1853 نظم وليم والكر، صحافي سابق وباحث عن ذهب في كاليفورنيا (كاليفورنيا العليا السابقة)، نظم غزوة مؤلفة من 45 رجلاً مجهزين بشكل جيّد لتحرير الأراضي المكسيكية في كاليفورنيا السفلى وسونورا. إن نواياه هي إخضاع هنود الأباشي وجلب حسنات الحضارة الأميركية والقوة الأنكلو ـ ساكسونية إلى هذه الأراضي المكسيكية الغارقة في الظلمات. وقد يسعه أثناء الاجتياز استغلال مناجم ذهب أو فضة في السولورا، إذ عليه أن يدفع لشركائه. نجح والكر بالوصول إلى لاپاز، عند الطرف الجنوبي من كاليفورنيا السفلى (التي تعود للمكسيك طبعاً) وأعلن نفسه رئيساً للجمهورية الجديدة. أتته بعد ذلك فكرة تحرير الولاية سونورا المكسيكية وأقدم على اجتياز خليج كاليفورنيا مع قراصنة آخرين. ولكنه فشل وكان عليه العودة إلى سان دييغو في آيار 1854.

> لقد رُحّب به كبطل من مواطنين عابدين من سان فرانسيسكو، لكنه لوحق بسبب خدمة القانون المتعلق بالحياد، ثم برّأته لجنة محلّفين لم يلزمها سوى ثماني دقائق لأخذ قرارها. (McPherson).

ففي هذا الوقت وصل إلى نيكاراغوا الثري النيويوركي كورنليوس ڤاندربيلت (Cornelius Vanderbilt) الذي يملك شركة مواصلات (Accessory Transit Company)، مهمتها نقل المسافرين والبضائع من نيويورك إلى سان فرانسيسكو وصولاً حتى نيكاراغوا ـ بعض المستقرئين الذين سحرهم مناخ البلد أتتهم فكرة إنشاء ما يطلق عليه اليوم أسم **جمهوريات الموز** لتكريسها للإنتاج المعقلن للموز ولبعض الفاكهة الغريبة، والسكر، والبن والقطن. ولكن بما أن هذا البلد كان حينها فريسة مناخ ثوري، وأن حكومة الولايات المتحدة لم تستطع أن تتحرك بشكل مباشر بسبب اتفاق كلايتون ـ بولوير الموقع سنة 1850 مع إنكلترا، فكّرت بعض النفوس الحسّاسة والذكية بأنه يجب التحرك، وإن بصفة شخصية، لتحرير نيكاراغوا في الوقت نفسه من ذاتها ومن الإنكليز وبذلك اقتياده أخيراً نحو الحضارة.

وفي تلك العقلية أقدم والكر المحرّر المحبط بسبب حرمانه من ولايات شمال

المكسيك سنة 1854 على توقيع عقد مع بعض المتمردين في نيكاراغوا. في أيار/ ماي 1855 ومع الدعم المالي من ڤاندربيلت، نجح في الإمساك بزمام الأمور في البلد برفقة قراصنته. والثوار الذين استلموا السلطة بفضله عيّنوه قائداً عاماً للجيش في نيكاراغوا. في سنة 1856 تواجد أكثر من ألفي أميركي في نيكاراغوا وفي ماي، اعترف الرئيس بيرس رسمياً بالحكومة المعينة من والكر.

ولكن الحظ لم يحالف والكر في الوقت الذي إنحاز فيه إلى جماعة عدائية لڤاندربيلت في (Accessory Transit Company). جمهوريات أميركا الوسطى الأخرى تحالفت عندئذ، واتفقت مع ڤاندربيلت ونجحت في إقناع رئيس نيكاراغوا بمعارضة والكر. مقابل هذا الوضع، لم يجد هذا الأخير حلاً آخر سوى إعلان نفسه رئيساً لنيكاراغوا، فكان تصرفاً لم يسع بيرس دعمه إن أراد احترام الاتفاقات الماضية مع بريطانيا العظمى. فلم يكن لدى الحكومة الفدرالية خيار آخر سوى قطع علاقاتها مع المغامر. ولكن بقي لوالكر جنوب الولايات المتحدة. وحقيقة، في الكتاب الذي تركه لنا، أكد بأن نيّته هي «وصل ولايات الجنوب بنيكاراغوا وكأن هذا البلد هو جزء من الولايات». في 22 أيلول/سبتمبر 1856، استذكر مجدداً مرسوم إعتاق العبيد الذي اعلنته نيكاراغوا سنة 1824 وأحيا الرق، وانطلقت عندئذٍ حملة إعلانية لجذب أبطال جدد إلى أميركا الوسطى. كتبت صحيفة موجهة إلى مواطني ديكسي Dixie:

> باسم العرق الأبيض يقدم لكم [والكر] نيكاراغوا، لكم ولعبيدكم، في وقت لا تجدون فيه صديقاً واحداً على مساحة الكرة الأرضية. (May)

انطلق المجندون من سان فرنسيسكو ونيوأورلينز، ولكنهم لم يستطيعوا هذه المرة الاعتماد لا على مساعدة الحكومة الفدرالية ولا على مساعدة ڤاندربيلت، وبالنتيجة، وعاد والكر من جديد إلى بلده في شهر أيار/ماي 1857.

إلّا أن النفوس في الجنوب كانت شديدة التعبئة وبدأت حملة صحافية جديدة. وفي 12 تشرين الثاني/نوڤمبر 1852 خسرت صحيفة لويزيانا كورير ذلك:

> «إن شعباً بربرياً لا يمكنه أن يعرف التحضر بدون التعليم الملائم الذي تؤمنه العبودية. إن واجب العقلاء وامتيازهم الصادر بأمر من السماء هو إرشاد الجاهلين وحكمهم [...] بواسطة العبودية وسيتعلم الرجال المتحضرون بسرعة

معرفة واجبهم وحقهم، وستعود بسرعة النجاحات الحقيقية للحضارة». (Urban)

ولكن لا الحرية ولا الحضارة استطاعتا في ذلك الوقت الحصول على الحرية لأميركا الوسطى. بعد غزوتين جديدتين، انتهت مهمة والكر التحررية أمام فصيلة إعدام نيكاراغوية.

ولكن كما يقال في الخطابات الوطنية، تبقى ذكراه محفورة في قلب عشاق استعباد الآخرين. في سنة 1861، عندما وُجد البلد غارقاً في أزمة انفصال كاملة، أوعز عضو ليبرالي في مجلس الشيوخ من الجنوب، جون ج. كريتندن، إلى إحياء خط العرض '36 °30 لفصل العبودية واللاعبودية في كل أراضي الولايات المتحدة «المملوكة حالياً أو المكتسبة فيما بعد». الرئيس أبراهام لنكولن (1865 ـ 1861) وحزبه الجمهوري (الذي كان قد انتخب عنه بعد أن ترك الليبراليين) رفض فكرة كريتندن:

سيكون ذلك بمثابة ميثاق حرب دائم ضد كل شعب وقبيلة أو دولة مالكة متر مربع من الأرض من هنا حتى أرض النار. (McPherson)

يؤكد لنا ماكفرسون بأن الجمهوريين ولنكولن يبالغون قليلاً. استشهد لدعم ذلك بتأكيد لفيرجينيٍّ يدعى جورج بيكلي، عضو في منظمة فرسان الدائرة الذهبية، وهو قد أعطى تعريف هذه الدائرة الذهبية متمثلة بالولايات المؤيدة للعبودية:

وقد تنطلق الدائرة في جنوب الولايات المتحدة وتجتاز المكسيك وأميركا الوسطى، وصولاً إلى ضفاف أميركا اللاتينية، ثم تنحرف مجدداً نحو الشمال شاملاً الأنتيل وتقفل في كي وست (Key West). كتب سنة 1860: «مع هذا الضم سواء أكان لنظامنا، أي نظام الاتحاد، أم لفدرالية جنوبية سيكون بين أيدينا كل أراضي القارة حيث ينبت القطن والتبغ، السكر، البن، الأرزّ، الذرة، وكذلك أكبر خزان عالمي للثروة المعدنية».

إن فصل ماكفرسون الذي أوردته والذي عُنون «أمبراطورية للعبودية»، ختم كالتالي:

عندئذٍ، منذ 1860، كانت قد تحولت أمبراطورية توماس جيفرسون من أجل

> الحرية لتأخذ من جديد شهادة نائب المسيسيبي في الكونغرس، LCQ Lamar، كرغبة «بغرس الحرية الأميركية مع القوانين الجنوبية على كل شبر من الأراضي الأميركية». إلّا أن الضجة التي رفعت بسبب محاولة غرس النسخة الجنوبية للحرية على طول خليج المكسيك، بالشكل الغريب للعبودية، حجبتها المجادلة التي أثارتها، إرادة غرسها في قلب كنساس[1].

هذه المشاكل اشعلت في كنساس فتيل حرب الانفصال في الولايات المتحدة وخلال بعض الوقت، قتل البيض الأنكلو ـ ساكسون الشمال أميركيون بعضهم البعض بدون تمييز وسقط منهم مئات الألوف. ولم يبق لديهم إذن لا الوقت ولا الرغبة بتصدير بضاعتهم السيّئة النوعية التحررية. ولكن المهلة المعطاة للقارة الأميركية قصيرة، لقد سبق وقلنا ذلك، ولذلك أكرر، لأنها لم تكن سوى قصيرة جداً.

لقد مرت السنوات: عالجت الولايات المتحدة بالدم نزاعها الداخلي، وبعد ذلك، نجحت بطرد إسبانيا نهائياً خارج القارة الأميركية (كوبا) وبالتفاهم مع بريطانيا العظمى لبناء قناتهم بين المحيطين في الإقليم الكولومبي القديم في باناما. هذه القناة فتحت الطريق لسيطرة عالمية ممكنة. ولكن بما أن الولايات المتحدة كانت أساساً مبدعة منذ نشأتها، قبل أن تنطلق في نشر حريتها في الجهات العالم الأربع، فقد طبقت اللمسة الأخيرة في الحداثة على سياستها الأمبراطورية التي كانت لا تزال تظهر بعض الجوانب البدائية. فلمّعت قوتها، وطلتها بالفضة. في الوقت نفسه الذي تشبث فيه الفرنسيون والإنكليز بمستعمراتهم كانت الولايات المتحدة متقدمة خمسين سنة في كل ما يتعلق بتقنيات السيطرة: فهي في نهاية الأمر، مأمونة أكثر، أنظف وأكثر إنسانية: إنسانية وبيئية، لكي نستعمل الكلمات الرائجة في يومنا.

فبهذا الشكل ولد مظهر آخر للتدخل الإنساني يحمل اسم ديبلوماسية الدولار المميز. وكانت نيكاراغوا البلد المستخدم كحقل اختبار لتنفيذ هذه التقنية، فلنلق نظرة على هذه التجربة الأخيرة قبل أن نفتح النوافذ للعالم الواسع.

في 30 أيلول/ سبتمبر 1916، أنكرت محكمة العدل الوسط أميركية معاهدة وُقعت

---

(1) إن الالتباس الناشيء عن العادة البغيضة بتسمية أميركي كل ما يتعلق بالولايات المتحدة مشوش هنا بصورة خاصة. في الجملة الأولى من هذه الشهادة قد يكون أكثر وضوحاً لو ترجمت، الصفة «أميركية» في هذه الجملة منسوبة الى الولايات المتحدة. ولكنني لم أرد أن أفسد الترجمة الفرنسية لكتاب ماكفرسون.

حديثاً بين الولايات المتحدة ونيكاراغوا، تضر بمصالح جمهوريات أميركا الوسطى الأخرى. رفض البلدان المعنيان الخضوع لقرارات المحكمة، ولكن لم تتولّ أي قوة دولية (مع أو بدون خوذات زرقاء) فرض احترامها. في 1917، ثبت لهذه المحكمة، التي أنشأها وزير الخارجية الأميركية الأسبق إيليهو روت (Elihu Root)، عدم جدواها فحلّت نفسها بنفسها. ما الذي حصل إذن؟

بعيد قليل من تعيينه في سنة 1909 من قبل الرئيس تافت (1909 ـ 1913) على رأس وزارة الخارجية، ابتكر فيلاندر تشيز نوكس، وهو محام أعمال لامع، نظرية ديبلوماسية الدولار. بموجب هذه العقيدة الجديدة، سيحل الدولار مكان البندقية والمدفع باعتبارها وسيلة إعادة سلام. إنها فكرة سخية، وفي نهاية الأمر أكثر منطقية من سياسات الأمم المتحدة الحديثة، أو الحلف الأطلسي، التي كانت تحاول فرض السلام بواسطة (سجادة القنابل) (carpet-bombing) وبضرباتها الجراحية (Surgical Strikes). وكرجل علم حق، أراد نوكس بدايةً اختبار ترسانته الجديدة للسلام، ولهذا العمل، اختار الخمس جمهوريات الإسبانية في أميركا الوسطى التي لا تنعم بعد مثل باناما بحماية الأخ الأكبر.

إن آلية التسلح الجديدة هي في الحقيقة بسيطة إلى حد ما: حل مشاكلها الناشئة عن الديون المترتبة عليها للدول الأوروبية، اقنعت الولايات المتحدة الجمهوريات الخمس أن تقترض من البنوك الشمال ـ أميركية، التي ستتمثل ضماناتها في العائدات من الجمارك والضرائب الأكثر أهمية في كل بلد. طبقت محاولة أولى مقنعة جداً مع جمهورية الدومينكان منذ سنة 1905، لا أحد كان يعلم وقتذاك إن كان هذا الاختبار الدومينكي سيفشل وأن الولايات المتحدة ستضطر على احتلال سان ـ دومينغو سنة 1916. لا أحد كاملاً. ولكن دعونا لا نبتعد عن موضوعنا، لقد قلنا إنّ الجمهوريات الخمس قد تأخذ قروضاً بضمانة ضرائبها. ولتحسين أداء هذا النظام، سيستخدم جزء من المبلغ المقترض في دعوة رجال أعمال شمال ـ أميركيين الذين قد يحصلون على امتيازات لتحسين الخدمات العامة لهذه البلاد وانشاء ثروات جديدة عندئذٍ. أنتم، قرائي الأعزاء، معاصرو المقدم المساعد ماركوس، والعولمة، تستطيعون أن تسخروا من هذه الفكرة، ولكن عليكم أن تعوا بأن كل ذلك حصل منذ مئة عام تقريباً وأن صندوق النقد الدولي (FMI) لم يكن بعد مبتكراً.

إلّا أنه، لتعاسته وتعاسة بلده، لم يقتنع الرئيس النيكاراغوي خوسيه سانتوس زيلايا

بفضائل هذا النظام خالية من شوائب. كان يمكن أن تنعته الألسن السيئة با «الرجعي»، ولكن في الحقيقة كان لهذا الحذر بعض الأسس الملموسة تماماً. قبل عدة سنوات، سبق وكان له خلافات مع نوكس عندما كان هذا الأخير محامي شركات منجمية شمال ـ أميركية متمركزة في نيكاراغوا. إضافة، لقد تجرأ زيلايا في أن يرعى فكرة منح الألمان امتيازاً لبناء قناة في نيكاراغوا قد تنافس قناة باناما. لقد طفح الكيل. كما الهنود الحمر، الإسبان، المكسيكيين والكولومبيين، نُعت زيلايا بدوره بالمجرم. ونظمت ثورة انفصالية على الطريقة البانامية من قبل حزب المحافظين ممولة من شركات شمال ـ أميركية في منطقة بلوفيلدز (Bluefields). عندما ظهرت فيما بعد صعوبات أمام الثوار، كان على القوات البحرية الأميركية واجب الإطاعة من جديد إلى نداء واجب التدخل وسارعت في إرسال سفينتين إلى بلوفيلدز. سفن قد تكون كلمة «سلام» اليوم معلقة في مكان ما، ولكن في تلك الحقبة كانت تحمل الاسم المتداول (المبتذل) «سفن الحرب».

كان على زيلايا أن يستسلم ويتخلى عن الرئاسة في كانون الثاني/جانفي سنة 1909، ولكن خليفته، مادريز، وهو ليبرالي أيضاً، لم يبدُ عليه هو أيضاً أنه فهم القانون الحق. تابعت القوات البحرية الأميركية حماية الثوار وتوفير الإمدادات لهم. والمكسيك، حيث كان الرئيس الدائم بورفيريو دياز ينعم ببعض الاحترام من قبل الرئيس تافت، حاول أن يلعب دور الوسيط. واكتفى نوكس بالإعلان بأن الأوامر المعطاة للبحرية ليس لها أي هدف آخر سوى منع قصف المدينة دون دفاع خلال هذا الوقت فإن الحقوق الجمركية لبلوفيلدز دُفعت للثوار وليس للحكومة.

في شهر آب/أوت سنة 1910، دخل المتمردون أودولفو دياز، شاموزو واسترادا إلى ماناغوا وسارعوا إلى توقيع الاتفاقات مع وزير الولايات المتحدة داوسون وهي اتفاقات حملت اسمه. النقطة الثانية من اتفاقيات داوسون تلك أسست:

> لجنة مطالبة مختلطة، مؤلفة من نيكاراغوي، وشمال أميركي ممثلاً للمصالح الأجنبية ومن عضو ثالث معين اختيارياً من رئيس الولايات المتحدة.

النقطة الرابعة تلتمس قرضاً للمؤسسات المصرفية الشمال ـ أميركية. النقطة الخامسة تطلب:

> إلغاء مبادىء زيلائية (نسبة لزيلايا) في الإدارة. (Howland)

وفي هذا الشكل نجحت سياسة الدولار أخيراً في الإقلاع.

إلّا أن نورثكوت (Northcott) السفير الأميركي الجديد في ماناغوا أعلم حكومته بسرعة عن عدم شعبية الحكام الجدد. واسترادا نفسه، الذي كان قد عين رئيساً، اعترف بذلك بكل صراحة:

> الأمل الوحيد لنيكاراغوا، نظراً للحالة الفوضوية في البلد، يكمن في التحالف الصادق مع الولايات المتحدة.

إن استرادا لم يكن على خطأ. بعد الكثير من التقلبات ـ منها الاحتجاجات الصارمة لمجلس النواب النيكاراغوي ضد عدم أهلية الحكومة المفروضة من الولايات المتحدة ـ انفجرت ثورة جديدة، ولكن هذه المرة، مدارة من ثوريين أشرار. تلقت إذن ماناغوا القصف الجراحي العادل المتوجب. وقامت البحرية الأميركية بإنزال. نحن في سنة 1912. وبمصادفة غريبة (ولكنني أفترض بأن هذه المصادفات لم تعد تفاجئنا فعلاً)، تلك السنة نفسها منحت جائزة نوبل للسلام إلى إيليهو روت، وزير الخارجية السابق الذي أسس محكمة العدل لدول أميركا الوسطى. بعد التهدئة، سارعت الولايات المتحدة إلى توقيع معاهدة منحتها قاعدة بحرية في خليج فونسيكا بمبلغ ثلاثة ملايين دولار، حصرية قناة محتملة والتخلي عن جزيرتي غريت كورن (Great Corn) وليتل كورن (Little Corn) في الكاريبي ولكن انتهت مدة إدارة تافت وها هي إدارة الرئيس القديس ويلسون، الذي أصبح بعد سنتين، في 1918، المدافع عن حق الشعوب بتقرير مصيرها. وتكفل بتوقيع المعاهدة. وقد أغنى الفريق الجديد لويلسون هذه المعاهدة بشرط يجيز في أي وقت تدخل القوات الأميركية في نيكاراغوا. اليهو روت، الذي اكتسب مع الوقت بعض نفاذ البصيرة (حتى وإن كان قد أعد قبل عدة سنوات تعديل بلات الدستوري الصارم الذي فُرض على كوبا)، علق عندئذٍ في قرارة نفسه قائلاً:

> إنني أشعر بنفسي مشوشاً بعمق بالنسبة إلى مسألة ما إذا كانت حكومة نيكاراغوا التي وقعت هذه المعاهدة تمثل حقيقة الشعب النيكاراغوي، وإذا كنّا في نيكاراغوا كما في أميركا الوسطى نعتبر أن هذه الحكومة كانت مؤهلة أن تعمل بكل حرية أثناء التفاوض بشأن هذه المعاهدة. قرأت التقرير الرسمي لقائد بحارينا في نيكاراغوا ووجدت التالي: «إن الحكومة الحالية لا تستمدّ

سلطتها من إرادة الشعب، وانتخابات الكونغرس كانت في قسم كبير منها مزورة». وفي تقرير لاحق قال القائد نفسه بأن الليبراليين، أي المعارضة، يشكلون ثلاثة أرباع البلد. فمن الواضح، بعد هذا التقرير، وغيره من التقارير التي وصلت اليّ بالصدفة بطرق أخرى، بأن الحكومة الحالية التي عقدنا معها المعاهدة لا تصمد في السلطة إلا بوجود قواتنا البحرية الشمال ـ اميركية [...] هل لنا الحق أن نعقد معاهدة تنازل عن حقوق دائمة مع رئيس نرى أنه لا يمثل سوى ربع الأمة، والذي يصمد في مركزه فقط بفضل قوتنا العسكرية والذي تدفع له مبلغاً كبيراً من المال؟ (Howland)

ظاهرياً، لم يفهم جيداً المحترم إيليهو روت ديبلوماسية الدولار، وكذلك دول أميركا الوسطى الأخرى. لم يفهموا لماذا هذه المعاهدة التي سميت بريان ـ شامورو، تعطي الأولية في المنطقة للعلاقة بين الولايات المتحدة ونيكاراغوا، مغتصبة بذلك الاتفاقات الموقعة مع كوستاريكا والسلفادور.

في سنة 1907، وعلى أثر بعض النزاعات التي حصلت في أميركا الوسطى، اتفق روت وزير خارجية تيودور روزفلت عندها، مع الرئيس المكسيكي الدائم پورفيريو دياز لإنشاء محكمة عدل وسط أميركية مهمتها تحكيم صراعات المنطقة. والى هذه المحكمة أرسلت كوستاريكا والسلفادور سنة 1907 لنقد الاتفاق الأحادي الجانب بين نيكاراغوا إسترادا والولايات المتحدة لويلسون. كوستاريكا المالكة الشريكة مع نيكاراغوا في الريو سان خوان، والسلفادور، جارة القاعدة البحرية الأميركية القائمة في خليج فونسيكا، شعرتا أنهما مهددتان على الصعيد الجسدي كما السياسي. إضافة إلى ذلك، إن الاتفاقات المعقودة بين نيكاراغوا والولايات المتحدة تغتصب الاتفاقات المعقودة سابقاً بين أمم أميركا الوسطى. كانت قرارات المحكمة التي أثمرت في سنتي 1916 و1917 ملائمة لكوستاريكا والسلفادور. ولكنها لم تؤخذ بالحسبان لا من نيكاراغوا ولا من الولايات المتحدة، ولا يمكن اللجوء إلى الوسيط العاقل الرئيس المكسيكي الخالد پورفيرو دياز، لأنه قرر أخيراً أن يموت في باريس سنة 1915.

ونعرف اليوم، بفضل دروس منظمة الدول الأميركية (منظمة الدول الشمال أميركية) ومنظمة الأمم المتحدة (منظمة الولايات المتحدة)، والمحكمة الجزائية التابعة بأن أي منظمة دولية وأي محكمة قائمة خارج الولايات المتحدة لا تستطيع أن تجبر الأخ

الأكبر بالخضوع لأصغر التزام. لأجل ذلك لا يستطيع أي إنسان اليوم أن يكلف نفسه ويحكم عليها. ولكن في بداية القرن العشرين، كان بعض السذّج مثل كوستاريكا والسلفادور ومثل الأعضاء الآخرين في المحكمة الوسط أميركية يفكرون بأن القانون واحد ومستقيم ـ وما كانوا يدركون أنه يمكن للحق أن يطوّع وللقانون أن ينحرف مثل الضوء أثناء مروره قرب كتلة ضخمة جداً مثل الولايات المتحدة. إلّا أن الوقائع أظهرت ذلك: رأي واحد غير ملائم للولايات المتحدة يكفي لأن تتفكك محكمة العدل الوسط أميركية. وقبل ذلك بعدة أشهر، في تشرين الثاني/نوفمبر 1915، كان أينشتاين قد حل معادلات النسبية العامة التي سمحت له بأن يستنتج من بينها بأن الضوء ينحرف عند اجتيازه حقل الانجذاب لكتلة ضخمة. للأسف، إن هذه النظرية أخذت بعض الوقت لتصبح مقبولة ومثبتة[1]، مما كان قد منع سياسيين في أميركا الوسطى للجوء إلى التشبيه الشفاف لانحناء الاشعاعات الضوئية للوصول إلى فهم أن القانون كما الضوء، ينحني دونما اكتراث أمام الكتلة الساحقة للسلطة وملايين الدولارات.

حدث هذا في سنة الغفران 1917. في أوروبا تفاقمت المجزرة الصناعية، المبتكرة قبل ذلك بعدة سنوات في القارة الأميركية، كانت الولايات المتحدة قد وصلت إلى الحجم الخطر، الذي يسمح لكرة من بلوتونيوم أو اسطوانة أورانيوم 235 أن تنفجر وتنشر طاقتها المشعّة.

القارة الأميركية تعود الآن للشمال أميركيين.

ولكن ما زالت تنقصهم بقية العالم.

---

(1) ثُبّت هذه النظرية تتبع كسوف الشمس في 29 أيار/ماي 1919 الذي أظهر الانحراف في زاوية ضوء نجمة بيتا (Bêta) لبرج الثور عند مرورها قرب الحقل الانجذابي للشمس.

القسم الثاني

العالم في الولايات المتحدة

«لماذا يهزّ الكلب ذيله؟
لأن الكلب أكثر ذكاءً من الذيل.
فلو كان الذيل أذكى، لكان حرّك الكلبَ».
من فيلم أصحاب النفوذ لباري ليفنسن.
(Barry Levinson)

الفصل الأول

العالم

ـ إن والدي هو مثل أي رجل سلطة... شخص لديه رجال تحت مسؤوليته مثل سناتور أو رئيس.
ـ كم تبدو ساذجاً
ـ لماذا؟
ـ الشيوخ والرؤساء لا يتسببون بقتل أحد.
ـ من هو الساذج، يا كاي؟

حوار بين آل باتشينو وديان كيتون في فيلم العراب

المحيط الهادي

إن الرعب هو إنسانوي.

في 1917، كانت الولايات المتحدة قد جربت جيداً نظامها الإنسانوي المضاعف للتدخل العسكري والاقتصادي. كانت تسيطر على بورتوريكو، والقاعدة الكوبية في غوانتانامو، وتمارس حماية فعلية على كوبا ونيكاراغوا، وتحتل جمهورية الدومنيكان وهاييتي. وقد اشترت (الولايات المتحدة) في السنة نفسها تلك بمبلغ 25 مليون دولار «الجزر العذراء» من الدنمارك، فجعلت منها بسبب هذه المساومة وبفضل السيطرة على باناما وقناتها، الأسياد المطلقين لبحر الكاريبي وخليج المكسيك.

والهادي الشمالي الذي لم يكن بعدُ بحيرة للولايات المتحدة، كما أصبح خلال السنوات من 1940، ولكن هذا المصير كان يلوّح سابقاً. فبين سنتي 1853 و1854،

فتح الكومودور بِرّي Perry بشكل قاطع أبواب اليابان. وفي سنة 1867، اشترى وزير الخارجية سيوارد الألاسكا والجزر الأليوتية (Aléoutiennes) وكانت ميدواي، ويك (Wake)، ساموا، هاواي الفلبين وغوام قد وقعت في بداية القرن، في فلك الحرية.

ولنلق نظرة موجزة على هذه الفتوحات الغربية جداً قبل أن نجتاز حدود 1917.

هيّا إلى الغرب!

لنستعد كتاب جيمس ماكفرسون:

نحو الغرب، يتّجه مجرى الأمبراطورية، كان قد كتب الكاهن جورج بركلي فيما خص العالم الجديد، خلال سنة 1720. وكذلك كان قد تطلع توماس جيفرسون نحو الغرب ليؤمّن أمبراطورية للحرية، لأجيال قادمة للمزارعين الأميركيين. حتى أن رئيس جامعة يال، تيموتي دوايت، الذي ينتمي إلى المنطقة والمجموعة الأقل تفضيلاً للتوسع نحو الغرب، وبصفته فدرالياً «متحدّراً من إنكلترا الجديدة»، لم يستحوذ على البلاغة في قصيدة مؤرخة 1914:

«سلام لك يا عالم الغرب. المدعم من السماء كمثل لامع، لأحياء الإنسانية قريباً سيشق أبناؤك طرق القارة ويؤسسون منزلهم على ضفة الهادي البعيدة يحملون سلطتهم، دينهم، عاداتهم وفنهم وينشرون حريتهم إلى بحر آسيا».

بعد ذلك كان هنري دافيد تورو الطيّب المحمي من إمرسون وملهم غاندي، والذي قادته معارضته للحرب على المكسيك إلى السجن، والذي لم تطأ قدماه أراضي الغرب أبداً قد كتب أيضاً:

لم أتجه نحو الشرق إلّا مرغماً أو مجبراً، ولكن نحو الغرب أذهب بكل طيبة خاطر. الإنسانية تتقدم من الشرق إلى الغرب.

«Go west young man!» انطلق نحو الغرب أيها الرجل الشاب! هذا هو الحل المقدم خلال الأزمة الاقتصادية 1840 من هوراس غريلي (Horace Greely) صاحب جريدة نيويورك تريبيون (New York Tribune) الغراء.

كانت حرب المكسيك (1846 ـ 1848) قد اندلعت في الوقت المناسب لوضع هذه النصيحة قيد التنفيذ، وكذلك اكتشاف الذهب في كاليفورنيا سنة 1849. فقد ذهب

الناس بالملايين، يجتازون الأنهار، يذلّون الحدود، يبيدون بعض الهنود، وهم أوفياء بالمهمة التي عهدها الله اليهم: تمدين، العالم وتحريره. هذا هو قدرهم الجلّي. «قدر الرجل الأبيض»، كما قال كيبلينغ فيما بعد.

ولكنهم فهموا في وقت محدد أن هذه المساحات اللامتناهية لها نهايةً حتماً: البحر الكبير في الجنوب الذي هو في الحقيقة من الغرب. ولكن هذا لم يوقفهم. وهكذا فإن غزو الغرب دفع إلى أقصاه بحيث وصل في النهاية إلى الشرق الأقصى.

علي بابا والأربعون «حرامي»

ليس من الضروري أن تكون كارل ماركس 2 أو نصيراً لفكرة أن «الملكية هي سرقة»، لتعرف أن في الولايات المتحدة نظرية الحرية مرتبطة بشكل عميق جداً بمبدأ الليبرالية. وهذه النظرية، وإلى درجة ما، أحياناً، من الصعوبة بمكان ملاحظة الفرق بدقة بينها وبين السرقة. وهذا يجب ألّا يدهشنا إلى حد كبير. لأن هذا الأمر صحيح كلياً باعتبار أن وضع هذا الشعار بالممارسة هو «دعه يعمل، دعه يمرّ». إلّا أنه ليس أقل صحة إذا ما قلنا إننا إذا لم نستطع أن نحصل على هذه الحرية بطريقة طوعية فإننا يمكن أن ننتزعها بالقوة. وفي كل الأحوال، لا يوجد أي شكّ بأن الليبرالية هي القوة التي أجبرت الغرب على ممارسة سياسة الباب المفتوح في الشرق الأقصى. وبهذه الطريقة وفي سنة 1833 فإن أدموند روبرتس، مدفوعاً من الواجب الليبرالي ـ ابن عم واجب التدخل ـ وهو موفد من الرئيس جاكسون، كان قد منحه ملك «سيام» «حرية الاتجار دون أن تكون الأسعار محدّدة من الموظفين» (Heffer). عندها وصلت الحرية بطريقة خفية إلى الشرق، بعد تسع سنوات قبل أن يفتح الانكليز، وبواسطة ضرباتهم الجراحية واتجارهم بالأفيون، أبواب «بلاد الوسط» (Chung-Kuo)، أي الصين.

وبعد عدة سنوات، وفي سنة 1844، دفعت وجهتا نظر متعارضتان عن الحرية، الصينيين إلى توقيع معاهدة تجارية مع موفد الرئيس تيلر (Tyler) (1841 ـ 1845) كالب كوشينغ. فشعر الشمال ـ أميركيون بأنهم مجبرون، وهم أوفياء لعادتهم، على أن ينشروا الحرية أينما كان، ويضغطوا ليحصلوا على حصتهم من الكعكة الصينية. أما بالنسبة إلى الصينيين الذين تتوقف الحرية بالنسبة إليهم على المحافظة على تقاليدهم لكنهما كانوا قد أجبروا من الانكليز على الانفتاح على التجارة وعلى بعض

الأساليب الأجنبية، فقد توصلوا إلى معرفة أنه بالتحريض على المنافسة التجارية بين القوتين البربريتين الانكلو ـ ساكسونيتين، سيصبح الضغط الإنكليزي أقل تأثيراً. وبهذه الطريقة المتناقضة بعض الشيء، (أصبح الصينيون ليبراليين، ليتحرروا من الليبرالية) استطاعت تجارة الولايات المتحدة أخيراً اجتياز أبواب الصين.

إن اليابان، بلد شروق الشمس (Ni-Hon)، لم يبغ هو أيضاً أن يتصاع للصواب. وفي أواسط القرن السابع عشر، قرّر التوكوغاوا، بعد أن عاشوا بعض التجارب السيئة مع البرابرة الذين قدموا من البحر، أن يغلقوا بلدهم كصدفة محار، ومنذ تلك الحقبة، لم يتوصل أحد إلى طريقةٍ لفتحه. ومع ذلك، لا بدّ لأحدهم أن يفعل ذلك. إنها مهمة إنسانية: حرمان الأربعين مليون نسمة أولئك من الحق الذي لا ينازع في التجارة العالمية، يمكن أن يكون مشابهاً في الحقيقة لنوع من الجريمة ضد الإنسانية. وجد الكومودور ماثيو پرّي أخيراً الحل، مبدياً دقةً أكثر من الاسكندر الكبير بوجه المشكلة العويصة. ففي سنتي 1853 ـ 1854، قام برحلتين إلى اليابان، مستعرضاً خلالهما مواقعه المدفعية، مثلما أظهر معاملته الحسنة. هكذا مزيج بدا أكثر فعالية من أي صيحة «افتح يا سمسم!» لفتح أبواب هذا البلد الباهر أخيراً. وتيودور روزفلت، الذي كان سكرتيراً مساعداً في البحرية سنة 1897. وقبل الذهاب إلى كوبا، لضرب الإسبان بعصا غليظة، كان يدرك بدون أي شك مأثر الكومودور پرّي (Perry). وهكذا قد يكون من المحتمل أن الطرق الشديدة التهذيب لهذا البحار العظيم، استلهمت جملته الشهيرة:

تكلموا بلطف، واحملوا عصاً غليظة، تصلوا بعيداً.

أطيب القبلات من روسيا

لنعد إلى فترة عقيدة مونرو، فيما خص «الفرمان» (Oukase) الشهير. ففي سنة 1821 منع قيصر روسيا بموجب ذلك القرار كل نشاط تجاري غير روسي على الساحل الأميركي شمال خط عرض °51، ولنضع أنفسنا، للحظات وجيزة، مكان الروس. فحسب رأي المؤرخ جان هيفر (Jean Heffer)، كان الكسندر الأول قد تأثر بخطابات التوسع لرجال الكونغرس مثل جون فلويد من ڤرجينيا (John Floyd) أو توماس هارت بنتون (Thomas Hart Benton) من ميسوري (هذا الأخير مثلاً، ساهم

بشكل فعّال، عبر عشرين سنة، بتحرير كاليفورنيا بمساعدة صهره زوج ابنته جون فريمون (John Frémont)، وبإطلاق هذا «الفرمان»، أراد قيصر روسيا تلافي وصول قوة جديدة على ساحل الهادي الشمالي، وفي الوقت نفسه كسب بعض العظمة الأقليمية على الانكليز والمكسيكيين. إلّا أن الروس، لا يريدون مشاكل مع الولايات المتحدة حيث أن الديناميكية التجارية كانت جد مقيّدة لهم. وبعد أقل من سنة، وفي حزيران/ جوان 1822 ـ أي أكثر من سنة قبل انطلاق عقيدة مونرو في كانون الثاني/ جانفي 1823 ـ كان تطبيق «الفرمان» قد علق كأمر واقع. فلم تراقب السفن الروسية المياه الساحلية الأميركية إلّا عند خط عرض 55°، واكتفوا بتوقيف المهربين، وفي 17 نيسان/أفريل 1824، وقّع الروس والولايات المتحدة معاهدة حيث كرّست العودة إلى التعاون.

كنّا قد رأينا أن حكومة مونرو استخدمت مع ذلك «الفرمان»، لتبرّر وضع العقيدة التي تحمل اسمها. فأعلن عندها المحتال جون كوينسي أدامس «أن التجارة هي أحد الحقوق والواجبات الطبيعية للإنسان» مشيراً بشكل لا يقبل الشك إلى الخلط التي يجريه هؤلاء الرجال بين ليبرالية (تجار حرة) وحرية.

خلال الأربعين سنة التالية، وخاصة بعد كاليفورنيا العليا وحُمّى الذهب تطورت الأمور بحيث أن الحملات التوسعية في الهادي الأميركي انعكست: ترك الزحف الروسي نحو الجنوب المكان لزحف نحو الشمال. فلنتذكر الصراع الذي كاد أن ينفجر خلال سنة 1840 مع بريطانيا العظمى، عندما أرادت الولايات المتحدة أن تأخذ بالقوة أراضي أوريغون (Oregon) إلى خط عرض 45° '50 الذي كان يمكن أن يضعهم في احتكاك مباشر مع روسيا الأميركية[1]. فقد اتجهت، بعد ذلك، مصلحة الولايات المتحدة التجارية نحو هذا الجزء من الأمبراطورية القيصرية. وبذلك كانت الوسترن يونيون (Western Union) على وشك أن تقيم أول كابل تلغرافي دولي على طول مضيق بيرنغ (Béring) ووادي نهر آمور، وهو نهر لُقّبَ بالميسيسيبي الجديد من قبل رجال الأعمال الشمال أميركيين. وفي آذار/مارس 1853، كتب حاكم سيبيريا الشرقية، نيكولاي مورافيف، إلى القيصر نقولا الأول بافلوفيتش، هذه الكلمات:

---

(1) الشعار fifty four fifty or fight (نص بنص أو القتال) (مستحب إلى خط عرض '50 °54 وربما وقعت الحرب». هذه الجملة قالها روبرت دونيرو بسرعة في «أصحاب النفوذ wag the dog» الفيلم الرائع لباري ليفنسن، يؤشر لهذه الحقبة من التاريخ.

السيطرة النهائية للولايات المتحدة على مجمل أميركا الشمالية هي طبيعية جداً منّا يتوجب علينا أن ننسحب الآن أو فيما بعد، ولكن علينا أن نقوم بذلك سلمياً لنحصل بالمقابل على امتيازات أخرى من الأميركيين. (Heffer)

يجب التحديد بأن روسيا الأميركية، من وجهة نظر جيواستراتيجية أفقدت توازن الأمبراطورية الروسية إلى درجة أن الإنكليز خلال حرب القرم فضلوا أن لا يهاجموها حتى لا يبيعها القيصر بسعر رخيص للولايات المتحدة. وبعد ذلك بعدة سنوات (1858 ـ 1860) عندما وسّع الكسندر الثاني نيكولايفيتش، حدوده الشرقية نحو الجنوب أي نحو وادي الحب، واستولى على مرفأ فلاديفوستوك (Vladivostok)، كانت فكرة البيع قد نضجت بما أن مركز القوة في روسيا الشرقية انتقل إلى الجهة الجنوبية. فيصبح الزبون المثالي للآلاسكا هو الولايات المتحدة ليس فقط بسبب الشعور بالغيظ ضد انكلترا التي بدأت حرب القرم، ولكن، وعلى وجه الخصوص بما كانوا يظنون في موسكو بأن مشاجرة بين القوى الانكلوساكسونية، لا يمكن إلّا أن تكون مربحة. وبهذه الطريقة، بقيت كولومبيا البريطانية (الجزء الانكليزي من أوريغون الكبرى القديمة) مسجونةً في نوع شاطر ومشطور تشكله الولايات المتحدة.

إذن أصبح وليام سيوارد رجل الموقف قبل أن يعيّن وزيراً للخارجية من قبل الرئيس لنكولن سنة 1861، أحد المدافعين الأكثر حماسة عن التوسع إلى ما وراء البحار، وكان يرى في الهادي «المسرح الأساسي للأحداث في المستقبل الكبير للعالم» (Sharrow). في سنة 1860، قبل انتخاب لنكولن أيضاً وتعيين سيوارد (Seward) في وزارة الخارجية كانت المحادثات قد تقدمت. وكان بإمكان المصالحة أن تحصل في السنة نفسها. ولكن كل شيء ذهب سدى بسبب الوضع الداخلي في الولايات المتحدة التي أصبحت مجموعة من المتناحرين المتبارزين بسبب التنازع الدائم بين الشمال والجنوب. كان يجب الانتظار حتى 1867 وتحت رئاسة اندرو جونسون (1865 ـ 1869) لتصبح آلاسكا وجزر الأليوت (Aléoutiennes) ملكية اليانكي وبمبلغ زهيد تقرياً 7,2 مليون دولار.

سندويش تكساسي..!

إن الشيء الذي يجعلني أكثر حيرة عندما نتكلم عن السياسة الخارجية للولايات

المتحدة، إن كان في يومنا أو عبر التاريخ، هو استعمال تعابير مثل «عزلة» أو «عزلة رائعة». يبدو لي حقاً أن السياسة الخارجية لهذا البلد تميل بالأحرى إلى الاتجاه المعاكس للعزلة.

صحيح أنه كان يوجد دائماً، داخل الولايات المتحدة، تيارٌ ضد التوسع تبعاً للطريقة نفسها التي يمكن فيها أن تتعايش بحدة أفكار في بلد ما، في الحزب السياسي نفسه أو حتى داخل العائلة الواحدة نفسها. وكان هناك دائماً عدة أنواع من هؤلاء المعارضين للتوسع. فهناك أصحاب الإرادة الطيّبة حتى، مثلكم ومثلي أعزائي القراء. ولكن ثمة أيضاً بينهم نوع معتدل، أي، الذين لا يريدون أن يعطوا أي شيء للشمال لأنه لم يعطِ كفاية للجنوب والعكس بالعكس. هذه النوعية انطفأت عندما ربح اليانكي الحرب (1861 ـ 1865) ولكن العنصريين العرقيين خلفوهم، هؤلاء الذين لا يريدون أن يفسدوا العرق الأبيض والأنكلو ـ جرماني بعرق أسود أو إسبانيه أو صيني أيضاً. مع العلم أن التاريخ يظهر لنا بوضوح بأن هؤلاء المعارضين للتوسع، الطيّبين والسيئين منهم، كانوا أقلية وسط هذه الديموقراطية الأمبراطورية الكبيرة. الآن وبعد أن أظهرنا جلياً حيثيات الأمر لتحليلنا، نستطيع أن نسأل أنفسنا ما هو الدافع لهذا السباق الجانح نحو العالم الواسع. كان جون كوينسي أدامس قد أعطانا الجواب: فالدافع هو التجارة، هذا الحق وهذا الواجب الطبيعيان للإنسان. إنه هو الذي أعطى كل هذه القيمة للحرية. إنه هو المحرك الأساسي لكل الأمبراطوريات، على الأقل منذ بداية الحقبة الحديثة. لا كولومبوس ولا البحارة البرتغاليون اندفعوا نحو البحر حباً بالفن ولكن من أجل المال[1]. وفي أواسط القرن التاسع عشر، أصبح البخار الذي زاد قدرة التجارة وأرباحها، ملك البحار وينبغي للملك إذاً إيجاد سفن تجارية، ولكن أيضاً أساطيل لحمايتها. طبعاً لست أنا مبتكر هذه النظرية للبحار، للمال وللسلطة. فالكابتن ألفرد ماهان الذي نشر، كما رأينا، كتاباً سنة 1897 يشرح فيه القواعد المؤسسة للتدخلات في كوبا وباناما هو الذي نشر سنة 1890 كتاباً آخر (**تأثير القوة البحرية على التاريخ (1660 ـ 1783)**) كان له تأثير على الضباط المتخرجين من الكلية البحرية في نيوبورت وكذلك على رجال واشنطن. أصحاب النفوذ أولئك، كانوا قد

(1) إن المقصد السري للكائن المسكين الذي نسج هذه الرموز لا يختلف كثيراً: لقد فكر بأنه سيجد في الجهة الأخرى من هذا المحيط من الكلام الجميل نور وسخاء شيك مصرفي.

أخذوا يحلمون إذن للولايات المتحدة «بمستقبل يليق بقوة عظمى مُرتكز على أسطول «جديد» من السفن المدرعة. (Helfer)

بدأ كل شيء حوالي سنة 1870 عندما كانت كل من الشركة البحرية هال (Hall) ثم ويب (Webb)، و Pacific Mail Steamnship Company و Oceanic Steamship Company، وجميعها كانت مدعومة من مصلحة بريد الولايات المتحدة، قد ربطت سان فرانسيسكو بسدني وأوكلاند. النقطة الأولى التي أرادت الولايات المتحدة أن تتمسك بها لتؤمن إمداد خطوطها هي مرفأ في جزر ساموا الذي يحمل لي أنا الناطق بالإسبانية، اسماً كثير الإيحاء لأنه في كل مرة أسمع اسم باغو باغو (Pago Pago) يفهم عقلي المسكين «أنا أدفع!، أنا أدفع!».

إن صعوبة التوافق هذه المرة تعود إلى المنافسة الشرسة التي أطلقتها عندئذٍ الأمم الاستعمارية. لقد تنازعت ألمانيا وانكلترا والولايات المتحدة بضراوة على هذا الأرخبيل في بحار الجنوب. إلّا أن بريطانيا العظمى في سنة 1899 وبعد عشرات السنين من النزاع المثلث الأطراف والمحاولة المعوجة بعض الشيء لإقامة انتداب ثلاثي على هذه الجزر، وضعت عملياً في الهادي سياسة التقرّب الأنكلو ـ أميركي للورد ساليسبري (Salisbury). فدعمت عسكرياً أولاد عمها الأميركان لكي تسمح لهم بإمتلاك مكانة نهائية في ساموا، وبمشاركة مع ألمانيا، التي كان عليها أن ترضى بمرفأ آبيا (Apia) ومحيطه في الجزء الغربي من الأرخبيل. اختفت انكلترا برصانة من المنطقة مقابل بعض التعويضات في مكان آخر، وفي نهاية السباق، كانت الأرباح صافية للولايات المتحدة التي طردت الألمان بعد الحرب العالمية الأولى دون الشعور بأي تأنيب ضمير.

في ساموا تصرفت الولايات المتحدة كأي بلد مستعمر دنيء ولقد ساعدتها انكلترا والأسلوب البريطاني طغى بشكله عليها. وفي المقابل في جزر هاواي عمل الأميركيون على طريقتهم التكساسية.

كانت جزر الساندويش، التي سميت كذلك إكراماً لجون مونتاغو (John Montagu) رابع كونت ساندويش ومخترع «السندويش»، وفضلاً عن ذلك أول لورد للإمارة، قد اكتشفت من قبل كوك (Cook) سنة 1778. لم يكترث كوك لمشاعر البولينيزيين الذين كانوا أول من اكتشف هذه الجزر واللذين شعروا بالإهانة من هذه السرقة (انتحال هذا الشرف). لم تطل الأمور: العالم التالي محوا بكل بساطة كوك من الخارطة.

ولكن هذه الجزر لم تمح من تلك الخارطة نفسها وكانت معروفة إذن في أوروبا وأميركا. إن كانت تسمى سندويش أو هاواي ليس من مجال للعودة إلى الوراء. والإرساليون، هؤلاء «المنظمات غير الحكومية» في الزمن القديم هم أول من وصل إليها. في البداية وصل الشمال أميركيون سنة 1820 ثم الفرنسيون. قد حمل مبشر أميركي فطن فكرة لامعة وهي بأن ينصح الملك كاميهاميها (Kamehameha) الثالث بإصدار شرعة حقوق سنة 1839 ودستور في السنة التالية لجعل البلد يأخذ مسلكاً حضارياً أكثر تماثلاً مع مؤسسات الولايات المتحدة. وبهذه الطريقة أعلن استقلال هاواي. أطرح على نفسي في هذه المناسبة السؤال التالي: استقلال عمن؟ ربما عن أنفسهم بالذات. تسارعت الأمور خلال السنوات العشر التالية. بفضل القبول الجبري لشمال المكسيك في حضن الحرية، وصلت حدود الولايات المتحدة إلى المحيط الهادي، وهاواي، بسبب مساحتها وموقعها في الهادي الشمالي، قد اكتسبت أهمية استراتيجية واقتصادية جلية.

لقد كنا قد ذكرنا تعطش سيوارد وزير خارجية لنكولن واندرو جونسون للتوسع. ففي سنة 1866، السنة التالية التي نجح أخيراً فيها بشراء الألاسكا، أنجز معاهدة تبادل مع عرش هاواي للسماح بدخول السكر والأرز إلى الولايات المتحدة معفيين من أي رسوم جمركية. غير أن هذا الاتفاق لم يكن مرغوباً من المنتجين الشمال أميركيين. وخوفاً من وضع المعاهدة جانباً من قبل الكونغرس الأميركي، فالملك لوناليهو (Lunaliho) الذي كان بدون شك مستفيداً بطريقة ما من هذه المساومة، حاول سنة 1873 أن يغري حكومة الجنرال غرانت (1869 ـ 1877) عارضاً عليه مرسى بيرل هاربور (Pearl Harbor) لجعله قاعدة بحرية، ولكن الأمور لم تكن بعد ناضجة بما فيه الكفاية لأن وطنيي هاواي الأشرار صناعيي السكر الشمال أميركيين الشرهين أفشلوا المشروع.

مرّ الوقت. ففي سنة 1875 وُقِّعَتْ معاهدة أقل طموحاً من السابقة مع الملك كالاكوّا (Kalakaua) خليفة لوناليهو، بعيد ذلك كسب Claus Sprockels، وهو قطب السكر في الغرب، في جزر هاواي أراضيَ لزراعة قصب السكر، مما غيّر الموازين وسط اللوبي السكري الأميركي. ثمة معاهدة جديدة، في كانون الثاني/ جانفي 1884، لم يصدق عليها مجلس الشيوخ إلّا في كانون الثاني/ جانفي 1886 بعد إضافة وتعديل يشترط بأن تحصل الولايات المتحدة على الحق الحصري بإقامة قاعدة بحرية في بيرل هاربور.

في السنة 1887 نفسها علّق جان هفر قائلاً:

لقد أجبرت ثورة سلمية، بروح محافظة [الملك كالاكوّا] بالتخلي عن جزء من سلطاته لمصلحة مجلس من النبلاء يُنتخب بأصوات الذين لهم الحق في الانتخاب ليس فقط من الخاضعين للحكم ولكن أيضاً من السكان الأجانب [الأغلبية من الشمال ـ أميركيين].

وهكذا أعلن رسمياً دستور جديد.

ومن جانبه، الشعب الذي يمكن لنا أن نسميه الشعب الهاوايي أصبح في هذه الحقبة أقلية في بلده نفسه بسبب الهجرة الناجمة عن انحصار الزراعة بزراعة السكر. هذا الوضع مختلف جداً عن وضع تكساس التي كانت قد اجتيحت بشكل أساسي من المستوطنين البيض. في جزر الهاواي، العمال أساساً هم أسيويون وهم أكثر استعداداً من الأنكلو ـ ساكسون لزراعة قصب السكر المضنية التي أتوا بها. ولكن إن كان البيض لا يرون أي فرق بين ذوي العيون المقطبة (Bridés) فالوطنيون الهاوايون يرون هذا الفرق جيداً ويقلقون من وضع اجتماعي وسياسي اعتبروه خطيراً إلى حد ما. فالتفوا حول الملكة (Liliuokalani) التي أبطلت في 17 كانون الثاني/جانفي 1893 دستور 1887 لاستعادة السلطة. عندما تمسك فريق الضم بهذه المناسبة ليشكل لجنة من الأمن مدعومة من سفير الولايات المتحدة جون ستيفنسن، وقد أراد الجميع الدفاع عن الديموقراطية ضد الحكم المطلق برداء هاوايي. بعيد ذلك بيومين قامت القوات البحرية الأميركية بإنزال:

لحماية السفارة، القنصلية، وحياة وممتلكات المواطنين الأميركيين ولمساعدة حفظ النظام العام.

سارعت الحكومة الثورية المؤقتة، التي لا تمثل أي مواطن أصلي بولينيزي والتي يسيطر فيها الشمال أميركيون المولودون في هاواي، للتفاوض مع الولايات المتحدة على معاهدة ضم. ولكن بما أن المقصود القيام بضربة على الطريقة التكساسية كان لا بد من انتظار سنوات لكي يرى الضم النور بسبب الطبخة الغامضة التي تغمر السياسة الداخلية الأميركية لمرة أخرى.

إلّا أن الخلافات المزمنة بين الشمال والجنوب وبين الطيّبين والأشرار، انتهت بعد حرب 1861 ـ 1885 وقد انتهى الجانب المظلم من القوة، والولايات المتحدة

أصبحت بمجملها طيّبة، حديثة، ماهرة، فعّالة. ولكن ما من أحد كامل، وهذه المرة يُروى لنا بأن النقابات وعدداً كبيراً من صناعيي السكر لا يريدون استقبال هاواي.

ولدفع الأمور إلى الذروة حصلت ظاهرة غريبة، نوع من انتقال داخلي للأرواح (Intermétemphsychose)، خليق بأردأ أفلام الخيال العلمي من المجموعة ب (B). قبل حرب الانفصال، كان الحزب الديموقراطي، الذي أسسه، لنتذكر ذلك، جاكسون العنيد، هو الأكثر شراهة والأكثر عدوانية. الحزب الجمهوري، الذي أسس قبل هذه الحرب بقليل، وقد التحق به الليبرالي لنكولن، عرف من ناحيته مساراً ملائكياً عابراً، ولكن أفسده بكل تأكيد حمّام الدم الذي أغرقه فيه لنكولن. أو أنه أصيب ربما بهذا المرض الموصوف في أحد أكثر الكتب رواجاً الذي بدأ نشره في لندن سنة 1867 تحت عنوان «رأس المال». إلّا أن الحزب الجمهوري كان، خلال سنة 1890، قد أصبح الأكثر عدوانية والأكثر مناصرةً لضم الأراضي بين الحزبين، بينما أظهر الحزب الديموقراطي ليونة كما هي الحالة حالياً. إذن لم يبتسم الحظ للثوار الهاوايين لأنه ما إن نجحوا بإنشاء جمهوريتهم حتى ترك الرئيس الجمهوري هاريسون (1889 ـ 1893) كرسيه للديموقراطي كليڤلاند (Cleveland). لم يبد هذا الأخير تفهماً حيال ثورة تؤيدها القوات البحرية الشمال ـ أميركية ولا تلقى أي دعم شعبي. في هذه الظروف كان على الضم أن ينتظر بعض الشيء.

إذن تمتعت الجمهورية الهاوايية، مثل تكساس، بحقبة قصيرة من الحياة الاستقلالية، تستطيع خلالها أن تسحق آخر الانتفاضات الوطنية (1895) وتنمّي انتاج قصب السكر الذي أنتجت منه إلى درجة طلب أيدي عاملة آسيوية أيضاً، في الجنسية اليابانية بشكل أساسي، وحيث أصبحت هذه النسبة غالبة في الأرخبيل.

> إن البيض الذين يحكمون كانوا يعون منذ ذلك الوقت وهج المشكلة العرقية، وهي أكثر خطورة من أمبراطورية شروق الشمس، الواثقة من نفسها منذ انتصارها على الصين، وتريد حماية سكّانها المهاجرين وتطالب لهم بالمساواة في الحقوق السياسية. إن كان على هاواي أن تبقى في معسكر الحضارة الغربية بدل أن تبقى في جانب «الحضارة الشرقية»، عليها أن تنضم بسرعة للولايات المتحدة، القوة الوحيدة القابلة بحماية الأرخبيل من اليابان».
> (Heffer)

فكان هذا قد أفضى إلى مقدمات الكارثة التي ستحصل بعيد ذلك بأربعين عاماً.

ثم كي ننهي قصتنا، عقب رحيل كليفلاند سنة 1897، خلق الجمهوري ماكنلي (McKinley) مناخاً أكثر ملائمة للضم. وبسبب أن صناعيي السكر ما زالوا عاكفين على القيام بالخطوة عرَضَ الرئيس كما حصل لتكساس قديماً حلاً مقروناً بمجلسين في الكونغرس والذي لم يكن بحاجة إلى أكثرية الثلثين. فالحرب الإسبانية ـ الأميركية وانتصار الكومودور ديوي (Dewey) في مانيلا ساعد كثيراً في اكتمال اللوحة. هذه الحرب المناسبة خلقت تحركات عسكرية كثيفة في الهادي، واستقبلت جمهورية هاواي الفلول العسكرية وهي في طريقها إلى الفليبين. كان الهادي قد بدأ يتخذ شكلاً جيواستراتيجياً جديداً مركزه بالتحديد، جزر هاواي.

أعلن الضم رسمياً في 12 آب/أوت 1898.

وداعاً أيتها الفيليبين

بالنسبة لكوبا، لقد أخذنا علماً بالبرقية المرسلة في (26 آذار/مارس) 1898 من وزير الخارجية داي (Day) إلى سفيره في إسبانيا، البرقية التي تفتح الحرب الإنسانية الحديثة. لنتذكر أنه أرسل رسالة محبة وسلام إلى الشعب الكوبي حيث أنه حدد فيها بوضوح كبير أن الولايات المتحدة لا تريد الجزيرة. ولكن البرقية بقيت صامتة بالنسبة لبقية جزر الأمبراطورية الإسبانية ألا وهي الفيليبين. مع أن نائب وزير القوات البحرية تيودور روزفلت، كان قد أرسل برقية أقل سلمية ومحبة للكومودور جورج ديوي (Georges Dewey) قائد الأسطول الآسيوي المتواجد في ناكازاكي:

> أعطِ الأمر للأسطول، فقط في مونوكاسي، بالعودة إلى هونغ كونغ، وأحرص على الخزانات مليئة بالفحم ـ في حال إعلان الحرب على إسبانيا، سيكون واجبكم السهر على أن لا يغادر الأسطول الإسباني ساحل آسيا، ومن ثم الانتقال إلى الهجوم في الفليبين. (Heffer)

في 25 نيسان/أفريل بعد شهرين من تلك الرسالة وبعد شهر من رسالة المحبة والسلام لوزير الخارجية، إندلعت الحرب.

في الأول من أيار/ماي دمرت أساطيل ديوي الستة أسطول الأميرال مونتوخو في خليج مانيلا. ثم استولت القوة المساندة القادمة من كاليفورنيا على غوام (Guam) بدون نزاع. وعندما وضعت هدنة 12 آب/أوت حداً «للحرب الصغيرة الرائعة» لم

يكن الرئيس ماكنلي بعد يعلم إن كان عليه ضم الفليبين أم لا. بعد فترة من التردد، كان العسكريون الذين يعرفون مساوىء الحماية البسيطة، قد جعلوه يختار الرأي القاضي بضم جزر الفليبين وغوام وقاعدة بحرية في جزر الماريان. رُتبت العملية على الطريقة الأميركية، أي بشكل صفقة عقارية. حدد الثمن بـ 20 مليون دولار. بما أن بقية جزر الماريان وكارولين لا تهمهم بشكل خاص، سمحوا للألمان بشرائها. مهما كانت بصيرة الشمال ـ أميركيين بصيرة جيدة، لم يكونوا متنبئين ولم يستطيعوا أن يدركوا الأمر بعد الحرب الكبرى، بأن اليابانيين سيستولون عملياً على كل الممتلكات الألمانية في المنطقة ليصبحوا عندئذٍ الأعداء الأساسيين لأمبراطورية الحرية في الهادي.

ربما كان قد تنبه قراؤنا بأننا لم نقم بأي إشارة نحو الفليبين. مع العلم أنها كانت موجودة قبل هجوم الولايات المتحدة. كان في الفليبين حركة استقلالية وطنية موجهة من أميليو اغينالدو (Emilio Aguinaldo) الذي أسس حزب كاتيبونان (Katipunan) سنة 1892. وفي سنة 1896 نظم أغينالدو نفسه انتفاضة وأعلن في السنة التالية الجمهورية. وبسرعة هُزم من قبل الأسبان ولقد كان في المنفى في هونغ ـ كونغ عندما ظهر أسطول الأميرال ديوي في شهر آذار/مارس 1898. لقد ارتكب إذن خطأً معهوداً بمحالفة الشيطان ـ كما كان يقول آية الله الخميني. بعد قليل من خسارة إسبانيا، اعتقد الفليبينيون أنهم حصلوا على استقلالهم، ولكن لم يتأخروا ليعوا المكانة القليلة التي يحتلونها في حسابات حلفائهم. جرت المناقشات بخصوص الأرخبيل في باريس، هذا ما كان يمكن أن يقدره أغينالدو لو كان استطاع أن يتمتع ويمضي أوقاتاً طيبة على حساب الأميرة، ولكنه لم يكن مدعواً. لم يكن الفليبينيون في المفاوضات بكل بساطة.

إن وضعنا هذا التفصيل جانباً، يمكن لنا أن نقول إنه في بداية الاحتلال الأميركي، العلاقات بين الفليبينيين الاستقلاليين والكومودور ديوي بشكل خاص سيئة. ولكن بعد ذلك، حلّ جنرالات جيش المشاة محل البحارة فأفسدتْ الأمور بسرعة لأن ذوي اللباس الأزرق المعتادين على قتل الهنود، لم يتوصلوا إلى فهم الفرق بين أولئك الهنود والفليبينيين فحصل إذن ما كان يجب أن يحصل. في سنة 1899 أعلن اغينالدو مرة أخرى الجمهورية ولجأ من جديد إلى المقاومة المسلحة وحرب الغوار. ويجب طبعاً أن نشير بأن بعض الفليبينيين الذين أثروا والمتفرنجين لم يكونوا عدائيين كلياً لاحتلال عابر من الولايات المتحدة لأنهم يخافون بعض ظواهر الحركة الوطنية.

كانت مقاومة المحرر الأميركي قاسية جداً. في شهر آذار/مارس 1901، وقع أغينالدو أسيراً بفضل حيلة، مثل توسان لوفرتور (Toussaint Louverture) قبل قرن في هايتي (Haïti). ولكن وإن كان القائد الفليبيني قد أخرج من المعركة إلّا أن النضال لم يتوقف واستمر أيضاً مدة سنة قبل أن يتلاشى كلياً.

كانت هذه الحرب الأولى من مجموعة حروب شنتها الولايات المتحدة في الأدغال الآسيوية لتحرير الشعوب من بربرية السكان الأصليين، يابانيين أو شيوعيين. في هذه الظروف، كان من الطبيعي كلياً أن تكون الفليبين الديكور المختار لتقديم مأساة فيتنام في فيلم أبوكاليبس ناو (Apocalypse Now). يمكن للبلد المهزوم أن ينصاع بكل طاعة إلى رعب البلد غير المهزوم. ولكن علينا أن لا نخلط كثيراً الأمور حتى وإن لم تكن رهانات هاتين الحربين مختلفة كثيراً. أرسلت الولايات المتحدة إلى فيتنام حوالي 500 000 رجل تسبّبوا بـ 3 ملايين من القتلى. والى الفليبين 200 000 شمال أميركي لم يستطيعوا أن يبيدوا سوى 16 000 شخص بشكل مباشر و 100 000 ماتوا بشكل غير مباشر من الجوع أو المرض. (Dupuy et Dupuy). نرى فوراً أن الفرق في المحصلة الأخيرة، بين هاتين الحربين مهمّ جداً. يجب أن لا نندهش لذلك: بين هذين النزاعين الصغيرين الإقليميين وقعت مواجهتان عالميتان، فقدمتا للعالم وفي القرن العشرين اختراعهما الأكثر إثارة: الحرب الصناعية والعلمية.

الحرب العالمية الأولى: «أبتاه، اغفر لهم، إنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (34، 23، .LC)

سان توماس وودرو ويلسون، الحائز على جائزة نوبل للسلام 1919

في خصوص السياسة الأميركية في القارة الأميركية، أعلن الرئيس ويلسون (1913 ـ 1921)، في خطابه سنة 1913 في موبايل:

> [الولايات المتحدة] لن تأخذ أبداً قدماً مربعاً واحداً من الأرض عن طريق الغزو. (Guerra)

إن مكاسب الأراضي التي وقعت في عهده تعتمد على هذا التأكيد بحذافيره: ضم

خليج نيكاراغوى وجزر (Greatcorn et Littlecorn)، كما رأيناه، بمعاهدة وليس بغزو. لا يمكن مهاجمة هذه البراعة على المستوى البلاغي على الأقل. أما بالنسبة لاحتلال هايتي أو ڤيراكروز في المكسيك، لم يكن إلّا مؤقتاً وبصفة إنسانية بشكل قاطع.

ولكن، لم يستطع ويلسون أن يفي بالوعود التي قطعها خلال حمله لإعادة انتخابه المرتبطة بشعار يقول «لقد أبعد عنا الحرب» وحيث أنه تعهد بالسلم والحياد. لذلك في بداية سنة 1917 قررت ألمانيا التي خفّفت قليلاً من حرب الغواصات، خاصة بعد احتجاجات ناتجة عن كارثة لوزيتانيا، أن تهدد من جديد كل اسطول قادر على امداد دول التفاهم[1]. رأى الرئيس المسكين ويلسون نفسه مجبراً إذن على قطع علاقاته الدبلوماسية مع غليوم الثاني (Guilaume II). إن مأساته جعلتني أفكر بمأساة ميكايل كورليوني (Michael Corleone) في فيلم العرّاب حيث أنه اشتكى من شركائه الذي يقحمونه (وقام بالحركة بيديه) في أعمالهم القذرة وتحديداً في الوقت الذي قرر فيه أن يصبح شريفاً.

ولكن المكسيك بدون شك (أقدم هنا حجة إضافية إلى الذين يريدون اتهامي بالشوڤينية) هي التي أجبرت الرئيس ويلسون على دخول الحرب. بعد قليل من انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين الرايخ الثاني وأمبراطورية البحرية، فككت المخابرات السرية للبحرية الملكية رموز برقية مرسلة في 18 كانون الثاني/جانفي 1917 من وزير الخارجية الألماني إلى سفيره في مكسيكو. محتوى هذه البرقية معروف اليوم تحت اسم برقية زيمرمان (Zimmermann) اتصف بمنطق مثير للتأثر: ترقباً لدخول الولايات المتحدة في الحرب، طلب من السفير الألماني حسب نص الحكومة المكسيكية في خصوص تحالف محتمل مع حكومة «الكايزر». في المقابل، عُرضت مساعدة لإستعادة الأراضي التي خسرتها المكسيك لصالح الولايات المتحدة[2]. ودون انتظار لحظة، قام أجداد جيمس بوند بخدمة نقل محتوى البرقية للولايات المتحدة. عندها فتحت دروب الحرب، دروب العالم والمجد.

ودرب جائزة نوبل للسلام للرئيس ويلسون.

---

(1) لوزيتانيا هي سفينة بريطانية أغرقتها غواصة ألمانية في 7 آذار/مارس 1915 مع مئات من الركاب الأميركين على متنها.

(2) الألمان الذين كان بعض الأمور في خصوص تاريخ المكسيك ملتبساً عليهم، تكلموا عن تكساس، عن المكسيك الجديدة (نيو مكسيكو) وأريزونا ونسوا كاليفورنيا العليا.

إذ لئن كان من المؤكد أنه خلال الصراع، استعمل السيد ويلسون أسلحة يقال عنها تقليدية، فقد صنع قبل الدخول في الحرب بقليل سلاحاً دقيقاً جداً وذا حدين أسماه: «حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها». قبل أن تخطفه الحرب من زوبعتها، حاول أن يعرض على الأوروبيين سلاماً دون ضم قد يرتكز على حق الشعوب الشهير ذاك. بعد الحرب، استعمل هذا السلاح ببعض المهارة لإعادة رسم خريطة أوروبا لمصلحة الحلفاء.

صحيح أن بعض شعوب أوروبا تلك (بالتحديد التي لها مصلحة) فكرت أن حق الشعوب ذاك هو حق في الحقيقة وليس سلاحاً سياسياً. أريد مع ذلك أن أعرض فرضية تقول بأن هذا الحق لم يكن له وجود أكثر من أية حقيقة افتراضية لألعاب الفيديو. من أجل ذلك كنا (قد رأينا) حقاً بأن الولايات المتحدة تمارس الديموقراطية الحقيقية، الديموقراطية النموذجية، ديموقراطية أثينا، حيث كلمة «ديموس» (dêmos) أو الشعب، لا تشير إلى كل البشر، (مثلما) ننزع إلى الاعتقاد، نحن الذين أفسدتهم تعاليم بوذا، والمسيح. ولكن بالأحرى إلى مجموعة المواطنين الأحرار في مدينة ما، تاركة جانباً المواطنين غير الأحرار أو مواطني الدرجة الثانية. وبنفس الطريقة، فاختراع الديموقراطي ويلسون، «حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها» يطبق فقط على بعض الشعوب، ويمكن له أن يصبح بسهولة أداة للتلاعب أو سلاحاً كما سبق وقلنا.

وبما أنه سلاح، لم يسمح أبداً ويلسون لأعداء حلفائه باستخدامه. وبدرجة أقل أيضاً لإعدائه الذين يلوثون بلده الأم في الداخل. ولكي تكون الأمور واضحة، لنقم بعودة صغيرة إلى الوراء.

لقد رأينا أنه خلال سنة 1830، أكمل الرئيس جاكسون التطهير العرقي في الشرق، بطرد الشيروكي والشوكتا والشيكاساو والكريك والسيمينول نحو الأرض الهندية للأمم المتحضرة الخمس الموجودة تقريباً في ما يسمى اليوم أوكلاهوما. في نفس الوقت، أنشئت محميات أخرى أقل مساحة حيث يستطيع قسم آخر من السكان الأصليين، أيضاً، العيش فيها باكتفاء ذاتي وفي سلام نسبي، كما في مناطق الحكم الذاتي البانتوستان (Bantoustans) التي توسعت لاحقاً في جنوب أفريقيا. وبفضل قدرتهم الرائعة على التأقلم، وصلت هذه الشعوب إلى إيجاد صيغة للتعايش في هذه الأراضي مرضية إلى حد ما. فمعظم هذه الهبات من الأراضي كانت ممنوحة من حكومة

الولايات المتحدة إلى الأبد، «طالما تبزغ الشمس من الشرق وتجري الأنهار إلى الجهة السفلى من مجراها». قال أحد المستفيدين من هذه الأراضي أن المشكلة، هي أن أينشتاين لم يكن بعد مولوداً ولا يستطيع إذن أن يحذر هؤلاء الرجال بأن الوقت أيضاً يمكن له أن يكون مطاطاً، قابلاً أن ينعكس ومتناقضاً تماماً، كما هي العدالة. عندما حددت حدود الولايات المتحدة من البحر سنة 1848، بدأ البيض يأسفون لمنحهم المتوحشين أراضي ثمينة والتي كان قد عهدها اليهم الرب. يجب تقويم هذا الوضع.

إن حربهم الأهلية الخاصة بهم أعطت البيض فرصة جيدة لتصحيح تلك الخطوة الخاطئة. لقد رأينا أن بعض قبائل (ليس جميعها) الأراضي الهندية حاولت أن تعيد إنتاج عادات وتقاليد المتحضرين التي اكتسبوها من العبيد وحاربوا إلى جانب الجنوبيين. قرر الشماليون، منتصرين، معاقبة هؤلاء الهنود الأشرار. لنترك الكلام لجيمس هارلان (James Harlan) وزير الداخلية:

> [الهنود]، لأنهم «تصرفوا بخيانة» واعلنوا الحرب على الولايات المتحدة دون أن يكونوا «مستفزين» و «بانتهاك آثم للمعاهدات التي طالما احترمتها الولايات المتحدة بشكل دقيق جداً» اختاروا (أي الهنود) بوضوح معسكرهم.

وبدءاً من معسكر 8 أيلول/سبتمبر 1865، اجتمع في الأراضي الهندية مجلس يترأسه دنيس ن. كولي Denis. N. Cooley، مفوض الشؤون الهندية الذي أعلم القبائل بأن أراضيهم التي يجب أن تكون لهم «مصادرة شرعياً» ولكن على أن يكون رئيس الولايات المتحدة:

> مستعداً لمنح أولادهم التائهين حق الاستفادة من الأسباب التخفيفية على الجرائم القبيحة التي ارتكبوها.

تخلى إذن الأطفال التائهون عن النصف الغربي من الأراضي للحكومة الفدرالية ليُسكنوا فيها قبائل أخرى من الخارج مطرودة من محمياتها، مما أجبر السيمينول أن ينتقلوا نحو الشرق، وعليهم أيضاً أن يقبلوا ببناء خطين للسكك الحديد سوف يعبران أراضيهم، أحدهما يذهب من الشمال إلى الجنوب، والآخر من الشرق إلى الغرب. وفي كتابها «تاريخ هنود الولايات المتحدة» قامت انجي ديبو Angie Debo بالتحليل التالي:

ما يثير الاستغراب أن صرامة المعاهدات الموقعة في واشنطن سنة 1866 متناسبة عكسياً مع «ذنب» كل قبيلة. الشوكتاو والشيكاساو، ناصروا بحزم للجنوبيين من البداية حتى النهاية، ولكنهم كانوا متحدين وغير مهزومين، فحصلوا على أفضل شروط. كان الشيروكي منقسمين وما زالوا، ولكن جون روس [مندوبهم] توصل إلى انقاذ الشيء الأساسي. أما بالنسبة للكريك والسيمينول الذين كانوا الأكثر عدداً لمساندة القضية الشمالية، والذين تضرروا كثيراً جراء ذلك، وجدوا أنفسهم ملزمين للتوقيع على «اعتراف المحرضين على الحرب».

ولكن هذا لا يكفي، سنة 1866، عندما كان الشاب ويلسون في كلية الحقوق وكانت الأزمة البلقانية من 1875 ـ 1878 في أوجها، كتب وكيل الشؤون الهندية:

طالما أن الهنود سيعيشون في قراهم، لن يستطيعوا أن يتخلصوا من عاداتهم الأكثر قدماً والأكثر ضرراً. الأعياد الكثيرة، الاحتفالات الوثنية، الرقصات، عادة القيام بزيارة إلى آخر الحقل، كل ذلك سيستمر [. . .] آمل من هنا إلى السنة القادمة أن الأغلبية ستسكن في مزارع إفرادية، وعندها فقط سيبدأون حقيقة بالتقدم وبطريقة لا عودة عنها.

هذه الفكرة، الإنسانية البالغة الوضوح، ترافقت سنة 1879 بمشروع قانون يلغي الملكية الجماعية ويوزع قطعاً فردية للسكان الأصليين. مع ذلك، لم يفكر البعض بأن هذه التدابير يمكن أن تكون حقاً متعاطفة معهم. استنتج تقرير معدّ من الأقلية في لجنة الشؤون الهندية لمجلس النواب:

إن الهدف الحقيقي لمشروع القانون ذاك هو فتح الأراضي الهندية للاستيطان الأبيض [. . .] إن كان الطمع هو محرك لكل هذه القضية فقد يكون هذا مكروهاً إلى حد ما؛ ولكن إنجاز هذا العمل السيء باسم الإنسانية وتحت غطاء رغبة حارة بإسعاد الهنود عبر إجبارهم على التشبه بنا، إن أرادوا ذلك أم لا، فذلك أسوأ بكثير. (Debo 1994).

إلّا أنه في سنة 1887، عندما كان السيد ويلسون قد أصبح محامياً بارعاً، كان قد صُوت على قانون (Dawes Act). وإذ عُدِّل قانون (Dawes) للمرة الأولى سنة 1891 كان ويلسون يحتل منبراً في جامعة برنستون الشهيرة ـ فقد عُدِّل من جديد سنة 1906

ـ كان السيد ويلسون عندها رئيساً للجامعة نفسها ـ لإجبار السكان الأصليين، ما عدا الأمم المتحضرة الخمس و «الأوزاج Osages»، بالقبول بحصص من 39 إلى 65 هكتاراً للشخص الواحد. ويكسبون في نفس الفرصة الجنسية الأميركية. وبقية هذه المحميات (لأنه يبقى منها دائماً تقريباً، بعد توزيع الحصص) ستوضع تحت تصرف المستوطنين البيض على أمل أن مجاورتهم تستطيع أن تمدن المتوحشين.

في سنة 1888، عندما بدأت دول البلقان تصبح كيانات مستقلة (صربيا ـ مونتنيغرو ـ بلغاريا ـ رومانيا) وأصبحت كلمة وطنية تعتبر أمراً إيجابياً، نظمت الأمم المتحضرة الخمس اجتماعاً كبيراً لمندوبي جميع قبائل الخارج، ولكن أتكنز (Atkins) مفوض الشؤون الهندية، أمر جميع عملائه في الشمال ـ الشرقي للبلاد بمنع السكان الأصليين الذين لديهم مهمة، مغادرة محمياتهم بدون أمر. كان المفوض على حق: بإسلوب البشر الذين يستجمعون قواهم للنضال ضد كائنات من خارج (فضائية) في الإندبانتانس داي (Indépedance Day)، بدأ سكان أميركا الشمالية الأصليون يتناسون صراعاتهم الداخلية ليقفوا في وجه غازٍ يتغلغل في أحشائهم كسرطان مدمّر. الأمم الخمس التي لديها تجربة أكثر من القبائل الأخرى في العلاقات مع الكائنات الفضائية، حتى وإن لم يكن قانون Dawes يهددها مباشرة بعد، اتخذوا على عاتقهم تنظيم الاجتماع ونصح أقرانهم.

> إننا ننصحكم، أيها الأخوة المتحضرون، قال الذئب الأبيض (Loup blanc)
> وهو محارب كومانشي شهير، تفانوا باستعمال حكمتكم لحماية أراضينا،
> وعلى قدر ما يحافظ عليها، نحافظ على أمل استمراريتنا.

عرض جو ڤيتر (Joe Vitter) أحد أفراد قبيلة آيوا Iowa بأن لا يعود هناك سوى «عائلة واحدة، موضوعة تحت حكومة واحدة». وأضاف ماكوبيا من قبيلة بوتا واتومي:

> إن اتحدنا، سنصبح مثل جزيرة وسط المياه. ولا شيء يمكن له أن يقتلعنا،
> سنصمد في وجه الموج.

وقد فهم بليزانت بورتر (Pleasant Porter)، وهو قائد لامع من كريك هذا جيداً. أكد النداء للالتقاء ودافع بفصاحة عن اتحاد السكان الأصليين مع أنه يعلم بأنه سيكون

صعب جداً اقناع القواد بالتخلي عن جزء من سلطتهم. وكان مقتنعاً (وجاءت الأحداث لتؤكد ذلك فيما بعد إثباته) بأن القبائل المتحضرة ستلقى المصير نفسه كغيرها إن لم تنجح بمساعدتها.

قال: إن الأكثر ضعفاً هم أول من سيقع، ولكن سيلحقهم الآخرون.

وعرض إنشاء كومونولث هندي، وألف لجنة مهمتها صوغ مشروع دستور أطلق دعوة لجمع مجلس شورى آخر السنة القادمة، في شهر حزيران/ جوان 1889، ستكون مهمته تبني مشروع اتحاد سيعرض على جميع القبائل (Debo).

مع ذلك، إن هذه الحركة لم تقلق بصورة خاصة حكومة الولايات المتحدة لأن المخططات لاحتلال نصف الأراضي الهندية الغربية كلياً كانت قد تقدمت كثيراً. وهو ذلك النصف الذي كانت قد انتزعته الحكومة الفدرالية سنة 1866 بعد حرب الانفصال، نظرياً لإعادة توطين قبائل أخرى؛ بداية 1889، وُضع الكريك والسيمينول أمام خيار فقدان كل شيء أو قبول مبلغ لجعل انفصال الأراضي شرعياً كلياً. في 22 نيسان/أفريل 1889 وعند الظهيرة، أعطت ضربة مدفع الإشارة للمعمرين البيض بالهجوم مع أوتادهم لاختيار وتحديد الأجزاء من الأرض التي وهبتهم إياها بسخاء الحكومة الفدرالية.

حسب أسوأ تنبؤات بليزانت بورتر، فإن الجزء الشرقي من الأراضي الهندية والتي تركت للأمم الخمس في معاهدة 1866 لم تتأخر لتصبح بدورها شيئاً فشيئاً مجزأة. هذه الأرض الهندية لم تكن منيعة الاختراق، وكان عدد جديد من الأميركيين قد أقام فيها بشكل غير شرعي كلياً. والسكان الأصليون، وهم نوع من السكان الغرباء، لم يستطيعوا طردهم بالقوة، ولكن كان لديهم إمكانية الإبلاغ عنهم للسلطات الفدرالية التي تجاهلت بشكل شامل هذه الدعاوى بدءاً من 1880. أول إحصاء فدرالي سنة 1890 سجّل عندئذٍ في الأراضي الهندية: 393 109 أبيضَ، 636 18 أسودَ، و055 50 أميركياً حقيقياً. إن إحصاء كهذا أغاظ قسماً كبيراً من أعضاء الكونغرس اللذين اعتبروا أنه من الظلم أن يكون الغرباء هم ملاّكو أراضٍ شاسعة بالرغم عن أنهم ليسوا الأغلبية. وهكذا ففي سنة 1893، ألّف الكونغرس لجنة خاصة برئاسة ذلك الذي أعطى اسمه لقانون التقسيم الأراضي، السناتور (Dawes) من ماساشوتس (Massachusetts). وعلى مدى الاثنتي عشرة سنة من وجودها، تكفلت اللجنة بخلق

شروط لإجبار الأمم الخمس بقبول مبدأ التقسيم بالشروط نفسها للقبائل الأخرى: وكان الضغط، وهم يرون حياتهم الجماعية مهددة بالتقسيم الفردي، شديداً إلى درجة توصلت معها، سنة 1896، مجموعة من الشوكتاو إلى مشروع بيع حصصهم لكي يهاجروا من جديد، ولكنما هذه المرة ليس إلى مكان آخر في الولايات المتحدة، وإنما نحو بلد آخر، إلى المكسيك أو إلى أميركا الجنوبية (Debo)[1].

وأخيراً، في سنة 1898، سنة غزو كوبا وضمّ بورتوريكو وهاواي والفليبين، أعطى قانون كورتيس (Curtis) السلطة للرئيس ماكنلي بالتصرف بتقسيم أراضي الأمم الخمس، وتوزيع ما بقي من الأراضي الهندية وتصفية مؤسساتهم السياسية.

وعندما وجدوا أنفسهم متحررين من مؤسساتهم (فإذن السّيئة)، استطاعت الأمم الخمس أخيراً أن تتوصل إلى الجنسية الأميركية، وشُرّع ذلك سنة 1901. لقد أصبحت الأرض الهندية أرض أوكلاهوما، الشعب الأحمر، بلسان الشوكتاو. في سنة 1907، احتلت هذه الأرض موقع ولاية في الاتحاد. كانت تعد عندها 177 414 1 نسمة، ولا يوجد بينهم سوى 5,3% من السكان الأصليين، نسبة أقل بكثير من نسبة المكسيكيين في تكساس في أسوأ أوقات الاستعمار الأميركي، وأخرى شبيهة فقط بنسبة ما سمح للصرب في كوسوفو تحت وصاية الأمم المتحدة والحلف الأطلسي التي طبقت سنة 1999.

في سنة 1913، وصل وودرو ويلسون أخيراً إلى رئاسة الولايات المتحدة وعين فرانكلن ك. لاين في وزارة الداخلية وكاتو سلز في مفوضية الشؤون الهندية، وكان الرجلان زاهدين في تسريع إيقاع التقسيم. واستغلّا التعديل في قانون (Dawes) سنة 1906، وسهّلا إعلان أهلية ملاكي قطع الأراضي من السكان الأصليين، مما أجاز لهم بيع حصصهم وتركهم في نفس الوقت بدون أي حماية في وجه النصابين العديدين والماهرين. بوسع سلز إذن أن يعلن:

ـ فجر عصر جديد وبداية النهاية للمسألة الهندية. (Debo).

هذا ما كان عليه الوضع الداخلي في بلد الرئيس ويلسون، عندما وضع غافريلو برنسب (Gavrilo Princip) سنة 1914، مشروعه لقتل الدوك فرانسوا فرديناند في

---

(1) لم يستطع مشروعهم الوصول الى النهاية وربما كان ذلك أخف ضرراً عليهم إن استندنا الى مثل هؤلاء الكيكابوس (Kikapoos) الذين جربوا شيئاً مثيلاً وانتهوا عرضة لعمليات احتيال مخزية.

سارايفو قيد التنفيذ؛ فالأستاذ المحترم الرئيس ويلسون، الذي لم يهتم أبداً بحق شعوب بلاده في تقرير مصيرها بنفسها، شعر فجأة بعطف نحو بعض الشعوب في وسط أوروبا، التي يمكنها أن تسيء إلى الأمبراطوريات الألمانية والنمساوية ـ الهنغارية والعثمانية أي أعداء أصدقائه الإنكليز. عندها وليس من قبل، بدأ يتصور في عقله الحاد (متبعاً بذلك أنقى خط في الحق الاختياري) عقيدته الشهيرة في حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

بعد ذلك بسنتين، في عيد الفصح سنة 1919، انتفض الشعب الإيرلندي قبل أن يسحقه بدون شفقة الجيش البريطاني. إن دعم الرئيس ويلسون للحكومة الإنكليزية لم يتغيّر مع ذلك على الأقل، رغم احتجاجات الجالية الإيرلندية في بلده. من وجهة نظر دراستنا، هذا الوضع لا يمكنه أن يكون طبيعياً: لا يستطيع الإيرلنديون أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم بما أن هذا الحق لم يوجد إلّا لخدمة مصالح الولايات المتحدة ومصالح حلفائها. بعد ذلك، في نيسان/أفريل 1917، ولتثبت أن مساندة انكلترا هي بالفعل حقيقية، دخلت الولايات المتحدة بكل وسعها في الحرب: ذهب 000 450 رجل إلى أوروبا حيث لقي فيما بعد 000 115 منهم حتفهم.

ولكن هذا ليس كل شيء، ففي كانون الأول/ديسمبر 1918 إلى حزيران/جوان 1919، بدأ السيد ويلسون، الذي لم تطأ رجلاه خارج بلده، برحلة طويلة لينقل مباشرة للأوروبيين الأفكار الجيّدة التي جهزها قبيل الدخول في الحرب. في الوقت نفسه الذي أنهى في الولايات المتحدة ترتيب مجتمعات السكان الأصليين ـ دون أي اهتمام لإرادة شعوبها ـ، بدأ يدعو في أوروبا لمبدأه عن السلطة الشعبية للشروع في العمل بالآلية المحتومة لتفكيك القوى الخاسرة. كطائر الفينيق، قامت بولونيا من جديد من رمادها. وصلت اليونان إلى أبواب القسطنطينية واستعادت إقليمها القديم إزمير. وضمت رومانيا الإقليم المشهور من ترانسلفانيا والدانمارك إقليم شلشيغ (Schleswig). اتحد الكروات والسلوفاك بصربيا في مملكة واحدة. ظهرت تشيكسلوفاكيا من العدم (Vidalenc). هذه التغيرات حصلت بواسطة تصويت شعبي، واللافت أن النتائج لم تكن معظمها لمصلحة أي بلد من البلدان المهزومة.

حصلت التغييرات في الأراضي الأخرى كلها بالطريقة الأكثر تقليدية في العالم: فمجرد توزيع للغنيمة بين المنتصرين، ودون أن يُجهدوا أنفسهم باستشارة سكان الأقاليم التي ضموها. كان ذلك حال الألزاس واللورين بالنسبة لفرنسا، مدن أوبن

(Eupen) ومالميدي (Malmédy) ضمت لبلجيكا، وإقليم ترانت (Trente) وإستيري (Isterie) ضم لإيطاليا.

إن عودة دول البلطيق وفنلندا إلى حالهما وكذلك توسع بولونيا نحو الشرق حصلت على حساب الأمبراطورية الروسية، ليس بتوقيع معاهدة، ولكن بغزو عسكري بسيط من الدول المستفيدة التي استغلت ضعف روسيا الثائرة، فريسة حرب أهلية مشحونة بتدخل أجنبي. لنتذكر أن روسيا الأمبراطورية كانت عضواً في التحالف الذي ربح الحرب (الاتفاق الثلاثي) ولم يكن للتقسيم مكانه إلّا بعد الثورة. في هذه الظروف لم تكن روسيا تنتمي إلى معسكر المنتصرين، وخرجت تلقائياً من مجال الحق الذي رسمه السيد ويلسون.

وما إن عاد الرئيس الطيب، لم تتأخر الأمور في التعاظم في أوروبا المتهاوية. يمكن أن يكون ويلسون كاتب هذه الجملة، واشتهرت على لسان الجنرال فرانسيسكو فرانكو، «لا يمكن أن نترككم وحدكم». الألمان الذين بقوا محجوزين في بولونيا وتشكيوسلوفاكيا بكوا وطنهم المفقود بمرارة مثل الكريك أو الشيروكي في الأراضي الهندية. الإيطاليون غضبوا لعدم حصولهم على تدخل في ساحل دالماسيا، حلموا في ابتلاع ألبانيا. ولكن المثل الأكثر إثارة لنتائج الدراسات الإنسانية والأكثر شهرة بعد الحرب العالمية الأولى هو الصراع اليوناني ـ التركي. في سنة 1922، تجاوز مصطفى كمال معاهدة سيفر (Sèvres) وطرد الجيش اليوناني من تراقية (Thrace) الشرقية ومن إقليم إزمير، وبعد سلسلة من التقلبات، عُقدا في لوزان سنة 1923 معاهدة حلت مكان معاهدة (Sèvres) وأسست التطهير العرقي الحديث. كان هذا التطهير إنسانياً أكثر من ذلك الذي نشأ في الولايات المتحدة، قبل قرن، عندما طُردت من الشرق الأمم المتحضرة الخمس نحو الأراضي الهندية لإفساح المكان للشعب الأبيض. في لوزان، شُرع بنقل اليونانيين نحو الأراضي ذات السلطة اليونانية، والأتراك نحو تركية (Milra). والشعار الشهير «أميركا للأميركيين» يمكنُ له بهذه الطريقة أن يكون مستنسخاً إلى ما لا نهاية: «اليونان لليونانيين»، «تركيا للأتراك»، الخ.

هكذا كانت النهاية الحقيقية للحرب العالمية الأولى في أوروبا. وفي مكان آخر من العالم الواسع، كانت الأمور مختلفة جداً، ربما لأن بقية العالم كان لا يزال غير موجود، أو بكل بساطة لأنه غير آهل بالشعوب، مما يستحيل على غير الشعوب تلك ممارسةُ حرية تقرير مصيرهم بأنفسهم. إن الاتفاقات الشهيرة سايكس ـ بيكو (شهيرة

لأنها تشير فيها إلى لورنس العرب)، التي رسخت توسيع جزء من الدول العربية العثمانية بين الفرنسيين والبريطانيين، لم تلحظ أي استفتاء شعبي. ليس أكثر من إعلان بلفور في 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1917، الذي وعد بإنشاء وطن يهودي في فلسطين. ومن دون حتى ذكر تقسيم الأمبراطورية الألمانية في أفريقيا وآسيا، الموزعة بين الانكليزي والفرنسي والياباني.

لنكن صريحين: الرئيس ويلسون، استاذ جامعي سابق، رئيس سابق لجامعة برنستون العظيمة، لم يكن أحمق. وليس من باب أولى أطرش أو أعمى. في داخل الولايات المتحدة ملايين الأشخاص لا يقررون مصيرهم بأنفسهم، ألوف من السكان الأصليين ليس لهم الحق بالجنسية والذين توصلوا إليها يجب عليهم أن يتخلّوا عن طريقة عيشهم الأولية. وكان الرئيس قد جاء مع ذلك يمضي ستة أشهر في أوروبا ليملي طريقة تنظيم العدالة في العالم. في هذه الظروف، عليّ الاعتراف بأنني اعتبر هذه الإقامة في أوروبا كأول تقرب نحو أوروبا المخيفة تلك، والتي لم تتصورها الولايات المتحدة أبداً من قبل كأرض للتوسع لأنها إلى تلك الحين، كانت تعتبر أن قوتها تتجه نحو الغرب حصراً.

استظل ويلسون وراء «نقاطه الأربع عشرة» الشهيرة: حق الشعوب المحتم، ترك الدبلوماسية السرية، حرية البحار، نزع الأسلحة، الضمانات المتبادلة للاستقلالية السياسية، وسلامة الأراضي الخاصة، الخ. بقدرٍ من النوايا الحسنة. نقطة واحدة من هذه النقاط، وهي خلق مجتمع من الأمم، تعرف وجوداً حقيقياً، دون اشتراك الولايات المتحدة حيث أن الكونغرس لم يرد أبداً المصادقة على إمضاء رئيسه. وكذلك أيضاً بالنسبة إلى معاهدة فرساي التي عقدت سلماً بين المنتصرين وألمانيا.

في أثناء ذلك، حتى وإن لم يكن رجال الكونغرس الأميركيون أغبياء كفايةً لإبتلاع الكلام المعسول لرجلهم المقدس، كان يوجد بسطاء آخرون يصدقونه. كان هناك مهاجر فيتنامي بسيط في فرنسا نغوين سين كون (Nguyen sinh cun)، قد صدق أن إعلانات الرئيس ويلسون تعني جميع الشعوب. لم يكن نغوين الشاب يعرف جيداً قصة الشعوب الأميركية الأصلية، ولا قصة تكساس والمكسيك وكوبا أو كولومبيا. الأمر الوحيد الذي كان واثقاً منه، هو أن شعبه كان خاضعاً لفرنسا. أخذ إذن على نفسه التفكير بأنه بالرغم من أن فرنسا تتواجد بين القوى المنتصرة، فشعبه أيضاً له الحق أن يقرر مصيره بنفسه، لذلك قدم هذا العامل المصور سنة 1919 عريضة موقعة إلى

مؤتمر فرساي، بشأن الحكم الذاتي للفيتناميين. وطبعاً لم تلق النجاح. في خريف 1920، كانت قراءة «موضوعات حول المسألتين الوطنية والاستعمارية» بالنسبة إليه اكتشافاً. شعر بأن كاتب هذا النص، لينين، استعمل أخيراً لغة يستطيع فهمها. في هذا النص يدعو إلى تحالف بين عمال وفلاحي البلاد المستعمَرة للعمل على ثورة عالمية تتآلف مع الحركة البروليتارية في المدن الصناعية. في كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها، وفي مؤتمر تور (Tours) أفصح الشاب بوضوح عن عدائه للاستعمار وأصبح عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي (Cesari) سُمّي فيما بعد هو شي مِنْة.

هنا تكمن نتيجة من ألمع نتائج تأثير ورقة الاعتراف: لو كان الرئيس ويلسون قد اقفل فمه ـ اعتذر، ولكن هذا هو التعبير الوحيد المناسب في هذه الحالة ـ، لما كان العالم أسوأ حال وما كان الشاب نغوين اعتمد الفكرة الغربية بأنه يريد لشعبه أن يقرر مصيره بنفسه، وربما لما كانت الولايات المتحدة ورثت أسوأ كابوس: حرب فيتنام.

ولادة أمّة: اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية (1921 ـ 1922)

لا أقترح أن نمدح هنا الثورة الروسية العظيمة، ولكن لا نستطيع أن نتجاهل، في دراسة عن تاريخ أمبراطورية الحرية، ولادة هذه الأمة الجديدة التي تعلن بداية اختلال عالمي جديد حيث بقي العالم رهينة له إلى الاعلان سنة 1991 من الرئيس جورج بوش الأب **النظام العالمي الجديد** المشع.

ولكن لماذا استعمال كلمة اختلال؟ لأنه بكل بساطة هذه الدولة الجديدة أحدثت فعلياً فوضى. لنرَ لماذا.

أ ـ الحكومة الجديدة البلشفية، وبعكس التي شكلت سابقاً من كيرانسكي (Kerenski)، خانت «الاتفاق» بتوقيعها سلاماً منفصلاً مع ألمانيا والنمسا ـ المجر في بداية 1918.

ب ـ إن مؤسسي هذه الأمة الجديدة يدعون أيضاً إلى إعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها مما يجعل من هذا الحق نوعاً من الـ «شركة الحلبية» لا تليق بالمقام كثيراً.

ج ـ إن حكومة هذه الأمة الجديدة تَدّعي ممارسة حق الشعوب تقرير مصيرها بنفسها، وهذا لم يُظهر النية الحقيقية لوودرو ويلسون بصورة واضحة.

د ـ الوسائل المستعملة من قبل هذه الأمة الجديدة (السوفياتية) لممارسة حق الشعوب تقرير مصيرها، قامت حقاً بكثير من البلبلة.

خلاصة الأمر إن النظام الجديد الذي أعلن ولادة الاتحاد السوفياتي في 1922، بدا أنه أخذ على عاتقه جدياً بالنقاط الأربع عشرة المعروضة بكل فخر من الرئيس ويلسون في رسالته في 8 كانون الثاني/جانفي 1918. نعلم اليوم أن حق الشعوب، الكلي الوجود وبمختلف النقاط المتعلقة بهذا الوجود، لم تكن سوى أغراض لفكاهة لطيفة ونسبية جداً خليقة برئيس سابق لجامعة برنستون (حيث سينهي عزيزنا البير أينشتاين مسيرته المهيبة). لنتصور المفاجأة (وربما الرعب حتى) التي على السيد ويلسون أن يشعر بها، عندما يرى بين بقايا حلفائه الروس القديمين وقد ثبت بينهم بعض السادة الذين أخذوا مداعباته جدياً والذين قالوا: «جيد جداً، لنضع هذه النقاط قيد التطبيق». لقد بدا إعلان حقوق الشعب العامل والمستغل للمؤتمر الخامس للسوفيات في 10 تموز/جويليه 1918 كأنه الناحية المظلمة[1] للنقاط الأربع عشرة، لأن هدفه المعلن هو «إلغاء استغلال الإنسان للإنسان وتأسيس الاشتراكية بدون طبقات ولا دولة» (Laran). وتوك!، السيد ويلسون. إضافة إلى ذلك، لم يكتف أولئك الثوار بتطبيق هذه المبادىء في أقاصي روسيا، ولكن طمعوا بتغذية الأمل لثورة أوروبية وربما عالمية والتي لا تشبه في شيء الثورات الأميركية في فلوريدا وتكساس وهاواي وباناما أو نيكاراغوا. في 24 كانون الثاني/جانفي 1919، أصدرت موسكو بياناً إلى عمال العالم واقترحوا مؤتمراً دولياً وفي 2 آذار/مارس لأن الأممية الشيوعية (Komintern) الداعم المقبل للحركات الثورية الأساسية في العالم أبصرت النور.

لنحاول الآن أن نفهم لماذا هذه الأمة الجديدة صدمت، منذ ولادتها، الولايات المتحدة بشكل قوي جداً وجنوني. وشعرت القوى الأوروبية هي أيضاً بكره كبير نحو هذا القادم الجديد وهاجمته وحاربته، ولكنما لأسباب أخرى. ردة الفعل الأوروبية تنطلق أساساً من فوق، فهي تأتي أساساً من حكوماتها الأكثر أو الأقل برجوازية، لأن قسماً كبيراً من سكان هذه البلاد ينظر بانجذاب، وبحماسة أيضاً إلى الحركة البلشفية. بينما سياق الأمور في الولايات المتحدة مختلف كلياً. منذ ولادة هذا البلد، كان على مهاجريها الأوروبيين من شعبها أن يواجهوا عدواً، حاربهم وأقلقهم، ألا

(1) [طبعاً، في معنى «الجهة المظلمة من القوة» «Dark side of the force» لحرب النجوم].

وهو الهندي. بما أن النظام الذي يصون وحدة مجتمع بسكانه الأصليين مبني على الملكية الجماعية، الأمر الذي، في آخر تحليل، يستطيع أن يظهر شيئاً من القرابة مع الشيوعية. فهكذا شيوعيون بدائيون في أميركا كانوا مهزومين، مجمعين في مناطق معزولة، وخاضعين لخيار أن يصبحوا إما ملاّكين أو أن يكونوا مسلوبين، مجبرين على ترك الملكية الجماعية. لنتذكر أن كاتو سيلز، مندوب الشؤون الهندية للرئيس ويلسون كان قد أعلن نهاية «المسألة الهندية».

فكيف لا يكون الإحباط والغمّ العميق للرئيس ومواطنيه البيض كبيراً أمام ولادة أمة جديدة وفخورة والتي ترتكز على أساس مبادىء مشابهة لمبادىء الأمة التي بدأت تتلاشى داخل البلد الأم نفسه؟ هذا الانعكاس يمكن له عرضياً أن يساعدنا في أن نفهم فهماً أفضل بقليل لماذا أظهرت الولايات المتحدة كراهية وخوفاً رهيباً في وجه الخطر السوفياتي أكثر حدة وعمقاً من أي بلد أوروبي. مع إن التهديد الشيوعي، بالنسبة إلى البرجوازيات الأوروبية، هو، فعلاً، حقيقي وملموس، جد حقيقي وجد ملموس لدرجة أن جزءاً من الشعب الأوروبي شارك في الثورات الصغيرة لسنة 1918 (في ألمانيا مع كارل ليبكنخت Karl Liebknecht وروزا لكسمبورغ، في هنغاريا مع بيلا كون (Béla Kun) أو في الانتفاضات التي ظهرت في فرنسا وانكلترا وإيطاليا. في المقابل، بالنسبة للولايات المتحدة التي كانت بعيدة عن هكذا انتفاضة، كان الاضطراب في الوقت نفسه مطلقاً أكثر، نافذاً أكثر، وثابتاً أكثر. إضافة إلى ذلك، ولتعتيم اللوحة بشكل نهائي، لنتذكر بأن الاسم الذي أختير للولاية الجديدة المؤسسة سنة 1907 على انقاض **الأرض الكبيرة للأمم المتحضرة الخمس**، أوكلاهوما التي تعني في لغة شوكتاو، الشعب الأحمر. وجميعنا نعلم أن اللون المفضل عند البولشفيين هو الأحمر حكماً.

على كل حال، حتى وإن كانت أسبابهم العميقة مختلفة، ففوائد الحلفاء تلتقي كلياً. لا يحبون أولئك الأوغاد، هذا الجنس الجديد من حمر البشرة ولم ينتظروا نهاية الحرب الكبرى ليتحركوا. في 23 كانون الأول/ديسمبر 1917، ما إن مضى شهر على الأقل على قيام الثورة البلشفية حتى كان قد جُهز مخطط تقسيمي لقالب الحلوى الروسي فقسّم البلاد إلى ثلاث مناطق نفوذ: بولونيا الروسية، أوكرانيا، وشبه جزيرة القرم، وبيسارابي كانت من حصة فرنسا والقوقاز وأقصى الشمال من حصة انكلترا؛ وسيبيريا الشرقية والجزء الروسي من جزيرة ساخالين من حصة اليابان. إن

واجب التدخل دفع بعد ذلك القوى إلى حمل مساعدة ثمينة للثورة المضادة بقيادة الضباط البيض. كان هذا التدخل الدولي واسعاً واستمر ثلاث سنوات. وهكذا تحت ظل هذه المرحلة تحررت فنلندا وبلاد البلطيق وكبرت بولونيا ورومانيا. ولكن لنرضى هنا بالإشارة إلى التدخل الإنساني للولايات المتحدة: في ربيع وصيف 1918 حصل الإنزال الفرنسي، والإنكليزي والأميركي في مورمنسك وأرخانجلسك «حكومة من شمال روسيا». وشكلت إذن وعُهدت إلى الثوري القديم تشايكوفسكي (Lann). في الشرق الأقصى، عندما رأت الولايات المتحدة أن اليابانيين قد استغلوا هذا الهجوم التحرري ليقوموا بإنزال في فلاديفوستوك في نيسان/ أفريل 1918 نظمت بدورها غزواً دولياً في المنطقة لتوازي الوجود الياباني الذي لم يتأخر في إزعاجهم وبحجة مساندة الفرقة التشيكسلوفاكية الشهيرة في نضالها ضد البولشفيين، بقيت الولايات المتحدة في سيبيريا الشرق الأقصى حتى نيسان/ أفريل 1920.

مع ذلك علينا أن نعرف أن التقديمات الإنسانية من الولايات المتحدة مقارنةً إلى أهمية التدخل الأجنبي في روسيا، متواضعة. لنقل إنَّ ذلك كان خطوة صغيرة من الرئيس ويلسون، التي أصبحت بعد ثلاثين سنة، خطوةً كبيرةً للحرية مع ابتكار الحلف الأطلسي، ومشاركته في الحرب العالمية الأولى ومعمودية النار (دخول المعركة) للولايات المتحدة في صرح السلطة العالمية، أوروبا. إن تدخلها السخي في روسيا سمح لها أن تجرب أسلحتها وأن تحدد الأهداف المطاردة. ولادة الشيوعية الحقيقية أعطت معنىً جديداً للقدر الجلي للولايات المتحدة: فهو لا يتعلق فقط بإنقاذ وتحرير أميركا، ولكن بإنقاذ العالم كله، وهذا يساوي فعلاً جائزة نوبل للسلام سنة 1919.

لنشر، كي ننهي حديثنا أن أول رئيس سوفياتي أعتبر مؤهلاً لنيل هذه النوبل (نبل؟) المميّز هو الذي جزأ بلده إلى قطع: ميخائيل سرغيفتش غورباتشوف.

الحرب العالمية الثانية: «وعندما فتح الخروف سابع ختم، ساد صمت في السماء، حوالي نصف ساعة...». (Ap. 8,1)

سان فرانكلن ديلانو روزفلت: كوبا 2، العودة.

مثل الرئيسين ويلسون وكنيدي، كان للرئيس فرانكلن ديلانو روزفلت (1933 ـ 1945) الحق أيضاً في سكن في جادة جميلة في باريس. هذا طبيعي: كما الرئيس ويلسون، جرّ روزفلت الفرنسيين والأوروبيين الغربيين عامة، إلى مأزق لعين (حالة كنيدي كانت أكثر غموضاً ولا تخص هذه الدراسة). ف. د. روزفلت استطاع إذن أن يكون كقديس في نظر الأوروبيين الغربيين. ولكن وجهة نظر الشعوب الصغيرة، والمقهورين و «المضطهدين من كل الأمم، وكل الأديان» التي أراد جورج واشنطن استقبالها بكل سخاء في حضنه، يُخشى أن تكون مختلفة قليلاً.

ففي الولايات المتحدة، كان روزفلت قد أنتخب في حمى الانهيار الاقتصادي الذي عصف بالدول الصناعية. (الدول الأخرى تلقته أيضاً بمرارة، ولكنها معتادة على البؤس)، في جعبة الإصلاحات التي اقترحها الرئيس روزفلت للنهوض بالوضع في بلاده، نجد سياسة الجار الحسن (حسن الجوار)، أي الوعد بعدم البدء بالمساوىء التي فعلها أسلافه بجيران الجنوب مثل سياسة العصا الغليظة للعم تيدي أو سياسة الدولار لتافت ونوكس (Taft and Knox). هذا الوعد لم يكن ملائماً طبعاً لوحده. فوزير خارجية روزفلت، هول (Hull)، أراد أيضاً أن يواجه نظام **التجارة المحمية** للرئيسين كوليدج (1923 ـ 1929) وهوفر (1929 ـ 1933) التي أزعجت أكثر من جار[1] بنظام **التجارة المفتوحة**. منذ ذلك الوقت ارتكزت السياسة الجديدة على تحرير التجارة العالمية التي أصبحت لهول، «أمل الحضارة» (نيويورك تايمز، 23 كانون الأول/ديسمبر 1934). إن الهدف من هذه العملية هو مرضاة البلاد الأميركية للحصول على معاهدات تجارة مفيدة من أجل إيجاد منفذ للبضائع الشمال أميركية مما سيريح رويداً رويداً الأزمة الاقتصادية في الولايات المتحدة. يمكن أن يعطي هذا الوضع فرصة، وقد أعطى فرصة، لنموذج جديد للتدخل الذي عرّفه غويّرا كتدخل اقتصادي «الدعم الخفي وبدون مسؤولية» ولجني فوائد اقتصادية من ذلك. كانت كوبا لمرة أخرى مختبراً مثالياً لتركيز هذا الأسلوب الجديد.

(1) وصف Guerra هذا الإزعاج بالطريقة التالية: «إن الولايات المتحدة، بعد أن احتكرت بقوتها المالية الساحقة منابع الثروات الأكثر أداة لجميع هذه الشعوب ـ مؤسسات الخدمة العامة، صناعة السكر، البن، الموز، البترول، المناجم الخ ـ وأفلستهم فجأة بممارستها سياسة وقائية (الحماية الذاتية) وأدى الى التحريض، بإفلاس الحكومات والتفقير الشرس للشعب، إلى زعزعات سياسية واجتماعية التي أصبحت في بعض الحالات مأساوية».

كان الرئيس الكوبي ماتشادو قد دخل التاريخ كأحد الديكتاتوريين العديدين لجمهوريات الموز (أو السكر كما هي حالة كوبا). روزفلت وخلال حملته الانتخابية، لم يمتنع عن التنديد بالدعم المقدم من إدارة هوفر إلى ماتشادو، دعم يضاف إلى دعم القطاع المالي والتجاري في الولايات المتحدة. ولأسباب خاصة بالمطبخ الداخلي للحزب الديموقراطي، وخاصة بسبب النيوديل (New Deal) الشهير الذي يزعم إعطاء الأولية للعدالة أمام الفوائد المالية، فلم يستطع روزفلت أن يدعم الرئيس الكوبي.

ما إن أقام في البيت الأبيض حتى حصل روزفلت على ذرائع أخرى للعتب على ماتشادو. نفذ هذا الأخير بدافع من وطنية متعاظمة إصلاحاً جمركياً حمائياً، موقعاً معاهدات تجارية مع إسبانيا وفرنسا، ودأب على تطوير الصناعة وتنويع الزراعة كي يستطيع جعل الجزيرة مكتفية بذاتها. كل ذلك أضرّ بمخطط التوسع للمصدرين الشمال ـ أميركيين لأنه إذا أصبح الجار طيّباً، يجب أن يصبح جيرانه طيبين بدورهم وأن يشتروا إنتاجه بدون مشاكل.

بما أن ماتشادو لم يكن بجميع الأحوال سوى ديكتاتور رهيبٍ، فالجار الطيّب روزفلت، لم يكن عليه سوى دعم القضية العادلة للثوار الذين يعارضونه. ولكن الأمور لم تمرّ كما كانت تريدها واشنطن تماماً. إن لعبة روزفلت كانت لطيفة أكثر من إنزال للقوات البحرية الأميركية أو ضربة جراحية. إنها في صدد أن تعزل بلطف ماتشادو وأن تضع الرجل المثالي مكانه دون أن ينتبه أحد إلى ذلك، خاصة دون ألم لأن ذلك غير لائق بالجار الطيّب.

أرسل السفير بنيامين سامنر ويلس إلى كوبا لدعم المعارضة إلى أن قرر ماتشادو الرحيل في 12 آب/أوت 1933. طبعاً، الولايات المتحدة التي أعلنت الحياد كلياً في هذه القضية، لم تشعر بأي وخز ضمير أمام المجازر والنهب.

حلت مكان ماتشادو حكومة مؤقتة يديرها سيسبيدس (Céspedes) الذي باشر فوراً تعاوناً وثيقاً مع السفير سامنر ويلس. ولكن قصة الغزل هذه دامت أقل من شهر. في 4 أيلول/سبتمبر، خُلع سيسبيدس من قبل مجموعتين من الطوباويين، **الجنود الرقباء** (Sergents)، **والأصوليين** (authentiques) الذين يرفضون مساعدة الشمال ـ أميركيين، ولكن، الذين يفكرون بأن الأميركيين يتمسكون بوعدهم بعدم التدخل عسكرياً في أميركا. كانت الحكومة الجديدة التي وُضعت من قبل الدكتور غراوسان مارتين تتألف من هذا النوع من الثوار الذين لا يفهمون بأن مصلحتهم تكمن في التحالف مع

مصالح الولايات المتحدة. الاستقلالية الجامعية، يوم الثماني ساعات، تأميم الكهرباء، تلك هي إصلاحات لا تتماشى مع الاتجاه الذي ينصح به **الجار الطيب**.

إذن **الجار الطيّب** مجبر رغماً عن إرادته أن يرسي سفنه الحربية في المياه الإقليمية الكوبية. في كانون الثاني/ جانفي سنة 1934، انقلب باتيستا، أحد الرقباء الذين ساندوا انتفاضة الدكتور غراو 1933 وأقام علاقة مع الولايات المتحدة. وهكذا عاد شيء إلى النظام العادي واستعيدت الأعمال. والذي لم يقدّره الطيب فرانكلن روزفلت (ولن يعيش وقتاً كافياً كي يراه) هو أن باتيستا سوف يعطي البداية لذاك الحجر الصغير الذي ما زال يصرّ على البقاء عالقاً في حذاء كل الرؤساء الأميركيين منذ كيندي: فيدل كاسترو روز.

(جرمانيا للجرمان) ألمانيا للألمان: واجب التدخل (1933 ـ 1945)

ليس المنظرون النازيون هم المخترعين لكلمة المجال الحيوي (Lebensraum)، لقد ترجموها بكل بساطة إلى الألمانية. المستشار القديم للرئيس كارتر Zbigniew Brzezinski، كتب كتاباً مفيداً جداً: **رقعة الشطرنج الكبيرة**، الذي سبق أن ذكرته عدة مرات. في فصل يدعى «رقعة الشطرنج الأوراسية»، يشرح لنا بأنه كان على الولايات المتحدة أن تسيطر على أوراسيا بكل ثمن من أجل أن تصون الديموقراطية والحرية في العالم. وليدعم عقيدته، استدعى مثل المنظرين الألمان في بداية القرن العشرين الذين ارتكزوا على الأفكار المبدعة للخبراء الأنكلو ـ ساكسون لتبرير تقدم بلادهم نحو الشرق:

> أحد أكبر الخبراء، هالفورد. ج. ماكيندر، فتح هذا الحوار منذ بداية القرن، مبتدعاً تصورين جديدين: وسع أولاً تلك «البقعة ـ المركزية» في أوراسيا (تتضمن كامل سيبيريا والقسم الأكبر من آسيا الوسطى)، ثم heartland [القلب القاري]، وهي أوروبا الوسطى، فهو يعتبرهما الدعامتين الضروريتين لسيادة القارة. ولقد أشاع مفهوم «القلب القاري» في قول مشهور:
>
> «إن الذي يحكم أوروبا الشرقية يسيطر على «القلب القاري». والذي

يحكم القلب القاري يسيطر على جزيرة ـ العالم. والذي يحكم جزيرة العالم يسيطر على العالم».

اختصاصيون ألمان في الجغرافية السياسية رفيعو المستوى ذكروا أيضاً هذه المبادىء، لتبرير الزحف شرقاً (Drang nach Osten) في بلدهم، وبالتحديد كارل هويزهوفر (Karl Haushofer)، الذي تبنى تصور هالفورد ج. ماكندر للضرورات الاستراتيجية الألمانية. ونجد في ذلك صدىً مبتذلاً لمفهوم Lebensraum [المجال الحيوي] الضروري للشعب الألماني، وُضع في المقدمة وبكل إلحاح من قبل أدولف هتلر. (Brzezinski)»

جرت هذه الحوارات بينما لم تكن الولايات المتحدة إلّا في بداية عقيدتها العالمية وأن أوراسيا ليست سوى قضية أوروبية حصراً. مع ذلك، وقبل تأسيس الرايخ الثاني من قبل بسمارك في 1871، فإن مفهوم **المجال الحيوي** كان قد تواجد بشكل جيّد في ذهن الآباء المؤسسين للولايات المتحدة. توماس جفرسون، مثلاً، قد تصور باكراً أن التوسع ليس فقط نحو الهادي ولكن أيضاً نحو الجزء الجنوبي لأميركا. (Lipscomp). بعد ذلك، في سنة 1840، جاء دور **القدر الجلي** للولايات المتحدة الذي تعهدت به والذي يجلب الحرية للعالم. لنتذكر كلمات لنائب ديموقراطي، ذكر سابقاً. ففي سنة 1845، أكدّ جون ونتورث (John Wentworth):

> لم تكن مشيئة الله أن تكون الولايات الأصلية [الولايات المتحدة] أماكن السكن الوحيدة للحرية على الأرض. بالعكس، لم يهبهم إياها إلّا كمركز كبير والذي تشع فيه أيضاً ودائماً الحضارة والدين، والحرية، إلى أن تستطيع القارة بأكملها أن تقتات من نعمها.

أرى إذن أنه صحيح كلياً الاعتبار بأنه قبل أن يبدأ الأوروبيون ببناء نظريات في ضرورة مراقبة أوراسيا، كان في رأس الأميركيين الأكثر شهرة فكرة مراقبة مجموع قارتهم بنفسها، أي أميركا، لخير الإنسانية الأكبر. المفهوم الألماني لـ Drang nach Osten (الزحف شرقاً) ليس سوى نسخة أوروبية لزحف الأميركيين غرباً وجنوباً؛ نستطيع أن نسمح لأنفسنا أن نتصور بأن مفكرينا الألمان كانوا قد وجدوا اسماً لعقيدتهم بمشاهدة الفيلم الذي أخرجه باستر كايتون في سنة 1925، هيا إلى الغرب! نستطيع أن نستنتج، ولو أن كلتا العقيدتين الأميركية والأوراسية تتجهان في اتجاهات

معاكسة تماماً، أن عليها أن تلتقي بقضاء محتوم بما أن الأرض كروية. فلهما الهدف نفسه: لا تدّعيان فقد السيطرة على العالم، بل تريدان زيادة على ذلك أن تجعله خالياً من كل العيوب. أن تحرره. فلنتذكر منه العبارة المدونة على مدخل معسكرات الاعتقال الألمانية: «العمل سيحرركم».

أعرض عليكم الآن بالعودة مجدداً نحو زمن بعيد، إلى القرن السابع عشر، بفضل كتاب لـ آليز مارينسترا (Élise Marienstras)، نحن، الشعب، الذي يشرح كيف أن أول المستوطنين في أميركا الشمالية أشبعوا العالم الألماني (جرماني) بأساطير أكثر قدماً هي أساطير غزو بلاد كنعان:

إن أول المستوطنين، من البروتستانت، الطهرويين منهم بخاصة، واجهوا في بيئة شديدة الشبه بتلك التي يذكرها أصل كلمة «wilderness» (الغرابة) الجرماني: مثل جرمانيا القديمة، ومثل الأقاليم القليلة السكان من أوروبا الجنوبية، كانت نيوانغلاند في القرن السابع عشر مكسوة بالغابات، حيث أن كثافتها كذلك مبالغ بها في النظرة الخائفة للطهرويين. الغابة بالنسبة إليهم مكان مظلم، مأهول بالحيوانات الـ Wild الجرماني المتوحشة، والمكان المجرّد من أي قانون، والمنفلت من سيطرة الإنسان وقد نعت هذان المكانان بكلمة Wild بالإنكليزية القديمة. تتطابق رؤية غابات الـ wilderness مع رؤية الصحراء حيث أرسل الله آدم وحواء بعد أن طردهما من الجنة الفردوسية. فهو مكان بور ولعين، الصحراء مرتادة من الشياطين، ومن اتباع الشيطان. أعطى المهاجرون أنفسهم مهمة تحويل الأرض البور، لإعادة خلق الجنة فيها حيث سيسود الازدهار، الخصوبة، وتناسق طبيعة منظمة من صنع الإنسان الملهم.

وبقدر ما ينجح المستوطنون في السيطرة على البيئة القريبة، ينتشر تفاؤل الأنوار مع عبادته لإله الطبيعة، وسيلقى الغرب عطر الأساطير الوثنية القديمة. وقد وعدت بالوفرة والحرية، وصوّرت البيئة هذه في الأسطورة الوطنية، إنها الأرض الموعودة.

إن المقارنة مع العبريين، الحاصلة على المستويين الفردي والجماعي، اكتملت بالتشبيه بين القارة الجديدة وأرض كنعان: **أي أرض، ما عدا أرض فلسطين، لم تشعر، بقدر تلك الأرض، بالتدخل الخارق للعناية الإلهية.** (Marienstras)

إن مفهوم «المجال الحيوي» المساحة الحيوية، ليست اختراعاً ألمانياً. لنعد الآن

إلى القرن العشرين لتنتهي مع التشبيه الذي قام به تيدي روزفلت بين محرري تكساس والجرمان القدماء (بقراءة هذا النص فكرت، لا أعلم لماذا، بالأفلام النازية لـ ليني ريفنشتال (Leni Riefenstahl)، خاصة «انتصار الإرادة» ومشاهد العربدة ومجزرة الأجهزة الألمانية في فيلم «الهالكون» لـ «لوتشينو فيسكونتي»:

يجب أن نتقبل بكل صراحة بأن سلوك السكان الشمال ـ أميركيين المحاذين، على مدى هذا الصراع، لا يمكن أن يُبرر على مستوى الأخلاق الدولي والحق. ولكن من غير الممكن أيضاً أن تحكم عليه بالمعايير نفسها التي قد نستعملها للحكم على بلدين متحضرين وموهوبين تقريباً في نفس مستوى الفضيلة والذكاء إلى أعلى درجة [...]. إن غزو تكساس قد يمكن بالتحديد أن يكون شبيهاً بغزوات القراصنة الشماليين. كانت فضائل وخطايا تكساسيي [المستقبل] متشابهة مع فضائل وخطايا الحقبات البربرية. لقد كانوا معتادين على الحرب ولا يتعبون، متعطشين للحركة، للمغامرات وللفسق، جريئين ومحاربين وجسورين، كانوا يملكون، بكلمة واحدة، ميزات عرق فتيّ وقوي، عرق يطفح منه فخر قوته. الذاتية والثقة بالنفس. من جهة أخرى، كانوا يبيّتون في كل لحظة الرذائل البربرية للغطرسة وللادعاء وللجهل، وللقساوة. إن حق الآخر لم يكن يوحي لهم سوى بالاحتقار؛ كانوا يعتبرون الأعراق الضعيفة كنوع من الغنيمة التي تعود لهم بكل بساطة. [...]، كان دخول زمرة من المستوطنين إلى تكساس دون وازع من ضمير كما أتباع «كنات» (Knut) أثناء الإنزال، منذ ألف سنة، على السواحل الإنكليزية لنهب السكان.

(تيودور روزفلت)

والآن ونحن ذاخرون بكل هذه العناصر، لنوجه نظرة إلى ألمانيا. ما بين الحربين.

من وجهة نظر سياستها الخارجية، إن ألمانيا المستشار هيتلر لم يكن لديها سوى هدف واحد: الاستيلاء على أراضٍ واسعة، ليس مجاناً، إنما لخير الإنسانية الأكبر. كانت مساحتها للتحرك مقسمة بالإجمال إلى منطقتين، في البداية، من فرنسا إلى اسكنديناڤيا، ومن انكلترا إلى إيطاليا، عليها خلق صرح مقدس مأهول «بعرق فتي وقوي، عرق قد يطفح منه فخر قوته والثقة بالنفس»، كما قال تيودور روزفلت. الأراضي الأخرى، خاصة الشرقية، كانت مأهولة بأعراق أدنى والتي يجب إخضاعها

أو إبادتها، كما كانت الحالة بالنسبة للسكان الأصليين والإسبان في القارة الأميركية. هذه هي بقليل من الكلمات نظرية **المجال الحيوي**. إن الخطأ الوحيد الذي ارتكبه الألمان وهم يطلقون عمليتهم بربباروسا (Barbarossa) ضد الاتحاد السوفياتي، هو جهلهم بأنهم لا يمضون إلى هجوم ضد الهنود الحمر (الجلود الحمر) ولكن ضد الحمر وعديدين، مسلحين ببنادق، وبمدافع وآليات حربية وعالمين بفن الحرب الحديثة. إن برابرة أميركا الأنكلوساكسون ما كان ممكناً لهم أيضاً أن يصمدوا طويلاً لو كانوا حاربوا بأسلحة متساوية ضد **الكائنات البشرية**. فمعركة نهر ليتل بيغوهورن (Little Bighorn) أظهرت ذلك جيداً[1]. ولكن لنعد إلى نازيينا ولا نسرّع الأمور كثيراً لأن عملية بارباروسا انطلقت عندما كانت الحرب العالمية في أوجها. لنعد إلى أصل الصراع.

بدأ تنفيذ غزو **المجال الحيوي** من قبل الألمان في نفس القدر من الكياسة والاهتمام بالشرعية للولايات المتحدة خلال غزواتها لمجالها الحيوي الخاص بها. في سنة 1934، وقع هتلر ميثاقاً بعدم الهجوم مع بولونيا، الذي أكثرهما يلاطف جاراً محتقراً يحاول تسميم العلاقات الفرنسية ـ البولونية. بعد سنتين، فإن توقيع الميثاق الفرنسي ـ السوفياتي أستعمل كحجة لإعادة تسليح منطقة رينانيا (Rhénanie)، حيث أن نزع السلاح كان مفروضاً بمعاهدة فرساي. في آذار/مارس 1938، وقّعت النمسا وألمانية توحيدهما، (Anschluß)، ولم يقلق أحد من ذلك بشكل واضح المعنى بما أنه وُقع باتفاق مشترك (Milza, Vidalenc ـ ميلزا، ڤيدالنك)، ثم، خلال النصف الأول من العام 1939، وُقع الميثاق الجرمانو ـ سوڤياتي الذكي جداً.

لننتقل الآن إلى التوسع بالتحديد. إن أول أكبر انتصار للرايخ الثالث هو ابتلاع تشيكسلوفاكيا بين العامين 1938 و1939، على أثر مؤتمر ميونيخ الشهير جداً. إنه انتصار دبلوماسي باهر جداً حيث أظهرت فيه الأسلحة، ولكن، من دون أن تطلق رصاصة واحدة. فالعملية كانت أنيقة بقدر أناقة فتح اليابان بمدفعية السفن اللطيفة

(1) أشير هنا بالطبع مجدداً الى Little Big Man حيث أعلمنا بأن الشيّين كان لديهم عادة تسمية أنفسهم كائنات بشرية. لن أنسى أبداً هذا المشهد قبل معركة ليتل بيغ هورن (Little Bighorn) حيث أن الرجل الكبير الصغير شرح للجنرال كوستر بأنه هذه المرة سيتوجب عليه أن يحارب ضد محاربين من السيو والشيّين، وليس ضد نساء وأطفال وعجائز.

للكومودور، پرّي (Perry). اتبع إذن النازيون نصائح تيدي روزفلت بحذافيرها عندما قال بأنه يجب التكلم بلطف ولكن يجب حمل عصاً غليظة دائماً.

إن تشيكسلوفاكيا، حسب ألمانيا، ليست سوى مسخ وحشي خلقته سوء نية معاهدتي سان ـ جرمان وتريانون، فثلاثة ملايين بائس ألماني، «السوداتيون»، (Sudètes)، يعيشون تحت نير نظام براغ الشرس ويجب تحريرهم. إنها حالة شبيهة جداً بحالة ألبان كوسوڤو المطاردين خلال فترة التسعينات من القرن العشرين من نظام بلغراد الشرس. فمنذ عام 1933، إنطلق الحزب «السوداتي» المؤيد للنازية بقيادة كونراد هنلاين في الهجوم ليفرض في نيسان/أفريل من العام 1938، الحكم الذاتي الكامل للأقاليم الجرمانية في تشيكسلوفاكيا. كان ضغط الحكومة الألمانية بشكل استطاع فيه عندئذٍ السوداتيون أن يتحرروا، دون أن تعلن الحرب، دون أن تقوم حرب، وبفضل تفهم الحلفاء المتأثرين بالاهتمامات الإنسانية للنازيين (وربما أيضاً في نفس الوقت بالعصا الغليظة بعض الشيء). قررت ألمانيا، طالما كانت في ذلك الوضع، أن تحتل بوهيميا بأكملها. بعد ذلك، نادت سلوفاكيا بحق الشعوب بتقرير، إلخ، لتنفصل عن تشيكسلوفاكيا، وتصبح عوناً مسلّحاً للرايخ الرابع (ميلزا ـ ڤيدالنك).

إن حالة بولونيا كانت، في البداية، شبيهة جداً. فبعد أن أحيتها معاهدة فرساي، استفادت بولونيا، بفضل المعاهدة نفسها، من جزء من الأمبراطورية الألمانية القديمة، بوسنانيا (پوميرانيا)، ليسمح لها ببناء ممر يعطيها منفذاً على البحر من خلال المرفأ المستقل في دانتزيغ (Dantzig) أو (Gdansk). من الواضح أنه في جميع هذه الأراضي المستعادة (أو المضمومة) من بولونيا يتواجد الكثير من الألمان البائسين الخاضعين إذن لنير نظام وارسو الشرس. إلى هنا، السناريو التشيكسلوفاكي يتكرر مع بعض التغييرات: بؤس الشعب الألماني، بعض الفتن المضبوطة أساساً من المسؤول الإداري فورستر بهدف التحرر من النير البولوني، قمع، ثم واجب التدخل الألماني... الفرق، هو أنه هنا، لم تبتلع المزحة لا فرنسا ولا انكلترا. وعندما رأت ألمانيا نفسها مجبرة بأن تسرع لإنقاذ ألمان بولونيا، كان على الحلفاء أن يعلنوا عليها الحرب. لقد قرأتم جيداً: إنهما بالفعل فرنسا وانكلترا اللتان هاجمتا ألمانيا، بما أن هذه الأخيرة لم تعلن أبداً الحرب، معتمدة على أن تدخلها في بولونيا هو تدخل إنساني في هدف إنقاذ شعوب مغلوب على أمرها.

هذا «اللا إعلان للحرب» شكّل إسهاماً مثيراً لألمانيا في السياسة التوسعية التي سرعان ما ضمّتها الولايات المتحدة إلى شبكتها. لقد رأينا حتى الآن، إن النازيين كانوا تتلمذوا على يد أمبراطورية الحرية ولكن، فيما بعد أدلوا بدلوهم لإنقاذ العالم. ولقد أدركوا (ربما ملهمين من اليابانين، كما سنرى فيما بعد) بأنه من الأجدى، على الصعيد الدبلوماسي كما الاستراتيجي، الامتناع عن إعلان الحرب. فلم يعلنوا الحرب على فرنسا وانكلترا، وأيضاً لم يعلنوها على الاتحاد السوفياتي.

كانت مساهمة النازيين تلك، في التدخل الإنساني مهمة نسبياً بما أنها مورست بانتظام منذ تلك الحقبة. من قبل، لم يكن لحروب الولايات المتحدة الإنسانية اتجاه واحد. ففي حروب تحرير فلوريدا وتكساس، مثلاً، أخذت الولايات المتحدة جانب عدم إقحام جنودها مباشرة، حتى وإن كان معلوماً في العلن أن هذه الحروب كانت موجهة من قبل واشنطن. ولكن خلال حرب المكسيك أو التدخل الإنساني في كوبا، أعلنت الولايات المتحدة في الحقيقة الحرب بالتوالي على المكسيك وإسبانيا. تظهر التجربة النازية بأن عدم إعلان شيء أكثر عملانية. كان الحلفاء مضطربين جداً حيال التصرف الألماني كونهم لا يردون بالقوة اللازمة. خلال هزلية الحرب، كان لدى هتلر الوقت اللازم لتحسين طيرانه ومخزونه من الآليات العسكرية، دون أن يمنعه ذلك أن يحرر الدانمارك والنروج في طريقه. إنني متأكد بأنه في آخر الصراع، قد أوجد ورشة فكرية (think tank) من الخبراء الأميركيين كي يمكن له إدراك فوائد هذه الطريقة للقيام بحرب. لذلك، خلال الستين سنة التي مرّت منذ إعلان الحرب من الولايات المتحدة على قوى المحور، لم تقم أبداً بحرب. لا في فيتنام، ولا في يوغوسلافيا لا في كوريا، ولا في غواتيمالا ولا في كمبوديا، ولا في لاووس ولا في غرينادا، ولا في باناما، حتى ولا في العراق.

إنني أتوقع، طبعاً، أن بعضاً من قرائي الأوروبيين سيجد التوازي الذي أجريته بين أمبراطورية الشمال ـ أميركيين وأمبراطورية الجرمانيين جارحاً وتجديفاً. أعلم بأن عدداً ما من الفلاسفة سيرسلونني مباشرة إلى جهنم. مع ذلك، رأيت أن هاتين الأمبراطوريتين كانتا مكونتين من بشر، إنسانيين كأي كان، إذن ليس ممنوعاً مقارنة طرقهم في العمل والتفكير. كلتاهما شعرتا بنفسيهما بمهمة مقدّسة. كلتاهما لديهما إدراك بتفوقهما العرقي يستطيع أن يدفعهما لارتكاب أعمال إبادة بشرية. كلتاهما تتقاسمان نفس الشره الدائم لضم الأراضي.

الفرق الأساسي يكمن في أنه كان يتوجب على ألمانيا من أجل التوسع، أن تتجاوز مصالح القوى الإمبريالية الأخرى: فرنسا وانكلترا في البداية، ثم الاتحاد السوفياتي. الولايات المتحدة، أمبراطورية حديثة بامتياز، عرفت أن تتحاشى الصدامات الجبهوية مع القوى الكبرى. استراتيجية الانتظار الصبور بدت مجدية. وهكذا انتظرت الولايات المتحدة انعتاق البلاد الإسبانو ـ أميركية لغزوها أو لبسط نفوذها فيها. لقد انتظرت الضوء الأخضر من إنكلترا والضعف الأقصى لإسبانيا للانطلاق في حرب ضد هذه الأخيرة.

الصدمة الوحيدة التي لم تستطع أن تمنعها حصلت عندما أرادت أمبراطورية شروق الشمس أن تقوم ببرهان منطقي وتتصور بأنه اذا كان صحيحاً أن أميركا تعود للأميركيين، فكذلك يكون صحيحاً أن آسيا تعود للآسيويين.

آسيا للآسيويين: صدمة «المحررين ـ القتلة» (1931 ـ 1945)

تورا، تورا، تورا! (نمر، نمر، نمر). مع هذه الكلمات التي استوحوا منها الدعاية «نمور الورق» الشهيرة للرئيس ماو، يرجح بأن يكون قد بدأ تحرير شعوب آسيا المضطهدة. إن مهاجمة بيرل هاربور في جزر الهاواي، وهو إقليم لشعوب مختلطة ضُمّ من قبل الولايات المتحدة، أوجب إعلان نهاية السيطرة الأورو ـ أميركية على آسيا والهادي. فذلك الأحد الواقع في 8 كانون الأول/ديسمبر من العام 1941، بدأت حرب التحرير في كل الهادي. غويام، واك، هونغ ـ كونغ، الفليبين، ماليزيا وتايلاند كل هذه كانت مسرح النضال من أجل حرية شعوب آسيا. في 15 شباط/ فبراير 1942، كان دور سنغافورة. وفي 6 آذار/مارس هولندا باتافيا، عاصمة إندونيسيا فيما بعد، سلّموا البلد. بعد ذلك، دخلت الجيوش اليابانية الفخورة إلى رانغون، واستولت على مصافي ومخزون النفط. قد تكون آسيا للآسيويين (Miquel).

هل لنا الحق أن نرى الأمور في هذا الشكل؟ لقد فكرت بأن وجهة النظر الماكرة التي قررت تبنيها كانت تسمح لي بأن أحاول فهم منطق الحجج المقدمة من أمبراطور اليابان. لأنه، إن كان باسم الحرية قد قتلت الولايات المتحدة السكان الأصليين ومواليد المستعمرات في أميركا، فكذلك باسم الحرية وكرامة شعوب آسيا انخرط

اليابانيون في الصراع العالمي. لم ينقص اليابانيون في ذلك الوقت الحجج لتبرير هذا الخطاب: كانت شعوب آسيا عرضة لتحرش الأورو ـ أميركيين واستغلالهم المخزي. إذ حان الوقت بأن يأخذ على عاتقه شعب آسيوي ما هذا التحرش وهذا الاستغلال.

ولمحاولة الفهم بطريقة أفضل لماذا وصلت الأمور إلى هذه الدرجة، لنقم بعودة قصيرة إلى الوراء (فلاش باك إن كنتم تفضلون). لن نشير إلّا سريعاً للغزوات ومحاولات الغزو الأوروبية في آسيا منذ القرن السادس عشر. لن نسهب بالكلام عن سياسة الباب المفتوح، ولا عن حروب الأفيون الفائقة الوصف، المدارة من بريطانيا العظمى ضد الصين، حيث أن ميزتها البغيضة كانت منذ زمن طويل واضحة في عيون حتى الأكثر محافظة من معاصرينا. لن نبطىء أيضاً بالحديث عن زيارة إظهار العضلات للكومودور پرّي الذي ضغط بمساعدة الشكل المقنع لسفنه المدفعية، على سلطات إيدو (اليوم طوكيو) من أجل أن تنضم كما الصين إلى سياسة الباب المفتوح وأن تنفتح على التجارة الغربية المقدسة. لن نأخذ إذن بعين الاعتبار هذه الأحداث رغم أننا نعلم أنها حدثت فعلاً. فلنحاول أولاً رؤية الأمور، ولن تكون إلّا لبعض اللحظات، من وجهة نظر اليابانيين.

إننا نعلم بأنه في حقبة الميجي (Meiji) (التي بدأت في العام 1968) قدرت اليابان، بما أنهم أجبروها على فتح أبوابها، أن تنفتح أيضاً على الفكر الغربي وعلى تقنياته. وكطالب مجتهد، وجب عليها بشكل قاطع أن تدرك أن أحد العناصر الأساسية للنجاح الأوروبي (ولكل قوة كبيرة من قبل) هو الغزو الإمبريالي. لقد أعقب ذلك أنه، عملياً في الوقت نفسه الذي تركت فيه الولايات المتحدة ميدانها الأميركي الخاص لتبدأ بتوسيع مجالها الحيوي، شعرت اليابان هي أيضاً بحاجة لخلق أمبراطوريتها. بما أن الدفع التوسعي للولايات المتحدة خارج القارة الأميركية لم يستطع أن يحصل سوى نحو الغرب، أوروبا موجودة في الشرق، فمحكوم على الأمبراطوريتين الناشئتين أن تتواجه عاجلاً أم آجلاً. نستطيع أن نستنتج من ذلك بأن فتح أبواب اليابان من قبل الكومودور پرّي له نتيجة أخيرة هي تدمير قاعدة بيرل هاربور البحرية، بعيد ثمانٍ وأربعين سنة. ولكن هذه التضحية سمحت بفتح أبواب العالم للولايات المتحدة. وللحرية كونها هي حاملتها.

قبل المتابعة، أريد أن أقدم لكم بالتوسيع مقطعاً طويلاً بعض الشيء من نهاية كتاب راميرو غويّرا الذي كتب، كما سبق وقلت، خلال النصف الأول من الثلاثينيات، أي

قبل بداية الحرب العالمية الثانية، إن وضوح أفكاره يؤكد لنا صحة رؤى المؤرخ الكوبي العظيمة. عندما سُئل عن متابعة الفكر التوسعي الشمال أميركي، أجاب غويّرا بالشكل التالي:

إنّ كلمة «نعم» قاطعة بشكل دقيق قد تكون مجازفة كبيرة حتى لو أتت من جهة أولئك الذين يحكمون الولايات المتحدة. بالنسبة لرجل لا يعرف سرّ مشاريعهم وأفكارهم، ولا سر الوثائق التقنية والسرية للجيش والقوات البحرية، إن تأكيداً كهذا قد يكون أيضاً أكثر مجازفةً. مع ذلك، إن أخذنا جميع الاحتياطات الضرورية، نستنتج أنه، ظاهرياً، لا يوجد برنامج مكتسبات مباشرة؛ فلم تكن هناك دورة جديدة «للقدر الجلي» قيد العمل. إن المواقع الاستراتيجية التي كان يعتبرها الكابتن ماهان ضرورية جداً قد أُستُولي عليها؛ وقد وصلت «القوة» البحرية «المنظمة» إلى درجة من التوسع والسلطة، بحيث أن الولايات المتحدة تستطيع أن تكون متأكدة من وجودها بمنأى عن كل خطر وكل هجوم. إلّا أنه لا يجب منح ميزة نهائية لهذه الوقائع. ما إن كانت تنتهي مرحلة، حتى نستطيع أن نعتبر بأن هذا الوقت هو الأنسب للبدء بمرحلة أخرى. إن الولايات المتحدة وُجدت في مرحلة حرجة من منافستها مع اليابان في الهادي والشرق الأقصى. [...]. إما أنه كان يتوجب عليها الانطلاق في منافسة مفتوحة مع الإمبريالية اليابانية في آسيا للنزاع على السوق وللتأثير الغالب في الصين [...]، وإما أن تترك الساحة حرة لليابانيين متخذة وضعاً دفاعياً من شأنه ربما أن يمكنها من المحافظة على السيطرة في القارة الأميركية. إن اختيار هذا الطريق الأخير ربما سيترجم بالرحيل عن المواقع المكتسبة، والتخلي عن العظمة الأمبراطورية، العدول عن إنجاز «الواجبات الكبرى والأقدار السامية» التي وصفها ماهان في العام 1897؛ انحناء «الأبيض» أمام «الأصفر»، و «الغرب» في وجه «رجل الشرق». [...]. إن فتح القناة، مع المواقع المتقدمة في غوانتانامو من جهة، وهاواي من جهة أخرى، ونمو «القوة المنظمة»، لم تكن غاية لكن منطلقاً لحل مسألة القرن العشرين الكبرى: السيطرة على الهادي والتفوق في آسيا. إن تنبؤات ماهان أظهرت أنها صحيحة بشكل أساسي. الإعلان الياباني: «آسيا للآسيويين» ـ أو، إن فضّلنا، «آسيا لليابانيين» ـ هو تحدٍ للسلطات الغربية، وخاصة للولايات المتحدة. لن تتنازل اليابان، إن لم تقع كارثة على الأقل. سيتوجب على الولايات المتحدة أن تتخلى أو تستعد للمعركة. وإن وقعت هذه فلن يكون لها

هدف سوى: السيطرة على الهادي»، الصين ومنشوريا. إذا اختارت الولايات المتحدة طريق المنافسة، ستكون قد اختارت في الوقت نفسه طريق السلطة الإمبريالية دون ذرائع ولا مواربة. إنَّ أي تراجع شمالي أميركي قد يعني ضعفاً، وخسارة «سمعة عالمية» قد تبدو في زمننا غير مسموح بها بمواجهة عزة الولايات المتحدة الوطنية. إن موقفها في المؤتمرات حول التوازن في القوى البحرية، المنعقدة في لندن عام 1934، والمصادقة على قانون ڤنسون (Vinson) لتعزيز الأسطول، والسياسة البحرية للرئيس روزفلت وقبل كل شيء»، الاعتقاد الراسخ للشمال أميركي في تفوقه الخاص وفي سلطة بلده غير المحدودة، لا تحثنا على المراهنة على الانسحاب من المنافسة. إن توسعاً «للقدر الجلي» نحو الهادي وآسيا بدا وشيكاً.

قبل الهجوم على بيرل هاربور بست سنوات، حدد غوبّرا عند ذلك النقاط الأساسية لهذا الصراع ونتائجه.

لنتبع الآن تسلسل الغزوات المنجزة من قبل الأمبراطوريتين؛ في عام 1893، بفضل ثورة على الطريقة التكساسية مساندة بإنزال القوات البحرية للولايات المتحدة، أعلنت جمهورية هاواي. في 1894 ـ 1895، عقب نزاع مع الصين نشب حول السلطان على كوريا، احتلت اليابان تايوان وشبه جزيرة لياو دونغ (Liao-dong) (تدعى أيضاً لياوتونغ أو كوانتونغ)، في جنوب منشوريا. في العام 1898، فتحت الحرب الإسبانية ـ الأميركية أبواب الفليبين للولايات المتحدة. في السنة نفسها ضم الأميركيون هاواي وغوام. في العام التالي، تقاسموا جزر ساموا مع ألمانيا وسحقوا المقاومة الاستقلالية الفليبينية لضم الأرخبيل. في 1905، على أثر الحرب الروسية ـ اليابانية، استولى اليابانيون على نصف جزيرة ساخالين. واستعادوا أيضاً بورت ـ آرثر، نهاية سكة حديد منشوريا في شبه جزيرة لياودونغ، حيث كان الروس قد طردوهم منها سنة 1898. في 1910، أصبحت كوريا مستعمرة يابانية. بعد الحرب العالمية الأولى، أخذت اليابان ملكية الامتيازات الألمانية في الصين (إقليم شاوزو [كياوتشيو] مقابل تايوان ومنطقة النفوذ الاقتصادي لشاندونغ على الضفة اليمنى لهوانغ ـ هو). وأخذت أيضاً ملكية الجزر التي كانت موجودة تحت سيطرة ألمانيا: جزر كارولين، وماريان ومارشال. ففي هذا الوقت كانت مناطق النفوذ للأمبراطوريين على وشك التماس.

لنرَ الآن كيف تطورت العلاقات بين الأمبراطوريتين. في مرحلة أولى كانت قوّتانا الناشئتان تنظران إلى بعضهما بعضاً بغضب إلى حد ما. وكان لديهما الفرصة لتبادل بعض الملاطفة على أثر الحرب الروسية ـ اليابانية في 1904 ـ 1905، مثل ساطع على قول إسباني يقول بأن «الود لا ينفي الشجاعة» (ما نستطيع ترجمته بشيء مثل «اللطافة لا تمنع العصا الغليظة»)، تيدي روزفلت، المحارب الشجاع الذي هزم الجيوش الإسبانية في سانتياغو دِ كوبا سنة 1898، له الحق هو أيضاً في الحصول على جائزته الصغيرة نوبل للسلام عام 1906 لاسهامه في مصالحة الأشقياء الملاعين الروس واليابانيين. في الحقيقة، إن ما يبحث عنه روزفلت بدعوته العدوين إلى طاولة لمفاوضات بورتسموث، هو خاصة، حفظ التوازن في القارة الآسيوية. إن وساطته أوصلت الروس، رغم خسارتهم غير المختلف عليها، للإبقاء على بعض الوجود في الهادي بالاحتفاظ بنصف جزيرة ساخالين الشمالي. وفي الوقت ذاته، دفع الفكرة التوسعية اليابانية في الصين وفي كوريا لإبقائها بعيدة عن هاواي ـ حيث أن سكانها في تلك الحقبة أغلبيتهم من اليابانيين ـ وبعيدة أيضاً عن كاليفورنيا، التي لا تكف عن الشكوى من الضغط السكاني الآسيوي والتي لا تجد القوانين العنصرية المتداولة في مدارسها أو في الحق العائد للأملاك العقارية فعّالة كفاية (Heffer).

في عام 1905، الرئيس العتيد تافت (الذي ترك منصبه كحاكم مدني في الفليبين ليشغل مركز وزير الحرب) ووزير الخارجية الياباني كاتسورا وقّعا مذكرة تعترف فيها اليابان بسيادة الولايات المتحدة على الفليبين مقابل الاعتراف بالنفوذ الياباني في كوريا. بعد ذلك، عندما كان تافت شاغلاً للبيت الأبيض بصفته رئيساً، دفعته سياسة الدولار المعلنة من وزير خارجيته نوكس لمحاولة منع الأمبراطورية اليابانية أن تفصل لنفسها ملكية محفوظة في منشوريا، كما فعلت في كوريا التي أصبحت مستعمرة يابانية عام 1910.

> لقد قال نوكس: من الأفضل محاولة رفع السياسة المتبعة من قبل اليابان في الصين إلى مستوى سياستنا، حيث يمكن أن تكون لنا رؤى متباعدة، على أن تخفض سياستنا إلى مستوى سياستهم.

ولكن الولايات ـ المتحدة لم يكن لديها في تلك الحقبة الوسائل لفرض رؤاها أبعد من دائرة النفوذ خاصتها وقد استمرت السلطة الاقتصادية والسياسية اليابانية في

النتيجة التعاظم في المنطقة. في المقابل، لم يتساهل الشمال ـ أميركيون أبداً مع محاولات التوسع الياباني، على الجهة الأخرى من الهادي، ومن ضمنها الأراضي التي لا تعود مباشرة للولايات المتحدة. عندئذٍ، وفي عام 1911، عندما اشترى تجار يابانيون ملكية خاصة في خليج ماغدالينا في جنوب كاليفورنيا السفلى المكسيك، تحرك الكونغرس الشمال ـ أميركي بسرعة فائقة لتوسيع عقيدة مونرو[1].

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى. بينما كان البيض يبيدون بعضهم بعضاً بهدوء في مهد الحضارة فكّر بعض اليابانيين بدون شك بأن هذا هو الوقت لإطلاق نوع من عقيدة مونرو آسيوية التي ربما سيصبحون بها الأسياد طبعاً. في شهر كانون الثاني/ جانفي من عام 1915، قدّموا «واحداً وعشرين طلباً» تشبه بشكل غريب الشروط المفروضة من الولايات المتحدة عل كوبا بواسطة تعديل بلات قبل ثلاثة عشر عاماً. لنتذكر أن هذه الوثيقة أجبرت كوبا بالحفاظ على حكومة ثابتة، منعتها من عقد التزامات خطيرة ومن منح امتيازات على الأراضي، أعطت امتيازاً للعلاقات التجارية بين الجزيرة والعم سام. إلّا أن، «الواحد والعشرين طلباً» اليابانية كان لها هدف أن تخضع الصين لتبعية مماثلة بما أنها تفرض تحويل حقوق ألمانيا لليابان في شاندونغ وموقعاً غالباً للمصالح اليابانية في منشوريا وفي منغوليا الشرقية لضرب مبدأ الباب المفتوح. وتفرض أيضاً تعاون الصين واليابان في استغلال مناجم منطقة نهر يانغزي (يانغتسي) وتطمع بمنع الصين من بيع أو تأجير مرافئها للقوى الثلاث، فارضة عليها مستشارين يابانيين وإنشاء بوليس مختلط. وتريد أخيراً إجبار الصين بشراء نصف تجهيزاتها العكسرية على الأقل من اليابان وأن تمنح الصين اليابان امتيازات في مجال بناء سكك الحديد في وادي يانغزي وفي فوجيان (Heffer).

سيعتقد البعض بكل تأكيد بأنني أبالغ بوضع هذه «الطلبات الواحد والعشرين» بموازاة مع الشروط التي فرضتها الولايات المتحدة على بلد صغير في الكاريبي. إلّا إنني لم أخترع هذا التشبيه: الولايات ـ المتحدة نفسها، بخصوص الفكر التوسعي الألماني وضعت المشاكل الصينية مع مشاكل الكاريبي بالموازاة. في عام 1897،

---

(1) إن شروط التعديل الدستوري للسيناتور لودج هي التالية: «عندما يكون مرفأ أو مكان آخر من القارة الأميركية واقعاً تحت الاحتلال بشكل يكون محتملاً أن يلحق الضرر أذية بشبكات المواصلات أو أمن الولايات المتحدة، لا تستطيع الحكومة أن تسمح باحتلاله من قبل شركات يكون لها علاقات مع حكومات غير أميركية محتمل أن تنظم مراقبة تقيد مصالحها الوطنية من دون قلق كبير». (Heffer)

استولت ألمانيا على خليج شاوزو بسبب تنازع مع الصين. فيما بعد، كان الصينيون مجبرين بأن يؤجروها لمدة تسع وتسعين سنة الخليج وأقليماً متاخماً يصل إلى هونغ كونغ تقريباً، إلّا أنه، في الوقت ذاته تقريباً، بدأ الألمان بإظهار عدائية مشابهة في منطة الكاريبي؛ فهذا لم يعجب إطلاقاً الشمال أميركيون الذين يعتبرون هذه المنطقة كمحمية لهم. لأجل ذلك، فمنذ 1901، بدأت واشنطن تثير «خطر شاوزوي فنزويلي» غويّرا مشيرة إلى أعمال التنقيب التي يجريها الألمان على الساحل الكاريبي لهذا البلد. عند ذلك نشطت الولايات المتحدة لمحاولة بسط مبادىء تعديل بلات على دول أخرى من المنطقة، كجمهورية الدومنيكان، وهايتي، وبلاد أميركا الوسطى.

لا يجهل اليابانيون بكل تأكيد هذا الوضع لأنهم كانوا دائماً متيقظين لما كان يحصل على الساحل الأميركي، حتى وإن كانت مصالحهم تتركز على ساحل الهادي (كاليفورنيا، كاليفورنيا السفلى، بيرو). لم يكن من الصعب عليهم بأن يستنتجوا بأن الولايات المتحدة تعتبر ألمانيا كدخيلة في القارة الأميركية، فهم يستطيعون أن يستخدموا ذات التعليل لطرد الألمان من آسيا بفرضهم على الصين المتطلبات نفسها التي كانت قد فرضتها الولايات المتحدة على كوبا وحاولوا فرضها على دول أخرى من الكاريبي.

إن التاريخ علّمنا بأن اليابانيين كانوا على حق، فبرقية زيمرمان الشهيرة المرسلة بداية عام 1917 إلى السفارة الألمانية في مكسيكو والتي التقطتها البحرية الإنكليزية لا تطلب فقط من السفير بسبر رأي الرئيس المكسيكي بالنسبة لتحالف محتمل ضد الولايات المتحدة، بل تحثه أيضاً على طلب من الرئيس المكسيكي بأن يكون وسيطاً بين ألمانيا واليابان لجمع قواهما في حال دخلت الولايات المتحدة الحرب. ولكن الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس لم تدع الألمان يغرونها بما أن هدفها كان طردهم من آسيا. في نهاية الحرب العالمية الأولى، تلقت الرؤية الجيوستراتيجية «اليابانية» الممتازة عند ذلك كمكافأة، الملكيات الألمانية القديمة: منطقة خليج شاوزو، شبه جزيرة شاندونغ (جنوب منشوريا وجزر كارولين، ماريان ومارشال).

كانت تلك الحرب إذن انجازاً مهماً جداً لليابان. إضافة للمكتسبات على صعيد الأراضي المحققة على حساب الألمان، استغل اليابانيون بترحاب دخول الولايات المتحدة الحرب لبيع حسن نيتهم بثمن غالٍ، بما أن على الشمال أميركيين تركيز كل انتباههم على الأطلسي. في 2 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1917، وقّع الفايكونت

إيشي (Ishii) ووزير الخارجية لانسينغ (Lansing) اتفاقاً يقر بأن «تجاور الأراضي الإقليمية يخلق علاقات خاصة» في الأراضي الصينية المتصلة بالممتلكات اليابانية في منشوريا. مما يعني اعترافاً بواقع دائرة النفوذ اليابانية (Heffer).

إن الكثير من الاستراتيجيين في الولايات المتحدة ظنوا أن هذا الاعتراف هو تنازل مفرط. في نهاية الحرب، أقلقتهم زيادة التوسع الياباني في الأراضي على حساب ألمانيا. فهذا طبيعي جداً: فقد رأوا الباب يوصد أمام أعينهم الذي كان في وقته يوفر الإمكانية الوحيدة للتوسع إلى الغرب، أي، الشرق الأقصى. أصبح عندئذٍ الوضع متأزماً جداً لدرجة أن بعض الاختصاصيين في الجيوسياسية جازف متنبئاً بأنه ربما ستنفجر حرب في العشرينات (1920).

إلّا أن تضافر جهود الحاذق شارل إيفانز هوغ، وزير خارجية الرئيس هاردينغ (1921 ـ 1923) ووزيرين يابانيين ليبراليين، هارا وشيدهارا، نجحت في استخلاص اتفاق في مؤتمر واشنطن الذي يحد من سباق التسلح للقوى الأساسية البحرية. حصص ثابتة (كوتا) دقيقة جداً لسفن الحرب تهدف في خلق توازن كامل، أمّا الأساطيل الكبيرة في الهادي فقد وافقت على فرض مقدار أقصى في نسبة وجود 5 للولايات 5 لبريطانيا العظمى و3 لليابان. وقبل هذا الأخير أن يخلي منطقة شاوزو وشبه جزيرة شاندونغ. في عصر «دبلوماسية الإمبريالية» حلّت سياسة التعاون التي تهدف إلى تنصيب «نظام دولي جديد» (Heffer).

لم تدم الهدنة مع ذلك سوى عشر سنوات. فالأزمة الاقتصادية لعام 1929 هي التي سرّعت الأمور وأوصلت مؤيدي العسكرة إلى قيادة اليابان. الجيش، المكلف بمراقبة خط سكك الحديد «عبر منشوريا»، ومرفأ بورت ـ آرثر (لوشون Lüshun) منذ خسارة الروس عام 1905، نفذ اعتداء لإثارة حادث أدى لولادة دولة مستقلة عام 1931، منشوكوو (Madchoukouo) (بلاد المنشو)، وتلك عينة من تكساس يابانية التي أصبحت مألوفة لنا بفضل فيلم «الأمبراطور الأخير» لبرناردو برتولوتشي. ما إن أجتيزت الخطوة الأولى تلك، لم يعد لليابانيين أي سبب للتوقف. في عام 1933، استولوا على أقاليم أخرى في غرب منشوريا، شاهار وسويان. كان اليابانيون في طريقهم لابتلاع الصين، «الرجل المريض في آسيا»، في نفس الطريقة التي ابتلعت فيها القارة الأميركية في القرن السابق. في تموز/جويليه من عام 1937، أعطى «حادث دون أهمية» في ضاحية بكين الذريعة من أجل تعميم الحرب على الصين. احتل

اليابانيون إذن منطقة بكين حتى هوانغ ـ هو، مستردين في طريقهم شبه جزيرتهم شاندونغ. بعد ذلك، تمركزوا في وادي يانغزي، أحتلوا شانغهاي، هان ـ كيو، نانكين، ثم كانتون، تواجدوا عندئذٍ في حالة حرب مفتوحة ولكن غير معلنة مع الصين حتى قبل أن تستذوق ألمانيا هذه التقنية التي تعتمد على شن الحرب دون إعلانها.

إذن، أصبح من الواضح بأن اليابانيين يريدون بناء نظامهم الخاص الإقليمي في آسيا. يرى هفّر (Heffer) أنه من الضروري التلميح إلى القومية المتشددة اليابانية والإشارة إلى أن ثمة في الحكومة اليابانية عناصر معتدلة تدعم معاهدات واشنطن. فإنني مقتنع بأن هذا الشرح فائض بالنسبة لنا، لأنه كان بالإمكان أن نلاحظ أن طرق التوسع الياباني لم تكن مختلفة جداً عن تلك المستخدمة في القارة الأميركية من قبل الولايات المتحدة. إلا أن توسع الولايات المتحدة المحتوم لم يلق الإجماع بين مواطنيها، وندد عدد من المعارضين بالحملات المنظمة من حكومتهم. فهم ليسوا جميعهم ذئاباً متلهفة للأراضي، ونستطيع أن نقول الأمر نفسه بالنسبة الى تلامذتها اليابانيين، كما بالنسبة إلى الألمان في موضع آخر أيضاً. اليابانيون كائنات بشرية وليسوا نملاً، عكس ما ادّعته منذ فترة رئيسة للوزراء فرنسية. ولكن تركّز السلطة يؤدي حتماً إلى الامبريالية. لقد قيل شيء من هذا من قبل أحد رؤساء مجلس مفوضي الشعب السوفياتي. أنا، وبكل تواضع، لا أظن أننا بحاجة إلى استثناء لتأكيد هذه القاعدة الرهيبة. يجب الاعتراف أنه في الحقيقة، منذ أن تصوّر أول نوع بشري فكرة أخذ قطعة عظم ليضرب بها على جمجمة جاره الطيب (مثلما يظهره لنا فيلم 2001 ملحمة الفضاء بصورة جلية) تسير حالة الأمبراطوريات باستمرار من سيء إلى أسوأ.

بهذا الأسلوب، امتثل أمام اليابان خياران اثنان وحيدان، تجسد أحدهما بالقوات البرية والآخر بالبحرية. القوات البرية تريد بشكل طبيعي متابعة غزو الصين لتتغلغل فيما بعد في سيبيريا وتستولي على مواردها الطبيعية الغنية، وبشكل خاص، النفطية منها. بهذه الطريقة فكّرت أن تتحاشى مواجهة مع القوى الأورو ـ أميركية. هذا ما أدى إلى اجتياح الصين في عام 1937. لم يكن النجاح قليلاً، ليس فقط من وجهة النظر العسكرية ولكن أيضاً على الصعيد الدبلوماسي. بدأ الغربيون يقرون بأن ثمن الحفاظ على الباب المفتوح أصبح يتجاوز الحد وفكّروا جدّياً بتعليق العمل بمبدأ الحرية فيما تعلق بالمجال الصيني.

البريطانيون، الذين تعرضوا عدة مرات لهجومات، اعترفوا في 22 تموز/ جويليه

عام 1939 «بالحاجات المميزة» للقوات اليابانية في الصين. إنها «ميونيخ شرق أقصى»، قالت صحافة تشانغ [شيانغ كايشك، رئيس الكومينتانغ (Kuomintang)، الحزب القومي المقرب من الغرب]. (Miquel)

كان الصينيون يذكرون مأساة تفكيك تشيكسلوفاكيا حقيقة الذي طرأت قبل سنة من مؤتمر ميونيخ مع مباركة فرنسا وبريطانيا العظمى. أنا، ربما أستطيع أن أذكر تقطيع المكسيك[1] الحاصل قبل قرن أمام النظرة الرافضة ولكن غير الفعالة كلياً لفرنسا وبريطانيا العظمى.

إلّا أنه، بالرغم من عدم خبرة الجمهورية الصينية الناشئة وجميع التقسيمات التي تمزقها، لا يمكنها أطلاقاً التشبه بالمكسيك المجتاحة من الولايات المتحدة عام 1846. الكثافة السكانية للصين كبيرة جداً وهي مسلحة أفضل ـ أسلحة ممولة جزئياً من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة (Miquel)[2]. إضافة إلى ذلك، مقابل تهديد عدو مشترك، أسست جيوش ماوزيدونغ (Maozedong) وشيانغ كايشك (Chiang Kaishek) تحالفاً ظرفياً، عكس المكسيكيين الفاسدين الذين لم يجدوا أفضل من أن ينظموا حرباً أهلية صغيرة في شباط/فيفري 1874 بينما هيأت الولايات المتحدة نفسها لتقوم بإنزال في فيراكروز. فتلك المقاومة الصينية، ثم الهزيمة التي تكبدتها الجيوش اليابانية عام 1939 في وجه الجيش الأحمر أثناء اجتياح الأراضي السوفياتية، أفشلت مخطط اجتياح سيبيريا المدعوم من القوات البرية اليابانية.

ومن أجل ذلك فُرضت قضية القوات البحرية رويداً رويداً، خاصة بعد هزيمة فرنسا عام 1940 التي فتحت أبواب الهند الصينية لليابان. كانت الفكرة هي التسلط على التصدير والكاوتشوك في الجنوب ـ الشرقي الآسيوي وكذلك النفط البورمي والأندونيسي. فذلك المخطط له فائدة لا يستهان بها بالنسبة إلى الآخر: كانت معظم هذه الأراضي تعيش تحت سيطرة البيض. نستطيع إذن عرض هذه الغزوات كحركة تحرر مثلما كانت قد فعلت ألمانيا في تشيكسلوفاكيا وبولونيا ومثلما فعلته الولايات المتحدة في فلوريدا، في كوبا، في باناما وفي هاواي. ويخشى أن يكون تأثير

---

(1) اليوم، على ساحة سان خاسنتو، في سان آنجل، أجمل حي في مكسيكو، نستطيع أن نرى لوحة تذكارية تُحي كتيبة إيرلندية كانت قد حاربت الى جانب المكسيكيين خلال الغزو الأميركي.

(2) كانت تأتي الأسلحة من الاتحاد السوفياتي عن طريق سن ـ كيانغ ومن الولايات المتحدة عن طريق هونغ ـ كونغ وكانتون.

«المحرره أكثر فعالية بكثير في آسيا، لأن اضطهاد الأكثرية الواسعة من قبل أقلية ضئيلة من الغرباء مدّعية التفوق هو حقيقي».

ففي هذه الشروط عقد وزير الخارجية ماتسووكا في شهر نيسان/أفريل من عام 1941 ميثاق حياد مع الاتحاد السوفياتي شبيهاً بالميثاق الجرمانو ـ سوفياتي وفي نفس الطريقة تقاسمت عام 1939 ألمانيا النازية والاتحاد السوفياتي أوروبا الوسطى بواسطة شروط سرّية؛ الميثاق الياباني ـ السوفياتي وضع منغوليا الخارجية في حضن السوفيات ومنشوريا في حضن اليابان، علماً أن هيفر (Heffer) حدد أن:

> الهزائم السوفياتية في وجه الجيش النازي، خلال صيف 1941، كان بإمكانها أن تحث حكام طوكيو بانتهاز الفرصة بالعودة إلى استراتيجية سيبيرية، ولكن السوفيات احتفظوا بالكثير من الجيوش في الشرق الأقصى لكي يكون الخيار محفوظاً. ولم يكن ذلك إلّا عندما تأكد أركان الحرب السوفيات من تخلّي الخصم عن أي هجوم ياباني. حتى يخلي الجبهة السيبيرية لمباشرة المعركة الإنقاذية على أبواب موسكو عند قدوم الشتاء. منذ تموز/جويليه 1941، حقيقةً، أصبح الزحف نحو الجنوب ـ الشرقي الآسيوي أولوياً، على أثر الحصار الواقع للصادرات الأميركية للنفط، الذي سببه بالذات الاحتلال الياباني للهند الصينية الفرنسية. (Heffer)

يعترف العالم كله اليوم بأن اليابان هو الذي كان البادىء بالهجوم. قد نكون عمياً إذا تعذر علينا، ولو لمرة واحدة في حياتنا أن نرى على شاشة السينما أو الشاشة الصغيرة طائرة يابانية وهي تغير بوحشية على مرفأ بيرل هاربر. ولكن ما كان مؤكداً أيضاً أن اليابانيين كانوا مستفزّين من الحصار الذي نفذه مساعد وزير الخارجية دين أتشسون (Dean Acheson). إن معظم المؤرخين يعترفون بذلك. خلال الثلاثينات (1930)، حاول رئيس آتشسون، وزير الخارجية كورديل هال (Cordell Hull)، أن يهدئ الأمور بداية. لقد رأى، وهو على صواب، إن اليابان كان في طريقه للغرق في مستنقع قضاياه الصينية وأن السياسة الأفضل هي مساعدة الصينيين على الصعيد الاقتصادي والمالي دون اظهار عدائية لليابان. بهذه الطريقة، ارتأت الولايات المتحدة تأمين الهدوء، ولو مؤقتاً، للأراضي التي استعمرتها في الهادي، ثم، كما رأينا، فإن هزيمة فرنسا غيرت الوضع كلياً، حيث وجهت اليابانيين نحو الجنوب الشرقي والهادي. تابع هال (Hull) باتفاق مع رئيس أركان الحرب، الجنرال مارشال ـ سياسة

الحياد مع اليابان، بما أن هذا ما كانت عليه الحالة خلال الحرب العالمية الأولى، نقل الصراع الأوروبي اتجاهه نحو الأطلسي.

منذ العام 1934، وتحت ضغط النائب فنسون (Vinson)، سمح الكونغرس بتحديث القوات البحرية، ولكن في إطار معاهدة عام 1922. في المقابل، فضل اليابان أن ينقض معاهدة واشنطن نفسها ومنذ عام 1936، بدأ ببناء بارجة عملاقة من 67000 طن، ياماتو، متفوقة على أي سفينة أخرى في تلك الحقبة. عام 1941، كان الأسطول الياباني قد وصل إلى نفس مستوى الأساطيل المحشودة في الهادي من قبل الولايات المتحدة، بريطانيا العظمى، هولندا وفرنسا، تلك البلدان التي لم يكن لديها بعد وسائل تطبيق «سياسة دبلوماسية المدفع» القديمة في الشرق الأقصى (Miquel).

فقط على أثر الهزيمة الفرنسية، قد أطلق الشمال ـ أميركيون برنامجاً ضخماً لإعادة التسلح الذي لم يكن متوقعاً إنجازه إلّا عام 1943. عليهم إذن كسب الوقت، مما أجبرهم بألّا يظهروا عدائيين كثيراً. في شهر آب/أوت 1940، أعلنت الولايات المتحدة حصاراً رمزياً ضد اليابان، الذي لا يضرب إلّا النفط الذي لديه نسبة الأوكتان أعلى من 86. فهم يعلمون طبعاً أن هذا الوقود ليس ضرورياً لمحركات الطيران الياباني، ثم أثناء الاحتلال الكامل للهند الصينية الفرنسية، في شهر تموز/جويليه عام 1941، وضع دين أتشسون نظاماً لبيع المحروقات حالة بحالة وهو بمثابة حصار في الواقع. فإما أنه كان يفكر بكسب القليل من الوقت أيضاً مع هذا الحصار المتنكر، وإما أنه كان يريد حقاً قطع الامدادات على اليابان. فذلك في كل الأحوال شكّل لليابانيين سبباً للحرب.

يرى جان هفّر (Jean Heffer) بأن اليابان وألمانيا ارتكبتا خطأً استراتيجياً خطيراً بالهجوم أولاً على الديمقراطيات الليبرالية قبل الذهاب للقتال ضد الاتحاد السوفياتي.

> كما الحال بالنسبة إلى النازيين، الشوفينيون اليابانيون يكرهون الليبراليين، فهم مرادفون في نظرهم للجبناء، معدومين من كل شهامة رجولية؛ فهم متأكدون بأنهم سيقاتلون بكل سهولة أو على الأقلّ سيدخلونهم في تجربة طويلة حيث سيفجعونهم فيها وسينتهون بالقبول بكل الاتفاقات. إن تجبّر العقليات الشمولية (توتاليتارية) أدت بهم إلى التقليل من أهمية أعدائهم والذخر المحتوي لدى الأحرار الذين، رغم رفضهم والسعي عفوياً وراء حلول باللجوء إلى

القوة، هم ليسوا أقل استعداداً للدفاع عن حقوقهم، ما إنْ يبدو أن حداً من الحدود قد انتهك.

أرجو بأن يكون قرائي قد أدركوا بأنني لست متفقاً هنا مع هفر، علماً أنه ساعدني كثيراً في تحقيق هذه الدراسة. هذا الكلام يمثل وجهة نظر رجل مخلص ولكنه ينتمي إلى العالم «الحقيقي»، هذا العالم الذي يسميه البعض من بلادي «العالم الأول»، أنا الذي اخترت بملء إرادتي أن أنظر إلى الأمور من ضاحية العالم التعيس، أرى الأمور بطريقة جد مختلفة. صحيح أن البلاد ذات الأنظمة الشمولية (توتاليتارية) متجبرة وعنيفة. ولكن في بلاد الأحرار لا يتصرفون بغير ذلك. إن «المذخر المعنوي» و «تصميم الأحرار» يمكن أن يؤديا إلى سلوكيات قليلة اللباقة إلى حد ما عندما تتعلق بإبادة وسحق المتوحشين، أو عندما يجب تربيتهم لكي يتعلموا كيفية الشراء جيداً. لا إنكلترا ولا فرنسا ولا هولندا بنت كل منها أمبراطوريتها بتوزيع «السكاكر» (Bonbons) ولكن بالقذائف[1]. بعد ذلك، جاءت الولايات المتحدة مع هدية أروع بكثير أيضاً، الحرية، بالتشديد على الحاء، هذا الاختراع الرائع لأكبر ديموقراطية استعبادية.

قبل القرن الثامن عشر، ما كان ليدّعي أحد السيطرة على العالم لجعله حرّاً كلياً. الولايات المتحدة، هذا الخليط الغريب (Melting-pot) من التعصب والاستعباد وفكر الأنوار، استطاعت صوغ هذه الفكرة الغريبة العجيبة. ثم، في فجر القرن التاسع عشر، كان نابليون الناسخ السارق الأول للاختراع الأميركي الفذ. وجاء الآخرون فيما بعد ليقوموا بقرصنة حقوق النشر، إلى درجة، أنه في القرن العشرين، أصبحت الحرية سلعة عادية إلى حد ما. وهكذا وجدنا أن ألمانيا النازية واليابان الأمبراطوري لم يجدا أفضل من العمل سوى بأن يضعوا هم أيضاً أنفسهم في موضع الإتيان للعالم بنسختهم للحرية. كان المحرك الأساسي للنازيين الألمان هو تحرير بلدهم من معاهدة فرساي المذلة. ثم كان عليهم التمسك بتحرير ألمان تشيكسلوفاكيا وبولونيا، وأخيراً عزموا على فرض استنهاض حرية جميع جرمانيي أوروبا بالإلحاح في الضجيج. ما إن

---

(1) بالنسبة للقصف الإنساني ـ المضجر على أفغانستان، أورد المهرجون حالة أحد الأفغان الذي لم يميز بين أسطوانة صفراء وصغيرة وحصة غذائية انفجرت في وجهه فقال: «إنها تقلع، قد تكون من «التكس ـ مكس».

وُطدت سيطرتهم جيداً، كان عليهم أيضاً تحرير سجناء معسكرات الاعتقال بالعمل أو بالموت.

بإخلاص ومع كل احترام متوجب عليّ لهذا المؤرخ الكبير، أرى في تلك الجملة نوعاً من تبرئة للذمة تعطيها الديمقراطيات الغربية لنفسها. أرى فيها بشكل مضمر السؤال «لماذا يهجمون علينا وليس على المتوحشين السوفيات؟».

الخطيئة الأساسية للنازيين كانت في الهجوم على بيض غربيين والقيام أيضاً بأسوأ مما كان قد حصل للهنود الحمر والزنوج. لا أعلم إن كانت خطيئة اليابانيين أفظع أيضاً: كان للألمان أسباب مخففة كونهم بيضاً، ولكن أن يتجرأ صفر البشرة مهاجمة دولة من الاتحاد الأميركي بشكل مباشر، فذلك يتخطى حدود التصور. لم يكونوا صفراً عاديين يلزمون زاويتهم هادئين، ولكن صفراً يتبنّون المثل العليا لأمبراطورية الحرية.

ولكن حدود ما هو مناسب أُجتيزت عندما بدأ اليابانيون ـ القرود الصفر (yellow monkies) كما كانوا يسمونهم في الأخبار الأميركية في تلك الحقبة ـ بالإعلان عن أنهم سيحررون الشعوب الأسيوية ليس منهم بالذات، كما كان في نية ديموقراطيات الليبرالية، ولكن سيحررونهم من ضغط هذه الديمقراطيات الغربية نفسها. عندما دخل اليابانيون إلى بورما، كانوا برفقة أونغ سان، بطل مقاومة المحتل الانكليزي الكبير، أب جائزة نوبل للسلام سنة 1991. عندما احتلّ اليابان الفلبين عاد اميليو أغينالدو، بطل الاستقلال المهزوم من الولايات المتحدة، إلى الساحة ليكون إلى جانب الحكومة اليابانية. كان عليه أن يفكّر، تماماً كما أونغ سان، بأن الحرية التي أهداها اليابانيون للآسيويين لا يمكن أن تكون أكثر قذارة من الحرية الشاقة لشراة بلده.

قبل بيرل هاربر، بدأ اليابانيون حقيقة بترتيب الحكومات تلك التي كان عليها تحرير شعوب آسيا. هكذا، في بداية عام 1940، ألّفوا في نانكان (Nankin) حكومة بإدارة جندي فار من كيومينتانغ (Kuomintang)، وانغ جينغواي، الذي كان عليه أن ينضم اليهم في «نضالهم ضد الاشتراكية». إن النضال ضد الاشتراكية ـ الذي أصبح وصفه فيما بعد ـ هو أيضاً أحد تلك المواضيع الانسانية ـ الامبريالية التي قام اليابانيون بقرصنتها من منافسيهم البيض.

عقائدي قومي (شوڤيني)، إيكي كيتا (Ikki Kita) أكدّ:

الدولة لها الحق في أن تحارب الأمم التي تملك أراضي شاسعة بصورة مفرطة أو مدارة بطريقة غير إنسانية.

ليس ذلك، في النهاية، سوى طريقة أقل فظاظة وأكثر إنسانية بالتعبير عما كان كتبه تيدي روزفلت قبيل بضع سنوات:

يمكن لعرق عظيم ومنتج أن يستولي بعدة طرق على أراضٍ شاسعة في مناطق أقل كثافة سكانياً.

إلّا أنه يمكن السماح بكل شيء باسم العظمة والحرية. يمكن الحلم بتحرير الهند من السيطرة الإنكليزية والقيام بإنزال في أستراليا لأجل القضية المحقة. إن هزيمة فرنسا النكراء في وجه بليتز الألماني سمحت لليابانيين بتحرير شعب الهند الصينية بدون جهد تقريباً. قبل خمسين سنة من إعلان «النظام العالمي الجديد» من قبل الرئيس جورج بوش الأول، أعلنت الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس «النظام الجديد في آسيا الشرقية» (Miquel).

بعد مهاجمة پيرل هاربر ـ وبالرغم من أن هيتلر خرق، باسم التضامن، قاعدته القائلة بعدم إعلان الحرب معلناً إياها على الولايات المتحدة ـ كان اليابان خير من يعرف بأنه لا يستطيع الأخذ بالاعتبار الدعم الألماني في الهادي. بعد الحرب الكبرى، كانت ألمانيا قد جُردت بالفعل من ممتلكاتها في هذا الجزء من العالم (بشكل أساسي من اليابان، فعلياً) ولم يعد لديها أيّ شيء تقوم به هناك. إذن على اليابان أن يستمر في استعمال خطابه الإنساني والتحرري. وعليه طبعاً أن يسهب فيه. هكذا، سُمح لقومي هندي، شاندرا بوز (Chandra Bose)، بتأليف حكومة الهند الحرة وبناء جيش صغير من بين السجناء الهنود لدى الجيش البريطاني. البعض حارب في بورما، والبعض الآخر ذهب إلى أوروبا للقتال في القوات الخاصة الألمانية.

فيما بعد، وخاصة عقب صد الهجوم الياباني بمعركة ميدواي (Midway) (4 حزيران/ جوان 1942)، تكشف هذا الهجوم الأخوي بعد أن استغل الشعوب المتحررة، كأي قوة استعمارية عادية (إنها الخسائر المتفرعة عن المجهود الحربي)، حرك اليابان فكرة تضامن عميق في قلب «دائرة من الازدهار المشترك في آسيا الشرقية». الجار الياباني الطيب (كي نستعمل مصطلحاً عزيزاً على فرانكلن ديلانو

روزفلت)، قرر أن يعمل بتفاهم تام مع جيرانه الطيبين. في تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1943، انتهى مؤتمر آسيا الشرقية الكبرى بإعلان ذي نبرة عمومية:

> إن بلدان المنطقة يتعاونون لتأمين الاستقرار فيها وبناء نظام مرتكز على مبادىء التعايش والازدهار المشترك؛ سيحترمون حكمهم الذاتي المتبادل وسيبنون علاقات ودية فيما بينهم، كما مع الأمم الأخرى تماماً، تبعاً لعقلية تقدم، ورفض التميز العنصري والنفاذ إلى الموارد الطبيعية. (Heffer)

إن عينيّ تذرفان الدموع، فجارنا الطيب العزيز فرانكلن لن ينجح أن يفعل أفضل عندما وقع مع ونستون تشرشل ميثاق الأطلسي. ولكن اليابان، قام بما هو أفضل من ذلك. عندما رأى اقتراب الهزيمة، أصبح بشكل مؤقت على الأقل، أمبراطورية للحرية الحقيقية، وليس مثل تلك، الوهمية، التي كان يحلم بها جيفرسون. قبل الانقلاب، حوالي العام 1943، منح الاستقلال للفليبين، لبورما ولسيام. استقلال مؤطراً، طبعاً، بقواعد صارمة جداً، شبيهة، مرة أخرى أيضاً، بتعديل بلات المفروض من الولايات المتحدة على كوبا بعد أن منحوها الحرية. في 9 آذار/مارس 1945، سرّح اليابانيّون الإدارة الڤيشية في الهند الصينية، وفي الأيام التالية، وبإلحاح المستشارين اليابانيين، أمبراطور أنّام (Annam)، باو داي (Bao Dai)، وملك كمبوديا، نورودوم سيهانوك (Norodom sihanouk)، وملك لاووس، سيزا فانغ فونغي (sisavang vongi)، ونقضوا معاهدات الانتداب الفرنسي وأعلنوا الاستقلال. شعر اليابان عندئذٍ بأنه لم يخسر الحرب كلياً وأنه يستطيع تحمل دور المتراس الأخير في وجه البربرية الغربية (Cesari, Heffer).

نحن نعلم اليوم بأن اليابان فشل كلياً في هذه النقطة: لقد ثارت البربرية الغربية بوحشية لم يشهد لها مثيل قط. على مدى التاريخ، حصلت أمور كثيرة غير مستحبّة للنظر اليها. ولكن أن يتبخر مئات الألوف من الأشخاص في عدة ثوانٍ تطبيقاً لتجربة علمية، ثم يعاود الكرة بعيد ذلك بثلاثة أيام تمكيناً لإجراء مقارنة بين النتائج، فذلك رقم قياسي سجلته للولايات المتحدة الأميركية بدون منازع.

إلّا أنه في إحدى صدف الأقدار السعيدة أنقذ الرئيس فرانكلن روزفلت من المحاكمة في اللحظة الأخيرة: في 13 نيسان/أفريل 1945، مات بعد إصابة دماغية

أثناء إحدى جلساته لأخذ رسم له. وكحمل (أو تيس) يحمل كل خطايا العالم، أخذ الرئيس هاري س. ترومان على عاتقه مسؤولية الجريمة ضد الإنسانية التي ارتكبت. هذا إن بقي لتعبيري جريمة حرب أو جريمة ضد الإنسانية. معنىً أيضاً:

التأقلم مع الظروف:

تقرير لجنة التصويب: كي يُسمح لنا بتحديد آثار القنبلة بدقة يجب ألا تكون الأهداف قد تضررت بغارات جوية. ومن المرغوب به أيضاً أن يكون الهدف الأول بحجم يمكن للأضرار أن تبقى محصورة في محيطها حتى نستطيع تحديد قوة القنبلة بدقة أكثر. [...] إن هيروشيما هي أكبر هدف ما زال متروكاً جانباً فهو غير موجود في لائحة أولويات قيادة القصف الجوي رقم: 21. لنأخذ بعين الاعتبار هذه المدينة. [...] تبقى طوكيو احتمالاً، ولكنها دمّرت واحترقت كلياً تقريباً، وهي ليست سوى ركام من الدمار حيث لم يُوفر إلا القصر. إن هذا ليس سوى احتمال. (Rhodes)

يوميات الفيزيائي ليو زيلار (Leo Szilar) في خصوص وزير الخارجية برنز (Byrnes):

لقد قال بأنه كان قد أنفق مليارين من الدولارات لبناء القنبلة وبأن الكونغرس أراد أن يعرف ماذا فعلنا بهذا المبلغ. (Rhodes)

ستمسون (Stimson)، وزير الحرب (الدفاع):

إن هوسي هو حصر قوتنا الجوية، قدر المستطاع، للقصف «المركز»، الذي كان قد نجح في أوروبا. قيل لي بأن هذا محتمل وصحيح. إن شهرة لعبة الفكرة الإنسانية الصريحة هي أكبر ورقة تلعبها الولايات المتحدة في العالم في العقود القادمة. لديّ اعتقاد بأن مبدأ تحييد السكان المدنيين نفسه يجب أن يطبّق، قدر المستطاع، في استخدام الأسلحة الجديدة. (Rhodes)

ويروي السير ونستون تشرشل، في كتابه **تاريخ الحرب العالمية الثانية** ما يلي:

إن تحاشي مجزرة كبيرة لامتناهية، وإنهاء الحرب، ونشر السلام في العالم من جديد وإنقاذ الشعوب المعذبة من خلال إطلاق العنان للقوة بلا حدود ولو

كان ثمن ذلك بعض الانفجارات، هذا كله بدا لنا، بعد كل الصعوبات والأخطار التي تعرضنا لها، خلاصاً عجائبياً. (Rhodes)

بعض الانفجارات:

في السادس من آب/أوت 1945، ومن على متن طائرة تحمل إسم أمّه، ألقى الكولونيل تيبّتس، ألقى الفتى الصغير (Petit Garçon)، وهي قنبلة مصنوعة باليورانيوم 235. قوة التدمير المعاينة بلغت 12,5 كيلوطناً. الأضرار الجانبية 000 140 قتيل في نهاية 1945 وفي السنوات الخمس التي تلت 000 60 قتيل إضافي في قصف بالموت البطيء. الفعّالية: 54%. صدم الجنرال مارشال في البدء وفوجىء كيف أن اليابان لم يستسلم على الفور. بعيد عدة سنوات وخشية فقدان دولارات جائزة نوبل للسلام التي فتحت له، راح يقدم التفسير التالي:

إن ما لم نحسب حسابه هو أن الدمار الذي وقع كان كبيراً جداً، إلى درجة أن الوقائع المتأتية لم يكن ممكناً نقلها بسرعة إلى طوكيو. إن دمار هيروشيما كان على درجة من الشمول بحيث بقيت مقطوعة عن العالم على الأقل خلال يوم وأعتقد ربما أكثر. (Rhodes)

في 9 آب/أوت من عام 1945، سقطت على نغازاكي قنبلة «الرجل الضخم» (Gros Bonhomme) قنبلة انبجاسية مصنوعة من البلوتونيوم 239. القوة المعاينة: 22 كيلوطناً. كان التصويب صعباً: التلال المجاورة خفّفت من امتداد الأضرار الجانبية: 000 70 قتيل في نهاية العام 1945، إضافة إلى 000 70 قضوا بالموت البطيء خلال السنوات الخمس التالية. الفعالية: 54%.

يقول مازوجي ايبوز (Masuje Ibuse) في «مطر أسود»:

كما في حلم اليقظة، «صلاة لراحة الموتى الألمان» مازلت أستطيع بذهن ثاقب، رؤية ألسنة النار تفلح أجساد البشر.

تعليقاتي التهكمية: نهاية «صلاة لراحة الموتى الألمان» (Deutsches Requiem)، قصة خورخي لويس بورغيز حيث نرى أن مجرماً نازياً، عشية إعدامه، فهم دعوة بلاده الحقيقية:

كان العالم يحتضر بسبب اليهودية وبسبب مرض اليهودية ذاك المتمثل بعقيدة

المسيح، علّمناه العنف الذي هو عقيدة السيف. هذا السيف قتلنا ويصح تشبيهنا بسحرة ينسجون دهليزاً ويرون أنفسهم مجبرين على سلوكه تائهين فيه حتى نهاية حياتهم أو كداود الملك الذي يحكم على مجهول ويلفظ بعد ذلك اسم المتهم: أنت هو ذلك الرجل. يجب تدمير أشياء كثيرة لبناء نظام جديد؛ نعلم الآن بأن ألمانيا كانت أحد تلك الأشياء. لقد أعطينا ما هو أهم من حياتنا، لقد قدمنا مستقبل بلدنا العزيز. سواء ألعنه البعض أم بكاه بعض آخر؛ يرضيني بأن تكون هبتنا معممة على العالم وناجزة.

وترف حالياً على العالم حقبة قاسية. كانت من صنعنا نحن، الذين صرنا ضحيتها فيما بعد. ما هم إن كانت إنكلترا هي المطرقة ونحن السندان؟ المهم هو أن يحكم العنف، وليس الخجل المسيحي الوضيع. إن كان العنف، والظلم والسعادة ليسوا من حق ألمانيا، فلتكن لأمم أخرى. ولتكن هناك جنّة، حتى لو كانت جهنم مكاننا.

أتأمل وجهي في المرآة لأعرف من أكون، لأعرف كيف سأتصرف بعد بضع ساعات، عندما سأواجه مصيري، ربما لحمي سيخاف وليس أنا.

أوراسيا للسوفيات: أمبراطورية المساواة (1945 ـ 1989)

في 9 آب/أوت 1945، بعد إعلان الحرب على اليابان، اجتاحت الجيوش السوفياتية في ڤاسيليڤسكي (Vassilievski) مانشوكوو (Mandchoukouo). وخلال أسابيع سابقة، تحركت الحكومة اليابانية بغباوة. يجب أن نعرف ذلك، لكي تحصل على الوساطة السوفياتية بهدف توقيع استسلام مشرف للحلفاء المحاربين في الهادي. كان الروس يستمعون دائماً بصبر للسفير الياباني في موسكو، ولكنهم لم يفعلوا أبداً شيئاً آخر سوى نقل الرسائل.

من جهتهم، ضغط الحلفاء، ولعدة مرات ـ خاصة أثناء مؤتمر يالطا (4 ـ 11 شباط/فيڤري 1945) على السوفيات للانضمام إليهم في نضالهم ضد اليابان. ولكن كان مطلب الروس الاحتكام دائماً إلى معاهدة «عدم الاعتداء» الموقعة في عام 1941.

بعد تجربة قنبلة البلوتونيوم الأولى، في 16 تموز/جويليه 1945، انقلب الوضع

ولم يعد الحلفاء وخاصة الولايات المتحدة، يريدون المساعدة الروسية لأنها تستطيع أن تزعج مشروعهم في استملاك الهادي الشمالي وتحويل آسيا الشرقية ساحة خلفية لأمبراطوريتهم.

> لا الرئيس ولا أنا، أكد وزير الخارجية بيرنز (Byrnes)، عدنا نحلم البتة برؤيتهم يدخلون الحرب بعد أن أخذنا علماً بنجاح التجربة. (Rhodes)

الروس ليسوا أغبياء، لقد قاموا بالعكس تماماً. بما أن الولايات المتحدة لم تعد تريد أن يدخلوا في حرب مع اليابان، فسيدخلون. الثمرة ناضجة جداً، وليس عليهم سوى قطفها: القنابل الذرية جلبت لهم أشلاء الأمبراطورية اليابانية عملياً بلا ثمن. فاستملكوا جزر كوريل والجزء الناقص من جزيرة ساخالين، واستعادوا تخليهم عن استئجار بورت ـ آثور، ورتبوا مراقبتهم الاقتصادية على مانشكوو التي عادت مجدداً منشوريا الصينية. هذا ومن جهة أخرى فقد اعتبر المؤرخون السوفيات دائماً أن تدخل بلادهم هو الوحيد الذي أجبر اليابان على الاستسلام (Laran).

ولكن هذا ليس كل شيء. من دون حرب، وقعت الصين بأكملها (باستثناء تايوان) في دائرة النفوذ السوفياتي. لقد عرف الاتحاد السوفياتي كيف يناور بمهارة بين الكومينتانغ والحزب الشيوعي الصيني، خلال الحرب وبعدها، ليكسب هذا البلد الشاسع إلى قضيته. إن تبعية الصين كانت خاصة جداً، على الأقل حتى عام 1955. ففي هذه الحقبة أعلن الرئيس ماو:

> في الوقت الحالي، الأغلبية العظمى من الإنسانية تعيش في العذاب، وفقط الطريق التي يشير اليها ستالين، فقط مساعدة ستالين، تستطيع تحرير الإنسانية من أوجاعها. (Domench et Richer).

قد يخال لنا إننا نستمع إلى طوني بلير وهو يتحدث عن الرئيس كليتون.

في الغرب يبدو، كل شيء جديداً: واحدة تلو الواحدة (وبصورة شرعية، باستثناء تشيكسلوفاكيا تقريباً، ربما)، الأمم الواقعة في منطقة النفوذ السوفياتي المحدّدة في يالطا وقعت هي أيضاً كثمرات ناضجة في حضن الأم روسيا. وجدت روسيا عندئذ على رأس دائرة نفوذ تنطلق من برلين إلى شنغهاي والتي كانت واسعة تقريباً كمنطقة نفوذ الولايات المتحدة، ولكنها مأهولة بالسكان أكثر بكثير. وإذا ما صدقنا كلمة

ماكندر (Mackinder) الجامعة على لسان البروفسور بريجنسكي («من يحكم أوروبا من الشرق يسيطر على قلب الأرض (Heart land)؛ ومن يحكم قلب الأرض يسيطر على جزيرة العالم؛ ومن يحكم جزيرة العالم يسيطر على العالم»)، فالاتحاد السوڤياتي هو من كان يجب أن يربح الحرب التي بدأت بالتحديد بعد الحرب العالمية الثانية، تلك الحرب التي أحب الرئيس السابق نيكسون أن يسميها «حرب حقيقية» أو «الحرب العالمية الثالثة»[1]، في الثمانينات.

ولكن ما هو ملفت للانتباه، من وجهة نظر هذه الدراسة، هي السيطرة الكاملة والتحدي الذي أظهره الاتحاد السوڤياتي بكل ما يتعلق بتوسعه. كما الولايات المتحدة تماماً، لم ينطلق في سباق جامح لكي يستحوذ بأسرع وقت على الحد الأقصى من الأراضي. لقد مارس الانتظار الصبور الذي مدحه جيفرسون وهو يعلن بأن قدره الجلي هو جلب العدالة الاجتماعية في العالم. المساواة، سلاح مخيف كالحرية.

تظهر لنا الوقائع إذن بأن الإمبريالية السوڤياتية («الإمبريالية ـ الاجتماعية») كما سمّاها الصينيون فيما بعد كانت أفضل مقلد للإمبريالية السخية الأميركية، وهو الذي صمد لوقت أطول.

لقد قام نابليون بتجربة مشرفة إلى حد ما، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه كان قد هاجم بمفرده إخوانه الأوروبيين الشرسين. المشكلة الوحيدة هي أنه لا أحد، حتى هو بذاته، حتى آبل غرانس (Abel Grance) (حيث أن الفيلم الهاذي «نابليون» ساعده بداية على تفتيح عينيّ على فظاعة مشروعه) يبلغ تخريفاته في خصوص الجمهورية الكونية.

الجمهورية الفرنسية الثالثة، أرادت هي أيضاً أن تشارك في المسابقة، وفي نهاية القرن التاسع عشر تقريباً، ذهبت تزرع الحرية، المساواة، والأخوة في العالم بواسطة

---

(1) سمحت لنفسي بأن أترجم جزءاً صغيراً مستخرجاً من «*The real war*» «الحرب الحقيقية» (The Third World War has Begun): «الحرب العالمية الثالثة بدأت قبل نهاية الحرب العالمية الثانية». كانت جيوش الحلفاء وما زالت تحارب في أوروبا لإبادة النازيين عندما حدد ستالين نظرة على أهدافه ما بعد الحرب. في شهر نيسان/أفريل 1945، بينما كانت الجيوش الشمالي-أميركية تتآخى مع الجيوش الروسية على ضفاف نهر الإلب (Elbe)، في ألمانيا، صاغ ستالين معادلته للعالم المقسم ما بعد الحرب. قال: «هذه الحرب ليست كما سابقاتها، فالذي يحتل أرضاً يفرض نظامه الاجتماعي الخاص به في نفس الوقت. الجميع يفرض نظامهم الاجتماعي الخاص بهم إلى حيث تنجح جيوشهم في الوصول، ولا يمكن أن يكون غير ذلك».

منافعها. ولكن هذا الزرع لم يكن مناسباً جداً: إن نشر هذه الأغراض الثلاثة في الوقت ذاته هو مهمة شاقة جداً لبلد صغير كفرنسا. وجدت الولايات المتحدة، التي كانت قد وصلت إلى حجمها العملاق وحيث أن في تلك الحقبة عدد سكانها كان قد أصبح يقارن بعدد سكان فرنسا، وجدت أن نشر الحرية كان مهمة شاقة بالنسبة إليها. لقد تكشّف أن حملات الجمهوريين إذن وبسرعة كانت مشاريع (فتوحات) استعمارية دنيئة على الطريقة القديمة، أي الإنكليزية، ربما أقل نبلاً ولكنها مربحة على أي حال، ليبرالية.

وأخيراً كنا قد شاهدنا الخسارات المدوية لطوكيو وبرلين. فهي لم تكن أكثر نهماً من واشنطن، لكنها كانت جد متسرعة وشديدة الهذيان. في المقابل، أثبت الاتحاد السوفياتي، ألمع تلميذ لأمبراطورية الحرية، حكمة مميزة. ولكن عندما مدّ ذراعه الواقية كان سيجد بشكل قاطع ذراع الولايات المتحدة. كل شيء إذن وضع في مكانه من أجل أن يحصل الكباش الشهير بين مُحسنَيْ الإنسانية الاثنين الكبيرين. ستواجه أمبراطورية الحرية أمبراطورية المساواة. فأمكن إذن للحرب الباردة أن تبدأ.

الفصل الثاني

العالم لا يكفي

«إنها خطوة صغيرة للإنسان، ولكن خطوة كبيرة للإنسانية».
نيل آرمسترونغ يطأ سطح القمر.

1 ـ بداية اللعبة

كل ما سأقوله لك سرّي جداً، سرّ دفاع قومي. لقد كنت جندياً، سيد غارّيسون، في حربين اثنتين. كنت أحد رجالات الظل في البنتاغون (وزارة الدفاع) الذين يورّدون المعدات العسكرية ـ طائرات وذخائر وبنادق ـ لما نسميه بالعمليات السرّية (black ops). اغتيالات، انقلابات، انتخابات مزورة، بروباغندا، حرب نفسية. الحرب العالمية الثانية: كنت في رومانيا، اليونان، يوغسلافيا. ولقد ساعدت في إجلاء جزء من جهاز المخابرات النازية قبل نهاية الحرب. ثم استعنا به ضد الشيوعيين. وفي إيطاليا عام 48: انتخابات مزورة. فرنسا 49: الإضرابات. الإطاحة بكويرينو (Quirino) في الفليبين، بأربنز (Arbenz) في غواتيمالا، بمصدّق في إيران. وكنا في ڤيتنام سنة 54، في إندونيسيا سنة 58، في التيبت سنة 59. وأخرجنا الدلاي لاما. كنا طيّبين جداً.

دونالد سادرلاند في فيلم جون فتجرالد كندي (JFK). لأوليفر ستون.

رقعة الشطرنج الإقطاعية

لقد ذكرت في مرات عديدة البروفسور بريجنسكي، مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر، وأنا متمسك هنا بأن أشكره بحرارة لأنه كان منبعاً أساسياً في الفكر والإلهام. فقد سهّل مهمتي بشكل كبير جداً، ببحث تعابير من المفردات الإقطاعية التي كانت مفيدة جداً في سنوات الستينات والسبعينات من القرن السابق، ولكن التي كانت قد أصبحت بالية وحتى ممنوعة بعد تحوّل واهتداء رجال اليسار إلى النظام العالمي الجديد. تعابير مثل «خادم الإمبريالية اليانكية» المتداولة جداً منذ أربعين سنة، كان لا يمكن استعمالها أبداً، حتى أتى عزيزنا زْبِي (zbi) لنجدتنا وجلب لنا كمكافأة التشبيه الأنيق للعبة الشطرنج:

> لقول ذلك دون مواربة، تبقى أوروبا الغربية إلى حد كبير محمية [شمال] أميركية وتذكرنا دولها بما كان عليه سابقاً إقطاعيو ورعايا الأمبراطوريات القديمة. (بريجنسكي)

يستعمل بروفسورنا العزيز الصورة، الاستعارة ليفهمنا الرهانات السياسية في نهاية القرن العشرين:

> في المصطلحات النافرة لأمبراطوريات الماضي، قد تتلخص الضرورات الثلاث الجيوستراتيجية الكبيرة بالشكل الآتي: تجنب الاصطدامات فيما بين الإقطاعات التابعة وإبقاؤها في حالة خضوع لاعتبارات أمنها؛ الاهتمام بخضوع الرعايا المحميين؛ ومنع البرابرة من إقامة تحالفات عدوانية[1].

لنرَ الآن كيف يرى استتباب اللعبة:

> «اللعبة» تجري على رقعة غير مستوية وكبيرة جداً، تمتد من لشبونة إلى فلاديفوستوك. وإذا كانت المساحة المركزية يمكن أن تُجتلب نحو فلك الغرب

(1) في «El Espejo Enterrado» (مكسيكو، فوبلار توروس، 1992)، أورد كارلوس فوينتيس نصائح الأب ملك أسبانيا الجديدة Revillagigedo الموجهة لخلفه عام 1794: «لا يجب أن تحجب عن النظر أن هذه، هي مستعمرة عليها أن تخضع لرحمها الأم، إسبانيا، وأن عليها أن تقدم لها بعض الأرباح مقابل الحماية العطوف التي تتلقاها؛ ولهذا فإنه من الضروري استخدام أكبر حكمة ممكنة لموازنة هذه التبعية وإقامة مصلحة مشتركة ومتبادلة».

(حيث تلعب الولايات المتحدة دوراً نافذاً)، وإذا لم يكن الجنوب خاضعاً لسيطرة لاعب دون غيره وإذا لم يحقق الشرق وحدته بحيث تجد أميركا [الشمالية] نفسها مطرودة من قواعدها البحرية (في الجزر)، هذه الأخيرة ستحافظ على موقعها النافذ.

ولكن لنترو قليلاً. يصف هنا زبي (Zbi) اللعبة التي جرت في حقبة الحروب اليوغوسلافية لحلف الشمال الأطلسي، والجوهرية في استراتيجية اجتذاب «المساحة المركزية» (أوروبا الشرقية) في «فلك الغرب». عدا عن ذلك، فقط أخطأ البروفسور بسبب مصطلحاته اللغوية، لأن هذه اللعبة هي أقرب إلى لعبة الـ «go» منها إلى الشطرنج. ولكن لنعد هنا إلى حيث كنا قد توقفنا: أول مواجهة بين أكبر أمبراطوريتين بشريتين، إلى لعبة الشطرنج الكبرى الحقيقية؛ لنعد إلى الحرب الباردة.

وقبل أي شيء، وللبدء باللعبة، سيعيّن حَكَم، منظمة الأمم المتحدة، التي ثبت بعد فترة قليلة من البداية بأنها منحازة بعض الشيء، ولكن، لعدم وجود ما هو أفضل ستترك حتى النهاية.

بادىء ذي بدء، ثبّتت المواقع. في أوروبا، حُدد في يالطا خط للإشارة إلى نقطة انطلاق المعسكرين. في آسيا منشوريا ومنغوليا الخارجية كانتا بمثابة حدود المجال السوفياتي، واليابان حدود المجال الشمال أميركي. وقامت الولايات المتحدة (البيض) بالخطوة الأولى. الشروع بخطة مارشال لوضع أبراجها وأحصنتها الأوروبية في موقع جيّد. وتستطيع الاعتماد على المساندة الفائقة الثمن، لملكتهم الوفية، انكلترا. فيقوم السوفيات (السود) بهجوم معاكس من خلال تضييق السيطرة على أحجارهم وبخردقة الفيل الأبيض المتقدم: ففي الثالث والعشرين من حزيران/جوان 1948، شرعوا بإقامة حصار برلين الغربية. وفي الوقت ذاته، على الجبهة الشرقية، دعم السود بطريقة خفية بيدقهم ماو الذي وصل في العام 1949، إلى آخر الرقعة وتحوّل إلى «وزير» إحدى الحجرات الرئيسية للاتحاد السوفياتي خلال عدد لا بأس به من السنوات. وفي الرابع من نيسان/أفريل 1949، رتّخ البيض بإنشاء نظام صلب كان في الأصل دفاعياً: حلف شمال الأطلسي. فيما بعد، في العام 1954، أنشئت منظمة مشابهة في الهادي، منظمة معاهدة جنوب ـ شرق آسيا (OTASE). وبعد توقيع اتفاقات باريس (1954) التي تسمح بدخول جمهورية ألمانيا الفدرالية إلى حلف شمال الأطلسي

رخّخ(*) السود بدورهم فأنشأوا في 14 أيار/ماي 1955، معاهدة الدفاع المشترك، معاهدة وارسو.

باختصار، لم تكن لعبة الحرب الباردة قليلة الفائدة، حتى أنها أصبحت مشوّقة. ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار أمرين. في البداية، يجب الانتباه أن عبارة الحرب الباردة هي ثورية ضخمة أكثر منها تناقض لغوي، ونحن متأكدون بأنه في هذه النقطة لن يُخالف الرأي لا الكوريون ولا الفيتناميون ولا الكوبيون ولا الخليط المكوّن من التشيليين، الأفغان، الليبيين، المصريين، الإيرانيين، الفلسطينيين، الكمبوديين، اللاوسيين، الغواتيماليين، النيكاراغويين، الخ... الخ. ورمز الحرب الباردة بامتياز، النابالم الذي ألقي على الفيتناميين، كان له وقعٌ حار جداً والذي حتى وإن أحبه بعضهم حاراً، لا يمكن أن يكون مستحباً بهذا القدر. إلّا أنني أعتقد أن العبارات «الحرب الحقيقية» و «الحرب العالمية الثالثة» والعزيزة على تريكي ديكي نيكسون مبالغ بها بعض الشيء، فيجب علينا إذن الاحتفاظ بالعبارة القديمة الجيّدة «الحرب الباردة»، والتي بعد كل شيء ليست تافهة إلى هذا الحد.

وعلينا بعدها معرفة أن معسكر «السود» المتهم لعدة مرات بارتكابه بعض الأعمال غير اللائقة، لم يكن وحده الذي يتصرف على هذا النحو، فالولايات المتحدة وحلفاؤها ارتكبوا هم أيضاً فظاعات[1] لا تحصى في قطاعاتهم الخاصة. وهذه الملاحظة الأخيرة التي كان ممكناً أن تكون حقيقة جلية عملاقة منذ ثلاثين عاماً، والتي قد تصدم اليوم أكثر من مدافع عن الليبيرالو-إنسانوية. ولإنعاش ذاكرتنا، سنذكر بعض الأمثلة السريعة.

ولكن بما أننا لا نريد التدخل بالشؤون الداخلية لن نقوم في طريقنا، إلّا بإظهار التعديات العديدة التي تمّت داخل بلد الحرية نفسه، وخاصة بحق مجتمع السود في حين كان التمييز العنصري يعمل على أكمل وجه خلال أعوام الستينات. هذه الأحداث معروفة جداً لدرجة أن لدى البعض ميلاً إلى نسيانها في أيامنا هذه.

أما حالة الأميركيين الحقيقيين (الأميركيين الأصليين كما يسمون هناك) فهي معروفة بشكل أقل بقليل. لقد رأينا من قبل كيف فتتت الأسس الاجتماعية الأصلية وكيف لم

(*) رخخ: نقل الحجر إلى خانة الرخ في لعبة الشطرنج.

(1) هذه الفظاعات التي كان يسميها روبرت ماكنمارا «أخطاء».

يرض الرئيس ويلسون أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم. ولكن حلفاءه كانوا أقل قسوة وتركوهم نوعاً ما هادئي البال خلال سنوات 1920 ـ 1940. فلنترك الكلام لآنجي ديبو:

> شكلت سنوات الخمسينات مناسبة لهجوم رهيب ضد الهنود وأراضيهم، هجوم بالترهيب نفسه الذي شهدناه خلال السنوات التي لحقت قوانين النفي عام 1830، وقوانين تصفية القبائل وذخائرها، بين سنوات 1887 و1898. وكانت هناك الإشارات المبشّرة. فهكذا، خلال الحرب العالمية الثانية، أدى نمو الزراعة ببعضهم للتحقيق برغبة في اتجاه الأراضي الهندية، في حقبة كان نظر الحاكمين والرأي العام متجهاً نحو طريق آخر.

وادعت مؤسسات خيرية (في يومنا يمكننا تسميتها بالإنسانية) وبعض السياسيين المناهضين للعبودية عندها بأن من الضروري تحري السكان الأصليين بشكل تام من وضعهم القانوني الخاص. وقاموا بضغوطات للعودة إلى سياسة خصخصة أراضيهم. وفي أيار/ماي 1950 عيّن الرئيس ترومان ديلون س. ماير مفوضاً للشؤون الهندية. بعد أن كان مكلفاً بتنظيم معسكرات حجر الأميركيين من أصل ياباني، تسلم ماير خلال سنتين قصيرتين الشؤون الهندية، ولكن خلفاءه تابعوا سياسة الإزالة الخاصة به طيلة سنوات الخمسينات.

واليوم، بفضل جايمس كاميرون وفيلميه Terminator 1 و2، يمكن لنا معرفة ما تعنيه هذه الكلمة. ومفادها تصفية المؤسسات الأصلية (الاجتماعية) التي لم تكن قد دمرت بعد عبر سياسة تجزئة الأراضي. وتقدم الديموقراطيون بفكرة «رفع كل المحرّمات التي تثقل كاهل الهنود وقبائلهم»، وذكر الجمهوريون «أن كل الهنود هم مواطنون أميركيون وأننا لا يمكن لنا منعهم لمدة أطول من التمتع بكل حقوق المواطنية» إلّا أن على آنجي ديبو أن تترجم لنا المعنى الحقيقي لهذه التصريحات:

> مقولات جيدة من الصعب لنا ألّا نكون متفقين معها، كما تفسر لنا آنجي ديبو، ولكن بعض الكلمات ليس لها المعنى عينه، أو تنطوي على معنى مزدوج، أو حتى هي ملغومة، عندما تطبق على الهنود.

ولكن الأميركيين الحقيقيين كانوا يستوعبون تماماً معنى سياسة «الإزالة»: فهم ليسوا بحاجة للذهاب إلى دور السينما من أجل ذلك. ففي العام 1966، قبل عدة سنوات

من ظهور فيلم «Terminator» 1، أو حتى «Terminator» 2، كان إيرل (Earl) القديم قد تكلم بخصوص سنوات الخمسينات الصعبة تلك على الشكل التالي:

> في لغتنا نترجم كلمة «إزالة» «إبادة» أو «استئصال» [...]. فنرتجف كل مرة نسمع فيها لفظ هذه الكلمة... كيف يمكن لنا التفكير بالمستقبل عندما كان يهددنا المكتب الهندي (المكتب المختص بالشؤون الهندية) بالإلغاء؟ فمن الصعب تحضير وجبة طعامك بهدوء عندما كان أحدٌ يحوم حول خيمتك (الهندية) محاولاً إشعالها. (Debo)

ولكن دعونا نضع جانباً وبشكل نهائي هؤلاء الأميركيين الشماليين المساكين، الذين يذكّرونني كثيراً بليندا هاملتون (Terminator) وهي ملاحقة من قبل آرنولد شوارزينغر الشرير. ودعونا بالأحرى نذهب لنحصل من جنوب أميركا بعض الأمثلة عن الدمار الشامل الذي خلفته الحرية.

ففي البرازيل، أدت مناجم الحديد الرائعة في وادي باراويبا إلى عزل رئيسين (للجمهورية)، جانيو كوادروس وجواو غولار، قبل أن يتخلّى عنها الماريشال كاستيلو برانكو، الذي استولى على الحكم في العام 1964 لمصلحة شركة «هانا» المنجمية (Hanna Mining) (غاليانو)[1]. وفي فنزويلا عام 1948، عزل العسكر حكومة رومولو غاليغوس الإصلاحية، واستطاعت بذلك الشركات البترولية، وخاصة شركة ستاندرد أويل أوف نيوجرسي، من تخفيض ضرائبها المدفوعة للدولة الفنزويلية. وأعلن رجل أعمال أميركي، ذكرته صحيفة التايم، عام 1953 في كراكاس:

> هنا لديكم الحرية لفعل ما تريدونه بأموالكم، وبالنسبة لي، فإن هذه الحرية أغلى ثمناً من كل الحريات السياسية والمدنية مجموعة معاً.

ولن أشدد على أهمية غرف التعذيب التي وجدت بعد سقوط ماركوس بيريز خيمينيز في العام 1958. سأشير فقط بأنه عندما قررت الحكومة الثورية الانقلابية التي

---

(1) اغتيل جواو غولار في الأرجنتين عام 1976، مثله مثل رئيس برازيلي آخر، جوسيلينو كوبيتشك. إن بعض وثائق الأرشيف البرازيلي التي نشرت حديثاً، تشير بأن وراء هذه الاغتيالات تقف على الأرجح مجموعة كوندور التي سأتكلم عنها في حديثي عن تشيلي.

استبدلته، رفع الضرائب على أكبر الشركات من 25% إلى 45%، قررت الشركات البترولية تخفيض سعر البترول القتزويلي. وبدأت أيضاً بفصل العمال المحليين.

ولن أدخل بالتفصيل في حالة بلدان أميركا الوسطى التي لا تهم كثيراً من الناس باستثناء هؤلاء الذي يعتاشون من السكر والموز، إلا أنني سأذكر رغم ذلك وبشكل سريع بقسم قصير من التاريخ الغواتيمالي. فحتى العام 1944، كانت حكومة أوبيكو قد مُنحت كل الحرّيات الممكنة لشركة يونايتد فروت، بما فيها رخصة القتل. كما كانت الحال لجايمس بوند:

> سيكون مالكو القطاعات معفيين من المسؤوليات الجنائية (المرسوم 2795).

وبعد طرد أوبيكو، حاولت حكومات خوان خوسيه آريفالو وياكوبو آربنز إقامة إصلاح زراعي. هذا الإصلاح المعتدل جداً يتقدم بفكرة «إنماء الاقتصاد الرأسمالي القروي والاقتصاد الرأسمالي للزراعة عموماً». إلا أن الصحافة والراديو ومنظمة الدول الأميركية، أصرّت على مسألة أن «الستار الحديدي قد استدل على غواتيمالا». وهكذا استولى الكولونيل كاستيلو آرماس، الحائز على إجازته من فورت ليڤينوورت، كانساس، على الحكم بمساعدة فرقٍ مدربة ومجهزة في الولايات المتحدة. وقد أمّنت طائرات ف 47 بقيادة أميركيين التغطية الجوّية للعملية. وهذا كلّه تمّ بتنسيق بين سفراء الولايات المتحدة في الهندوراس وكوستاريكا ونيكاراغوا وغواتيمالا، فأرسل لهم، آلن دولس، مدير وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، والذي يعرف المنطقة جيداً كونه، كان ينتمي للهيئة الإدارية ليونايتد فروت، برقيات تهنئة. وفي العام 1963، علّق الرئيس دوايت د. آيزنهاور (1953 ـ 1961) على العملية بالكلمات التالية:

> لقد كان علينا إسقاط الحكومة الشيوعية التي كانت قد استولت على الحكم. (غاليانو) (Galeano)

لقد قلتها في السابق، إن قدر سكان أميركا الوسطى وحياتهم لا يهمان الكثير من

---

(1) اقتبس هذه العبارة من البروفسور زيي (Zib)، الذي يصف ما سمي بحرب الخليج «حملة تأديبية قصيرة للعراق».

الناس. والغريب أن منطقة أخرى في العالم أصغر بكثير وعدد سكانها أقل بكثير من أميركا الوسطى، تُهم أكثر العالم: إسرائيل وفلسطين سابقاً و (ربما) في المستقبل. ففي العام 1947، حدث في المنطقة ما يسمّيه الإسرائيليون **بالاستقلال** والفلسطينيون **بالنكبة**. وقد تبين أن هؤلاء الأخيرين كانوا بيادق سوداء وعوقبوا بشدة من قبل الحصان الأبيض: مجازر ارتكبت من قبل فرق الرجل الذي سيحصل في العام 1978 على جائزة نوبل للسلام (مناحيم بيغن). تطهير عرقي وتعذيب منظم وتهجير... وفي العام 1999، كان عليّ تركيب شيء كسفينة نوح للإنقاذ لكي لا أغرق في ظلمات محيط الدموع التي كانت قد فاضت بها أوروبا الغربية عند مرور مشاهد الألبان ـ الكوسوفيين المهجّرين على التلفاز خلال حرب حلف الشمال الأطلسي (الناتو) في يوغسلافيا. وفي المقابل، أنا متأكد بأنه لن تلطخ اليوم قطرة قميصي لأن أحداً (باستثناء الفلسطينيين أنفسهم، ولكنهم بعيدون جداً) لن يذرف دمعة واحدة على مئات الآلاف (واللين أصبحوا مع الوقت ملايين) الفلسطينيين المطرودين من ديارهم والذين ينتظرون منذ أكثر من خمسين سنة تطبيق أحد مقررات الأمم المتحدة. أما بالنسبة إلى إسرائيل، الدولة الوحيدة في الحقيقة التي استحقت ثقة الولايات المتحدة في المنطقة، فإنها تحصل على مساعدة بقيمة ثلاثة مليارات دولار سنوياً من قبل أمبراطورية الحرية.

ودون أن نترك البحر المتوسط ولنذهب إلى الجزائر وفي شهر أيار/ماي 1945 وبعد أيام فقط من نهاية الحرب في أوروبا، قامت الجيوش الفرنسية بهجوم معتبرة أن المسلمين، غير معنيين بكلمات **كالعدالة والحرية** والتي أصبحت موضة في الجانب الآخر من البحر. فهكذا انتهت ثورات سطيف (Sétif) وقالمة (Guelma) الوطنية بالمجازر التي أصبحنا نعرفها. بضعة آلاف حسب الأرقام الرسمية ووصلت إلى 40 000 حسب مصادر أخرى.

إلا أن، لا أحد فكر للحظة واحدة بقصف فرنسا لإعادتها إلى الطريق الصحيح. يفسر لنا البروفسور بريجينسكي لماذا: من الطبيعي أن تتألم الشعوب الصغيرة:

> ربما أصبحت الحرب ترفاً لا تستطيع إلا الشعوب الفقيرة أن تنعم به، أما الأكثر نعماً فتكبح نفسها بقدرتها التكنولوجية في تدمير الذات وبإرادتها حماية مصالحها الخاصة. (بريجنسكي)

الحملة الصليبية الأولى: كوريا،
بلد الصباح الهادئ (1950 ـ 1953).

إن كل حرب للأمم المتحدة هي حرب أميركية. أتحدى أياً كان أن يخالف هذه المسلّمة. مؤرخونا فاقدو الذاكرة الذين يعلنون بأن «الحملة التأديبية» ضد العراق هي أول عملية عسكرية هجومية للأمم المتحدة، نسوا أن تينغفي لي (Tyngve Lie) الأمين العام للمنظمة، هو الذي كان قد أطلق رسمياً الهجوم على كوريا الشمالية. ولكننا لن نسترسل بالبكاء هنا على قدر الكوريين الشماليين والصينيين الذين سقطوا تحت وابل رصاص وقنابل وراجمات الأميركيين المحتمين الخوذات الزرق. فالشيء الوحيد الذي سنستقيه في هذا الفصل هو غش الولايات المتحدة. وهو غير خليق بلعبة نبيلة مثل لعبة الشطرنج.

كل شيء يعود إلى مؤتمر يالطا شباط/فبراير 1945 الذي وضع الأحجار على رقعة الشطرنج. وربما بسبب إصابتهم بعدوى هوس الولايات المتحدة طوال تاريخهم بتقسيم كل ما يمر تحت أيديهم إلى قسمين، شرع أعضاء المؤتمر بتقسيم ألمانيا، وأوروبا، وكوريا والعالم إلى قسمين. وبهذه الطريقة بقيت كوريا الجنوبية ملحقة بالعالم الحر وكوريا الشمالية بالعالم العادل (الشاوي).

لنتذكر الآن أن صين شيانغ كايشيك كانت الكيان الصيني الوحيد المعترف به (حتى من قبل الاتحاد السوفياتي) عند نشوء منظمة الأمم المتحدة. فكان هو إذن من استحصل على أحد المقاعد الخمس للأعضاء الدائمي العضوية في مجلس أمن منظمة الأمم المتحدة والتي عادت للمنتصرين في الحرب العالمية الثانية. وعندما هُزم شيانغ وكوو مينتانغ خاصته من قبل شيوعيي ماو في العام 1949 واضطروا لمغادرة القارة إلى اللجوء إلى تايوان، وحرصوا على لفّ مقعدهم في مجلس الأمن وأخذوه معهم إلى جانب الكثير من كنوز أخرى تعود إلى التراث الثقافي الصيني والتي يمكن لنا الاستمتاع برؤيتها اليوم في متحف تايبه. ومن جانبهم، انفعل السوفيات فيما كانوا يستقبلون الرئيس الجديد ماو في كانون الأول/ديسمبر 1949، بوجه منظمة الأمم المتحدة التي لم تقبل عضوية الحكومة الصينية في بكين. واحتجاجاً على ذلك، أو

ربما لإرضاء ضيفهم (ماو) انسحبوا من المنظمة في الأول من كانون الثاني/جانفي 1950. وسيلعب هذا التفصيل دوراً هاماً جداً في استكمال اللعبة.

ويبدأ النزاع عندما تجاوز الكوريون الشماليون، وهم ربما شغوفون لاستعادة وحدة بلادهم (ما يشكل، في نهاية المطاف، أمراً مفهوماً جداً)، ولكنهم كانوا بشكل أكيد يخفون بعض الخلفيات الصغرى (ارتكاس في السياسة مبرر تماماً) اجتازوا خط العرض 38، في 25 حزيران/جوان 1950. وبدت كل الأمور وكأنها تشير إلى أنهم كانوا قد استفزّوا للقيام بهذه الخطوة من تصريحات وزير الخارجية الأميركي دين آتشيسون الذي كان قد لمّح في كانون الثاني/جانفي 1950 إلى أن كوريا الجنوبية لا تشكل حيّزاً في سياسة الدفاع الأميركية. لا يمكن لنا أن نأخذ حقاً على الكوريين الشماليين أن يجربوا حظهم. كما لا يمكن أن نأخذ حقاً على الولايات المتحدة إرادتها الدفاع عن إقطاعتها الكورية الجنوبية، وهذا ما قامت به غداة الهجوم.

إلّا أن أمرين هناك يحيّرانني في هذه القصة. بادئ ذي بدء، ذلك التصريح الأحمق لشخصية بألمعية دين آتشيسون والتي تحمل كل صفات الفخ. ولنتذكر بأن آتشيسون هو واضع الحصار غير المعلن والحلق، الذي أدى إلى هجوم اليابان (على بيرل هاربر) مجبراً بذلك الكونغرس على التصويت بدخول الولايات المتحدة غمار الحرب العالمية الثانية. وفي القضية الكورية، أعاد آتشيسون الكرّة بأفضل طريقة. فيمكن لنا إذاً الاستنتاج بأنه ورؤساءه إما أغبياء خالصون، أو بأن كل شيء كان مفتعلاً. شخصياً، إني أميل إلى الفرضية الثانية.

والأمر الآخر البغيض هو الغش العلني وقليل الحياء الذي حوّل مسؤولية الحرب إلى المنظمة الدولية الحديثة النشأة، وأدّى إلى إفسادها بعد مرور وقت قصير على ولادتها. فقد وضعت منظمة الأمم المتحدة نظاماً يمكّن أي عضو من الخمسة الدائمي العضوية في مجلس الأمن الاعتراض على كل قرار تنفيذي: حق الفيتو الشهير. ولكن، بما أن الاتحاد السوڤياتي كان قد انسحب من المنظمة، أصبح نادي الأعضاء الأربعة الباقين نوعاً من تكتل مصالح (كارتيل، Cartel) مؤلف من الولايات المتحدة وأتباعها الخلّص (فرنسا، بريطانيا وصين شيانغ كايشيك). وفي هذه اللحظة بالذات، كما لو كانت صدفة، أفتعلت هذه الحرب ـ وهنا أرى أظافر دين آتشيسون اللامع. وهكذا، ستحمل الحرب مسؤولية دولية، رغم أن تنظيمها وإدارتها بقيت بيد الولايات

المتحدة. وإن كان كل ذلك ليس غشاً، فهل تقولون لي، قرائي الأعزاء، ماذا يكون ذلك[1].

إلّا أن باستطاعتكم أن تقولوا لي بأن كل شيء في الحرب مسموح، وعليّ في هذه الحالة أن أنحني وأوافقكم الرأي.

ودعونا نرى إلى التركيبة الخارقة لهذه الحرب القديمة. ففي 27 حزيران/جوان، أدان مجلس الأمن كوريا الشمالية. وفي 14 تموز/جويليه طلب تينغفي لي[2] رسمياً من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة إرسال قوات إلى كوريا. ولم يكن هذا التصريح إلّا تحصيل حاصل بما أن الحرب كانت قد اندلعت منذ أكثر من أسبوعين، بمشاركة قوات دولية كانت قد وضعت تحت قيادة الجنرال ماك آرثر، الحاكم العسكري الأميركي في اليابان. وهكذا بعد خمس سنوات على نشأتها، كانت منظمة الأمم المتحدة قد أصبحت منظمة الولايات المتحدة، التي نألفها جيداً في أيامنا هذه.

ولكن يجب الاعتراف بأن الاتحاد السوفياتي لم يكن لامعاً في هذه القضية، فبعد أن اعترض، من خارج إطار الأمم المتحدة، على «القيمة الشرعية» لقرار مجلس الأمن، عاد ودخل من جديد إلى المنظمة في الواحد من آب/أوت ليحاول إعادة المياه إلى مجاريها. ولكن بعد فوات الأوان: فالحرب كانت قد بدأت سلفاً، ونعرف اليوم (ويؤكده لنا عذاب الشعب العراقي الذي لا نهاية له) بأنه عندما يباشر بعمل من قبل مجلس الأمن، وحده المجلس عينه، حيث يملك في داخله الخمسة أعضاء دائمي

---

(1) يمكن لكم الرد عليّ بالقول بأنه ما عدا الأربعة أعضاء دائمي العضوية، صوت الأعضاء الخمسة عشر الآخرون بالأكثرية لمصلحة الحرب. لم أجرِ أبحاثاً على مجريات التصويت ولكننا نعرف كلنا اليوم ـ وأتحدث هنا بخصوص العراق ـ بأنه عندما لا تكون بحاجة لإجماع فليس من الصعب التلاعب بالأصوات (شراؤها).

(2) العالم كله يعرف اليوم بأن أمين عام منظمة الأمم المتحدة هو فعلياً خادم مطيع للولايات المتحدة، فقد رأينا كيف استبعد بطرس بطرس غالي ببساطة لأنه لم يكن ينصاع كل مرة يفتح فيها الرئيس كلينتون فمه. وقد رأينا أيضاً كيف خُتِم كوفي أنان عندما ضرب حلف شمال الأطلسي (ناتو) يوغوسلافيا، ولا أريد الكلام عن خافيير بيريز دكويلار. وفي محاولة لتبرئة ذمة (تينغفي لي) يمكن لنا التعليل بأنه كان على رأس موقع تنفيذي جديد جداً يجب الدوران بعجلته. حتى أنه حاول يخجل في 11 آذار/مارس، الإيحاء، ربما، إن كان ذلك لا يزعج أحداً ـ إذاً لم نرَ أي سلبية بذلك، بكل تأكيد ـ إمكانية الصين الشعبية استعادة موقعها في المنظمة الدولية من تلك اللحظة، كون الاتحاد السوفياتي كان غائباً عن منظمة الأمم المتحدة، ووجه بجواب واحد: «إخرس»!

العضوية حق الفيتو، يمكنه إيقافه. فوجد الروس إذاً أنفسهم أمام أحجية كورية حقيقية. وأحام الرئيس ترومان في الجو تهديد لعبته النووية الجديدة، وكان الصينيون قد وصلوا إلى «منصة الانطلاق» (starting-block) لدخول النزاع بشكل كامل. والالتفافة الملموسة الوحيدة التي نجح السوفيات في إتمامها، فيما كانت الحرب شبه منتهية عملياً، هي فصل تينغفي لي من المنظمة. عزاء لا قيمة له[1].

والشيء الوحيد الإيجابي نوعاً ما الذي يمكن لي أن استخرجه من هذه الحادثة، هو الدرس الذي نستطيع أن نتعلمه من جيل أهلنا: هم على الأقل لم يكن من السهل جداً الاستهزاء بهم مثلنا. ففي تلك الحقبة لم يصدق أحد بأن تلك الحرب كانت حرباً منظمة من قبل «المجتمع الدولي» غير الواقعي (غير موجود فعلياً). وعندما أطلق البانديت نهرو (Nehru) رسائله للسلام، فقد وجهها للمارشال ستالين والرئيس ترومان، وليس إلى تينغفي لي أو كيم إيل سونغ. وحينما طالب قائد قوات الأمم المتحدة الجموح، الجنرال ماك آرثر، من تلقاء نفسه، الحق بضرب الصين، فقد صُرف من موقعه على يد الرئيس ترومان، وليس الأمين العام أو مجلس الأمن أو الجمعية العامة أو أي مؤسسة أخرى تابعة للأمم المتحدة. ولم يفكر أحد بأن الحرب الكورية كانت شيئاً آخر غير الحرب بين المعسكر السوفياتي (ولو أن مشاركة الاتحاد السوفياتي المباشرة كانت محدودة) والولايات المتحدة. وكانت بهذه الصورة تماماً قد سُجلت هذه الحرب في اللاوعي الجماعي وإن كانت القوات الأميركية الشمالية قد اعتمرت خوذ منظمة السلام الزرق المضحكة. وربما كان هذا الصفاء الذهني لأهلنا وراء حمل نقّادنا الحديثين على ارتكاب خطل التحاليل الخاطئة والاعتقاد بأن حرب العراق ـ حيث لم تعذب الولايات المتحدة نفسها حتى بطلاء خوذاتهم بالأزرق ـ كانت أول حرب لمنظمة الأمم المتحدة.

في النهاية أرجوكم أن تصدقوا بأنني ركّزتُ بشكل أساسي هنا على الخداع داخل الأمم المتحدة، ليس لأنني اعتبر الحرب الكورية كحدثٍ هامشي بذاته، إنما لأنني اعترف بأن المعسكر الشيوعي يحمل جزءاً من المسؤولية عن المأساة الكورية. ولكن الأمر يختلف بالنسبة للنزاع الفيتنامي.

---

(1) في أيلول/ سبتمبر 1960، طلب نيكيتا خروتشيف، خلال الجمعية العامة الشهيرة بضربات الحذاء على الطاولة، باستبدال داغ همارشولد بثلاثي (ترويكا) تمثل فيه الكتلتان والمعسكر الحيادي (لاران).

2 ـ منتصف اللعبة

ـ سيدخل الرئيس الحرب مع ألبانيا خلال. . . ثلاثين دقيقة.

ـ أتعلن الحرب على ألبانيا؟

ـ كلاّ لن تعلن الحرب، سنذهب إلى الحرب. فنحن لم تعلن الحرب منذ الحرب العالمية الثانية.

ـ أنذهب إلى الحرب؟

ـ سنذهب إلى الحرب.

(أصحاب النفوذ، فيلم للمخرج باري ليفنسون)

الحملة الصليبية الثانية: فيتنام في قلب الظلمات (1945 ـ 1975)

إنها الحرب: كونوا رجالاً! كونوا رجالاً تعني: إذا كنتم شيوعيين، انضموا إلى الفيتناميه؛ هناك أشخاص يقاتلون في سبيل قضية باطلة. ولكن إذا ما كنتم وطنيين، قاتلوا في سبيل وطنكم، لأن هذه الحرب هي التي ينبغي اتخاذها للدفاع عن العالم الحر. إنها لم تعد تعني فرنسا إلا في حدود وعودها المقطوعة تجاه الفيتنام ومكانها المتوجب عليها في الدفاع عن العالم الحر. فعمل عسكري خالٍ من أي مطمع إلى درجة كهذه، لم تقم به فرنسا، منذ الحملات الصليبية. فهذه الحرب إن أردتموها أم لا، هي حرب فيتنام للفيتنام. ولن تقوم بها فرنسا إلّا اذا شاركتموها، أي كنتم معها. (Cesari)

بهذه العبارات عبأ المفوض السامي دو لاتردو تاسيني[1] تلامذة إحدى مدارس البعثات الفرنسية في سايغون بمناسبة توزيع الجوائز في العام 1951. ويلخص هذا المقطع إلى حد ما المأساة غير الواقعية التي عاشتها فيتنام بين 1945. و1975 وقليلة

(1) تطابق سلطة المفوض السامي الى حد ما مع سلطة الحاكم الاستعماري (الكولونيالي) وللتذكير (وللذكرى فقط) إنه الجنرال جان دو لاتر دو تاسيني الذي تبلغ في الثامن من أيار/ماي 1945 نبأ استسلام ألمانيا.

هي الأعمال العسكرية البشرية التي كانت سخية ومؤلمة وفاشلة إلى هذا الحد. كما كان حال الحملات الصليبية.

وأنا لا أدعي فك رموز كل غموض هذه الحروب الغريبة في ڤيتنام. لأن الحملة الصليبية، وحتى إذا ما حصرنا أنفسنا بالحرب التي قامت بها الولايات المتحدة، ستكون واسعة ومعقدة جداً، وستستحق على الأقل كتاباً كاملاً. لذا أريد أن انكبّ بشكل خاص على تفصيل مُهمل من قبل الدراسات التي لا تحصى، والروايات والأعمال الوثائقية والأفلام التي خصصت إلى سلسلة الحروب هذه، ألا وهو استرحام النفس، الذي لا يصدق لفرنسا، ومن ثم الولايات المتحدة، بخصوص هذه النزاعات. ويلخص ليون بلوم وهو فرنسي شريف، تماماً هذا المنحى. فهذا الضيف القديم لمعسكر الاعتقال بوشينفالد النازي كوّن حكومة اشتراكية لفترة قصيرة جداً بين كانون الأول/ديسمبر 1946 وكانون الثاني/ جانفي 1947. ولكن، عندما اكتشف أنه كان قد ورث حرباً وسخة، بدل أن يحاول مقارنة ما شعر به خلال الاحتلال الألماني وما يمكن أن يشعر به الڤيتاميون في تلك اللحظة، تحسّر ببساطة قائلاً:

«لم أكن استحق هذا» (Césari).

وخلال هذا الوقت، كرّس جيشه نفسه لتسميم الموقف. خاصة في هايفونغ، مما أدى إلى اندلاع حرب الهند ـ الصينية الأولى أي الحرب الفرنسية. وكل شيء إذاً قُدّم كما لو كان الشهداء الحقيقيون هم الفرنسيون في البداية، ومن ثم الأميركيون.

ويصف وزير الدفاع المسكين، روبرت ماكنمارا، في ذلك النواح المبالغ فيه المتمثل بكتابه **مع الابتعاد في الزمن** (1996)، الجحيم الذي عاشه عندما بدأ بعض تلامذته يرشقون سيارته، كما يصف العذاب اللامتناهي الذي عاناه عندما صرخ رجل: «أنت قاتل»، وبصق في وجهه، وعذاب آخر شعر به أيضاً عندما صُرخ في وجهه، فيما كان يتناول فطوره بكل هدوء في مطعم:

Baby Killer (قاتل أطفال) يداك ملطختان بالدماء!

وجعلتني أبكي[1] تقريباً عندما بدأ يصف كيف ربتت الأرملة كينيدي، في سهرة

---

(1) من الضحك.

صغيرة جمعتهما وجهاً لوجه، على صدره وهي توصيه «بفعل شيء لإيقاف المجزرة». وجاءت الفكاهة الروسية لحسن الحظ للنجدة. فبعد أن احتفل مع أفراد آل كينيدي الأحياء (كان بوبي ما زال حياً)، واسى الشاعر السوفياتي إيفغيني ايفتوشينكو، بعد أن ملأ رأسه بالجرعة المسموح بها نقابياً من الكحول، وزير دفاعنا الذي يدعو للرثاء بهذه الكلمات الخليقة بالفطنة وبأفضل الدعابات الروسية ذات السيف ذي الحدين:

> يقولون إنك وحش، ولكنني أعتقد أنك رجل.

وتطرح السيدة الأولى جونسون الشديدة الحزن (الملقبة بـ «خنفسة»، بالنسبة للمقربين) على نفسها أسئلةً ميتافيزيقية:

> المشاكل موجودة في كل مكان، [تلحظ في يومياتها]، كأوبئة عفنة، تبدو الحالة النفسية لشعبنا كما لو كانت: «إما عليكم أن تتحمسوا، أن تتجرفوا، أن تقاتلوا وأن تنتهوا، أو عليكم أن تنسحبوا» فمن الصعب بمكان القيام بحرب محدودة.

وحتى الرئيس ليندون بن جونسون (1963 ـ 1969) «كان يشعر وكأنه في غرفة التعذيب» وكان يمضي ليالي عديدة محاولاً النوم والتفكير بالأحاسيس التي كان سيشعر بها:

> ماذا لو كان رئيسي يقول لي بأن على أولادي الذهاب إلى جنوب الڤيتنام في حملة للماريتز [...] وربما ليموتوا.

وكان الرئيس كينيدي (القديس جون فيتزجرالد كينيدي 1961 ـ 1963) أكثر حظاً بكثير. فعندما بدأ الأخوان نغو (Ngo) (الرئيس الجنوب ڤيتنامي ديم (Diem) وأخوه نهو (Nhu)) إعطاء صورة غير لائقة كثيراً بنظر عملاء كينيدي في العلاقات العامة، نُظم عندها انقلابٌ صغير لكي يكفّا عن إزعاج العالم[1]. ولكن بموازاة الانقلاب،

(1) وطلب من [السفير] كابوت لودج، لم يخسر مسؤول محطة ال سي آي إي دقيقة واحدة منه ليدفع عملاءه الى جانب الجنرال تران تيان كيام في سايغون والجنرال نغويان كان في بليكو. لقد قالوا للجنرالين بأن آل نهو [نهو وزوجته] يجب أن يرحلا، ولكن تركوا لهما حرية أخذ القرار في شأن ما إذا كان يجب الاحتفاظ بـ ديام أم لا. (ماكنمارا)

كان الأخوان الاثنان قد اغتيلا بضربات رصاص وطعنات خناجر (ولم نعلم أبداً أياً من تلك كانت القاتلة). ويفضي إلينا ماكنمارا:

> عندما علم الرئيس كينيدي بالنبأ، شحب وجهه بكل معنى الكلمة. لم أره أبداً مشوشاً إلى هذه الدرجة. «هزته الوفيات شخصياً»، راح يتذكر فوريستال لاحقاً، «عصفت به كمشكلة أخلاقية ودينية [...]، واهتزت ثقته [...] بنوعية النصائح التي يتلقاها بخصوص جنوب ڤيتنام». ولاحظ آرثر شليسنغر الابن بأن الرئيس كان «شاحباً ومتوتراً» ولم يظهر أبداً منهاراً إلى هذا الحد منذ حادثة خليج الخنازير[1].

ولحسن الحظ، لم يكن عذاب الرئيس كينيدي ليدوم طويلاً: ففي 22 تشرين الثاني/نوڤمبر عام 1963، بعد عشرين يوماً من اغتيال الأخوين نغو (Ngo)، ساعدته روح خيّرة لإدراك الراحة الأبدية.

ولنضع في هذه اللحظة مناديلنا في آلة تجفيف الغسيل ونذهب للنظر من جهة مكتبتنا السينمائية. فماذا نرى في أعمال المخرجين المرموقين؟ **رحلة إلى قعر الجحيم** (Voyage au bout de L'enfer) (مايكل سيمينو)، **بلاتون** (Platoon) أوليڤرستون مولود في الرابع من تموز/ جويليه (أوليڤر ستون)، **بين السماء والأرض** (Heaver and Earth) (أوليڤرستون)، **نهاية العالم الآن** (Apocalypso Now) (فرانسيس فورد كوبولا)، **سترة واقية كاملة** (Full Metal Jacket) (ستانلي كيوبريك). فلا يُظهر أيٌ من هذه الأفلام باستثناء «بين السماء والأرض»، مشهداً لشخصية ڤيتنامية حقيقية. وتتكلم كلها، دون استثناء، عن ألم وتساؤلات الشهداء البيض (أحياناً السود، **الرجال البيض السود**، كما يقول جدّ قبيلة الشيّن في فيلم «الرجل الكبير الصغير» (Little Big Man) الذين فقدوا رؤوسهم (بالمعنى الحقيقي أو المجازي) في الأدغال الرطبة لنام (Nam). والفيلم

(1) ذكر روبير ماكنمارا ملاحظة مرسلة الى واشنطن في 4 تشرين الثاني/نوڤمبر (بعد يومين من الجريمة) من السفير كابوت لودج: «[يبدو أن هناك] عدة اختلافات بينكم وبيننا حول قدرة ومزايا الانقلاب. وإليكم كيف بدا لنا ذلك: أ) كل أولئك الذين شاركوا بصفة ما في حملة عسكرية أو سياسية كانوا قد قدّروا بأن هذا الانقلاب كان عملية تنفذت بكفاءة مميّزة على هذين الصعيدين [...]؛ ب) إن بعض الخبراء ممن كانوا دائماً معادين للانقلاب وكانوا يتكلمون على الفور مع ديام» يقولون الآن: «هذا الانقلاب يشير بأن الحرب يمكن اختصارها اختصاراً شديداً».

الذي أزعجني أكثر من غيره هو الأفضل بين الأفلام الستة، أبوكاليبس ناو (نهاية العالم الآن). ولنترك جانباً دور الوجه الحيواني الذي أعطي للسكان المحليين (كان الفيتناميون يُصطادون كالأرانب، وكان الكمبوديون محبوسين داخل أقفاص أو في غرف مظلمة كنعاج معدّة للذبح، الخ). فتلك الصورة هي سائدة إلى حد ما. وما يضيفه فيلم ابوكاليبس ناو هو فكرة أن الفيتناميين يرتكبون أعمالاً أكثر حقارة من تلك التي نشاهدها طوال الفيلم. فعندما نصل إلى ملجأ كورتز (مارلون براندو) يريد هذا الرجل الرهيب أن يجعلنا نصدق (وكانت موهبة فرانسيس فورد كوبولا قد استطاعت إقناع أكثر من شخص) بأنه إذا ما كان قد فقد صوابه فلأن ذوي العيون المقطبة كانوا قد أظهروا له الوجه الحقيقي للفظاعة. ولنخرج مناديلنا من آلة تجفيف الغسيل ولنتذكّر بالقصة التي رواها لنا كورتز: فقد ذهب الفيتناميون الصغار، الذين كانوا قد وقفوا بهدوء في الطوابير لتلقي اللقاحات على يد الرجل الأبيض، ليصطفوا فيما بعد بشكل عاقل كي يقطع لهم مواطنوهم أياديهم الصغيرة الملوثة بسمّ الرجل الأبيض. فيتصدر بذلك ذوو العيون المقطبة جدول الإنجازات القياسية من الفظاعات إلى جانب الجدول الخاص بالحماقة، ونتلقّن بالمحصلة درساً صغيراً: إن الأكثر رذالة، هو ذلك الذي يتعصّب ضد شعبه. فالغازي هو حقير، ونحن متفقون تماماً، ولكن على الأقل هو لا يذبح الكائنات المقربة له. وستصل تلك الرؤية إلى مداها الأقصى في فيلم رودلان جوفيّه الرائع، «الخرق» **حقول القتل** (The killing fields)، الذي يرينا عن قرب ولمدة طويلة مجزرة الكمبوديين المهولة على يد الكمبوديين، فيما لا يرينا إلّا لبضع ثوان، وعلى شاشة تلفاز صغير فقط، القصف الهائل الذي هز البلاد وخلّف عدداً من القتلى.

وحمل هذا الأسلوب في رؤية الأشياء ثماره خلال الأحداث العديدة والحديثة نسبياً. فقد صُعق مشاهدونا عند رؤية اجتياح بلد عربي (الكويت) على يد بلد عربي آخر (العراق)، ولكنهم اعتبروا قصف العراق على يد بعض البلدان غير العربية في منظمة الأمم المتحدة أمراً طبيعياً، حتى ولو أنه خلف حوالي مئتي ألف قتيل كآثار جانبية. وكان مشابهاً جداً الهلع المرئي الذي خلّفه مرور مشاهد على التلفاز للقمع الممارس من قبل يوغوسلافي (الجيش الفدرالي) على يوغوسلافي (ألبان كوسوفو) إلى أن وصل طيران حلف الشمال الأطلسي (الناتو) ليقصف بشكل حيادي كل اليوغوسلافيين.

ولكننا سنرى كل ذلك فيما بعد. دعونا في اللحظة الحالية نستعيد النظر إلى أهل الدول المتخلفة والى الأشرار بالمحصلة. فقبل أن أصل إلى قارة الحضارة، كنت أنا بنفسي متخلفاً حقيقياً. فقد وصلت إلى فرنسا في العام 1972، وبما أنني كنت جاهلاً ما هي الشعوب المتخلفة التي تعيش على كوكبنا، فصدمتي الأولى الثقافية كان لها علاقة ما بالفيتنام. فأتذكر ذهولي ـ فُتحت هوة بكل معنى الكلمة تحت قلمي ـ حين علمت بأن الحرب الرهيبة التي كانت ناشبة منذ فترة طويلة كانت قد بدأت بامتناع فرنسا ترك هذا البلد بسلام. فكل عائلة مكسيكية متوسطة الثقافة تعجبها فرنسا. وتعشق باريس. وأنا الذي فوق هذا كله كنت قد أصبت بفايروس السينما، وصلت إلى باريس ورأسي مشبع بجو فيلم رينيه كليمان الملهل «هل تشتعل باريس» Paris, brûle-t-il[1]، الذي كان قد ضخم حلمي الرومانسي عن مدينة الأنوار بإظهاره لي الجمال التراجيدي لأولئك الذين قاتلوا الغازي. وعلمت بعد بضعة أشهر من استقراري في باريس بأن المحرر الشهير للمدينة، الجنرال لوكلير (الرجل ذو الشاربين الذي نراه في الفيلم) كان قد وصل إلى سايغون في 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 1945، بعد بضعة أشهر من نهاية الحرب! ـ على رأس مجموعة فرنسية لغزو الشرق الأقصى وبأمر محدد من ديغول (محرر فرنسا) لإعادة إحياء «مجد الأمبراطورية». واعتقدت في البداية بأنني لم أفهم بشكل جيد. وقد قلت لكم مسبقاً بأنني كنت حقاً متخلفاً. فلم أكن أعرف في تلك الحقبة كل مفاهيم كلمة الحرية.

واليوم، بعد ثلاثين عاماً على صدمتي الأولى، يمكن لي تقريباً تقبل فكرة أن لوكلير كان إنساناً لطيفاً نوعاً ما، خصوصاً بالمقارنة مع الكرملي دارجانليو، المفوض السامي المعيّن من قبل ديغول على الهند الصينية والذي قام بكل شيء لتسميم الوضع قبل أن يتم إعادته إلى كرمليته في عام 1947. حتى أن هذا الصليبي (دور مناسب تماماً لجندي ـ كاهن) كان قد حاول التحريض على جمهورية على الطريقة التكساسية لضمان تجزئة الفيتنام: ففي الأول من شباط/فيفري، دون مراجعة الأمر مع باريس، اعترف «بجمهورية كوشنشين المستقلة ذاتياً» كدولة حرة داخل إطار الاتحاد الفرنسي (Cesari).

وحتى الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي كان يعترف مبدئياً بحق المستعمَرين في

---

(1) فيلم من إخراج رينيه كليمان عام 1966، وكتابة غور فيدال وفرانسيس فورد كوبولا حيث يتوالى فيه عدد مهم من النجوم الفرنسيين (بلمندو بريجيت باردو) والشمال أميركيين.

الاستقلال، لم ينصح بتطبيقه، في مؤتمر فونتانبلو عام 1946، على الأمم الهندو ـ صينية. وأمتدح عندها الشيوعيون (الذين سيندمون بمرارة فيما بعد لأنه منذ عام 1949 ستصبح الحرب الهند الصينية بالنسبة إليهم حرباً وسخة) أنفسهم بمسألة نقل سلطات سياسية جوهرية إلى هذه الأمم في إطار أمبراطورية متجددة وذلك في حال وصولهم إلى سدة الحكم، ولم يكن ذاك بأمر غير واقعي في تلك الحقبة (Cesari).

كانت إذاً، ساعة إعادة إحياء المجد الفرنسي. ولكن نجح هوشي منه، في الثاني من أيلول/سبتمبر 1945، الذي لم يكن يشعر كثيراً بأنه فرنسي، ـ وذلك، يجب القول، كان ممكناً بفضل قنابل هيروشيما وناغازاكي ـ في إقامة حكومة مستقلة وموحدة حقيقية. وأدخل حتى الأمبراطور السابق باوداي الذي أصبح مواطناً في ڤينه توي (Vinh Tuy) «كمستشار سياسي أعلى». إلّا أن تجزئة البلاد كان قد خطط لها مسبقاً في مؤتمر بوتسدام (تموز/ جويليه 1945) التي لم تعترف بالاستقلال السطحي الممنوح من قبل اليابان للمملكات الهند الصينية. توافق الحلفاء لكي يكون شمال شبه الجزيرة محتلاً من قبل صينيي شيانغ، وجنوبها من قبل البريطانيين. وعندما وصلت قواتهم في أيلول/سبتمبر 1945، بدأت مشاكل ڤيتنام الحقيقية. ولم يكن وصول لوكلير وقوته الغازية في تشرين الأول/أوكتوبر ليساعد في معالجة الأمور.

وكانت الولايات المتحدة الموعودة بأن تصبح سيدة الهادي[1]، قد تابعت ذلك عن كثب حتى قبل استسلام اليابان. ولكن أصبح وجودهم أكثر تأثيراً مع بداية المصاعب التي لاقاها الفرنسيون في ديان بيان فو. وفي آذار/مارس 1954، عُوقب الموقع المحصّن على يد قوات العم «هو» إلى درجة أن المدافعين عنه بدأوا يفهمون ما يشعر به ملاكم اقترب من تلقي الضربة القاضية. ففي تلك الظروف كان الطيران الشمال ـ أميركي قد تحضّر للقيام بعملية الـ «Vautour». وفي 30 نيسان/ أفريل، بعد أربعة أيام من بداية مؤتمر السلام في جنيف (26 نيسان/ أفريل) ـ (31 تموز/ جويليه 1954)، بحث آيزنهاور ونائبه نيكسون إمكانية تقديم بضع قنابل ذرية صغيرة لفرنسا لإخراجها من ورطة الهند الصينية (Cesari). وخوفاً من أن يتنازل الفرنسيون بالكثير للشيوعيين، قرع نيكسون ورئيس أركان القوات المسلحة، رادفورد جرس الإنذار لتحاشي «ميونخ

(1) إذا ما أخذتم خريطة منطقة الهادي الشمالية، بإمكانكم استنتاج، دون صعوبة، باستثناء جزر الكوريل والكامساتكا، أن هذا المحيط هو اليوم في الحقيقة حوض واقع تحت السيطرة العسكرية الأميركية.

آسيوي» في جنيف، وأنا مقتنع بأن هيتلر لم يكن ليتصور أبداً أنه بتنظيم مؤتمر تشيكسلوفاكيا في مدينته العزيزة ميونيخ، كان سيؤمن أداة كلامية ثمينة لأكبر المحسنين في البشرية.

إلّا أن الفرنسيين، برغم كل التهديدات المرفوعة بوجه الڤيتناميين، لم يكن باستطاعتهم الصمود أكثر، وفي السابع من أيار/ماي سقطت ديين بين فو (Diên Biên phu). وفي السابع عشر من حزيران/جوان عُين بيار منديس ـ فرانس Pierre Mendès France رئيساً للحكومة، ممّا ساهم بالوصول إلى اتفاق في جنيف. وكالعادة، لم يُعثر على أفضل من تقسيم ڤيتنام إلى جزأين على خط العرض °17، جزء يمثل القضية الباطلة، كما كان يقول الجنرال دولاتر، وجزء آخر يمثل القضية الحق. وتنص الاتفاقيات المبرمة في جنيف على أن انتخابات تقرير المصير النهائي ستتم على قاعدة «حق الشعوب (بتقرير مصيرها)» الذي لطالما كان ممجوجاً. وكان الرئيس أيزنهاور مقتنعاً بأن انتخابات حرة اذا ما تمت، فسيحصل هو شي مينه (Hô chi Minh) على 80% من الأصوات، أما بالنسبة لوزير خارجيته جون فوستر دالس، فقد كان يعتقد بأن استشارة السكان الڤيتناميين في مسألة توحيد البلاد، إذا تمّت، فإن سكان الشمال، سيصوتون، بشكل موحّد، وستنتقل عندها الڤيتنام بأكملها، إلى المعسكر الاشتراكي (Cesari). كما قامت وكالة المخابرات المركزية (CIA)، وعلى رأسها آلف دالس، (شقيق جون فوستر دالس) بضغوط كي يضع على رأس حكومة مؤلفة في كوشينشين (Cochinchine) (جنوب الڤيتنام) رجلاً له وجهان: مناهض للاستعمار ومناهض للشيوعية في آن: نغو دينه دييم. وفي السادس والعشرين من حزيران/جوان، نصّب باو داي، الذي كان قد فك ارتباطه المعنوي (التضامني) مع الجمهورية الديموقراطية واستعاد لقبه الأمبراطوري، دييم على رئاسة الحكومة، وهو ما كان يشكل شرطاً إلزامياً للإبقاء على مساعدة الولايات المتحدة. وفي العام 1955 وأيضاً 1956، ناقضت واشنطن، التي كانت قد طلبت في جنيف إقامة انتخابات، نفسها بدعم رفض دييم (Diem) إقامة اقتراع حول الوحدة.

ولكن ماذا يريد هو شي مينه الصغير هذا؟ (الصغير بالقامة «كالرجل الصغير الكبير») وماذا يريد الڤيتناميون؟ لقد رأينا أن هو شي مينه في البداية كان وطنياً هادئاً إلى حد ما. فقبل وصوله إلى فرنسا، لم يكن أبداً أحد المولعين بماركس (كارل، غروشو، كان ما يزال شاباً). ولم يكن للمطالب التي قدمها مع مجموعة من

الأصدقاء، خلال مؤتمر فرساي بعد الحرب العالمية أيُّ طابع مثير. وقد يقول قائل فقط بأنه ساذج.

> بانتظار أن ينتقل مبدأ القوميات من نطاقه النظري إلى نطاقه الواقعي خلال الاعتراف الفعلي بحق الشعوب في تقرير مصيرها، يقدم شعب أمبراطورية أنام (Annam) السابقة، والهند الصينية الفرنسية اليوم إلى حكومات «التحالف» الجليلة عموماً والحكومة الفرنسية الموقرة خاصة المطالب المتواضعة التالية... (Cesari)

وأتخيّل بشكل جيد جداً كيف انفجر بالضحك الموظفون الذين وقعت بين أيديهم هذه العريضة المطالبة بالعفو، بالمساواة، بالشرعية للسكان الأصليين، وبحرية الصحافة والرأي، الخ... وتعليقاتهم من نوع «إنظر، لقد ابتلع هؤلاء الجبناء الصفر بسذاجة تخريفات ويلسون!».

وسقطت بكل تأكيد مطالب مجموعة الوطنيين الأناميين (نسبة إلى Annam) في باريس في سلة الأوراق المهملة، وكان على الشاب تنغوين (Nguyen) اتباع طريق الماركسية ـ اللينينية الطبيعية إلى حد ما. فأنشأ عام 1930 الحزب الشيوعي الفيتامي والذي أصبح بعد وقت قليل، وبتعليمات من الكومنترن (Komintern)، الحزب الشيوعي الهندو ـ صيني. وفي بداية الأربعينات من القرن الماضي، عاش الحزب شهر عسل قصيراً مع المخابرات الأميركية (والتي كانت تدعى في تلك الحقبة (OSS)، منظمة الخدمات الاستراتيجية (Organisation for Strategic Services) في صراعهم المشترك مع اليابانيين، ولكن هذا لم يبعده بأية طريقة عن خطه العام، بما أن السوڤيات في تلك الحقبة كانوا حلفاء الغربيين.

ولم يتفاجأ أحد إذن عندما أتهم هوْ (Hô)، بعيد نهاية النزاعات العالمية (لأن النزاعات الإقليمية لم تتوقف أبداً في الحقيقة) من قبل معظم القادة الغربيين، بإرادته تسليم بلده للاتحاد السوڤياتي، أو للصين، حسب الظروف. وفي سنوات الستينات (1960)، أعدنا إلى الأذهان مرة أخرى أيضاً شبح مؤتمر ميونيخ الذي كان قد سبق لنائب الرئيس نيكسون أن استعان به في جنيف. واستخدمه كينيدي لتبرير وجود مستشاريه في الهند الصينية. وحرضه خليفته أيضاً مبرراً حملة قصفه العنيف التي بدأت

منذ 1965. ذلك أن الرئيس جونسون ووزير دفاعه ماكنمارا ووزير خارجيته دين راسك (Dean Rusk) ومستشاره للأمن القومي ماكجورج بوندي McGeorge Bundy كانوا قد حفظوا «دروس ميونيخ» (Cesari)[1]: يجب احتواء مدّ الشيوعية (هذه هي الترجمة الحرفية لسياسة كونتيناينمانت (الاحتواء Containment)، فهذا واجب الدولة التي يسميها مواطنو الولايات المتحدة «أميركا». وهم لا يريدون أن يتصرفوا كالأوروبيين الجبناء الذين قدموا تشيكسلوفاكيا لهتلر.

تستتبع رؤية الأمور بهذه الطريقة تساؤلاً مبتذلاً بعض الشيء بحيث لا يستطيع مؤرخ أن يسمح لنفسه بذلك: «ماذا كان سيؤثر عليهم ذلك؟» كان يريد الڤيتناميون قبل أي شيء استقلالهم ووحدتهم، ولكن، حتى لو أرادوا أن يكونوا شيوعيين، فما الذي يمنعهم من أن يكونوا كذلك. لا يمكن تلافي هذا السؤال الغبي إذا لم نكن مصرّين على التيه في جدالات إيديولوجية لا نهاية لها. واليوم مع بُعد الزمن، كما يمكن أن يقول ماكنمارا، نجد صعوبة في رؤية ما كان للولايات المتحدة من فعل إيجابي فعلياً لتعرضه على الڤيتنام كبديل عن الشيوعية عدا الطروحات الإنسانية المعروفة والاعتيادية، والتي بالمناسبة كانت متطابقة مع تلك الطروحات المقدمة من قبل المعسكر الشيوعي.

عملياً، فقد عرضوا عليه نظام حكم دييم (Diem)، وعندما تخلّصت فرنسا من الطفل (ومياه المغطس في البداية) لمصلحة الولايات المتحدة، وجد هؤلاء أن دييم لم يكن مناسباً جداً. ما هم فقد استبدل. كنا قد رأينا أن هذا التغيير العنيف نوعاً ما هزّ شعور كينيدي الذي يظهر أنه لم يكن على علم بالطريقة التي ينتهجها بلده. «ليست بمشكلة» (No problmo) فقد تمّ استبداله بسرعة أيضاً. وكان ذلك بالنسبة للنائب العام (Procureur) غاريسون (كيفن كوستنر) في فيلم JFK:

> كميناً من النوع العسكري منذ البداية حتى النهاية. لقد كان انقلاباً، مع وجود ليندون جونسون الذي كان ينتظر في الأروقة.

لا يهم. فبفضل هذا التغيير العنيف، عرف أخيراً رئيس الولايات المتحدة الجديد

---

(1) ولاقى هذا العنوان «الميونخي» عينه، حديثاً، صدىً عند بعض فلاسفتنا خلال النزاع اليوغوسلافي عام 1999.

بماذا عليه التمسك، وأصبح الرجال الجدد الذين وُضعوا على رأس جنوب الڤيتنام على اتصال مباشر مع السفير الشمال ـ أميركي ورجالات السي آي إي.

إلّا أنه من الظريف ملاحظة رأي المسؤولين الأميركيين بخصوص هؤلاء الذين وضعوا على رأس جنوب الڤيتنام لإنقاذ الشعب من براثن الشيوعية. ففي عام 1964 توجب على السفير ماكس تايلور توبيخ بعض الجنرالات المشاغبين قليلاً، والذين بدوا وكأنهم يحضرون لانقلاب جديد:

> لقد كسرتم الكثير من الصحون والآن علينا أن نرى كيفية وضع القليل من النظام في هذه الفوضى العارمة! (ماكنمارا).

ويعلق ماكنمارا ببراءته المثيرة للتأثر:

> وكان مفعول التوبيخ بضع ابتسامات ارتسمت على وجوه مشوّشة وحقد جزيل على السفير ماكس، ولكن لم يكن له أية نتيجة عملية. (ماكنمارا)

وكان الانقلاب الأخير في جنوب الڤيتنام هو انقلاب نغوين فان ثيو ونغوين كاو كي في العام 1965، فيما كان قصف الولايات المتحدة الجوي للشمال قد بدأ. وإنه لمثير للاهتمام قراءة تعليقات الآباء الروحيين لهذا الثنائي الجديد. فقد وصف مساعد السفير اليكس جونسون، كاو كي «بالصاروخ غير الموجه». ويوافقه الرأي الطهروي ماكنمارا:

> لقد كان فعلاً هذا، كان يشرب الكحول ويلعب القمار ويسعى وراء النساء دون حدود، وكان يلبس بطريقة متباهية. وقد رأيته معظم الأحيان ببذة طيران سوداء مع سحاب وحزام ومسدسين توأمين على خاصرتيه وعصا مرصعة بالدرر. وكان أيضاً يطلق أحاديث متطرفة. فقد سأله صحافي من هو الشخص الذي يعجبه أكثر، فأجاب: «أنا معجب بهتلر [. . .] يلزمنا أربعة أو خمسة أشخاص على شاكلة هتلر في الڤيتنام».

وقال يوماً ويليام بوندي (William Bundy)، مساعد وزير الخارجية عندها، بخصوص كيْ وثيو بأنهما كانا:

> قعر البرميل، حقاً قعر البرميل (ماكنمارا. . .)

ولكنني لا أريد مع ذلك الوقوع في الفخ من خلال تركيزي الشديد على رجالات واشنطن من صنيعتها في جنوب الفيتنام. وتبدو لي حتى ادّعاءاتهم عن أنفسهم ودودة وجرائمهم لا تذكر أمام ملايين ضحايا هذه الحملة الصليبية من أجل الحرية. إنه «تفصيل»، قالها سياسي فرنسي معروف جداً. زد على ذلك أن ثيو (Thieu) وكي (Ky) اللذين يصغران كثيراً بينوشيه (Pinochet) في السن، كان وضعهما ممتازاً ولم تأتِ على بال أي قاضٍ إسباني الفكرة العبقرية بإصدار مذكرة توقيف بحقهما. وذلك لأنّ الجريمة الحقيقية (وتبدو لي تتمّة عبارة (جريمة) ضد الإنسانية، المتماشية مع الموضة اليوم، مجرّد بعض اللّغو) هي ما كانت قد عرضته الولايات المتحدة على الفيتنام كبديل للشيوعية: اغتصابات، تعذيب، قرىً محروقة، إعدامات خاطفة، أطفال اتخذوا كأهداف، آذان فيتناميين (أحياء أو أموات) مستبدلة بزجاجات بيرة وعلى سبيل أهداف رماية، سجناء مرميين من أعلى المروحيات، مجازر، نابالم، قصفٌ جويٌ للمدنيين، إعدامات بالجملة داخل مراكز الاعتقال (راموني Ramonet)، وحتى اليوم، بعد خمسة وعشرين عاماً على نهاية الحرب، ما زالت الثمانين مليون طن من المواد الكيمياوية المنتشرة («العامل البرتقالي» الشهير لسوء الحظ) تؤدي إلى سرطانات وتشوهاً خلقية، ولكن لن نحتفظ بهذه التهمة الأخيرة إذا ما أردتم.

إلّا أنني أرغب في تبيان تفصيل صغير أخير مباشر أكثر وممكن إثباته: نظمت وكالة المخابرات المركزية CIA في جنوب الفيتنام جملة اغتيالات بحق كوادر الجبهة الوطنية للتحرير (المدعوّة فيت كونغ (Viêt-cong) أيضاً)، برنامج فينيكس (Phénix) (Cesari). ففي العام 1972، كان عشرون ألف شخص بالمجموع العام من جرت تصفيتهم، ومعظمهم (ولكن ليس كلهم) أعضاء في الـ FNL (الجبهة الوطنية للتحرير). ونلاحظ أن هذا الرقم (إذ تعشق الشعوب المتحضرة الأرقام) يتعدّى بأشواط الثلاثة آلاف ونيف اغتيال المنسوبة للشرطة السياسة المخيفة الخاصة ببينوشيه، الـ (DINA). وهذا الأمر منطقي جداً: فحتى ولو كان عملاء الـ DINA قد حصّلوا علمهم في الولايات المتحدة، فإنهم لن يكونوا أقوى من أساتذتهم.

وبالتالي، لربما يمكن لي بصفتي كاتباً مكسيكياً يحق له في الوقت عينه الحصول على الجنسية الإسبانية أن أشغل وظيفة قاضي التحقيق الإسباني، وأن أسطّر مذكرة توقيف بحق هؤلاء الرجال من جيل بينوشيه: روبرت ماكنمارا، وزير الدفاع الأسبق،

والذي يصغر بينوشيه، ووبليام بوندي، مساعد وزير الخارجية الأسبق، والذي يصغر بينوشيه بسنتين، وماكجورج بوندي، مستشار الأمن القومي الأسبق والذي يصغر بينوشيه بأربع سنوات، ووليم ويستمورلاند (William Westmoreland)، القائد العام الأسبق، والذي يكبر بينوشيه بسنة واحدة. فمن يعرف؟ لربما أنهم أربعة من «الأربعة أو خمسة هتلرات» الذين كان يتمناهم سيد نغويين كاو كي (Nyugen Kao Ky) للڤيتنام. ولكن دور هذا الكتاب هو كشف بعض الوقائع للقارىء ـ كما هي حال الأفلام ـ قد يكون نسيها، وليس إلقاء التهم.

على كل حال، ادعى بوب ماكنمارا، وربما لتوقعه حدوث ملاحقات، عدم مسؤوليته. فمن بداية كتابه، يريد أن:

> تظهر لنا بكل مداها الضغوطات والجهل السائدة في تلك الحقبة. [...] وليقال هذا الأمر بكلمة واحدة: كنا نواجه زوبعة من المشاكل، فلم يكن في اليوم إلّا أربع وعشرون ساعة ومعظم الأحيان لم يكن لدينا بكل بساطة الوقت للتفكير بالشكل الصحيح: (ماكنمارا).

ويجدر بنا إذن استنتاج أنه بسبب حالة النقص المزرية في الطواقم البشرية كانت إدارتا كنيدي وجونسون قد انخرطتا (بالخطأ) في هذه الحرب. فلم يكن بمقدور رجالات واشنطن الفقراء (فقراء، هذه المرة بكل المعنى الاقتصادي الدقيق للكلمة) تكفّل مصروف شخص باستطاعته التفكير والقول لهم بأنهم لربما كانوا يسلكون طريقاً خاطئاً.

وأريد حقاً تصديق ماكنمارا. إذ يبدو فعلياً، حسب مصادري وكأن تصعيد القصف المقرر من قبل إدارة جونسون أتى من جرّاء خطأ جسيم. وقد بدأت العملية الشهيرة والمحزنة «الصاعقة المتدحرجة» (Rolling Thunder) في العام 1965 ولربما سميّت هكذا من قبل معجب بفرقة «الأحجار المتدحرجة» Rolling Stones الغنائية الصاخبة. ودامت ثلاثة أعوام وألقى خلالها على الڤيتنام عدداً من القنابل يفوق ذلك الذي ألقي على كل أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. إلّا أن هذه العملية كانت على الأرجح قد أطلقت نتيجةً لخطأ تعيس في الحسابات من قبل الطاقم البشري عديم الكفاءة ومحدود العدد التابع للبيت الأبيض.

ولنرَ ما تقوله لنا كتب التاريخ في هذا الخصوص. فما عدا «الموضوع الميونخي»

الذي شهره الرئيس جونسون كي لا يكون متخلّفاً عن سلفه، تلمّح النظريّة الأكثر اعتماداً لصوابيتها هذه الأيام نصوص الهدف الحقيقي لهذا القصف الكثيف على الڤيتنام، بوجود حساب جيوستراتيجي محض، وحيث كانت إندونيسيا في ظل حكم سوكارنو تمثّل مركز ثقله النوعي. فقد حاول هذا الأخير (سوكارنو)، الممتعض من ماليزيا الموالية لبريطانيا، أن يتحالف مع موسكو، ومن ثم مع بكين. وذهب حتى إلى اتخاذ القرار الحكيم الذي يجدر بنا جميعاً القيام به: فقد انسحب في الأول من كانون الأول/ديسمبر 1965 من منظمة الأمم المتحدة اعتراضاً على دخول ماليزيا مجلس الأمن وتضامناً مع الصين الشعبية المطرودة من المنظمة منذ العام 1949 بإرادة من الولايات المتحدة.

> ولمواجهة هذا المد الديبلوماسي للصين في جنوب شرق آسيا، كانت إدارة جونسون مصمّمة لجعل الڤيتنام مثلاً. (Cesari)

وخلال اجتماع في البيت الأبيض (في السابع عشر من شباط/فبراير 1965)، استخدم الرئيس الأسبق آيزنهاور كل تأثيره للدفع باتجاه هذا القصف.

> فقد قال إنه إذا كان الصينيون والسوفيات يهددون بالتدخل، علينا إعادة توجيه رسالة لهم لأخذ الحيطة والحذر إذا كانوا يريدون تجنّب نتائج كارثية قد تحصل لهم. (ماكنمارا)

و «بنتائج كارثية»، يحدّد ماكنمارا بأن آيزنهاور كان يريد قول «ضربات نووية». وبسخرية القدر، منذ خريف 1955، وبعيد شروع جونسون (دون إعلانها) بحرب الهند الصينية الثانية (المعروفة باسم حرب الڤييتنام)، أدّت تحولات عديدة في الأمور إلى إبعاد سوكارنو عن السلطة، وأصبح بسرعة كبيرة الجنرال سوهارتو (Suharto)، وصديق الولايات المتحدة المقبل، الرجل القوي في البلاد. وبذلك، خسرت نظرية تساقط أحجار الدومينو جزءاً كبيراً من قوة تماسكها بما أن أندونيسيا ابتعدت دون مجهود يذكر عن طريق الشيوعية، ولكن، طالما أن الشمال أميركيين كانوا قد بدأوا الحرب في الڤيتنام، منعهم فيما بعد اكتراثهم بحفظ المصداقية (صورتهم الرفيعة بالمحصلة) من الانسحاب وخاصة تكبّد الهزيمة.

إلّا أنهم سيعرفون الهزيمة الوحيدة في تاريخ هذا البلد. وهي السبب الحقيقي لسيول الدموع المذروفة حول هذه الحرب. والأمر الذي لا يحتمل، هو كونهم

خسروا الحرب، ولم يخسروا كما كان قد قيل في كثير من الأحيان، عدداً من الضحايا الأميركيين. فخمسة عشر عاماً فيما قبل، خلال الحرب الكورية التي كانت قد انتهت بالتعادل، ذهب العدد ذاته فعلياً من الأميركيين (حوالى خمسين ألفاً) كانوا قد ضحوا بحياتهم من أجل حرّية العالم ولم يثر لذلك ضجة مماثلة. وليس للفيتناميين بكل تأكيد أي اعتبار في كل هذه القضية. فبعض اليساريين المعزولين فقط أحسّوا أن بمقدورهم التأسف على المليون ضحية عسكرية وعلى المليوني ضحية مدنية فيتنامية. ولكن التفصيل الرهيب الذي جعل كل البلد في حالة صدمة، هو أن الـ191 58 أميركياً الذين سقطوا في ساحة الشرف الفيتنامية كانوا قد أعطوا الإنطباع بأنهم سقطوا ضحية خطأ فادح. وكان ماكنمارا لهذا السبب، بكل تأكيد، قد بذل ما بوسعه منذ بداية كتابه للتكفير عن ذنبه عدة مرات. «لقد كنا على خطأ. على خطأ بشكل رهيب». ومقطع واحد فيما بعد، يعطي الدليل على حسّ المنطق الرائع الذي يتمتّع به أصدقاؤنا فيما وراء الأطلسي وهو يستخلص:

> أتمنى أن استطيع القول: «هذا أمر بنّاء نستطيع أن نستخرجه من فيتنام، هو درس يمكن تطبيقه في عالمنا اليوم وغداً». (ماكنمارا)

وسترى فيما بعد بأنه كان على حقّ: إذ كثيراً ما تدين فعّالية الجيش الأميركي في عمليات يوغوسلافيا والعراق للخبرة التي اكتسبتها في الفيتنام. فقد استطاعوا في هذين النزاعين الأخيرين تفادي الأخطاء مع الحفاظ على الفظاعات.

ولكن ينسى ماكنمارا أن يذكر لنا بأن دروس حرب الفيتنام بدأت في الواقع تطبق، حتى ولو بطريقة بائسة جداً (ولهم العذر بأنها كانت المحاولات الأولى)، بعد أقل من أسبوعين من توقيع معاهدة مع الفيتنام. وقد خصّص الرئيس نيكسون (1969 ـ 1974) الوقت الكافي فقط لكي يجف حبر المعاهدة جيداً: ففي التاسع من شباط/ فيفري 1973، بعد إثني عشر يوماً من توقيع وقف إطلاق النار بين وزير الخارجية كيسنجر والمواطن لي دوك تو (Lê Dúc Tho)، تجدّد القصف على كامبوديا بأقصى حدوده. وكان القصف قد بدأ في العام 1969، ولكن خلال الستة أشهر التي تلت نهاية النزاع في الفيتنام، كامبوديا «ستتلقى قذائف أكثر مما تلقّته اليابان خلال كل الحرب العالمية الثانية» (Cesari). وهذه المرّة، بقي الجنود الأميركيون (Boys) بمنأى تماماً عن نيران الخصم. هذا هو الفارق. وهذا هو الدرس المستخلص من التجربة

الڤيتنامية. وبهذه الطريقة كان قد فتح الباب أمام التدخلات الإنسانية بلا أي قتيل في نهاية القرن العشرين. ولسوء الحظ، في الخامس عشر من آب/أوت 1973، قرر الكونغرس الأميركي، الهيئة الوحيدة في العالم القادرة على إيقاف حرب شنها هذا البلد، قطع (المؤن) عن العمليات العسكرية التي يخوضها الشمال أميركيون في الهند الصينية. وهذا أمر طبيعي جداً: فقد كان الدكتور كيسنجر مرشحاً لجائزة نوبل للسلام ولم يرد زملاؤه أن يضيعوا له فرصة تحصيل بضع مئات آلاف من الدولارات. ولم يخطئوا بتقديرهم لأنه بعد بضعة أشهر استطاع قبضها بكل طمأنينة.

كذلك أنعم عليه القدر بأن أعفاه من واجب تحمل وجود الشريك الموقع لاتفاقيات السلام، ذلك الرجل المزعج، لي دوك تو (Lê Dúc Thu)، والذي كان عليه أن يستلم الجائزة معه. فاشمئزازاً من منافاة هذه المكافأة للمنطق، رفض الڤيتنامي الاشتراك في هذه المهزلة.

الخاتمة الكامبودية

في «مذكّراته»، يدّعي كيسنجر بأن سيهانوك (Sihanouk) (الملك الكمبودي السابق والذي عاد بعد الوقت في تلك الأثناء ليصبح أميراً) كان قد منح دعمه المضمر للقصف الجوي لكامبوديا ربيع 1969. عملياً، إذا ما تبعنا وجهة نظر المؤرخين الحقيقيين، فإن هذا الكلام مردود تماماً (Cesari). فالأمير الكامبودي، الذي وجد صعوبة بأن يَلْزَم يساره رغم تعاطفه مع شمال الڤيتنام، كان له سوء حظ استقبال الزيارة السرية لسفير الولايات المتحدة في الهند في كانون الثاني/جانڤي 1969. ولئن كان صحيحاً أنه أعطى حق ملاحقة المقاتلين الشوعيين الڤيتناميين على أرضه، فإنه لم يعط أبداً موافقته على حملة قصف متواصلة. وهذا «درس جميل» كامبودي، أحبّ أن أدوّنه في ذاكرة الشعوب الصغيرة.

وفي الثامن عشر من آذار/مارس، بدأ القصف إذن، بسريّة تامة في بادىء الأمر، قبل أن تفشى سريتها من قبل النيويورك تايمز (New York Times). واستهدف القصف ـ الذي لم يعرف استراحته الأولى إلّا في تشرين الثاني/نوفمبر ـ الڤيتاميين الشماليين الذين يسلكون طريق اللاوس (Laos) وكامبوديا (طريق هو شي مينه Hô Chi Minh

الشهيرة) للهجوم مباشرة على كوشينشين (Cochinchine)، في قلب فيتنام الجنوبي. ولسوء الحظ، لم تكن القذائف في تلك الحقبة ذكية كاليوم ولم تكن تفرق بين الفيتاميين والكامبوديين.

وانتهى هذا القصف (أو بالأحرى «الضربات»، كما يمكن أن نقول اليوم) بإغضاب أكثر من شخص واحد. فضعوا أنفسكم في مكانهم للحظة صغيرة وحاولوا تصوّر كيف كانت ستكون ردة فعلكم إذا بدأت يوماً تمطر قنابل على حقولكم. فقد بدأ بعض الكامبوديين إذن يصبحون عصبيين جداً بعض الشيء. وفي آب/أوت 1969، ولمحاربة ميليشيا بول بوت (Pol Pot) والتي أصبحت قواته مشهورة تحت اسم الخمير الحمر (Khmers Rouges)، عيّن سيهانوك رئيساً للوزراء، الجنرال لون نول (Lon Nol)، العدو اللدود للشيوعية وللفيتناميين (Cesari). وبضعة أشهر فيما بعد، أدرك سيهانوك خطر تقلّصه إلى دور صوري، وبأن التقرب السياسي الحذر الذي بدأه مع الولايات المتحدة، قد يكون خطراً في أن يستبدل بتحالف صلب، لن يعرف أحد كيف سيتجاوب معه فيتنام الشمالي. لقد فات الأوان. ففي الثامن عشر من آذار/مارس 1970 أوكل البرلمان، محاصراً بدبابات الجيش، الحكومة إلى لون نول. وفي الثلاثين من نيسان/أفريل، ودون حتى استشارة هذا الأخير، أعلن نيكسون على الملأ بأن قوات الولايات المتحدة ستنضمّ إلى «عملية تطهير» الشيوعيين. فمع سيهانوك، كانت حيادية كامبوديا ستجعل عملية كهذه من الصعب الدفاع عن مغزاها، ولكن مع لون نول، انتقلت كامبوديا منذ ذلك الحين بشكل علنيّ إلى المعسكر الغربي وأزيلت هكذا العقبة الدبلوماسية.

إلّا أن الرئيس نيكسون، عندما أزعج من قبل كونغرس بلاده (الذي، بين عدة أسباب، كان مخجولاً قليلاً من الانكشاف العلني الحديث لمجزرة ماي لاي (My lai القرية الفيتنامية الجنوبية، على يد القوات الأميركية) قد اضطر إلى إخلاء قواته البرّية من كامبوديا في شهر حزيران/جوان. وفي المقابل، استمرت الإمدادات العسكرية والقصف الجوي لتصل إلى حدها الأقصى، كما كنا قد رأينا، إلى ما بعد توقيع المعاهدة مع الفيتنام أوائل عام 1973. وبما أن الكونغرس كان قد منع تواجد القوات في كامبوديا، تهجّم نيكسون ومستشاره كيسنجر (لم يكن وزيراً للخارجية بعد)، منذ 1979، على اللاوس، هذا البلد الذي سيتلقى في سياق هذا الموضوع قنابل تفوق ثلاث مرات تقريباً ما تلقته كامبوديا. ولكن هذه صارت الآن قصة

أخرى[1]. ولا أحاول هنا إيجاد علاقة سلبية مباشرة بين تدخلات الولايات المتحدة في كامبوديا وتعزيز مكانة الخمير الحمر. ولكن أيّ مؤرخ سوف لن يشك بأن هذه التفاعلات والقصف عديم الشفقة كانت قد ساهمت في تأزيم الحالة السياسية والاجتماعية الكامبودية؟

ومن ثم، ما إن رُفع الستار عن الأعمال المرتكبة بعد سيطرة الخمير الحمر على الحكم في كامبوديا عام 1975 تلقينا وصفاً دقيقاً لبشاعاتها. وابتداءً من هذه اللحظة، ربّما استطاع، الدكتور كيسنجر، الذي يصغر بينوشيه بثمانية أعوام (وهو ربما خامس «الأربعة» أو خمسة هتلرات» الذين يبحث عنهم نغويين كاو كي Nguyen Cao Ky)، النوم قرير العين: فقد أصبحت هكذا صورة القصف المؤسفة التي كان قد خطّط لها بعناية مع رئيسه أقل لمعاناً وبروزاً للعيان. وبهذه الطريقة لم تعد الولايات المتحدة الوحيدة التي كانت قد ارتكبت المجازر في المنطقة، فلم يعد المليونا قتيل المنسوبان رسمياً للخمير الحمر بعيدين جداً عن الثلاثة ملايين ڤيتنامي الذين أبادتهم أمبراطورية الحرية الجبارة.

(1) Laurent Cesari, *L'Indochine en guerre, 1945-1993*, Belin, Paris, 1995, 194.

في أيار/ مايو 1999 في عز حرب يوغسلافيا، ظهر ملف في اللوموند ديبلوماتيك بعنوان (طريقة للنظر إلى 1945، أيار/مايو ـ حزيران/ جوان 1999) حول البلقان. في أحد مقالاته تحدث نعوم تشومسكي عن اللاوس حيث يقتل كل عام آلاف الأشخاص ـ معظمهم من الأطفال والفقراء ـ في سهل الجرار (Plaine des Jarres) الذي كتب عليه أن يتحمل أعنف القصف والأكثر شكاً ضد الأهداف المدنية في التاريخ. ودونما اعتبار لكون هذه الوحشية العسكرية للولايات المتحدة ضد مجتمع ريفي أعزل وتعتبر غير متناسبة مع الحروب التي كانت تخوضها في المنطقة. إن أسوأ الفترات بدأت في 1968 في وقت اضطرت واشنطن، تحت ضغط الرأي العام وأوساط رجال الأعمال، أن تُشرع في مفاوضات لإنهاء القصف المتواصل لڤيتنام الشمالية. فقرر هنري كيسنجر وريتشارد نيكسون حينئذٍ نقل القصف وتوجيهه ضد لاوس وكمبوديا.

القتلى تسبب بهم القنابل الصغيرة، وهي أسلحة مضادة للأفراد أكثر فتكاً بما لا يقاس من الألغام الأرضية. لقد أعدت لتقتل وتبتر، لكنها غير ذي تأثير على الآليات الثقيلة والأبنية. لقد أشبع السهل زرعاً بمئات الملايين من هذه الأدوات الإجرامية. إن عدد الضحايا الحالي يقدر ببعض مئات وتبعاً لبارزي وابن، الصحافي المحنك في الطبعة الأسيوية لوال ستريت جورنال، «20 000 سنوياً على نطاق البلد كله، نصفهم يلاقون حتفهم.

تذييل

وفي آذار/مارس 2000، عشيّة رحلته التاريخية إلى الفيتنام، أعلن وزير دفاع الولايات المتحدة بأن على هذه الزيارة أن تسمح «بإنهاء هذا الفصل من التاريخ بين البلدين». وهكذا، في حقبة تميل الأدوار بغرابة إلى الانقلاب، وحيث يتغنّى اليساريون القدامى بفضائل الولايات المتحدة، وحيث يتنطح لوبين Le Pen للدفاع عن العراقيين، وكان قد تهيأ لي سماع السيد ويليام كوهين مرتلاً أبيات «نشيد الأممية» حيث ينصحنا بنسيان الماضي والبدء من الصفر. ولكن أعتقد بأنه لسوء الحظ لن يكون نضاله الأخير.

كوبا (الجزء الثالث): الفيل الأسود غير المفهوم 1959 ـ؟؟؟2)

بما أنّ كوبا، حتى النصف الأول من القرن العشرين، كانت الحقل المميّز للتجارب العلمية الخاصة بأمبراطورية الحرية، أطلب منكم، قرائي الأعزاء، كي لا أشذّ عن التقليد، مساعدتي لتحقيق تجربة صغيرة مسلّية ومضحكة إلى حدّ ما.

تصوّروا في البداية المشهد التالي. قبل بضع سنوات كان الكاتب النّاقد والجامعيّ الكوبيّ روبرتو فيرنانديز ريتامار (Roberto Fernandez Retamar) يحلّق فوق الكاريبي على متن طائرة أميركية. وكانت تجلس إلى جانبه سيدة أميركية، ابنة بروفيسور في التاريخ في الولايات المتحدة. وبعد انتباهها إلى لكنة فيرنانديز ريتامار، سألته عن جنسيته. فأجابها «إنني كوبيّ»، فأضافت السيدة، بشكل طبيعي جداً: «في أيّ مدينة من الولايات المتحدة تسكن؟» فأجاب فيرناندليز ريتامار عن هذا بأنه كمعظم الكوبيين يعيش في كوبا. فاصْفرّ وجه السيدة، كما حصل مع كينيدي عندما علم بخبر اغتيال ديم، وصرخت بتعجّب: «إذاً أنت من رجال كاسترو!». مستهضماً الأمر، اعترف لها محاورها بأنه لم ينظر إلى نفسه قط من هذه الزاوية، ولكن إذا ما كان ذلك سيسهّل الأمور وبما أنه كان يعتبر نفسه ثورياً، كان باستطاعته الموافقة على ذلك. وبدأت عندها السيدة بالتكلم على الهجرة الكوبية (والتي بخصوصها، بالمناسبة، عبّرت عن نفسها بطريقة لم تكن رقيقة بأي وجه)، وسألته لماذا، إن كان يعتقد بأن النظام

الكوبي كان إيجابياً إلى هذا الحدّ، يترك هذا العدد من الكوبيين الجزيرة. ومتسلحاً بطول البال الذي كنا قد نسجناه، نحن المتخلّفين (سكان البلدان المتخلّفة) في علاقاتنا مع «العالم الأوّل» (البلدان المتقدمة)، أفهمها فيرنانديز ريتامار بأن الأجدر في الجواب عن سؤال كهذا هم المهاجرون أنفسهم. أما بالنسبة له، فباستطاعته أن يفسّر لها، إذا كانت تريد ذلك فعلاً، لماذا كان قد قرر البقاء بكوبا، رغم حبّه لأوجه عديدة للولايات المتحدة. ثم طلب من السيدة إذا كان باستطاعته أن يسألها سؤالاً بالمقابل: «لماذا هذا الكمّ من سكان الثلاث عشرة مستوطنة الأصليّة للولايات المتحدة كان قد ترك البلد بعد استقلاله؟». لم تكن السيدة قد سألت نفسها أبداً هذا السؤال، ولم تكن قد فكّرت أبداً بالقيام بمقارنة بين حدث كهذا والهجرة الكوبية. وقبل أن تحط الطائرة، نصحها فيرنانديز ريتامار بالتطرّق إلى الموضوع مع أبيها، المؤرخ كما قلنا، في الولايات المتحدة (كواديرنوس أميريكانوس Cuadernos Americanos).

ولإنهاء تجربتنا، سأطلب منكم الآن تصوّر المشهد عينه، ولكن سأكون أنا مكان فيرنانديز ريتامار. الطائرة ذاتها، المشهد عينه، ولكن سأكون أنا مكان فيرنانديز ريتامار. الطائرة ذاتها، الرحلة ذاتها. المشهد العام ذاته، السيدة ذاتها. الحوار الأولي ذاته، التقاط اللكنة الأجنبية ذاته، والسؤال عن الجنسية ذاته. ولكن إذا ما أبدلنا الجواب «إنني كوبي» بـ «إنني مكسيكي»، يتغير المشهد تماماً. فلن تكون ردّة الفعل الأولى للسيدة بأن تسأل هذا المكسيكي الطيب في أية مدينة من الولايات المتحدة يسكن. وعندما يتكلم المكسيكي عن حبّه لبلده، لن يصفرّ وجهها كما حصل لكنيدي عندما علم بخبر اغتيال ديم ولن تصرخ به: «أنت إذاً من رجالات الـ PRI الحزب الثوري الدستوري!» (الحزب الذي بقي في السلطة لواحد وسبعين عاماً). ولن تتوانى للحظة واحدة عن التطرّق إلى مسألة الهجرة المكسيكية إلى الولايات المتحدة حتى ولو أن الصحافة ليست بخيلة فيما يخص تغطية الرقم الذي لا يحصى (لا يحصى بكل ما لجذور الكلمة من معنى أيّ، مستحيل حسابه، إلّا أنه يبلغ عدّة ملايين) للمكسيكيين الذين يقومون كل عام برحلة خطرة إلى بلاد الماكدونالد.

أين يكمن إذاً الفارق بين فظاعة كوبا وفولكلور المكسيك؟ ويجد الاختصاصيون صعوبة بالغة في الإجابة عن هذا السؤال، لذا يمكن لكم التصوّر بأنني أقل كفاءة أيضاً للقيام بذلك. والأمر الوحيد الذي يمكن لي عَرَضياً المخاطرة بفعله، هو محاولة

فك شيفرة الجواب المبطن، ولكن المصمّ، الذي يغفو في خواطر الكثيرين المتحدرين من «العالم الأول»: «ذلك لأنّ كوبا هي بلد منحط». إنني مستعد لقبول هذا الجواب إن لم يكن يبطل نفسه بنفسه بسبب صوابيته الكبيرة جداً: فبالفعل، كوبا، حسب معايير الدول المتحضّرة، هي بلد منحط، كما هي حال المكسيك، التشيلي، إندونيسيا، يوغوسلافيا، ألبانيا، الهند، ساحل العاج، البرازيل، الفيتنام، تايلاندا، الباراغواي، أفغانستان، العراق، أوغاندا، البيرو، كولومبيا، روسيا، ولكي لا أملأ هذه الصفحة والصفحة التالية بأسماء دول، كل الدول التي لا تنتمي إلى مجموعة الدول الأكثر تقدماً G7، ولا إلى الاتحاد الأوروبي، ولا إلى المنظمة الأوروبية للتجارة الحرة.

لا يوجد إذاً جوابٌ حقيقيٌ لتلك، ولكن دعونا لا نتخبط، ولنتخذ هذه المسألة الغامضة كتحدٍ لجعل قراءتنا أكثر تشويقاً. والأمر الوحيد الذي يبقى واضحاً جداً في هذه القضية، هو أن البلدان الأميركية الأخرى بعيدة عن أن تكون الجنة التي نعدُ بها الكوبيين إذا ما قرروا يوماً الانضمام إلى عالم الحرية.

ولكن لنوقف تخيلاتنا المكلّة ولنبدأ غوصنا في الماضي مع طرفة غريبة أخرى لروبرتو فيرنانديز ريتامار. ففيما كان يقيم في جامعة يال (Yale) (1957 ـ 1958) بصفته استاذاً زائراً، حصل على كتاب مدرسي ثانوي مشهور نوعاً ما، «التاريخ السياسي والاجتماعي الأميركي» لهارولد أندروود فوكنر (Harold Underwood Faulkner)، والذي تعود طبعته السادسة، تلك التي اشتراها فيرنانديز ريتامار، إلى العام 1952. وفي الصفحات المخصصة لكوبا، يمكن لنا قراءة:

> أن الولايات المتحدة قد تعلمت درساً جوهرياً في كوبا: ومن غير المفيد أبداً ضمّ أرض للتمتع بالمنافع المالية للإمبريالية [...] ففي منتصف العشرينات من القرن الماضي، بقي قليل من الفوائد القيّمة التي لم تنتقل إلى أيدي المصالح المالية: الشمال أميركية؛ فبفضل ديناميكية الاستثمارات في الولايات المتحدة، كانت كوبا قد أصبحت أرض زراعات القصب السكري والتبغ، كبيرة، مُدارة من الخارج، وتعمل فيها يد بروليتاريا كوبية دون أرض والتي يظهر ازدهارها بشكل كامل تقريباً على السوق [الشمال] الأميركي، والذي كان بدوره يعتمد على التعريفات الجمركية [الشمال] الأميركية [...] وإنه واضح بالتالي بأن الثروة الكوبية كانت قد أصبحت تحت سيطرة [شمال]

أميركية وبأن الحياة السياسية الكوبية من العام 1898 حتى العام 1934، وما بعد هذا العام حتى، كانت موجهة بشكل جوهري من قبل واشنطن.

وبعد بضعة أشهر على قراءة فيرنانديز ريتامار لهذه الصفحات، انفجرت الثورة الكوبية. في كل الأحوال فقد تغيّر حقاً تاريخ كوبا.

وهل من الضروري التذكير بما كانت، وما هي الثورة الكوبية؟ إذ حتى وإن بدا اليوم معظم مثقفينا مبهورين أكثر بفعالية صواريخ التوماهوك، وبقاذفات الـ B5 والـ B2، أو ببلاغة الحاكم السابق للكوسوفو، فأنا على قناعة، بأن ملحمة كاسترو وتشي غيفارا ورفاقهم لا تزال محفوظة في زاوية مغبرّة من ذاكرتهم. والكل عليه الاعتراف بأن أياً من الظروف المفيدة في كتاب فوكتر المدرسيّ لم تعد كافية إبتداءً من كانون الثاني/جانفي 1959. في جميع الأحوال، لقد قلت ذلك مسبقاً. يلوم كثير من المحلّلين كاسترو على تقرّبه الشديد من الاتحاد السوفياتي، ويريد آخرون كثر تقليل هذا التقرّب عينه، معللين ذلك بأنه لم يكن إلّا ظرفياً وناتجاً عن ضغوط الولايات المتحدة. ويقول آخرون بأن الطريق المتبعة، الإشتراكية، كانت الطريق المناسبة لهذا البلد. ويقول آخرون أيضاً العكس تماماً. وكل هذا الجدال هو خارج عن سياق موضوعنا لأنني أريد ترك الجزيرة تعيش حياتها كما يحلو لها ولكن هذا لم يكن رأي الرئيس كينيدي:

> إن واجبنا غير المنجز هو البرهان على أن النظام الديمقراطي، والرأسمالي بمؤسساته الحرة، هو أفضل للدول المتخلفة، أكثر من الأنظمة التوتاليتارية (الشمولية)، وأنه سيجلب العدالة الاجتماعية التي تطلبها الجموع. (Matthews)

كل شيء ممكن، إذن، وقد يكون كينيدي عارفاً بكل ثقة بما كانت الجموع بحاجة إليه. إلّا أنه برهن هنا بأن بعد النظر الرئاسي كان ثاقباً نوعاً ما بما أنه تنبّه إلى أن مهمته كانت غير منجزة. لقد كانت فعلاً غير منجزة، أولاً لأنه لم يكن قد نجح بعد بإقناع كوبا أن «نظامنا الديموقراطي»، الرأسمالي، هو الأفضل. وغير منجزة ثانياً، لأن شعوب الأمم التي، بواسطة القصف أو الكلمات الرقيقة، تُمنح ذلك «النظام الديموقراطي»، لم تنجح بتحقيق «العدالة الاجتماعية التي تطلبها الجماهير».

في الواقع، بدأت مهمة البرهان على فضائل «نظامنا الديموقراطي، والرأسمالي،

ذي المبادرة الحرة» لكوبا قبل أن يستلم كينيدي زمام القيادة في بلده: ففي تشرين الأول/أوكتوبر عام 1959، حصل بعض القصف على الجزيرة انطلاقاً من الولايات المتحدة، البلد الذي يتمتع في تلك الحقبة بعلاقات دبلوماسية طبيعية جداً. ثم، بينما كانت أغضبتها تأثيرات الإصلاح الزراعي على ممتلكات مواطنيها ـ حيث أن أملاكهم في كوبا بلغت 40% من مجمل الأملاك الكوبية (Matthews) ـ، رفضت حكومة الولايات المتحدة شراء الكميات الكبيرة من السكر التي طلبتها. قبل عندها الاتحاد السوڤياتي أن يقايض السكر بالبترول، ولكن لمعاكسة هذا التدبير، رفضت المصافي الشمال أميركية تكرير البترول السوڤياتي، فكانت الحكومة الكوبية عندئذٍ مجبرة على تأميم المصافي... وبدأت الأمور بالتالي تتدهور شيئاً فشيئاً.

في 4 آذار/مارس، انفجرت الباخرة الفرنسية لاكوبر (La Coubre) وهي تنقل حمولة من الأسلحة البلجيكية، في مرفأ هافانا. تلك القضية، التي لم تتوضح أبداً، لم تكن دون تذكير، على نحو مطابق، بتنفجار المدرعة البحرية مين (Maine)، قبيل الحرب الإسبانو ـ أميركية.

وصل التوتر إلى درجة قطعت فيها العلاقات الدبلوماسية في بداية آذار/مارس 1961، بعد سنتين من بداية الثورة. والعلاقات التجارية أيضاً. فهذا هو ما يسمى بشكل متداول الحصار: سلسلة تدابير من حكومة الولايات المتحدة لتمنع على شركاتها كل تجارة مع كوبا.

في تلك السنة ذاتها، كانت عملية بلوتو (Pluto) على جدول أعمال الـ السي آي إي. بلوتوهو اسم الرمز الذي يدل على الإنزال المشهور على شاطىء جيرون (Giron)، في خليج الخنازير. واسم العملية نفسه، بلوتو، يشير في حينها إلى السمة المضحكة المبكية لتلك القضية: يمكن أن تشير أيضاً إلى اله الجحيم الرهيب كما الكلب المطيع الطيّب لميكي (Micky). حسب الظروف، ولكن أظن، عند رؤية السمة غير المحترمة لمواطني والت ديزني، بأنه كان في رأسهم الخيار الثاني. لا بد أنهم كانوا يفكرون بأن كل شيء سيمر كما كان قد مرّ ذلك قبل سبعة أعوام في غواتيمالا، وأنه قد تعود كوبا الكلب المطيع للصناعة والتجارة والمافيا الشمال ـ أميركية كما تراه في «العراب». وحسب آرثور شلزينجر جونيور، مؤرخ حياة كينيدي، حلل الرئيس عندئذٍ فشل الإنزال في كوبا: كان الاختبار دائماً لمعرفة إن كان الكوبيون سيدعمون انتفاضة ضد كاسترو. (Matthews).

في هذا الشكل، حتى وإن لم ينجح بأن تعود كوبا كَلْباً، فكان لدى كينيدي على الأقل العزاء بإمكانية الارتباط من جديد بالتقليد باعتبار الجزيرة كنوع من حقل تجارب اجتماعية سياسية. نوع من فأر اختبار.

فيما بعد، في بداية عام 1962، طُردت كوبا من منظمة الدول الأميركية (OEA) ومجموع البلاد الأميركية، فقط المكسيك، أوقفت كل علاقة دبلوماسية وتجارية مع الجزيرة. وهكذا بدأت المرحلة الغريبة لنصف ـ العزلة لبلد نجح مع ذلك أن ينظم في هافانا مؤتمر القارات الثلاث (1967). مؤرخ سيرة كينيدي لم يكن قد ترقب نتائج كهذه. في منتصف الستينات (1960)، فكتب:

> إن سياسة كينيدي القائمة على عزل وتجاهل كاسترو أعطت نتائج جيّدة. في عام 1963، لم يكن حتى شوكة في لحمنا. مرة واحدة كان تأثيرها في أميركا اللاتينية مدمراً، فإن بقاء نظام شيوعي مشلول في الكاريبي لم يعد له أهمية. (Schlesinger Jr.)

ويرد ل. ماتيوز (1970) كاتب سيرة كاسترو، على شليزينغر بالطريقة التالية:

> لم يكن فيدل مزعوجاً أن يكون «معزولاً»، فبقاء ثورته وآماله بالوصول إلى اقتصاد جديد قابل للاستمرار كان متوقفاً على ذلك. كان يكفيه بأن تُترك كوبا هادئة وفي سلام لكي ينظم مشاكله. وفي ما يتعلق «بالشلل»، يعتبر الكوبيون بأن موسكو حاصلة على حقها، وأبعد من ذلك، بمجرد وجود نظام شيوعي على عتبة الولايات المتحدة.
>
> وإذا كان «تأثير كاسترو في أميركا اللاتينية مدمّراً»، كيف يفسر بأن الرئيس جونسون، وقد أخذه الهلع، أعتقد نفسه مجبراً على دفع 000 30 بحار أميركي (marines) في وجه جمهورية الدومينيكان، في نيسان/أفريل 1965، خوفاً من «كوبا أخرى»؟

فلأجل ذلك السبب، سمح الرئيس الكوبي دورتيكوس لنفسه أن يُظهر بعض التكبر أمام مؤتمري منظمة الدول الأميركية أثناء مداخلته الأخيرة في عام 1962.

> يمكن لكم أن تقصونا، قالها منفجراً في وجوههم، ولكن لا يمكن لكم إخراجنا من القارة الأميركية. يمكن لكم طردنا من منظمة الدول الأميركية؛

ولكن الولايات المتحدة ستعتاد بأن يكون لديها كوبا ثورية على بعد 150 كلم، من حدودها. (Matthews)

هذا علماً، بأنّ الرئيس دورتيكوس لم يكن محقاً تماماً. عدو هذا ما يعرفه تماماً على كل حال. قبل عشرة أيام، في جزيرة إنيويتاك المرجانية (Enewetak)، وهي من جزر مارشال التي سرقتها الولايات المتحدة من اليابانيين، الذين سرقوها من الألمان، الذين سرقوها من الميكرونيزيين، كان ينتصب مكعب أسود كبير يوحي من بعيد إلى نوع من أخ توأم شيطاني للكعبة في مكة. يسمى مايك (Mikue). إنه عبارة عن قنبلة بسائل التريتيوم والدوتيريوم اللذين يجب أن يمتزجا لتوليد أول تفاعل حراري نووي على نطاق واسع. في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1952، انفجر «مايك» مطلقاً قوة حرارية أعلى بألف مرة تقريباً من تلك التي انطلقت من قنبلة «الفتى الصغير» في هيروشيما: 10,5 ميغا طن، بعيد سنتين، انتهى تجهيز قنبلة بالطائرة مصنوعة من دوتيرور الليثيوم 6. النترونات الناتجة عن تفسّخ الصاعق تحول فوراً تقريباً الليثيوم 6 إلى تريتيوم الذي يلتحم عندها مع الدوتيريوم مسبباً عندئذٍ التفاعل الحراري النووي. تصل قوته إلى 15 ميغا طن. بعد ثمانية أعوام، في الوقت الذي ألقى فيه دورتيكوس خطابه الوداعي لمنظمة الدول الأميركية (OEA)، كانت الولايات المتحدة قادرة كلياً، إن أرادت ذلك، على «استئصال» كوبا من القارة الأميركية. «مادياً» كما يقول أصحابنا الماركسيون.

وفي يوم ما، ربما سنعرف كيف عملت الآلية التي أطلقت أزمة صواريخ تشرين الأول/أوكتوبر عام 1962. اليوم، لا نعلم حتى إن كان نشر الصواريخ النووية على الجزيرة هو إملاء سوفياتي أم طلب كوبي. الشيء الوحيد الذي يمكن فعله، هو أن نحاول فهم وجهة نظر اللاعبين الذين نفّذوا الدور العاطل.

لننظر بداية، إلى الأمور من وجهة النظر السوفياتية. إن فتحنا أطلساً، يمكن التحقق بأن شيئاً جوهرياً غير عادل لا يوجد (بمنطق «الردع» المرعب) في واقعة نشر صواريخ نووية في الكاريبي. في تلك الحقبة، لم تكن بعد قد وصلت الصواريخ الباليستية العابرة للقارات (مينتمن minutemen) الأميركية وآر تي (RT) السوفياتية إلى دقة اليوم. والطريقة الناجعة لضمان تهديف المراكز الحيوية من الساحل الشرقي للولايات المتحدة كانت بوضع صواريخ متوسطة المدى على نقطة قريبة من تلك (الولايات المتحدة). هذه النقطة، طبعاً، هي كوبا. فذلك يعوض عن التهديد الذي شكله نشر الصواريخ

انطلاقاً من القواعد التركية التابعة للحلف الأطلسي ضد الاتحاد السوفياتي. لشدة ما كان المنطق محتوماً فقد انتهت الأزمة بمجرد أن تعهد كينيدي بسحب صواريخه من تركيا. إن المشكلة الأساسية هي أنه كان يُخشى أن تلك الوقاحة الكوبية ـ السوفياتية تمزق عقيدة مونرو المقدسة التي كانت ستحتفل في وقت قريب بعيدها الـ 140. إنني مقتنع بأن الولايات المتحدة كانت ستذهب إلى إشعال نزاع نووي للدفاع عن ذلك المبدأ، ولكن القوى الغربية رمت دائماً بالمسؤولية عن مثل هذا الاحتمال، بصورة طبيعية على الاتحاد السوفياتي وحده.

من الجهة الكوبية، نرى الأمور بشكل مختلف جداً والتباعد مع السوفيات ظهر بسرعة. عدد من المحللين، حتى أولئك الذين يشعرون بميل صريح لكاسترو، مثل هربر ل. ماثيوز، يظنون بأنه ارتكب هنا فعلاً غير صائب[1]. إن لديهم الحق في ناحية ما لأن السنوات الأولى للثورة الكوبية قد تميزت بنوع من الجنون الذي يدعو إلى التفكير بأنه يجب أن يكون لدى البلاد الصغيرة نفس حقوق ونفس كرامة الكبار. إنه الجنون نفسه الذي كان قد دفع هو شي منه إلى استثارة السخرية في مؤتمر فرساي عام 1919. إنه نفس الجنون الذي دفع الكوبيين لارتكاب أخطاء جمّة في أوائل الخطط الزراعية. ولكنني لا أظن بأنه كان من الجنون كونهم أرادوا أن يخلقوا حماية فعالة ضد الإملاءات الممكنة من الجار النافذ. ضعوا أنفسكم مكانهم ولو للحظة: تعرفون أنكم بصدد تحقيق حركة مختلفة فعلياً عن كل ما تحقق من قبل في القارة الأميركية. اقتربتم وحتى أعلنتم عملياً تحالفكم مع أسوأ عدو لجاركم النافذ. من جهة أخرى، رأيتم ما الذي فعله ذلك الجار في بلدان أخرى في القارة الأميركية، التجربة الأكثر حداثة كانت تجربة غواتيمالا عام 1954، وأنتم بذاتكم، سبق وهوجمتهم من ذلك الجار. كان الكوبيون يخافون فعلاً هجوماً وشيكاً.

> في بداية تموز/ جويليه عام 1962، كتب ماثيوز، أنه عندما اتجه راؤول كاسترو إلى موسكو حيث ساد الاعتقاد بأنه اتخذ التدابير النهائية للصواريخ النووية، كان الكوبيون يشعرون بقوة ثقل ذلك التهديد. كان ذلك بأقل من عام بعد اجتياح خليج الخنازير. كانت الـ سي آي إي ناشطة باستمرار، مرسلة

(1) قالها صراحة. وتابع يقول: «إن التجهيزات الضخمة للطيران [الشمالي] ـ اميركي كانت على أهبة الاستعداد في خلال لحظات إلى اكتساح كل جزء من كوبا حيث يعرفون أو يشكون بأنه يتواجد فيها مواقع صواريخ، وحيث كانت قد شوهدت القاذفات السوفياتية، اليوشين 28 Ilouchine».

مخربين، قناصين، ومعادين للثورة من كل الأجناس. وقد أكد لي فيدل، في تشرين الثاني/نوفمبر 1963، بأنه على أساس المعلومات من مختلف المصادر التي كانوا قد حصلوا عليها في بداية عام 1962، كان تقريباً متأكداً بأن الولايات المتحدة تحضر لاجتياح عسكري لكوبا.

ماذا كان بإمكانكم أن تفعلوا في تلك الحالة؟ كانت الحالة آنذاك شبيهة كل الشبه بوضع تلك البلاد الأوروبية التي كانت قد طلبت من الولايات المتحدة حماية نووية ضد اجتياح سوفياتي افتراضي. ولكنني أعلم بأن بلدان أوروبا الغربية تجد صعوبة في تحمل تشبيهها بكوبا.

بالنسبة لي، لا أقوم إلّا بنقل الوقائع، إنها ليست غلطتي إن كان الكوبيون، بعد الثورة، اكتسبوا ميلاً مزعجاً في اعتبار بلدهم جديراً بالاحترام من أي بلد آخر. لخص كاسترو، في مقابلة أعطيت إلى جريدة «لوموند» (22 ـ 23 آذار/مارس 1963)، هذا السلوك ببعض الكلمات:

> ليس في نية كوبا أن تكون حجراً على رقعة شطرنج العالم[1]. إن السيادة الكوبية حقيقة. فمن أجل ذلك حاربنا. لا يمكن أن أتقبل بأن خروتشيف قد وعد كينيدي بسحب صواريخه دون أقل إشارة إلى موافقة الحكومة الكوبية الضرورية. طبعاً، إن الأمر يتعلق بالصواريخ السوفياتية التي لم تكن تحت سيطرتنا المباشرة. ولكنها كانت على أرضنا الكوبية وكان من غير الجائز تقرير شيء دون استشارتنا. فنحن لسنا بتابع (satellite). من الواضح، أن لدى الاتحاد السوفياتي مسؤولياته العالمية التي ليست عندنا. كان خروتشيف يريد السلام، نحن أيضاً. فلا أحد له الحق في التصرف بسيادة كوبا. من أجل ذلك عرضنا برنامجاً من خمس نقاط، وهي الوحيدة، التي يمكن لها أن تضمن السلام في الكاريبي.

سأترككم تحكمون على «جنون» هذه النقاط الخمس: 1) انتهاء الحصار الاقتصادي وجميع الضغوطات التجارية؛ 2) توقف جميع نشاطات الولايات المتحدة الحربية ضد كوبا؛ 3) توقف هجمات القرصنة من خلال قواعد في الولايات المتحدة أو

(1) من أجل ذلك أعطيته في رقعة الشطرنج رتبة «الفيل».

بورتوريكو، 4) وقف التعليات على الأرجاء البحرية والجوية الكوبية؛ 5) انسحاب الولايات المتحدة من القاعدة البحرية في غوانتانامو.

إن قاس قرائي الأوروبيون تلك النقاط الخمس بقياس بلادهم، سيجدونها صحيحة كلياً وحتى ورعة قليلاً، لأن الأفعال المعلنة يمكن أن تكون كلها بمثابة «إعلان حرب». ولكن العيون المتخلفة تراها فوراً استفزازاً مضحكاً. من معه الحق؟ كالموقف هنا (وفي مملكة السموات) يربح دائماً الصغار، إنهم المتخلفون اللذين معهم الحق: لقد شعرت الولايات المتحدة بالمهانة ورفضت النقاط الخمس بالجملة.

إلّا أننا نستطيع القول إن كوبا تدبرت أمرها بشكل لا بأس به في تلك القضية: فلم يحصل أي اجتياح على نطاق واسع، رغم سلوك السوفيات الغامض بعض الشيء ولكن، من يعلم؟، فربما بفضلهم مرّت الأمور جيداً. وعزّت الولايات المتحدة نفسها، بعد ثلاث سنوات، بتحرشها بجمهورية الدومينكان حيث تدخلت دافعة 30 000 من «المارينز» لمنع وصول الكاتب خوان بوش إلى الرئاسة وترك المكان حراً لخواكين بالاغير وريث تروخيلو (Trujillo) المحبط وجار طيب للولايات المتحدة، والذي لن يتزحزح من السلطة العليا إلّا في عام 2000. كدت أن أنسى أن أقول بأن الـ 30 000 من عناصر المارينز خلفوا بضع عشرات من آلاف القتلى الدومينيكان.

في الواقع، إن الخطيئة الرئيسية لكاسترو ـ التي تثير كثيراً البلاد الغنية ولكنها تؤلف تميّزه ـ هي طريقته المستقلة في التحرك، الاستفزازية تقريباً. مع العلم أن نمطه الهمني في تحرير هذا الكتاب. أعلن الكوبيون بلدهم «أرضاً حرة في القارة الأميركية»، وكان هذا صعباً على أمبراطورية الحرية. إن ذهنية التلميذ المشاكس ظهرت باكراً، وفي الوقت عينه من رحلة كاسترو الأولى إلى الخارج كرئيس وزراء، في نيسان/أفريل 1959. وتوجه بالتحديد إلى الولايات المتحدة. لقد كانت زيارة غير رسمية (حتى أن الرئيس آيزنهاور ذهب جهارةً وعلناً يلعب الغولف في جيورجيا)، ولكن كاسترو كان بإمكانه السعي للحصول على قروض أو اتفاقات تجارية. بعكس ذلك، فقد أعطى تعليمات إلى وزير ماليته بعدم السعي إلى أدنى فرصة للحصول على مال.

قال لوزيره: «إسمع روفو، لا أريد أن تُشبه هذه الرحلة أي رحلة يطلب فيها حكام أميركا اللاتينية الذين يأتون دائماً إلى الولايات المتحدة المال. أريد

> أن تكون رحلة ذات نية حسنة. مع العلم، أن الشمال ـ أميركيين سيكونون متفاجئين. وعندما ستعود إلى كوبا، سيقدمون لنا مساعدتهم دون أن تكون قد طلبناها». (Fresquet).

نعلم اليوم بأنه كان مخطئاً تماماً بالنسبة لتلك النقطة، ولكن لا بد أنه أيقظ مزيجاً معقداً من الإعجاب والغيرة بين الحكام الأميركيين الآخرين.

عندما هبط إعصار فلورا على كوبا في تشرين الأول/أوكتوبر 1963، كانت هناك ضحايا عديدة وأضرار جسيمة، وعدد لا يحصى من الذين لا مأوى لهم ونقص في الغذاء والأدوية. وبالرغم من أن بعض المهاجرين الكوبيين رأى في تلك الكارثة نعمة، قدم الصليب الأحمر في الولايات المتحدة مساعدته. رفض كاسترو هذه المساعدة، مما أثار موجة من الاشمئزاز بين الطبقات الإنسانية من السكان الشمال أميركيين الذي ترجموا ردة الفعل تلك كردة فعل طاغية حقيقي الذي يتلذذ بتعذيب شعبه. ولكن عدداً كبيراً من الشعوب الأميركية فهمت هذا التصرف. لا يستطيع الكوبيون قبول مساعدة من حكومة تعمل كل ما بوسعها، عدا الحرب المعلنة، لكي تدمرهم (Matthews).

فيما بعد، في تشرين الثاني/نوفمبر 1963، عندما طلب منه هربرت ماثيوز لماذا يدعم التخريب في مختلف بلدان القارة الأميركية، أجاب كاسترو بكل بساطة:

> ولِمَ لا؟ إن السي آي إي. في كوبا تقوم بكل ما يتهموننا به. تعدّ مخربين ومغاوير؛ تمد المعادين للثورة بالأسلحة والعتاد؛ تدعم غارات من البحر ومن الجو وانزالات في كوبا؛ تغرق أميركا اللاتينية بدعاية معادية لكوبا؛ وتستخدم ضدنا نفوذها الكبير في كل بلد من أميركا اللاتينية. إن كانت الولايات المتحدة بوسعها فعل تلك الأمور ضدنا، لماذا لا يسعنا أن نفعل الشيء نفسه؟ (Matthews)

في عام 1991، كان اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية قد زال من الوجود منهياً تجربة كانت قد بدأت في تشرين الثاني/نوفمبر 1917 (تشرين الأول/أوكتوبر للروس القدماء). على أثر ذلك، رأت الولايات المتحدة نفسها في درء من «الخطر الأحمر»، الذي كان قد تحوّل إلى الذريعة العملية الأفضل لممارسة التوسع الشمال ـ

الأميركي منذ نهاية الحرب الثانية. إن ركيزة «الاحتواء» الشهيرة، تبخرت مثل معلومات التلاميذ الكسالى بعد العطلة. أنظروا جيداً إلى كتب التاريخ والكتابات النقدية وإلى الصحافة: بزوال الخطر الأحمر، بدأت تُزهر، هنا وهناك المفردات الإنسانية، مفردات استعملت بكثرة على مدى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. يكفي تذكر البلبلة حول الحرب الإسبانو ـ أميركية ـ في خصوص كوبا بالتحديد، لنتذكر أيضاً خطابات القديس وودرو ويلسون. ولكن منذ ولادة الاتحاد السوفياتي وخاصة ولادة أمبراطورية المساواة، بعد عام 1945، كانت اللعبة الإنسانية قد وضعت في الخزانة واستبدلت برؤية أكثر صدامية وفعالية بكثير، «النضال ضد الشيوعية». اليوم، أخرجت الإنسانية من الأدراج، ووضعت في التداول من جديد، وأصبحت من الموضة: كل دراسة سياسية تقريباً، حتى السياسية منها، أصبحت تُقدم مع فرقة الإنسانية، مُغطّية ببعض اللمسات من الديموقراطية والتضامن. إن الهجمات الموجهة في أيامنا ضد كوبا لم تعد تهدف إلى حماية القارة الأميركية من طاعون الشيوعية الذي اختفى، ولكن لإجبار الفقراء والبؤساء الكوبيين للوصول إلى السعادة. تنظر مثلاً إلى اسم القوانين المصوّت عليها من قبل كونغرس الولايات المتحدة في هدف إجبار (أو محاولة إجبار) بقية العالم بمقاطعة كوبا من أجل إركاعها: «قانون عن الديموقراطية في كوبا» (توريشلّي، 1992) و «قانون من أجل الحرية والتضامن الديموقراطي في كوبا» (هلمز، بورتون 1996). بشكل أو بآخر، يجب الانتقام من جميع الوقاحات التي ارتكبها الملتحون بوجه الولايات المتحدة. ولكي يبرهنوا بأن لا مجال للمزح في خصوص الحصار، كان لأحدهم فكرة خلال الحادثة بين بيل ومونيكا، أن يستعلم عن مصدر السيجار المستعمل من قبل العاشقين. بعد قليل من الإثارة، ثبت بأنه لم يأت من كوبا، ولكن من جمهورية الدومينيكان، لنتذكر، إنه البلد، الذي كان قد حُرر عام 1965 من قبل «المارينز».

رغم كل شيء، استمرت كوبا، تقريباً، تعيش حياتها متظاهرة بعدم سماع نصائح جارها «الطيب». وذلك لم يوقف دهشة كل الذين كانوا يفكرون (أنا بينهم) بأن كوبا كانت ستنهار بعد قليل من الوقت من سقوط الاتحاد السوفياتي رغم الصدمة الرهيبة لتفكك الكوميكون (Comecon) (منظمة السوق المشتركة في الشرق)، بدأ اقتصاد الجزيرة بالنهوض عام 1996 (Retamar)، المستوى التربوي لشعبها كان دائماً أحد

أعلى المستويات في القارة الأميركية[1]، واستمرت كوبا ترسل إلى العالم بعثات من أطباء أكثر من مجموع منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة في العالم. يزاوِل النشاط الأخير دون دعاية ودون وضع جوائز نوبل للسلام تمنح في مقابلها (قرابة المليون دولار) كما كانت الحالة عام 1999 لسياسيينا الإنسانيين أطباء بلا حدود، حيث أن أحد مؤسسيها، الدكتور كوشنير، كان واحداً من المؤيدين الرئيسيين لحرب 1999 ضد يوغوسلافيا ليصبح بعد ذلك الحاكم الأول لإقليم كوسوفو المحتل.

غير أنني لن أتجرأ أن أقول بأن كوبا في طريقها لربح المعركة الاقتصادية ضد أمبراطورية الحرية، لأن قوة تلك الأمبراطورية هي رهيبة، وتعصبها دون شفقة. فلنسلم أمرنا، مثل فيديل، لحكم التاريخ.

النهاية الأوسترالية

في الألعاب الأولمبية لعام 2000 وفي افتتاح سباق البدل 100 × 4 أمتار ـ بقدر ما أتذكر ـ، أعلن بأن الدكتور هنري كيسنجر هو الذي سيوزع الميداليات. كنت قد رأيت السباق، وعلمت بأن الولايات المتحدة هي التي ربحته. ولكنني نسيت مَن غير الأميركيين يجب أن يصعد على المنصة. أعشق تسليم الجوائز الأولمبية. نظرت إذن، وببعض الغضب الداخلي، كيف كان ينحني أولئك الأبطال الرياضيون الرائعون وجميعهم سود، وهم يبتسمون أمام وجه الدكتور كيسنجر الساذج الذي كان يعلّق لهم الميداليات حول الرقبة. لم أستطع أن أمنع نفسي بالتفكير بالبطلين الاثنين لـ 200 متر اللذين كانا قد رفعا قبضتيهما إشارة تحدٍ أثناء عزف النشيد الوطني للولايات المتحدة، في المكسيك، عام 1968.

عندما حان وقت توزيع الميداليات البرونزية، كنت قد تذكرت بأن المركز الثالث كان يعود للفريق الكوبي. ومن الوضع الأفقي الذي كنت موجوداً فيه، انتقلت إلى وضعية الجلوس، ثم وقفت. ماذا سيحصل؟ هل سيبصقون في وجه كيسنجر؟ هل سيرفضون أن يمدوا له أيديهم؟ هل سيطلبون من الفتاة التي كانت تساعد الدكتور

---

(1) في 26 نيسان/أفريل عام 2000 طلبت بعض الدول، التي هي في طريق النمو، 8 مليارات من الدولارات لمحو الأمية. كوبا، دون أن تعير اهتماماً لنصائح جارها الطيب، إستأصلت وحدها الأمية في بداية الستينات (1960).

القبيح أن تتولى هي عنه توزيع الجوائز؟ لم يحصل أي شيء من كل ذلك، تشابكت الأيادي، انحنت الجبهات. وتهيأ لي أن أحدهم، لا أتذكر جيداً، قد ابتسم.

تشيلي: الحكم بالموت على حصان

طروادة الغامض (1973)

منذ ثلاثين سنة تقريباً، عندما حُكم بالموت على حكومة سلفادور اليندي وسلفادور اليندي بنفسه؛ إن أي شخص فطن تقريباً لم يشك للحظة واحدة بضلوع الولايات المتحدة في الانقلاب. هذا طبيعي: كان لدى كل العالم عادة في رؤية هذا البلد يفرض قانونه في القارة الأميركية، إلّا في كوبا، عندما ذكرنا النقص الكبير في ذاكرة القاضي الإسباني بالتازار غارزون (Baltazar Garzon) الذي، وبكل وضوح، نسي أن يدّعي على شركاء الجنرال بينوشيه للحضور أمام القاضي، يبدو لي أنه من الضروري القيام بتذكير سريع.

كان التدخل واضحاً جداً حتى قبل الانقلاب. لقد أراد سلفادور اليندي، الذي لم يكن يعلم بأن منظمة الأمم المتحدة لا تفيد في شيء لحالات كحالته، أن يحذر العالم من على منبر الجمعية العامة، في 4 كانون الأول/ديسمبر 1972، قبل عدة أشهر من انقلاب جيشه عليه:

> منذ اليوم ذاته من انتصارنا في الانتخابات، في 4 أيلول/سبتمبر 1970، شعرنا بتأثيرات لضغط خارجي على نطاق واسع، محاولاً منع حكومتنا المنتخبة بحرية من شعبنا تحمل مهامها؛ والذي حاول أن يتقلب عليها منذ ذلك الحين. إنه عمل يراد له عزلنا عن العالم، خنق اقتصادنا وشلّ تجارة صادراتنا الأكثر أهمية: النحاس. ومحاصرة الدخول إلى مصادر التمويل الدولية. (Axelsson)

إن قاضينا الإسباني العزيز سيكون بإمكانه أن يتذرع بأن إنذار سلفادور اليندي لم يكن واضحاً كلياً وأنه لم يسمّ هذا «الضغط الخارجي الواسع النطاق»، ولكن منذ الحكم بالموت على الديموقراطية التشيلية ورئيسها، حدد عدد من الكتابات بوضوح حكومة الولايات المتحدة، ووكالتها للاستخبارات، وعلى الأقل، إحدى مؤسساتها المتعددة الجنسيات (IFF الشهيرة) كشركاء أو محرضين على ذاك الانقلاب الذي لا

يقل عنها شهرة. يبقى لدينا إذن خياران: إما أن نأخذ هذه الاتهامات كأكاذيب أو أيضاً كتخريفات لا أساس لها.

أن القاضي غارزون والحكام الأوروبيين الذين صفقوا لفعلته، لديهم بدون شك نقص في الذاكرة.

مع أن الولايات المتحدة وبمحض صدفة أو كي تظهر بأنها لن تسمح لنفسها أن تتأثر بمذكرة التوقيف المرسلة إلى بينوشيه، فتحت ابتداءً من تموز/ جويليه 1999، جزءاً من أرشيفها المتعلق بتشيلي في تلك المرحلة. يمكن رؤية هذه الوثائق على الأنترنت بفضل منظمة أميركية مستقلة موجودة في جامعة جورج واشنطن في مدينة واشنطن، والتي من أجل أن تتهزأ قليلاً من (NSA) الرهيبة (وكالة الأمن القومي) من دون شك، اتخذت اسم (أرشيف الأمن القومي) (/nsarchiv@gwu.edu). على موقعها، يمكن لنا رؤية بعض الوثائق السرّية قديماً لوكالة الاستخبارات الأميركية (CIA)، ووزارة الخارجية والبيت الأبيض. لم تكن كل الأرشيفات مباحة، طبعاً، بحيث أصبحت المباحة منها تحمل مقاطع خاضعة للرقابة، ولكن هذه المادة كانت كافية ولو لإيقاظ بعض الظنون ـ ومن ضمنها، وأنا مقتنع بذلك، عند الأكثر هدوءاً من القضاة الإسبان في خصوص تواطؤ واشنطن مع الحكومة التشيلية.

بفضل هذا المعروف من قبل الحكومة الأميركية، نستطيع أن نعيد بناء قصة مشوقة بشكل كافٍ، خليقة بأفضل الأفلام الجاسوسية. لنأخذ وثائقنا حسب الترتيب التسلسلي للأحداث.

في 4 أيلول/سبتمبر من عام 1970، مباشرة بعد الانتخابات التشيلية التي أعطت أغلبية الأصوات لمرشح الاتحاد الشعبي سلفادور الّيندي، حذّر سفير الولايات المتحدة إدوارد كوري حكومته بالشكل التالي:

> صوتت تشيلي بأمان ـ لتحظى بحكومة ماركسية ـ لينينية. هذا يعني أنها أول أمة في العالم قد قامت بهذا الاختيار بحرية وبدراية تامة. كان لدى د. سلفادور الّيندي الحكمة، بقياس السياسة السوفياتية في أميركا اللاتينية، وذلك بأن قام بمخالفة استثنائية للتكتيك الثوري لمثاله، فيدل كاسترو، شاقاً طريقاً انتخابياً نحو السلطة [...] عندما أكتب هذه الأسطر، كانت لا تزال 30 000 ورقة تصويت غير مفتوحة بعد، ولكن رائحة الخسارة الكريهة واضحة. (Soir illustré).

الدستور المطبق في ذلك الوقت يفرض بأنه إذا لم يحصل المرشح للرئاسة على الأغلبية المطلقة، يتوجب أن يكون انتخابه موقعاً من الكونغرس. إذن لم يزل هناك حظ لإنقاذ تشيلي من الشيوعية. ولهذا السبب بعيد ذلك بعشرة أيام، في 15 أيلول/ سبتمبر (أي خمسة أسابيع قبل تسمية الرئيس الجديد للتشيلي) دعا الرئيس نيكسون إلى اجتماع لمناقشة القضية. سجل بيده ريتشارد هالمز، مدير وكالة الاستخبارات الأميركية توصيات الرئيس:

«ربما هناك حظ واحد من عشرة، ولكن أنقذوا تشيلي! فهذا يستحق اتخاذ كل المخاطر. لا تجعلوا السفارة طرفاً. عشرة ملايين دولار جاهزة، وأكثر إن كان ضرورياً. كلفوا أفضل الرجال. ثمان وأربعون ساعة لتقديم خطط للعمل».
(González)

في اليوم التالي، جمع هلمز المسؤولين الأساسيين لوكالة الاستخبارات الأميركية. وهناك مذكرة تلخص هذا الاجتماع:

أعلن المدير [هلمز] بأن الرئيس نيكسون كان قد قرر بأن نظام الّيندي في تشيلي هو غير مقبول للولايات المتحدة. خلال الاجتماع، قرر بأن السيد توماس كرامسينز، مدير مساعد للعمليات، سيكون مسؤولاً لهذا المشروع. ويتمنى أن تساعده قوة تدخل تؤخذ من مجموعة نصف الكرة الغربية، [...]. قال المدير بأن هنري كيسنجر، المستشار لقضايا الأمن القومي، يريد أن يلتقيه في 18 أيلول/ سبتمبر ليعطيه وجهة نظر الوكالة عن المهمة المطلوب إنجازها.

بعيد يومين، ذهب أربعة من رجال الوكالة إلى سانتياغو بهدف حث العسكر التشيلي على انتزاع السلطة. ولمساعدتهم لم يوفقوا في إيجاد مرشحين انقلابيين، ولكن اهتدوا أخيراً إلى جنرال متقاعد، روبرتو ڤيو (Roberto Viaux)، الذي ترأس مؤامرة لنزع العثرة الأساسية لانقلاب محتمل ألا وهو قائد الجيوش البرية التشيلية، الجنرال شنايدر. إلّا أن ڤيو لم يوح الثقة المطلقة لعرّابيه، كما في وسعنا معاينته بقراءة بعض المقتطفات من المذكرة عن الحديث الذي جرى، في 15 تشرين الأول/ أوكتوبر 1970، في البيت الأبيض، بين كيسنجر وكارامسينز والجنرال هيغ (Haig):

كان أحد «العسكريين الرسميين»، روبرتو ڤيو قد قدم نفسه ليشارك مشاركة فعّالة في الانقلاب، وضاعف من إرسال المعلومات. أوصته الوكالة بالصرف

بحذر والاعتماد في تحاليله على عدة مصادر. إن ملاحظاتنا واضحة، ليس لدى ڤيو حظ واحد من عشرين، لا بل ربما أقل، بإنجاح انقلابه. كانت نتائج الانقلاب الفاشل في تشيلي وعلى الصعيد الدولي، قد نوقشت. وتقرر بأن تمرر الوكالة هذه الرسالة إلى ڤيو: تحذيره من أي عمل متسرع.

بعد القرار بتأجيل مؤامرة ڤيو إلى تاريخ لاحق، أعطى د. كيسنجر تعليمات للسيد كارامسينز بالاحتفاظ بمعلومات الوكالة في تشيلي، والعمل خفية وبأمان للحفاظ على قدرة الوكالة بمواصلة العمليات ضد ألّيندي في المستقبل [...] فأعلن السيد كارامسينز بحماسة أنه يجب القيام بكل شيء لمضاعفة الاتصالات، من ضمنها، استخدام ضباط متسللين، سيارات «محمية» للقاءات وكل الاحتياطات الممكنة.

أختتم الاجتماع على ملاحظة للدكتور كيسنجر، معلناً بأنه يجب على الوكالة إبقاء الضغط على ألّيندي وإبقاء كل ما يمكن أن يضعفه جاهزاً. *(Soir illustré)*

من جهته، أبرق مركز القيادة العامة (QG) لوكالة الاستخبارات الأميركية هذه الإشارة إلى محطته في سانتياغو:

كثفوا الحملات الدعائية، العمليات السرّية وتجميع المعلومات وتغيير المعلومات، وكل ما يمكن أن يطلقه خيالكم للوصول إلى غاياتنا.

ولكن مخاوف رجال البيت الأبيض بدت صائبة: حتى وإن أجّل هلمز وكيسنجر «مؤامرة ڤيو إلى تاريخ لاحق»، لم يرد الجنرال التشيلي سماع شيء. بمساعدة من فريق آخر من وكالة الاستخبارات الأميركية بشكل محتمل، في 24 تشرين الأول/ أوكتوبر، أقدم ڤيو على خطف الجنرال شنايدر. ولكن أختتمت العملية بالفشل. لقد قتل شنايدر أثناء العملية، والصدمة الناتجة في الرأي العام التشيلي أمنت انتخاب ألّيندي من الكونغرس في 28 تشرين الأول/أوكتوبر 1970.

في 4 تشرين الثاني/نوڤمبر، أقام سلفادور ألّيندي إذن في قصر مونيدا (Monéda) ومنذ اليوم التالي، جمع نيكسون مجلس الأمن القومي (NSC). الهدف:

البحث بكل الوسائل في ممارسة الحد الأقصى من الضغط على الحكومة التشيلية لمنع ثباتها والحد من قدرتها بسبب وضع مصالح بلدنا في خطر. (أرشيف الأمن القومي).

حتى وإن لم ينجحوا فوراً، فالانتظار الصبور الذي أوصى به الأب المؤسس الحكيم جيفرسون بدا فعالاً مجدداً: بعد ثلاث سنوات، نجح إضراب عمال المناجم وسائقي الكميونات والجمود المالي والتضخم بزعزعة استقرار البلد بشكل لا بأس به. في عام 1973، وُجد نظام سلفادور الّيندي في وضع ميئوس منه.

كل هذا ليس في الحقيقة سوى قضية مبالغ طائلة، والقاضي غارزون سيقول لنا إن ذلك لا يرتب كلفة كافية لكي يُطلب من (Scotland Yard) بإيقاف كل واحد من التابعية الأميركية يرسو على الأرض البريطانية وله يد في هذه القضية. طلب أن يرى أثراً للدماء.

إنّ أول من رأى هذا الدم الليوتنان ـ كولونيل ريان (Ryan) ملحق في القوات البحرية الشمال ـ أميركية في فالپاريزو. ولو كان ما زال حياً، كان يمكن له أن يكون شاهداً ممتازاً لقاضينا الإسباني. إن زملاءه في البحرية التشيلية، اللذين أعطوا إشارة الانطلاق للانقلاب، أعلموه تفاصيل صغيرة. بعد عدة أيام من انقلاب 11 أيلول/ سپتمبر، أرسل بياناً:

> إن يومنا المحدد بدأ عند الساعة السادسة والنصف مع وصول إغناسيو مارتينيز وهو ضابط بحرية متقاعد وصديق جديد، وقد كان يعتبر في المنطقة من قبل منظمي الانقلاب الرجل الأساسي. أخبرنا إغناسيو بكل فخر بأن اليوم المحدد المنتظر بشدة قد حان وأن الساعة المحددة ستكون الساعة السادسة في كل البلد. كان الانقلاب ناجحاً تقريباً. ولكن للأسف لم يكن كاملاً. ففي الساعة المحددة التي يجب أن تكون الساعة السادسة، ولأسباب معقدة جداً لا يمكن شرحها هنا، كانت الثامنة والنصف في سانتياغو. كان يتوجب أن يكون الّيندي مقبوضاً عليه فوراً ومرمياً خارج قصر مونيدا، دون أن يكون لديه إمكانية تحذير رجال الأمن المقربين، وخاصة أن تكون كل الاتصالات مقطوعة داخل وخارج القصر. أرسل الّيندي رسائل إذاعية وكان قصر مونيدا في حالة حصار. قتل الّيندي نفسه واضعاً رشاشاً تحت ذقنه. إن ذلك قذر ولكنه فعّال. كان محفوراً على صفيحة ملصقة على السلاح عبارة: «إلى صديقي سالفادور الّيندي، هدية من فيدال كاسترو». واضح أن كوبا قد أرسلت قطعة سلاح فائضة للتشيليين، لمصلحتهم. (Soir illustré)

تبدو لي هذه الشهادة غاية في الأهمية لقاضينا الإسباني، ويستطيع مسبقاً البدء بأخذ

العلم عن كاتبها، الجندي ريان (Ryan)، اذا أراد إعادة تنظيم ملفه تحوطاً للمساومة المحتملة على الثمن المدفوع مقابل رأس بينوشيه، كما حصل حديثاً مع ميلوسفيتش. إلّا أن، الشاهد المثالي لهذه القضية سيكون ـ ما سبق وقلته ـ الدكتور هنري كيسنجر، هو نفسه الذي تلقى، في آخر هذه السنة 1973، جائزة نوبل للسلام. وبفضل رجاله المتسللين إلى أعماق الجيش التشيلي، كما الجندي ريان أو عملاء وكالة الاستخبارات الأميركية ـ شاهدين مباشرين على الجريمة ـ، فهو يعلم كل شيء عن الأخطاء المرتكبة قبل وخلال وبعد الانقلاب. إضافة إلى ذلك، بما أن في تلك الحقبة لم يكن بعد لحقوق الإنسان القيمة الشرائية التي اكتسبتها في أيامنا، حتى أنه ليس بحاجة لإغلاق عينيه. في شهر كانون الأول/ديسمبر 1974، عندما أزعج بشكاوى بعض ناشطي حقوق الإنسان، صار عصبياً حقاً وأجاب بأن «المتطلبات ليست سوى حماقات عاطفية». فهذا التوقف كان منطقياً بالنسبة إلى رجل كان كتب لتوّه إلى الرئيس جيرالد فورد:

> السلطة التشيلية الجديدة هي في طريق معالجة تملك الشركات الشمال-أميركية وتدعمنا في العديد من الملفات الدولية المهمة. [...] وبقاء الحكومة العسكرية على قيد الحياة هو إذن بكل وضوح من مصلحتنا. يجب علينا أن نؤمّن لها دعماً سرّياً ولكن صارماً.

غير أن حقوق الإنسان تلك بدأت بفتح ممر صغير: بعد سنة، كان كيسنجر وهو أكثر ذكاءً، وفطنة من الوسط، يُريد الذهاب إلى سانتياغو لدعم الجنرال بينوشيه شخصياً فقام، في 31 آذار/مارس 1975، بالطلب التالي إلى مستشاريه:

> هل تستطيعون تنظيم أي التفاتة إنسانية إلى سانتياغو التي يمكن لها أن تكون تبريراً رسمياً لسفرتي؟ يمكن للسلطات تحرير بعض السجناء خلال وجودي هناك. قولوا لهم إن ذلك مهمٌ جداً بالنسبة لي. (Hitchens)

بما أننا موجودون في جناح **حقوق الإنسان**، لنلقِ نظرة خاطفة على العلاقات بين الـ (CIA) والـ (DINA)، البوليس السياسي التشيلي الرهيب (ولكن أقل رهبة من CIA). حسب رأي بيتر كورنبلو (Peter Konbluh)، الاختصاصي الكبير في تشيلي بأرشيف الأمن القومي، فمن الواضح أن الـ CIA قد استشيرت أثناء تأسيس الـ (DINA) التي بدأت العمل رسمياً في 15 حزيران/جوان 1974. لقد أخذت

الوكالة الشمال-أميركية على عاتقها تدريب العملاء التشيليين كلياً. والإمداد باللوازم التقنية.

ولكن، إذا ما حكم على ذلك من خلال ما أفاده بيان لمكتب الـ (CIA) في سانتياغو، فإن تدريب التلاميذ التشيليين كان قد ترك حقيقة الرغبة التالية:

> حسب مصادرنا، مشكلة الـ (CIA) هي طريقتها في الاستجواب. إن تقنيتها تنحدر مباشرة من محاكم التفتيش الإسبانية: فهي تترك غالباً آثاراً بارزة على الأجساد. [...] في أيامنا، لا يوجد أي عذر لاستخدام طرق بدائية إلى هذه الدرجة. (Dinges et Landau)

ولاختتام هذه الحقبة، لنتكلم عن الطيور.

في 21 أيلول/سبتمبر 1976، في جادة ماساشوتس بواشنطن، قتلت قنبلةٌ سفير سلفادور أليندي في الولايات المتحدة، أورلاندو لوتيليه (Orlando Letelier). كُلف روبرت شيرير، عميل الـ FBI في الأرجنتين، للتحقيق. في 28 أيلول/سبتمبر أرسل برقية إلى مكتبه:

> عملية «كوندور» (نسر أميركي كبير)، اسم الرمز لتبادل المعلومات المتعلقة باليسار، الشيوعيين والماركسيين، الذي وضع حديثاً قيد التنفيذ بين الخدمات السرية في أميركا اللاتينية لإلغاء كل نشاط ارهابي ماركسي في هذه المنطقة. فتشيلي هي مركز عملية «كوندور»، أعضاؤها هم من الأرجنتين وبوليفيا وباراغواي والأوروغواي، ترددت البرازيل في أن تكون جزءاً من البلاد المزوّدة بالمعلومات لعملية كوندور. [...] ففي الأرجنتين قد بدأت العملية، خلال أسبوع الـ 20 من أيلول/سبتمبر 1976. قضت المرحلة الأكثر سرية من العملية بتأليف فرق خاصة من الدول الأعضاء تستطيع السفر أينما كان في العالم، حتى في البلدان غير الأعضاء، لكي تضع قيد التنفيذ مشاريعها في قتل الارهابيين أو مجندي المنظمات الارهابية للبلدان الأعضاء في عملية «كوندور». (Dinges et Landau)

كانت هذه البرقية خلال مدة طويلة المصدر الوحيد للمعلومات فيما خصّ الكوندور، وذلك أعطى انطباعاً بأن تلك العملية لم تُكشف إلّا بعد مقتل لوتيليه (Letelier)، غير أن الوثائق التي كشف عنها علانية مذاك تبين أن الأجهزة الشمال-

أميركية كانت على علم إلى حد ما بهذه القضية منذ بعض الوقت. نستطيع اليوم أن نرجع إلى سبع وثائق للـ (CIA) ولوزارة الخارجية حيث أن ستّ وثائق منها حُررت قبل الجريمة وواحدة في اليوم ذاته. هذه الأخيرة نالت اسم «ملخص (INR) لبعد الظهر في 21 أيلول/سبتمبر، 1976»[1]. ووصفت كوندور باعتبارها «تكويناً تشيلياً، وجدت لتصفية المخربين تصفية سرّية». وثائق أخرى للـ (INR) وللـ (CIA) استذكرت بعض المشاجرات بين أعضاء «الكوندور»: تبعاً لتقرير 13 آب/أوت، وضعت الأرجنتين، التشيلي والأوروغواي مشروع «قتل بعض الشخصيات اليسارية القاطنة في أوروبا الغربية»، بينما رفضت البرازيل المشاركة فيه. ويؤكد تقرير من السي آي إي مؤرخ في 12 آب/أوت بأن دورات التدريب على القتل في أوروبا يجب أن تكون في بوينس آيرس.

صحيح أن هذه الوثائق لم تُثبتْ بأن وكالة شمال-أميركية شاركت بشكل مباشر في مقتل لوتيليه، ولكنها تثبت بأن السي آي إي ووزارة الخارجية كانتا تعلمان ماذا كانت كوندور، وهذا في النهاية ضمن المنطق بما أن مهنتهما هي أن تكونا مزودتين بالمعلومات تزويداً جيداً. فمن الصعوبة إذن التفكير بأنهما كانتا تجهلان كل شيء عن هذه الجريمة المرتكبة في عاصمة الولايات المتحدة ذاتها.

إن اسم طير «الكوندور» جعلني أفكر بأنه نوع من نسخة أميركية للعملية الشهيرة «فينيكس» (Phénix) التي نفذت في الهند الصينية قبل عدة سنوات. لم تصل «كوندور» إلى حجم «الفينيكس» (لنتذكر بأن هذا «الطائر» قتل أكثر من 20 000 شخص)، ولكن ذلك الطائر الأخير لديه على الأقل جاذبية كونه عالمياً، مما يجعله استباقاً للإحساس بالعولمة. بعض الوثائق التي كشف عنها من قبل دائرتي أرشيف الولايات المتحدة والأوروغواي، تعطينا فكرة عن ضخامة عمليات الكوندور: فهي حوت جرائم (البعض منها، وهذا صحيح، قد فشل فلا أحد كاملاً) في الولايات المتحدة، البرتغال، فرنسا، إيطاليا وفي المكسيك وخطف وتعذيب عدد لا يحصى من الأجانب، مواطني إسبانيا، إنكلترا، فرنسا أو الولايات المتحدة. في بداية 2001، بدأت البرازيل بجعل بعض وثائق كوندور مُتاحةً للعامة وأطلقت تحقيقاً برلمانياً عن احتمال اشتراك الكوندور في موت اثنين من رؤسائها السابقين عام 1976 في الأرجنتين، هما جواو

---

(1) Intelligence and Researd; INR مكتب استخبارات واستقصاء في وزارة الخارجية.

فولار (Joao Goulard) وجوسيلينو كوبيشك (Juscelino Kubitschek). وفي ذهنية الانفتاح نفسها، ذهب قاضٍ أرجنتيني مرتين إلى تشيلي ليستجوب جنوداً مشتبهاً بهم باشتراكهم في مقتل الجنرال الموالي كارلوس براتس (Carlos Prats).

نرى إذن أن العمل القانوني الذي يجب بذله هو ضخم ويتعدى تماماً قوى وتصور قاضٍ إسباني بسيط. إن كان شراء الرئيس اليوغوسلافي السابق سلوفادان ميلوسفيتش من قبل المحكمة الجزائية في لاهاي قد كلّف 000 000 100 1 دولار، أتحدى أياً كان بأن يقول لي كم سيكلف رأس المستشار السابق ووزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر.

الخاتمة الأوروبية

في آب/أوت 2000، بعد عدة شهور من الوضع الساخر للجنرال أوغوستو بينوشيه في الحكومة البريطانية والمحاكم القضائية الإسبانية عند وصوله إلى الأراضي التشيلية، رفعت المحكمة العليا في تشيلي الحصانة البرلمانية التي تحمي السناتور مدى الحياة من الشكاوى المشهورة ضده. إنه الخاسر الأكبر في هذه القضية. لم يكن الجنرال بينوشيه، الذي لن يحاكم أبداً على كل حال بسبب عمره والإجراءات المحتملة التي يمكن لمحاميه أيضاً أن يلجأوا اليها. الخاسر الأكبر ستكون التشيلي، التشيلي ومحكمتها العليا، اللتان لن تستطيعا بعد ذلك أبداً أن تعتزا بأنهما حكمتا بالعدل حقيقة. ومثل هاملت وهو مهووس بشبح والده، فالعدالة التشيلية محكوم عليها أن تجرجر خلال سنوات طويلة صورة أولئك القضاة الأوروبيين الطيبين الذين أملوا عليها القانون الحق، القانون الذي، بكل وضوح، كان لا يمكن لها أن تستشفه دون مساعدتهم. سبق وعرفنا أن: في نظر أوروبا، التشيلي ليست سوى جمهورية موز من دون موز.

والبلدان الأخرى المقصية من نادي البلدان الغنية أيضاً، في على كل حال. باستثناء تلك التي تنتج الموز.

3 ـ نهاية اللعبة

ـ كنت ستقتله!

ـ طبعاً، فأنا قاتل

James Cameron, Terminator 2 (جيمس كاميرون).

تراجع البيض (التكتيكي): جيرارلد فورد وجيمي كارتر (1974 ـ 1981)

إن مسالك الولايات المتحدة لا يمكن ولوجها. في العام 1974، ضربت المحكمة العليا والكونغرس الضربة القاضية لرئيسهما، الذي كان قد قضيَ عليه بهزيمته في ڤيتنام. وكان على الرئيس نيكسون التخلي عن مهامه. كان معرضاً للملاحقات القضائية، ولكن لحسن الحظ سامحه خلفه. ولكن قضاته لم يوجهوا التهم إلى جرائمه التي ارتكبها في مسيرته المهنية، ولا إلى التدخلات التي أمرَ بها في كمبوديا ولاوس، وتشيلي أو في أي مكان آخر. فلقد سقط إثر قضية غش انتخابي قاتمة، لا تقاس على الإطلاق بمساوئ ذلك البينوشيه المعولم. إلّا أنه منذ عام 1974 دخلت الولايات المتحدة في مرحلة غريبة من التراجع والتحفظ التي أمكن لها أن تجعلنا نفكر بأنها كانت قد قررت بألّا تنقذ العالم من جديد. خلال عدة سنوات، كان العالم يشبه عندها عملاً مسرحياً لإيونسكو (Ionesco) أو بكيت (Beckett)، وذلك يناسب جيداً لأنهما كانا الكاتبين الأكثر رواجاً في تلك الحقبة.

بين 1974 و1976، هزمت السي آي إي شر هزيمة. فلجنة خاصة من الكونغرس يترأسها مساعد الرئيس روكفلر بشخصه، بدأت بنشر كل الغسيل الوسخ للوكالة على الملأ. شرح لنا آندريه كاسبي، اختصاصي في الولايات المتحدة:

> «من 1967 إلى 1972، كدّست ال سي آي إي، المعلومات عن [الشمال] أميركيين الذين لا جريمة لهم سوى أنهم عارضوا الحرب الڤيتنامية. إضافة إلى ذلك، ارتكبت، في الخارج «ضروباً وسخة»، كمحاولات القتل التي فشل البعض منها (مثل ثماني محاولات قتل ضد فيدل كاسترو من 1960 إلى 1965) والبعض الآخر نفذ بنجاح من قبل عملاء السي آي إي أو مجموعات مرتبطة بها (في ڤيتنام، وفي أميركا اللاتينية، وصولاً إلى أفريقيا). أخيراً، انكبّت الوكالة على الأدوات الألكترونية والتجارية والكيميائية حيث أن فعاليتها الرهيبة تثير القلق» (Kaspi).

خلاصة القول، لم تكن الولايات المتحدة بحاجة إلى أي قاضٍ إسباني لتعي أنها تصرفت بشكل سيّء. ولكن، إن ما يمكن أن تكون بحاجة اليه حقيقة، هو قاضي، لا أعلم من أية جنسية ليعاقب فعلياً أولئك الذين ارتكبوا هذا السوء، خاصة، المحرضين (المستشارين) والمنفذين (مدراء الوكالة، وزراء الخارجية، والرؤساء). لأن أي واحدٍ

بينهم، ابتداءً بنيكسون، لم يعاقب كما كان يستحق حقيقة. حصل كل شيء كما من قبل لآل كابوني، الذي لم يستطيعوا إتهامه في شيء آخر غير المخالفة الضريبية.

إن جائزة الترضية الوحيدة التي نستطيع تركها لراغبي العدالة هي التالية: أسلوب الولايات المتحدة انهار فعلياً خلال فترة رئاسة جيرالد فورد القصيرة (1974 ـ 1977). على أنقاض هذا الانهيار، ظهرت سي آي إي جديدة مقيدة الحرية. تعمل تحت رئاسة كارتر. دعا المدير الجديد، ستانفيلد ترنر، إلى شيء من التطهير، والقليل من المعنويات المتبقية لدى الوكالة انهار تحت ضربات سلطة الأخلاق. إن أصدقاءنا في الولايات المتحدة لم يتوقفوا عن مفاجأتنا: كيف يمكن لهم أن يتصوروا للحظة واحدة بأن وكالة التجسس لأكبر قوة يمكن لها أن تكون مدارة بقوانين الخير؟

مع ذلك، أظن بإخلاص أنهم صدقوا الأمر ولو لثانية واحدة؛ قبل تجهيز الحرب الإنسانية، على يد الرئيس كلينتون، حتى قبل نهاية الشيوعية، أراد الرئيس جيمس إيرل كارتر (1977 ـ 1981) الكف عن نشر الآلام في العالم. لكن النتائج لم تطل كثيراً للظهور. إن علماء الدين يعلموننا أنه إن انحرفت عناية الله جزءاً من الثانية عن الأصابع المطبوعة بتلك الرموز، ستختفي تلك الأصابع. وهذا ما حصل بعد اختلاج عين «أخينا الأكبر».

في عام 1974، استلم الكولونيل منغيستو (Mengisto) السلطة في أثيوبيا، وفي 1977، تحول كلياً إلى «الماركسية ـ اللينينية» كي يستطيع الاستفادة من مساعدة الاتحاد السوفياتي وكوبا العسكرية. في 1975، على أثر انهيار الأمبراطورية البرتغالية، دخلت موازامبيق وأنغولا في الدائرة الشيوعية، حيث تلقت أنغولا مساعدة فورية من 000 10 عسكري كوبي كانوا قد وصلوا إلى لواندا في شهر كانون الثاني/ جانفي من السنة التالية لصد اجتياح جنوب ـ أفريقي. وهذه السنة نفسها 1975 شهدت رفع عقوبات منظمة الدول الأميركية (OEA) ضد كوبا وانحلال منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا الـ (OTASE)، والسقوط ـ التحرري لسايغون أمام جمهورية فيتنام الديموقراطية، وسقوط بنوم بنه (Phnom penh) أمام الخمير الحمر، والاستلاء على سلطة الباتت لاو (Pathet Lao) في فيانسيان عاصمة لاوس (Vientian). في شهر آذار/مارس 1977، بعد شهرين من تنصيب جيمي كارتر، قام فيدل كاسترو بزيارة إلى أصدقائه الليبيين، والأثيوبيين، والصوماليين والتنزانيين والموزاميقيين، والأنغوليين.

وقام كذلك الرئيس السوفياتي، نيكولاي بودغورني، بجولة في تانزانيا وزامبيا وموازمبيق.

في شهر آب/أوت من السنة ذاتها وُقع الاتفاق على استرجاع قناة باناما؛ حادثة قُدمت من قبل إدارة كارتر كانتصار. ولكن الحاكم السابق لكاليفورنيا، المتقّص رونالد ريغن، كان قد ظهر على الساحة ليكشف الحقيقة الفظيعة. في 9 أيلول/سبتمبر من عام 1978، بعد شهرين من توقيع اتفاق باناما من قبل الرئيسين كارتر وتوريخوس، أعلن:

> يجب علينا أن لا نتفاجأ، إذا كان السوفيات جاهزين، راغبين وغالباً قادرين على استغلال الوضع، في كل مرة تنسحب الولايات المتحدة من منطقة أو تظهر شيئاً من قلة الاهتمام. (Kaspi)

في أيلول/سبتمبر 1978، انفجر العصيان الساندينى في نيكاراغوا. في 13 آذار/ مارس 1979، قامت حكومة اشتراكية في جزيرة من غرانادا الكاريبية. في 17 تموز/ جويليه، سقط سوموزا، الجار الجيد الأمين للولايات المتحدة، أمام الحركة الساندينية. وربضت الحكومة النيكاراغوية الجديدة أكثر وأكثر في حضن كوبا القبيحة، رغم نية جيمي كارتر الحسنة.

ولكن حصل ما هو أسوأ أيضاً. لم تكن طريق آلام جيمي كارتر سوى في بدايتها. في 16 كانون الثاني/جانفي 1979، أحد أقوى الحلفاء (تابع، كان يقول Zbi) للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، الشاه محمد رضا شاه، شاه إيران وبفضل السي آي إي[1]، خُلع بعد شهرين من انتفاضة شعبية. ولتتويج كل ذلك، في 4 تشرين الثاني/نوفمبر، احتل طلاب اسلاميون سفارة الولايات المتحدة في طهران، واحتجزوا 60 رهينة وطالبوا بتسليم الشاه للمحاكمة.

ولم ينته هذا. ففي أواخر كانون الأول/ديسمبر 1979، بعد شهر من احتلال سفارة طهران، دخلت القوات السوفياتية بشكل مكثف إلى أفغانستان. شعوراً منها بأن الرجعية الداخلية قد نشطت مدعومة من القوى الإمبريالية الخارجية وأنها كانت تستفيد من مساندة لا حدود لها من الأوساط الإمبريالية الأميركية وحكام بكين، فقد طلب

---

(1) نعلم جميعنا بأن الوكالة ساهمت بإلغاء (سياسياً) رئيس الوزراء القومي مصدق سنة 1953، لإعادة آل بهلوي مجدداً على عرش بلاد فارس القديمة.

كارمال بابراك المساعدة الطارئة والمساهمة السوڤياتية (Zorgbibe). خلع الرئيس حفيظ الله أمين وأعدم. برر الاتحاد السوڤياتي تدخله بوجود معاهدة سوڤياتية ـ أفغانية في 1978 وبالدفاع الجماعي الشرعي تبعاً للبند 51 من شرعة الأمم المتحدة، البند، الذي، كغيره من قواعد القانون الدولي الأخرى، يمكن له أن يخدم عملياً أية قضية. فعندما اجتيحت الكويت عام 1990، واستندت مع السعودية إلى البند 51 للطلب من منظمة الولايات المتحدة بإنقاذها من الاجتياح العراقي. (Guillaume).

لم يكن هناك من شك، بأنه في أواخر عام 1979، كان رجحان الميزان العالمي قد أصبح غير ملائم كثيراً لأمبراطورية الحرية:

> من أنغولا إلى أفغانستان، مروراً بأثيوبيا، اليمن الجنوبية، العراق وسوريا، وُلد ما يسميه بريجنسكي «قوس عدم الاستقرار». كان كل ذلك مدعوماً من البحرية السوڤياتية التي رفرفت رايتها على كل بحار الكرة الأرضية، وبثقة جديدة [...] التي تفسر تدخلها العسكري خارج الأمبراطورية الأوروبية، وباحتقار صريح لما يدور من مفاوضات مع الولايات المتحدة. شعر [الشمال ـ] أميركيون بقوة بهذا الانطباع الذي لخّصه أحد المراقبين: «نحن أقوى بكثير من أي أمة في التاريخ ومع الوقت، أصبحنا تتمثل أكثر وأكثر بالأخريات ونحن نخضع لضغوطات غير اعتيادية». (Kaspi)

بما أنهم كانوا قد بدأوا يتشبهون أكثر وأكثر بالأخريات، كان عليهم أن يبدأوا بالشك أكثر وأكثر بميزتهم الإلهية. كانوا يعيشون نوعاً من غسق الآلهة، راغناروك (Ragnarok) (المصير النهائي للآلهة). وإذا نظر إليه من هذا المنحى، فإن عنوان الفيلم نهاية العالم (Apocalypse now)، المؤرخ عام 1978، أصاب الهدف تماماً. من أجل ذلك، فليس مستغرباً أن المسكين بريجنسكي، الذي جهد دون طائل في نصح رئيسه كثيراً خلال تلك الأوقات الصعبة، أصبح فيما بعد الإمبريالي بلا منازع الذي نعرفه جيداً اليوم. بدأ كارتر عند ذاك بالمبالغة في الأمور، واصفاً اجتياح أفغانستان «بالتهديد الأكثر جدّية الذي يثقل السلام بعد الحرب العالمية الثانية». ولكن الأسلحة الوحيدة التي وجدها ضد هذا الرعب هي الحصار على تجارة الحبوب مع الاتحاد السوڤياتي ومقاطعة الألعاب الأولمبية في موسكو.

إلّا أنني، لا أريد أن يخالطني قرائي على نواياي بسبب اللهجة المزعجة التي استعملتها. لا أريد أن أسخر من الرئيس كارتر، أفكر بإخلاص بأنه ينتمي إلى ذلك

العدد القليل من رؤساء الولايات المتحدة الذين لا يستحقون أن يمثلوا أمام أي محكمة جزائية (دولية أم لا). مع ذلك، لا أستطيع إلّا أن أذكر بأن أسلوبه غير العنيف نسبياً أنشأ عدم توازن خطيراً في عالمنا العديم الشفقة. الرئيسان جونسون ونيكسون، حيث أن أيديهما و (ربما) ضميريهما هما أكثر احمراراً من الدم الذي أراقاه وهما بالعكس شرعا في بناء حالة من الانفراج فعّالة إلى حدّ ما، مع الاتحاد السوفياتي والصين. تماماً كرجال المافيا وهم يوزعون على بعضهم مختلف مقاطع إحدى المدن[1].

كان الليبراليون الداعون للمساواة مفاهمين مثل متواطئين في عمل استحق اللوم. لقد قدم كارتر إذن في وقت غير مناسب. بينما كان يضيع وقته في سعيه لمصالحة الإسرائيليين مع العرب (هذا ما نجح به إلى حد ما)، تدهورت علاقاته مع الاتحاد السوفياتي بصورة واضحة. في بداية حكمه، تمنى أن يمدد فترة الانفراج التي حاول أسلافه أن يقيموها. في عام 1977، أراد أن يمحو الخوف غير المنطقي من الشيوعية، الذي أبدته الولايات المتحدة في سياستها الخارجية، دون توقف، حسب رأي كارتر (Kaspi). لقد كان محقاً، ولكنه لم يكن يعلم ـ أو لم يكن يريد أن يعترف ـ بأن فزاعة معاداة الشيوعية تؤلف إحدى الدعائم الأساسيّة لسياسة الولايات المتحدة الخارجية، وأنه إن سحبت هذه الدعامة بصورة مفاجئة وقسرية يمكن أن ينهار كل ما بناه أسلافه بطول أناة. اليوم، لم تعد تلك الدعامة تعمل، ولكنها سُحبت على مهل واستبدلت بأساسات حقوق الإنسان الافتراضية المحضرة بعناية من الرئيسين جورج بوش الأول وكلينتون. في المقابل، أراد كارتر (أظن ذلك، لست متأكداً 100%) أن ينادي بحقوق الإنسان الحقيقية، دون أن يعلم بأنه في الجيوسياسة هذه الحقوق لا تعمل إطلاقاً، ربما لأنها غير موجودة بكل بساطة.

في تلك الظروف، منذ عام 1978، كان على كارتر الطيب أن يتبنى وضعية مفارقة بصورة أدق، وطمح عندها إجبار موسكو أن تختار بين التعاون أو المواجهة. إذ إن التغلغل السوفياتي في أفريقيا كان تكثّف وإن روحية الانفراج تلاشت، وإن اتفاقات

---

(1) في مشهد من «العراب» حيث رجال المافيا يتصالحون بعد مقتل سانتينو كورليوني، يجري الحديث دائماً عن العائلات الخمس: كورليوني، بارزيني، تاتاغليا، كونيو، وستراكتشي، وفي باب المصادفات الصغيرة نسجّل أن الرقم خمسة هو عدد الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن للأمم المتحدة.

هلسنكي (1975)، التي من أجلها كان الرئيس فورد قد قبل بعدد من التنازلات، لم تكن مطبقة من قبل الاتحاد السوفياتي. في 18 حزيران/جوان 1979، وقعت القوتان العظميان اتفاقاً ثانياً للحد من انتشار الأسلحة الاستراتيجية (سالت 2 Salt 2) التي يجب أن تقع ضمن نطاق توجه الاتفاق (سالت 1/ 1971 ـ 1972 Salt 1). ودعي مجلس الشيوخ إلى البتّ في ذلك. بعد ستة أشهر، انفجرت القضية الأفغانية.

كارتر، الذي يمكن أن يكون أي شيء ما عدا أن يكون مختلاً كبيراً، كان عليه أن يُدرك بأن تصرفاته الحسنة النية تترجم كأنها إشارات ضعف. إن التخلي عن السيطرة على قناة باناما، والتخلي عن بناء القاذفة ب 1 (B 1)، وتأخير صناعة القنبلة النترونية، أو انسحاب القوات الشمال ـ أميركية من كوريا الجنوبية، لم تنجح سوى بجعل الأعداء السوفيات يتصلبون أكثر، فأقاموا في كوبا فرقة عسكرية وقاعدة ميغ ـ 23 بينما صوّت كونغرس الولايات المتحدة على مساعدة من 75 مليون دولار للحكومة الساندينية الجديدة في نيكاراغوا. فعلى عزيزنا جيمي إذن أن يتحرك.

إن مقاطعته للإلعاب الأولمبية في موسكو وحصاره التجاري على الحبوب ليست سوى إجراءات شكلية. لقد اتخذ في الحقيقة إجراءات أكثر جدية بكثير، فهل تخلى عن اتفاقات سالت 2، كما تضاعفت الأرصدة العسكرية، وتنامت المساعدة الاقتصادية والعسكرية للباكستان لتصل إلى 400 مليون دولار خلال سنتين. وعقدت اتفاقات تعاون عسكري مع سلطنة عُمان وكينيا والصومال. فتركت عندئذٍ سياسة الانفراج مكانها لحرب باردة جديدة: وقّع كارتر التوجيه الرئاسي (PD59) الذي يهدف إلى تجهيز بلده بوسائل تدمير المجتمع السوفياتي وصولاً إلى أساساته. في عام 1980، لم يعد هناك أي اتصال على مستوى عالٍ يسمح للقوتين العظميّين أن تتبادلا الحديث (Kaspi). فمنذ ارتفاع الـ Testostérone (هورمون الخصية) عند كينيدي في عام 1962 خلال أزمة الصواريخ (الكوبية)، لم يكن توازن العالم أبداً على هذه الدرجة من عدم الاستقرار مثلما كان في كل رئاسة هذا الرجل الطيّب النية.

الخاتمة التشيلية

كتب سفير السويد في تشيلي، هارالد ايدلستام (Harald Edelstam) أثناء الانقلاب:

كان سلفادور أليندي يأنف من العنف والقساوة. خلال رئاسته، لم يكن

> هناك سجناء سياسيون. كل الأحزاب السياسية وكل التيارات كانت مسموحة وتناضل بحرية لأفكارها. لم يكن هناك رقابة على الصحافة، والراديو والتلفزيون. جميع الناس لهم الحق بانتقاد الرئيس، الحكومة والإدارة بانفتاح. خلال السنوات الثلاث من رئاسة سلفادور ألّيندي، كانت تسود تشيلي حرية كاملة وديموقراطية حقيقية.

كنت شاباً في وقت الانقلاب في تشيلي، ولكن كنت قد أعجبت بطريقة سلفادور ألّيندي في إدارة الحكم، سلفادور ألّيندي الطيّب، عندما رأيت ما حل به، بدأت التفكير بشكل لا يمكن تحاشيه بفيدل كاسترو، الذي كان في تلك الحقبة، نوعاً من طاغية شيوعي وأيضاً ثقيل الظل، في مخيلة جامعي مبتدىء، ولكنه كان أحياناً يبهرني. كنت قد بدأت بالتفكير خاصة في طريقة الحكم التي كان يمارسها كاسترو منذ خمسة عشر عاماً في كوبا. لم أنجذب أبداً نحو أي نظام ذي تفكير يساري، ومن باب أولى يساري، ولكن وصلت أيضاً، برشاد لا شك أنه مفرط بعض الشيء بابتذاله، ومادي قليلاً مقارنة بذوق بعض الأوروبيين، إلى الاستنتاج، بعد كل شيء أن كاسترو ربما كان على حق. فلا الطيبة ولا النيّة الحسنة هما تفيدان عندما نريد أن نكون أحراراً في وجه أمبراطورية الحرية، وبكل بساطة لأن الطيبة والنيّة الحسنة والحرية، هي مفاهيم لا تدركها الأمبراطوريات ظاهرياً.

لم يكن كارتر يعلم على ما يبدو، وكاد أن يقود بلده (ومعه بقية العالم) نحو مملكة جهنم، لأن تلك الأخيرة، معبدة بأطيب النوايا.

الهجوم المضاد للأمبراطورية وتخلي الملك الأسود: رونالد ريغان وميخائيل سرغييفيتش، غورباتشوف (1981 _ 1991)

إن قرائي يعلمون طبعاً بأنني لست أول من استعمل المجازات القديمة _ أمبراطوري أو إقطاعي، كي أصف الجيوسياسية المعاصرة. من جيفرسون إلى بريجنسكي، كانت قد سبقت شخصيات مرموقة. رونالد ريغان (1981 _ 1989)، المجدد، أقدم على مهاجمة الميتافيزيقا. ملهماً ربما بما اكتشفه آية الله روح الله الخميني الذي وصف الولايات المتحدة على شكل الشيطان الأكبر، وضع الرئيس ريغن في رأسه أن يقدم

لنا الاتحاد السوفياتي كأمبراطورية الشر، ولكن هذا التعبير ليس في الحقيقة سوى ابتكار بلاغي. كان السيد ريغن يعلم منذ البداية بأنه سيتفاهم مع خصومه لأنه يتكلم بلغتهم ذاتها. لقد استعاد أسلوب نيكسون وجونسون القديم الجيد والمحارب واختار لنفسه نائب رئيس شخص يدعى جورج بوش. فلغة كارتر السلمية والإنسانية، التي بدت سابقة لأوانها وحتى خطيرة في ظروف سنوات السبعينات 1970، وضعت بعناية في الخزانة. بعد عدة سنوات، أدرك ماكر صغير بأن كلمة «سلمي» يمكن لها أن تصبح «صانع السلام» و «إنساني» «إنسانوي»، مما سيسمح بإعادة تأهيل هذه الكلمات في اللغة الحديثة وتوظيفها بفعالية للدعاية في مشاريع كليتون القاتلة، ولكن هذه هي قصة أخرى وسنتكلم عنها فيما بعد.

وصف أندريه كاسبي الرؤية الجيوستراتيجية للقادم الجديد:

> إن الاتحاد السوفياتي اليوم، هو ألمانيا النازية في الأمس، التهديد على قدر شبيه بالأمس: «لقد دخلنا، كما أعلن، في عام 1980، في عقد من أخطر العقود للحضارة الغربية». قد تندلع الحرب، إذا خضع أحد الكبيرين، في تصور الولايات المتحدة، لوضعية الضعف وجذب عندئذٍ ضربات الآخر. تكررت ميونيخ في كابول وكارتر يشبه نيفيل شامبرلين إذا ما نزع هذا الأخير مظلته. «الحرب العالمية الثانية، كما قال، أطلقت بغتة لأن الأمم كانت ضعيفة، وغير قوية إطلاقاً، في وجه العدوان، وإن دروس الماضي تنطبق بكل تأكيد على الحاضر. فالحزم، مستنداً إلى دفاع صلب، لا يمكن له أن يشكل استفزازاً. إن الضعف هو المستفز، لأنه يغري أي أمة لديها طموحات إمبريالية لا تحدّ. فنحن اليوم أكثر فأكثر في وضع عزلة خطيرة. لقد فقد حلفاؤنا الثقة بنا، وما عاد أعداؤنا يحترموننا». حلٌ واحد فرض نفسه: إعادة التسلح، وعدم الخشية من الدخول مع السوفيات في سباق تسلح كانوا أنفسهم سبّاقين إليه، واللحاق بهم ثم تخطيهم.

منذ توليه الرئاسة، في 20 كانون الثاني/ جانفي 1981، أقدم ريغان إذن على استعادة السيطرة المفقودة من قبل سلفه. ما زلنا نجهل كيف فعل، ولكنه جهّز نفسه لكي تصل مفاوضات الجزائر بين الإيرانيين والأميركيين إلى تحرير رهائن طهران بعد خمس وعشرين دقيقة من قسمه اليمين الرئاسي. فيما بعد، في شهر حزيران/ جوان، نجح في الإفراج عن ثلاثة مليارات دولار مساعدة للباكستان، شريطة تقاسم القليل من

هذه المبالغ مع المواطنين الأفغان الذين يحاربون ضد الشيوعيين. نرى أن هذا يتناقض كثيراً مع مبلغ الـ 400 مليون دولار القليلة من كارتر. ثم، في شهر آب/ أوت، قرر ريغان بناء وتخزين الـ 200 1 قنبلة نوترونية. بعد ذلك بأقل من عام، في حزيران/جوان 1982، افتتحت في جنيف المفاوضات السوڤياتية الأميركية حول تقليص التسلح الاستراتيجي، ستارت الشهيرة.

إذن، نحن مجبرون أن نستنتج بأن الروس فهموا فوراً الأسلوب الكلاسيكي لأعدائهم الجدد. فضلاً عن أن ريغن إما كان حظه استثنائياً، وإما كان، كما سمعنا من آية الله الخميني، قد عقد ريغان عهداً مع الشيطان: الواقع أنه خلال حكمه، كان الحكام السوڤيات يتسابقون (برجنيف، أندروبوف، تشرنينكو) ليخلوا الساحة لهدّام الاتحاد والشيوعية السوڤياتية، ميخائيل سرغييڤيتش غورباتشوف. فأولئك الذين يتذكرون بأن رونالد ريغان كان ممثلاً في شبابه، سيفكرون فوراً في الفيلم الرائع لرومان بولانسكي، Rosomary's baby، حيث أن شخصية جون كاسافتز (John Cassavetes) قد تعاهدت مع السحرة لتعمي الممثل الذي انتزع الدور الذي يبغيه.

في المقابل، في القارة الأميركية، الواقعة تحت السيطرة المباشرة للولايات المتحدة، لم يكن ريغان بحاجة لتوقيع أي عهد مع أي شيطان لتنظيف المكان الحقيقي الفوضوي، المتروك من جيمي غير اللائق. إنها مهمة سهلة، مما يجعلها مضجرة نسبياً. قبل كل شيء، ضربة حظ جديدة: الرئيس البانامي طورّخوس (Torrijos)، صانع اتفاق استعادة القناة، مات في حادث طائرة. بعد عدة سنوات، في العام 1987، اتهم رئيس أركان باناما السابق الجنرال نوريغا الذي عمل في تلك الحقبة مع السي آي إي في أوقات تسليته بتورطه في هذا الحادث، ولكن لا شيء أثبت ذلك.

في عام 1983، أعادت الولايات المتحدة مساعدتها لحكومة غواتيمالا، التي أوقفها كارتر عام 1977 بسبب النظام الاستبدادي هناك، ثم أعيد الاعتبار أخيراً إلى التدخلات القديمة الطيّبة المباشرة.

كان أول اجتياح متواضعاً جداً مما سيجده امبريالي عادي غريباً وأيضاً مهيناً: في أواخر تشرين الأول/أوكتوبر من عام 1983 قام الجيش الأقوى في العالم، على رأس تحالف ضم عدداً من بلاد الكريبي بقصد عزل نظام خطير موالٍ لكاسترو، بمهاجمة الجزيرة الصغيرة غرانادا، حيث أن عدد سكانها لا يبلغ حتى عدد سكان مدينة صغيرة

في الولايات المتحدة (000 94 نسمة، يطرح منهم عدد الموتى الناتج عن هذه العملية الخيّرة). نحن الذين بدأنا نعرف طريقة عمل هذه الأمبراطورية ذات التقنية العالية (hightech)، لم نعد متفاجئين من مهانة هذه العملية: فنحن نعلم بأن الولايات المتحدة تدين كثيراً لهذه الفطنة التي ربما يعتبرها البعض مبالغاً بها. فهي تقوم دائماً بتجارب صغيرة قبل الانطلاق في عمليات أوسع نطاقاً. هذه التجارب الصغيرة فرضت نفسها أكثر بعد صدمة ڤيتنام. إن عظمة هذه الأمبراطورية تعود إلى هذه الدقة العلمية.

فكما كان متنظراً، سمحت عملية غرانادا بشكل فعّال للولايات المتحدة أن تعيد مجدها مع النجاح: أي شخص تقريباً، في داخل البلد كما في خارجه، لم يفكر بفضح هذا التدخل الخسيس. كلينت ايستوود بذاته قدّم فيلماً Heartbreak Ridge، بالعربية، «سيد الحرب». إن هذا العنوان مبالغ فيه بعض الشيء بالنسبة للموقع لأنه في الحقيقة، هذه العملية لا تحمل سوى درس حربي واحد. لقد عادت عامة الناس تقبل مجدداً حروباً أخرى شرط أن يمكن لها أن تبرهن بأنها منضبطة كلياً ولا تقتل سوى الشيوعيين. إن المشهد في الفيلم الذي ترك أثراً أكثر بي هو مشهد يقتل فيه كلينت ايستوود جندياً كوبياً ثم يفتش جيبه ليسرق سيجاراً، من النوع الذي كان ممنوعاً بيعه في الولايات المتحدة.

لا يمكن لنا طي صفحة هذا التناجي القصير الأميركي دون العودة إلى نيكاراغوا التي رافقتنا على مدى الكتاب، على طريقة كوبا نوعاً ما وإن كانت أقلّ إثارة. فالأمور في نيكاراغوا ليست بسيطة كما في غرانادا لأن العقلية واللوجستية الكوبيين تحومان فوق هذه الجمهورية الصغيرة الكبيرة. فهجوم مباشر يمكن له أن يطلق مقاومة على الطريقة الڤيتنامية، والحرب الإنسانية على طريقة التسعينات (كما في العراق أو يوغوسلاڤيا) لم تكن قد ابتكرت بعد. يجب إذن: 1) دعم الحركات المعادية للساندينية؛ 2) محاولة خنق البلد بفعالية تساوي أو تفوق تلك المستخدمة ضد كوبا. بهذا الإطار، قدمت فرنسا والمكسيك للأمم المتحدة، في 2 نيسان/أفريل 1984، شكلياً، احتجاجاً يشكو استغلال المرافىء النيكاراغوية كحصار مموّه. كما جميع الاحتجاجات المقدّمة للأمم المتحدة ضد الولايات المتحدة، انتهى هذا الاحتجاج طبعاً في سلة المهملات، لقد اكتهتم ذلك.

فيما يتعلق بالدعم للحركات المعادية للساندنية، عملت مخيلة فريق ريغان في كامل طاقتها، بما أن الكونغرس، الواقع تحت سيطرة المعارضة الديموقراطية، قبل رفض

منح 14 مليون دولار كمساعدة عسكرية، كان على ريغان أن يكتفي بالحصول على التصويت لصالح مساعدة مدنية بلغت 27 مليون دولار في حزيران/جوان 1985. ولكن بما أن ذلك لا يكفي، فقد أوجد رجال الرئيس الصفقة المدهشة المسماة Iran-Contra: من أجل إطالة الحرب بين إيران والعراق، باعت الولايات المتحدة أسلحة لعدوتها الايرانية بتوسط اسرائيل (وهي عدو أيضاً للإيرانيين)، والمبلغ الناتج عن هذه الصفقة استخدم في العقود النيكاراغوية. إن ذلك بسيط تماماً، ولكن كان يجب التفكير به. وخاصة بجعله يمر، وهذا لم يكن يمر دون مخاطرة عندما اكتشف الكونغرس السرّ في آخر المطاف، كاد ريغن أن يفقد مركزه مثل نيكسون. والمناطق الأخرى في العالم لم تكن، طبعاً، متروكة من قبل سياسة الرئيس الساعية لاستعادة السيطرة. ففي كانون الثاني/جانفي 1985، أبطل الكونغرس تعديل كلارك القانوني الذي يمنع أي مساعدة للمتطوعين المعادين للحكومة في أنغولا. في 24 تشرين الأول/أوكتوبر، عرض ريغان على الاتحاد السوفياتي أمام الأمم المتحدة، فتح تفاوض حول نزاعات إقليمية خمسة: أفغانستان، أنغولا، كمبوديا، أثيوبيا، ونيكاراغوا.

قد لن نعلم أبداً إن كان تصرف غورباتشوف، الذي أصبح الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي في آذار/مارس 1985، سيكون مختلفاً في وجه شخصية أقل قوة من شخصية رونالد ريغن. إلّا أن الزعيم السوفياتي خفف شيئاً فشيئاً ـ مع بعض التغيرات المزاجية المفهومة تماماً والمسامحة ـ من عدائية بلد كان يعتبره ريغن قبل عدة سنوات مركز كل آلام العالم. في عام 1989، في السنة الأولى من رئاسة جورج بوش الأول (1989 ـ 1993)، كانت الأمبراطورية السوفياتية ضحية نظرية الدومينو الشهيرة التي أقلقت كثيراً الولايات المتحدة في مرحلة حرب ڤيتنام. الواحد تلو الآخر، وعملياً دون عنف، جميع الدول التابعة، من مكاسب يالطا، خرجت من محور المارد المجروح. هنغاريا، بولونيا، جمهورية ألمانيا الديموقراطية، بلغاريا، تشيكسلوفاكيا، رومانيا، مانغوليا. . . في عام 1990، بدأت ليتوانيا بالحركة الانفصالية من وسط الاتحاد نفسه. بداية 1991، دخلت بقية جمهوريات البلطيق وانخرطت في العملية. بعض أعمال العنف التي حصلت كانت جد محلية طفيفة نسبياً. في 26 شباط/فيفري، انحل حلف وارسو، وانهار الكومكون (السوق المشتركة لشرق أوروبا) في 28 حزيران/ جوان وفي 29 آب/أوت الحزب الشيوعي السوفياتي،

صاحب أطول حياة في السلطة، (أمام الـ PRI المكسيكي نفسه!) علق نشاطه. ثم أتى دور الجمهوريات الأخرى باختيار الانفصال. ولكن دون القيام بحرب. في 8 كانون الأول/ ديسمبر 1991، في مينسك، أعلن رؤساء بيلاروسيا (شوسكفيتش)، روسيا (يلتسين) وأوكرانيا (كرافتشوك) حلّ اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية لصالح مجموعة الدول المستقلة (CEI). أخيراً، في 29 كانون الأول/ديسمبر، بعد أن وضع في جيبه مليون دولار في جائزة نوبل للسلام عام 1990، استقال ميخائيل سرغييفيتش من مركزه كرئيس بلد شبح، عارضاً في هذا الشكل ما يظنه أفضل هدية ميلاد لأمبراطورية الحرية: التفكك الأخير والنهائي لأمبراطورية المساواة.

ومنذ تلك اللحظة لم تعد تستطيع الشعوب الصغيرة سوى الاعتماد على الله لتأمين حمايتها، وبين يوم وآخر، اكتشفوا بأن الروس لم يكونوا شياطين، بل بشراً شبيهين بهم. تعساء مثلهم.

الفصل الثالث

النظام العالمي الجديد

في هذا الوقت ذاته، نقل جيوشاً كبيرة من المرتزقة الأجنبية لتكملة صنعة الموت، الخراب والطغيان...

إعلان استقلال الولايات المتحدة

الحملة الصليبية الجديدة الأولى: باناما (1989)

القضية الصحيحة: التكرار العام

ـ مَن؟ الـ... تعلم جيداً، الـ... الـ، الشعب.
ـ أيجب أن يعلم؟
ـ نعم.
ـ ستان (Stan)، قُل لي... من قتل كينيدي؟ لقد قرأت النسخة الجديدة لتقرير وارن (Warren): كان يقول بأن سائقاً متهوراً ثملاً قد قتله. وفي حرب الخليج، ماذا كنا نرى يوماً بعد يوم؟ دائماً الصاروخ نفسه الذي يدخل بالمدخنة. الحقيقة؟ لقد كنت في المبنى أثناء التصوير. لقد صُور في استوديو في فيرجيني مع ماكيت بقياس 1/10.
ـ حقاً؟
ـ لا يهتمون بشيء... هل تتبعني؟

داستن هوفمان وروبرت دي نيرو، أصحاب النفوذ، باري ليفنسن. (Barry Levinson)

قبل ست ساعات من تلقي الأمر بمهاجمة مدينة باناما، مساء الاثنين من 16 كانون الأول/ديسمبر عام 1989، كان الملازم أول دوغ روبن (Doug Robin) يصلي مع رجاله.

> كانت هذه الحرب في نظره، الصراع التقليدي بين الخير والشر، في الطريق القويم، مما كان قد قرأه في «العهد القديم». كان يعتبر مركبته المصفحة كجزء من خزانة الأسلحة الإلهية معتدة ضد مبعوث الشيطان الجديد. ما زال رجال لا يعرفون النار أبداً، ويريد أن يقنعهم بأن الله معهم. «إنني أجهل ماذا تفكرون بالفكرة التي بموجبها يختار الله معسكره، قال لهم، ولكن ما هو مؤكد، أنه يرغب في اقتلاع الشرّ من على سطح الأرض». (Kempe)

عملياً وفي الوقت ذاته، تنهار[1] أمبراطورية الشر ويصبح الحكام السوفيات وديعين مثل الحملان. ولكن كل ذلك لا يحتوي إلّا فوائد. قال استراتيجي سوفياتي، أرباتوف، في تلك الحقبة ـ لا أعلم أبداً أين ـ جملة موجهة للولايات المتحدة في غموض رهيب: «لقد سلبوك من عدوك». كان عليه أن يعلم بأن دعامة الخطر الأحمر، حتى وإن سُحبت تدريجياً وبلا ألم، ستنقص من بناء آخر أمبراطورية في العالم. كان يجب الحصول بسرعة على فزاعة بديلة، قبل إيجاد فكرة أفضل. مانويل أنطونيو نوريغا، رجل قوي من باناما وتاجر مخدرات شهير، سيقوم بالمهمة بشكل كامل.

كانت قد مرّت الدقائق الأولى من ثلاثاء 19 كانون الأول/ديسمبر عندما اجتازت مركبات الطليعة الشمال ـ أميركية الخط الفاصل المقام بجادة 4 تموز/جويليه، الذي سميّ مجدداً جادة الشهداء من قبل البانامیین تخليداً لذكرى الطلاب الذين قتلوا في عام 1964 بنيران الجيش الأميركي.

بدأت في ذاك اليوم عشرية الحروب الاختبارية. بدأت التسعينات (1990) مبكرة بعض الشيء.

(1) لتحدد بعض التواريخ: 9 تشرين الثاني/نوفمبر: سقوط جدار برلين 10: ليبرالية بلغاريا، 23: الثورة المخملية في تشيكسلوفاكيا، 26: هنغاريا؛ 4 كانون الأول/ديسمبر: حلف وارسو يحاكم التدخل في براغ في عام 1968؛ 25: إعدام شاوشيسكو؛ 29: انتخب هافل رئيساً لتشيكسلوفاكيا.

إن فعالية الهليكوبترات 130 ـ AC الشبح[1] بأدواتها للقتل الجراحي، والقدرة الضارية للطائرات الرهيبة الخفية 117 ـ F (التي لا يلتقطها الرادار) بقذائفها التي تزن طناً، ستُجرب أخيراً على أهداف بشرية حقيقية. وسنرى أيضاً كيف ستكون ردة فعل المجتمع الدولي المحيّرة إن أنجزت على مستوى عالٍ عملية احتلال على الطريقة الإسرائيلية[2]. والأهم من ذلك أيضاً، أنه منذ حرب فيتنام لم تُمتحن إلّا على مستوى مصغر (في غرينادا) ردّات فعل الرأي الوطني الشديد الحساسية والحاد جداً، هذا الرأي الذي يمكن لأصواته وإحصاءاته أن تغير وجه العالم. استعدوا إذن إلى تحقيق هذا الاختبار على مستوى أكثر انسجاماً.

ما الذي كان يبرر شرعياً هذه العملية؟ لا شيء. مثل مهاجمة يوغوسلافيا عام 1999. حتى أنهم لم يتعنوا أن يطلبوا من منظمتين دميتين مثل منظمة الأمم المتحدة (ONU) ومنظمة الدول الأميركية (OEA) ـ دون الكلام عن تحالف الكاريبي مثل غرانادا ـ أن تشاركان لحجب الجانب المتعلق بتصفية الحسابات في القضية[3]. قُدم الاجتياح كعملية بوليسية من أجل توقيف تاجر مخدرات رهيب. وُجهت مذكرة توقيف وفقاً للأصول ضد نورييغا. ولكن إن استشرتم أكثر الكسالى كسلاً من طلاب الحقوق، لن يتردد للحظة بالقول لكم إن أية مذكرة توقيف من هذا النوع، أية فتوى، لا تبرر تدخلاً عسكرياً. حتى المُضطهِدين الأكثر تعصباً لسلمان رشدي لم يصلوا إلى هذا التطرف. لم يصل الإيرانيون اطلاقاً إلى لندن لكي يقوموا باحترام مذكرة الإعدام الدولية المطلقة من آيات الله الإيرانيين الفرس[4]. وهذا هو بالتحديد ما يجعل هذه العملية البانامية أثمن أيضاً من أي عمل آخر: يجب إثبات أن الولايات المتحدة تستطيع أن تضرب دون الاهتمام بالقواعد الأكثر أولية. مؤكداً ستفكرون بأنني مصاب

---

(1) كان لقبها بوش ـ التين ـ السحري. الكاتب المكسيكي تذكر الأغنية المقدمة من بيتر، بول وماري.

(2) المحكمة العليا الإسرائيلية اقتنعت، في آذار/مارس 2000، بأن هذه الاحتلالات كانت غير شرعية. وعلى حد علمي، العدالة في الولايات المتحدة لم تنطق بعد في هذا الموضوع.

(3) في نفس الطريقة التي برر فيها الاتحاد السوفياتي الاجتياح ـ التحرري لأفغانستان بواسطة البند 51 من تقرير الأمم المتحدة، استعان سفير الولايات المتحدة، توماس بيكرنغ، بالبند ذاته ليبرر العمل الحاصل في باناما: فهو يتعلق، حسب رأيه، بمنع «أن تكون أراضي هذا البلد مستخدمة كقاعدة لتجارة المخدرات في اتجاه الولايات المتحدة».

(4) سيبرهنون لي بأنهم لم يكن لديهم الوسائل وسيكونون محقين بكل تأكيد.

بعقدة خوف لا شفاء منها، ولكن لننتظر فتح الأرشيفات وسنرى جيداً. إنني مقتنع بأن فكرة اختبار ردات الفعل الوطنية، الدولية والسوفياتية (لأنه في هذه الحقبة لم يكونوا بعد حملاناً كلياً) تهجس في عقل أكثر من مستشار عسكري أميركي.

لنحمل الآن طيلة عدة لحظات فقط، التصور إلى الإمكانية. لنتصور، حتى وإن بدا ذلك غير منطقي، أن باناما بلد صاحب سيادة وأن البانامييين هم مثلكم ومثلي، كائنات من لحم ودم لديهم نفس الحقوق مثلنا. لنتصور بعد ذلك هبوطاً بوليسياً متحولاً إلى اجتياح عسكري في أي بلد صاحب سيادة فعلياً (أي من المجموعة السبع وملحقيها) للقبض على تاجر أو تاجري مخدرات. لنتصور أورانج أو مارينيان تقصفان بالقنابل لمعاقبة رؤساء بلدياتهما. لنتصور آلاف السكان في أجاكسيو، في سان سباستيان ـ أو حتى في بلفاست! ـ قتلوا من أجل القبض على مقاوم ـ إرهابي. في فرنسا، ذهب حاكم كورسيكا مباشرة إلى السجن عندما لمّح مأموريه بأنه كان قد أعطى الأمر بحرق كوخ غير شرعي بينما كانت حكومته منشغلة بالمشاركة في قصف يوغوسلافيا. لنفترض الآن بأن حياة أحد البانامييين تساوي ما يمكن أن يكون جزءاً من مئة لفرنسي متوسط، إلى أين كنا سنرسل الملازم الأول دوغ روبن، ضابط في القوات البرية، الجنرال ماكسويل ر. ثورمان، رئيس القيادة الجنوبية، الجنرال كولن باول، رئيس الأركان العام (أراضيه، البحرية والجوية)، السيد ديك تشيني، وزير الدفاع، السيد برنت شكوكروفت، مستشار الأمن القومي والسيد جورج بوش الأول، قائل «Let's do it» الشهيرة؟ إن كانوا تصرفوا في أوروبا أو في الولايات المتحدة، فسيكونون في السجن، محكوماً عليهم بأحكام شديدة، إلا أن أحد أولئك الرجال اليوم هو وزير خارجية وآخر نائب رئيس الولايات المتحدة.

فتلك الترقية ترجع إلى نجاح عمليتهم. في باناما، بقدر ما كانت الآثار جسيمة أكثر، بقدر ما ستجني ثمارها أكثر. ويجب الاعتراف بأن مسألة الآثار الجانبية قد تخطاها أصدقاؤنا في ما وراء الأطلسي. قُدر عدد ضحايا التوقيف بالألوف، جراء النيران المتعددة المصادر والملتقية عند هدف واحد. كان يتعلق ذلك حقيقة بوضع الأساسات للتصديرات العقابية المستقبلية (كما كان يقول بريجنسكي) الإنسانية (كما نقول اليوم)، مثل تلك التي ستنظم فيما بعد ضد العراق ويوغوسلافيا وتلك التي سيكون لدينا انطباع مسبق لها في بداية القرن الواحد والعشرين. إذاً أنجزت المهمة بنجاح كلي تقريباً. إن على مخيلة فرق التفكير أن تعمل بسرعة أيضاً بشكل أقوى من

مخيلتنا، بما أن أحد الدهاة بدون شك ممتعض من الاسم الفارغ المعنى «Cuiller Bleu» المعطى لهذه العملية، وجد لها اسماً عبقرياً: القضية العادلة.

عودة إلى الوراء

بعد المرحلة الغربية من ما بعد ـ نيكسون، بينما كانت السي، آي، إي تقوم باعترافاتها بالخطيئة السوريالية، كان الرئيس جيرالد فورد، عندما شعر أنه يُخشى أن يخسر الانتخابات، قد فكر مؤكداً بأنه دفع بالأمور بعيداً جداً إلى حد ما. فقرر عندئذٍ وضع المحارب جورج بوش على رأس الوكالة وحدد له هدفاً واحداً: إنقاذ الأثاث (Kempe). (وكانت السنة الأخيرة (1976) من حكم الرئيس فورد القصيرة المدة قد بدأت.

بعد ثلاثة أشهر من استلامه إدارة التجسس الأميركي، أبلغ بوش بأن الجيش شرع باستقصاءات عن تصرفات نظيره البانامي، الليوتان كولونيل مانويل انطونيو نورييغا. أظهرت نتائج التحقيق بأن نورييغا ـ رئيس مكتب خدمات الاستخبارات البانامي الذي يضاهي أيضاً السي. آي. إي. والدي ـ آي، إي (وكالة الاستخبارات العسكرية للولايات المتحدة) ـ كرس نفسه لتجارة استعلامات حذقة. واكتشف أن باناما مجسس عليها من قبل مجموعة المخابرات العسكرية رقم 470 ولكن، بدل أن يقلق، اعتمد الفكرة الأفضل: شراء نسخ بعض المعلومات لمعرفة نوعية الاستعلامات المستقاة. بما أن، شراء عملاء الولايات المتحدة في باناما لم يكن أبداً صعباً. وبالنسبة للكثيرين، من مواليد بورتوريكو، لم يكن لديهم أي اخلاص نحو رؤسائهم الذين بالنسبة إلى الأغلبية منهم هم بيض انجلو ـ ساكسون بروتستانتيون طيبون. (WASP).

> «كان نورييغا لا يكف عن ممالأة أولئك العملاء، كان يخابرهم في أعياد ميلادهم ويرسل في عيد الميلاد هدايا صغيرة لأولادهم. كان ذلك أكثر الثقافة مما يمكن أن يظهرها أبداً الضباط الأميركيون. (Kempe)
>
> سارت الأمور بشكل جيد لدرجة أن القضية تلقت اسماً رمزاً كثير الايحاء: «الرقباء المغنون». «Singing Sergeants»

عندما اكتشف بوش هذه التجارة، فلم يترك أولئك المغنين دون عقاب فقط، ولكن اختار أن يستمر في الدفع إلى نورييغا حصصه (000 110 مليون دولار في السنة)

لتعاونه مع السي. آي. إي. نُظم كل شيء في مناسبة عشاء في السفارة البانامية في واشنطن، في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام 1976، الذي سيبقى راسخاً للأبد في ذاكرة نوريغا.

في الحقيقة، إن الشمال-أميركيين فضلوا الاستمرار في الدفع له وهذا كله خشية أن يعيد بيع المعلومات الدقيقة الحساسية التي استقصاها. فكرت السي آي إي بأنه يملك تسجيلات لمسؤولين كوبيين ولمسؤوليين مختلفين من المنطقة والوكالة لا تريد أن تعود إلى المخابرات السرية لفيدل كاسترو التي هي بدورها تدفع للبانامي، نوريغا، كتب Kempe، «كان يناسب العالم، وكل العالم يكافئه».

ولكن كان لديه تفضيلاته. ففي عام 1988، عندما أرسل اليه المرشح الديموقراطي دوكاكيس مندوب مهمته جمع السمعة السيئة في خصوص بوش، عدوه الجمهوري، رفض نوريغا أن يتعاون. كان عليه أن يفكر بأن التفاهم أسهل بين أشقياء حقيقيين. حتى وإن قبلنا مقولة أولئك الذين يدعمون فكره أن نوريغا استمر بالقبض خلال حكم كارتر، يمكننا الافتراض بأنه كان أصعب إلى حد ما بالمرور إلى صندوق الدفع خلال حكم الرئيس الديموقراطي. في المقابل، أحب نوريغا أن يقول بأن غداءه في كانون الأول/ديسمبر عام 1976 مع رئيس السي. آي. إي، جورج بوش، كان بداية صداقة جميلة. البعض يعتبر أن هذا التأكيد مبالغ به، ولكن الواقع هو أنه منذ الأيام الأولى من إدارة ريغان (1981)، حيث أن نائب ـ الرئيس ليس سوى جورج بوش، عادت العلاقات المباشرة بين نوريغا والولايات المتحدة إلى أحسن ما يكون. فيما بعد، في 1985، عام استلام نوريغا السلطة، فإن مكاتب خدمات مجلس الأمن للولايات المتحدة (NSC) بإدارة الشهير أوليفر نورث (الداعم لعملية Iran-Contra)، ارتبطت مع الرجل القوي الجديد من أجل تنظيم تدريب كوماندوس معادين للساندينية من قبل اسرائيليين في باناما، والإعداد لعمليات تخريبية ضد نيكاراغوا (Kempe). إن مساهمة الدول الوسيطة (هنا باناما واسرائيل) ضرورية، لنتذكّر، لأن الكونغرس منع أي تدخل عسكري للولايات المتحدة في نيكاراغوا. يجب إذن عمل كل شيء دون أن يعرف الكونغرس.

إن هذا التعاون استمر إذن فترة طويلة، حتى إن بعض أعضاء حكومة الولايات المتحدة، كمساعد وزير الخارجية في مسائل أميركا اللاتينية، إليوت إبراهامز، فكروا بأنهم بصدد أن يُخدعوا من قبل نوريغا الذي لم يتوقف أبداً عن إعطاء المعلومات

للمخابرات السرية النيكاراغوية والكوبية وهو يعمل في نفس الوقت للولايات المتحدة. ولكن كان على الجميع أن يعترفوا بأن باناما ستصبح أيضاً أسوأ إن ذهب نورييغا، فالشخص الثاني بعده، دياز هيريرا، كان يعتبر في واشنطن كشيوعي، مما جعل الوضع شكسبيرياً بقدر ما كل هذه الوقائع وكثير غيرها، مضافة إلى العديد من الذكريات التي يحتفظ بها نورييغا عن بوش عندما كان الرجلان على رأس المخابرات السرية الخاصة في بلديهما، أعطت ما يكفي من الثقة للباناما الذي استطاع أن يسمح لنفسه بقول جملة بقيت مشهورة: «إنني أمسك بوش بخصيتيه» (Kempe).

إلّا أن لكل شيء نهاية. فمصير مانويل أنطونيو نورييغا كان ملخصاً بشكل كامل من قبل جوبل ماكليري، مستشار سابق لجيمي كارتر، الذي كان، بين عام 1985 و1986، مستشاراً لنورييغا من أجل جعل باناما ديموقراطية، قبل أن يساعد في عام 1987 معارضيه في محاولة خلعه:

> «كان كل العالم يغازل نورييغا [...] كان نورييغا بمثابة عاهرة جميلة. إلا أنه تقدم في العمر وذبلت مؤخرته. لقد أصبح مفسداً أكثر وأكثر وبدأ يبيع المخدرات. أي إنسان لم يكن لديه الرغبة بإخراجه في السهرات. حان الوقت للتخلص منه. (Kempe)

إن سمحنا لأنفسنا الاستمرار باستعمال اللغة الفجة لهذا الموظف المحترم، سنستطيع القول إن نورييغا كان يمسك بالفعل بوش بخصيتيه، لكنه قد ذهب في ذلك أن بالغ في الشد عليهما بعض الشيء.

لم يخفِ بوش إذن رغبته بالتخلص من نورييغا. في 5 أيلول/سبتمبر عام 1989، أعلن إلى الصحافي دافيد فروست الذي سأله على شاشة التلفزيون في خصوص تغيير موقفه:

ـ لقد التقيت به عدة مرات. حسب رأيك، الجنرال نورييغا، هل هو كما قد تسميه رجل سيء؟

> ـ بدون أي شك، أجاب بوش قبل أن يحدد، وكأنه مرغمٌ: إن ذلك لم يكن دائماً رأيي. ولكن منذ أن بدأ الانغماس في تجارة تهريب المخدرات، نعم، فقد أصنّفه على هذا النحو. (Kempe)

إنه دوام بقاء نورييغا من شأنه أن يؤكد على عجز بوش، والذي تجلى بشكل أكثر

تأثيراً أيضاً بالانقلاب الذي أجهض في شهر تشرين الأول/أوكتوبر. كان لا بد من التحرك إذاً. عندما لقي ضابط اميركي حتفه في 16 كانون الأول/ديسمبر، أثناء إطلاق رصاص غامض بالقرب من منطقة القناة، كانت هذه حجة مثالية لانطلاق العملية. اصطف بوش إلى رأي الجنرال كولن باول الذي يحلم بتدخل مكثف (Kempe).

لقد سبق وحلّلنا معنى ذلك الخطأ البوليسي ـ العسكري. المشكلة الوحيدة هي أنه لئن استطاع «الرجال» (boys) توقيف أو قتل الجميع حسب مشيئتهم، لجأ نورييغا إلى السفارة البابوية الرسولية. إن كانت الأساطيل أطلسية قد أطلقت قنابلها الذكية على سفارة بكين في بلغراد لترى ما كان سيحصل، قبل عشر سنوات آكلو الهامبرغر لم يكونوا قد شعروا بعد أن بالإمكان لهم أن يحاولوا تجربة من هذا النوع. أظهروا أيضاً لمرة أخرى عن مخيلة مميزة تلفت النظر: قبل (Mars AHacks)، لقد فهموا بأن موسيقاهم يمكن أن يكون لديها تأثيرات ساحقة وقصفوا السفارة البابوية بموسيقى الروك. إنني مقتنع بأنه لو كانوا قد فكروا باستعمال موسيقى الكاونتري التي استعملها تيم بورتون لتفجير دماغ مريخيين Mars AHacks، ما كان ليصمد نورييغا أكثر من يوم. فمع الروك، صمد أكثر من أسبوع. لا يهم. إن هذا الفشل الجديد سيُثأر له بعد عدة سنوات من قبل منتج اسطوانات Ry Cooder الذي، نجح في Buenavista Social Club أن يفرض غيتارته الكاونتري الجهنمي الشاكي في جنة الموسيقى، هافانا.

الحملة الصليبية ـ الجديدة الثانية: العراق (1991)

عاصفة الصحراء: الجهاد عل البترول.

ـ لماذا ألبانيا؟

ـ لأنه كذلك.

ـ يجب أن يكون لديهم شيء نريده.

ـ مؤكد.

ـ ماذا لدينا مما يريدونه؟

ـ الحرية؟

ـ حسناً، لماذا يريدونها؟

ـ مضطهدين. . . ؟

ـ لا، لا، لا، إلى الجحيم الحرية، يريدون. . . يريدون تدمير الشيطان

الملحد للولايات... يريدون تدمير نمط حياتنا، اتفقنا؟ هذا هو، هذا هو. أوكي؟ الرئيس في الصين، ينظم نشر B-3 في الباتيا... لماذا...؟ ساعدني.
ـ حسناً، لنرى... في الجيوسياسة، إنّ...

ـ هس: لقد تلقينا نبأ مفاده أن لديهم القنبلة. لقد تلقينا النبأ بأن لديهم القنبلة!

داستن هوفمان وروبرت دي نيرو، رجال النفوذ (التأثير) لباري ليفنسون.

لنتذكر ذلك المقطع من «لورنس العرب» الذي يحضر فيه رئيس الأركان البريطاني الحملة على دمشق. اقترب الجنرال اللنبي من الخارطة، ضرب بقبضته المكان الذي يتواجد فيه الأتراك وحدد بأنه يتوجب قصفهم بغزارة. في المقطع التالي، أوقف أصحاب لورنس، وهم في طريقهم إلى دمشق، سيرهم في الصحراء بعض الوقت لمشاهدة وميض المتفجرات من بعيد في الليل. لم يستطع الشريف علي (عمر الشريف) أن يردع نفسه عن استدعاء الحماية الإلهية لأولئك الذين يتواجدون تحت القصف وأجابه لورنس [الـ ـ أورنس]:

ـ إنهم أتراك...
ـ حماهم الله، الحّ علي.

إن تعاطفاً كهذا لا يفهم سوى عند شعب متأخر. فهي غير جديرة باستراتيجي جيد أو سياسي محنك. ومن أجل البرهان على ذلك، لندخل فوراً في صلب موضوعنا مع الاستنتاج البارد والصافي الذي استخلصه البروفسور زبي (Zbi) من الصراع الذي أعتدنا في تسميته حرب الخليج:

«في الخليج الفارسي، سلسلة من المعاهدات الأمنية، عُقدت بأغلبها في نهاية الحملة التأديبية القصيرة ضد العراق عام 1991، قد حولت هذه المنطقة، الحيوية للاقتصاد العالمي، إلى محمية للقوات [الشمال] أميركية. (بريجنسكي)

بعد أن أخذنا علماً بهكذا تأكيد، كيف لا نفكر بأن ذلك الصراع، وكذلك أن الحرب في يوغوسلافيا التي ستأتي فيما بعد، لا يعودان للصدفة ولكنهما مقصودان وحتى محرض عليهما من واشنطن؟ عدد كبير من المحللين سيجد طبعاً هذا الافتراض معيباً، ولكن أمام كل المصادفات والتوازنات التي سأعرضها عليكم، لم أستطع أن

أقاوم محاولة طرح السؤال الأحمق للروايات البوليسية السيئة: «مَن تفيد الجريمة؟» الشخصيات وحكام البلاد الذين شاركوا في التحالف الذي سحق العراق يعبرون اليوم عن ألوان من المشاعر التي تبدأ من الندم المعترف به (مثل ندم بعض الأعضاء الألمان لمنظمات المساعدة في الأمم المتحدة)، إلى وخزات الضمير المكبوتة (الحكومتان الفرنسية والمصرية، مثلاً، ارادتا التخلص بأي ثمن من هذه القضية).

ولكن فات الأوان: الصواريخ الباليستية القرار 669 الشهير المشؤوم المتعلق بمراقبة الأسلحة ن ب ك (N.B.C) (نووية، بيولوجية وكيميائية) يمكن له أن يبرر السيطرة الأبدية للولايات المتحدة على العراق. فقط، قرار من مجلس الأمن يمكنه أن يعلق الآخر، وبما أن الولايات المتحدة وخدامها[1] الأوفياء الإنكليز يملكون حق النقض الذي لا مهرب منه، فلا يمكن أن يُمرر بقوة أي تعليق دون موافقتهما. ولكن ذلك لا يعود إلّا إلى المطبخ الداخلي للأمم المتحدة، الذي هو، ونحن نعرف ذلك، مسخرٌ للولايات المتحدة. يبدو لي بالعكس، إنه كي أكون أكثر جدية، يجب مواجهة موضوعنا بشكل آخر.

ولكي تكون الأمور واضحة، يجب الاعتراف أولاً بأن الفوضى الشرعية التي تقوم بها الولايات المتحدة الناقلة في المنظمات الدولية هي راسخة بعمق في تقليدها. العالم كله يعرف الشغف الذي يشعر به سكان هذا البلد بالنسبة للمحاكمة الشرعية. لقد كانوا عملياً مهتمين دائماً بعمل كل شيء بطريقة «شرعية». يمتعضون دائماً كي يحيدوا عن الخط المستقيم للقانون، وذلك لأنهم شعب كان دائماً متقدماً على عصره. منذ بداية القرن التاسع عشر، كانت الولايات المتحدة على علم بأمر الذي سيعبر عنه، بعد قرن، الرئيس المكسيكي الفارو أوبرغون: «القانون الدولي هو أكثر القوانين التواءً». إنه أداة، وسلاح.

عندما أراد جيفرسون الاستيلاء على فلوريدا، هبت الولايات المتحدة مدافعة سعياً منها لترجمة جملة صغيرة من معاهدة التخلي عن لويزيانا. لنتذكر بأن فرنسا كانت قد باعت لويزيانا «مع التوسع ذاته الذي تملكه اليوم بين أيدي إسبانيا، وذلك التوسع الذي كان لديها عندما كانت تعود لفرنسا». إستعان المحامون الأميركيون بجملة ـ

(1) حسب المصطلح الانطاعي للبروفسور (Zbl). الفرنسيون هم أيضاً خدام أوفياء، ولكنهم يحيون أحياناً التباهي بالمتمردين.

«الذي كان لديها عندما كانت تعود لفرنسا» ـ للعودة إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، الحقبة التي كانت فيها كل أميركا الفرنسية الشاسعة تدعى لويزيانا. إلا أن الحيل الشرعية ليس لها أية قيمة إن لم تكن مدعومة بالقوة، وفي بداية القرن التاسع عشر، لم تكن الولايات المتحدة تملك القوة الساحقة التي تملكها في أيامنا. تلك المحاولة الأولى الشرعية أصطدمت إذن بالتغييرات المزاجية للقنصل الأول بونابرت، وفشلت.

لنتذكر أيضاً أنه، لتنمية إمكانياتها التوسعية الشرعية، جهزت الولايات المتحدة طريقة عرفت نجاحاً مميزاً: الثورة المدعومة. لقد حللنا هذه الطريقة سابقاً: فهي تعني دعم الآمال المنشودة للاستقلال لمجموعة ثورية ودودة أكثر أو أقل من السكان الأصليين (أو أحياناً، ليست من الشعوب الأصلية كلياً كما في تكساس)، ثم ضم أو أقله «حماية» الأرض المحررة من قبل تلك المجموعة. إن نجاح هذه الطريقة تخطى التوقعات الأكثر تفاؤلاً لمنظريها. لقد مارستها الولايات المتحدة أينما كان تقريباً في القارة الأميركية (تكساس، فلوريدا، كولومبيا، نيكاراغوا، كوبا، سان دومينيك، هايتي)، وكذلك في العالم الواسع (هاواي، فيليبين، جنوب فيتنام، يوغوسلافيا). إلا أن، بلدان أخرى، خاصة أولئك التلامذة المميزون للإمبريالية الأميركية المتمثلين باليابان الأمبراطورية (في ماندشوكوو وفي مساحتها للازدهار المشترك)، وألمانيا النازية (مع النمسا، تشيكسلوفاكيا وبولونيا) والاتحاد السوفياتي (في امبراطوريتها الأوروبية، في منغوليا في افغانستان) كانت قد مارست هي أيضاً تلك الطريقة عينها بنجاح تقريباً.

وما هو مؤسف، أن كل تلك العلاقة التجارية الواسعة بين الكبار كانت، مثلاً، مشؤومة للآخرين. وهكذا، فإن من وقت إلى آخر قال الصغار، الحمقى، والمُعدمون، لأنفسهم بأنهم هم أيضاً يستطيعون أن يتمردوا ويدخلوا في البزنس. إن ذلك خطأ. حتى جيفرسون كان عليه انتظار حسن الالتفاته من نابليون لكي يحث ماديسون على التصرف مكانه في قضية فلوريدا. وهتلر بذاته كان عليه أن يطلب الأذن من عائلات أخرى ليبتله تشيكسلوفاكيا. ونحن نعلم ما الذي جرى بعد ذلك، عندما فقد السيطرة وقذف بنفسه على بولونيا دون أن يطلب الإذن. يتوجب علينا إذن أن نستنتج أنه إذا أراد صغير أن يمارس هذه الطريقة دون أن يكون مُرشداً من قبل كبير، فهو ينجرف نحو الكارثة. وسنرى لماذا لم يتمكن العراق من النجاة بسهولة.

في البداية، قُدمت العملية العراقية كحرب تحرير الكويت، التي كان عليها ألّا تكون مختلفة عن تحرير أفغانستان من قبل السوڤيات أو تحرير غرانادا من الشمال ـ أميركيين. في الأول من اغسطس عام 1990، أذاع راديو بغداد بلاغاً:

«[الذي] يعلن بأن «مجموعة» حاولت أن تطيح بحكومة الكويت. بعد ذلك بقليل، أكد إعلان من مجلس قيادة الثورة بأن المحاولة قد نجحت وأنّ «ثواراً شباباً يطلبون المساعدة من العراق. تجاوباً مع نداء الحكومة المؤقتة في الكويت، قرر العراق أن يقبل طلب المساعدة». حدد البلاغ، أن العراق قد دعي «المنع أية إمكانية تدخل أجنبي في الشؤون الكويتية ومصير الثورة». (سالنجر ولوران).

إذاً، التدخل الإنساني للعراق كان مناسباً لطرد الشيخ وعائلة الصباح، «الخونة وعملاء الصهيونية».

إنني أعلم بأن تلك الجمل الكبيرة يخشى أن تجعلكم تبتسمون لأنها تذكر بالحجج التي استعملت لتبرير اجتياح غرانادا أو حرب ڤيتنام. ولكن بغداد، التي حاولت أن تحول الكويت إلى نوع من تكساس عراقية، لا ينقصها حججاً شرعية. تلك التي كانت في كل الحالات أصلب بكثير من التي كانت تبرزها الولايات المتحدة، ألمانيا أو الاتحاد السوڤياتي لتبرير اجتياحاتهم المتتالية.

كانت الكويت، أي منطقة الـ 820 17 كيلومتراً مربعاً حول مدينة الكويت، لفترة طويلة جزءاً من مقاطعة البصرة (ولاية) العثمانية. إن عائلة الصباح في السلطة حالياً، هي وريثة لتقليد يعود إلى العام 1756، هذا يعني أنها أقدم من الولايات المتحدة نفسها. وهذا ما يعطيها بعض المفخرة حتى إن كانت تتواجد في حقبة زمنية خاضعة لسلطة الباب العالي. بداية المعضلة، هي أنه في عام 1899 بدأ أمير الكويت في اللعب على الحبلين عاقداً معاهدة حماية مع بريطانيا العظمى دون العودة اطلاقاً إلى سلطان القسطنطينية.

ثم، أقبلت الحرب العالمية الأولى. تقاتل الأسطوري ت. أ. لورانس (العرب) والأمير فيصل (اليك غينيس) بعيداً جداً من الكويت، من الجهة الأخرى من شبه الجزيرة العربية، على جانبها الغربي. إلّا أن الفيلم مفيد لأنه يستذكر اتفاقات سايكس ـ بيكو الشهيرة: لورانس، الذي على مدى الفيلم وعد بالاستقلال للمتمردين العرب في مكة والصحراء ـ الذين هم نظرياً أصدقاؤه ـ، فهم عند النهاية بأن رؤساءه

البريطانيين يخبئون عليه شيئاً. دريدن، الخبير في الشؤون العربية، تكلم إذن عن اتفاق معقود بين «الموظف البريطاني سايكس والموظف الفرنسي بيكو». هذا ليس لعباً سينمائياً: في الحقيقة، حتى قبل نهاية الحرب، كان قالب الحلوى التركي قد وزع بين فرنسا وانكلترا. ومعاهدة سيفر (Sèvres) لم تقم إلّا بتأكيد هذا التوزيع. وأنه عند ذلك كان العراق قد وُضع تحت الحكم البريطاني. وبما أن ولاية البصرة جزء من العراق ومدينة الكويت تنتمي إلى ولاية البصرة، فإن الكويت عليه أن يكون جزءاً من العراق. ولكن بما أن كل شيء كان مداراً من قبل العرش البريطاني، فالاتفاقات الخاصة الحاصلة مع أمير الكويت شُرّعت بطريقة استعراضية بعض الشيء، ولكن مشرّعة. لنتذكر ما كان يقول الفارو أويرغون: «القانون الدولي هو أكثر القوانين التواء».

إلّا أنه لم يحصل كل شيء كما كان مرتقباً من القوى الاستعمارية الجديدة. عائلة من الرياض، عائلة السعود، برئاسة الأسطوري عبدالعزيز أب (في المعنى الحقيقي) لجميع ملوك العربية السعودية، نجحت بالاستيلاء على الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية بطردها الإنكليز وحلفائهم الهاشميين، عائلة أميرنا فيصل من مكة. ومن باب المراضاة، نصّبت بريطانيا العظمى فيصل وأخيه عبدالله (جد حسين الأردن الشهير) في اثنتين من مناطق انتدابها. وُلّيَ عبدالله ملكاً على الأردن (Transjordanie). وأصبح فيصل ملك العراق بمباركةٍ من كياسة جلالة ملك إنكلترا.

إلّا أنه، رغم هذا الولاء للعرش البريطاني، فالعراق، الذي ارتضى في أبعد تقدير ببعض الأمر الواقع، لم يقبل حقيقة أبداً أن يرى منطقته البصرة مقتطعاً منها مدينة الكويت ومنطقتها. من جهتهم، السعوديون الذين يعتبرون أنفسهم موحدين لكل العرب، أزعجوا الكويت حتى عام 1940. اضطرابات مختلفة اندلعت مع قرب اكتشاف، احتياطات كبيرة جداً من النفط في المنطقة. بلغ التوتر ذروته مع انقلاب 1958 للجنرال قاسم ومقتل الملك فيصل الثاني مما أعاد مسألة الـ pax britanica للنقاش في العراق. ومسألة انفصال الكويت عادت إذن مطروحة.

لا حاجة في أن نكون ضليعين في الحقوق لندرك بأن هناك شيئاً ما ليس محدداً في خصوص استقلال الكويت، لا أقول قطعاً بأن الرئيس صدام حسين كان ضمن حدود الحق تماماً عندما قرر أن يجلب النجدة «للثورة الكويتية»، ولا عندما صوت البرلمان العراقي في الدمج مجدداً لمدينة الكويت ومنطقتها. وسأكتفي هنا بتقديم حججهم.

ولكن الرئيس صدام حسين وبرلمانه[1] أخطأ في عدة مرات، وهذا لا يمكن إنكاره. كان الخطأ الأساسي خطأ زمنياً لا يصدق. خطأ هاوٍ حقيقي، لا يغتفر. في زمن بريجينيف حيث أعتقد فيه بأن روسيا السوفياتية أنها أبدية، وكان يمكن لكل شيء أن يمر بالقليل من الأضرار الجانبية (أو إذاً مع أضرار جانبية نووياً وديموقراطياً موزعة في مجمل المعمورة). الوقت الأفضل من أجل «تحرير» الكويت كان يمكنه أن يقع في وقت ما من عام 1979. في تلك السنة، آية الله بريجينيف لم يكن بعد ضحية تبريداته، الرفيق خميني لم يكن بعد قد ثبت السلم في بلده كلياً. والرئيس كارتر كان لا يزال شاغلاً للبيت الأبيض. ولكن يجب الاعتراف مع بوب ماكنامارا بأنه من السهل أكثر أن نقيس الجيوسياسة بشيء من المسافة عن الحدث إلا في الوقت الذي تجري فيه الأحداث، لا سيما أن صدام حسين الذي تسلم السلطة كلياً في تموز/ جويليه من ذاك العام 1979، كانت لديه هموم أخرى في رأسه.

وكان يمكن لخيار زمني آخر أن يكون الانتظار الصبور على طريقة ذلك الانتظار المبجل من قبل جيفرسون. فحقيقة، كان لايزال البرنامج النووي العراقي، المتقدم جداً، غير كامل في وقت «الانتفاضة الكويتية». فلو كان العراق قد انتظر عدة سنوات لإطلاق الانتفاضة التي كان يمكن أن تسمح له باستعادة منطقته المفقودة، لكان إندفاع الأمم الأعضاء في الأمم المتحدة السخي أقل حزماً بشكل واضح. علمنا التاريخ فعلياً بأنه كثيراً ما يظهر التسامح إزاء القوى النووية. يكفي النظر إلى الأخطاء المرتكبة من قبل الأعضاء الخمسة دائمي العضوية في مجلس الأمن، وكوريا الشمالية أو إسرائيل. من جهتهما، الهند وباكستان يمكنهما السماح لنفسيهما بإجراء وإعلان تجاربهما النووية بكل طمأنينة لأن قنابلهما منجزة. فذلك ما لم تكن حالة العراق في شهر آب/ أوت عام 1990. كان الخطأ الآخر المرتكب من الرئيس صدام حسين مغفوراً أكثر، لأنه كان قد جُرّ ربما إلى فخ ضخم جداً لم يكن يمكنه سوى التورط فيه. بفضل المحطة الأميركية ABC، بوسعنا الحصول بيسر على المقابلة المدهشة في 25 تموز/ جويليه 1990 بين صدام حسين وسفيرة الولايات المتحدة، إيربل غلاسبي، الناطقة بالعربية بامتياز، التي تتحاور مع محاورها دون مترجم. خلال المقابلة، كان

(1) أذكر دائماً البرلمان العراقي لأنه، على طريقة رؤساء الولايات المتحدة الذين يطلبون دائماً تقريباً موافقة الكونغرس، الرئيس العراقي يلتمس دائماً تقريباً إذن البرلمان لتحقيق مشاريعه.

صدام يتخلى أحياناً عن الكلام الدبلوماسي ليشير بأنه جاهز للقيام بمواجهة محتملة مع الولايات المتحدة. نطق بجمل من نوع:

«لن نتخذ احتياطات حتى وإن اطلقتم مئة صاروخ مقابل كل صاروخ سنطلقه». (سالنجر ولوران)

في المقابل، جهدت السيدة غلاسبي ـ لا نعلم إلى الآن إن كان ذلك ناتجاً عن عدم مهارة أم عدم اهتمام ـ باطمئنان محاورها في كلام لا يمكن إلّا أن يكون مترجماً كتأكيد لحياد الولايات المتحدة:

«ليس لدينا رأي عن النزاعات بين العرب مثل خلافاتكم في شأن حدود الكويت». (سالنجر ولوران)

ستة أيام فيما بعد، يومين قبل دخول الجيوش العراقية الكويت، أذاعت البي بي سي بواسطة الراديو المسائل المطروحة من قبل لجنة الشرق الأوسط في مجلس نواب الولايات المتحدة إلى معاون وزير الخارجية للشرق الأوسط جون كيلي:

ـ لي هاملتون: إذا، مثلاً، اجتاز العراق حدود الكويت، مهما كان السبب، ما سيكون عليه موقفنا بالنسبة لاستخدام القوة [الشمال] أميركية؟
ـ جون كيلي: إنه نوع من الافتراض الذي لا أستطيع الدخول فيه. الاكتفاء بالقول بأننا سنكون معنيين إلى أقصى درجة، لا أستطيع المغامرة في مجال «اذا».
ـ لي هاملتون: في ظرف كهذا، هل هو صحيح، أثناء ذلك، القول بأنه ليس لدينا معاهدة، اتفاق، الذي سيجبرنا على تجنيد القوى [الشمال] أميركية؟
ـ جون كيلي: هذا صحيحاً!

بينما كانت الأحداث تتأرجح بين السلم والحرب، نقل كيلي إلى صدام حسين «إشارة كان يمكن ترجمتها بضمانة عدم تدخل الولايات المتحدة» (سالنجر، ولوران).

لقد رأينا أنه يوجد مثلٌ آخر في التاريخ للدبلوماسية الشمال أميركية الذي يشبه كثيراً الاعلان الكاذب عن الحياد. لنتذكر في عام 1950 كيف كان قد أكد وزير الخارجية آتشسون أمام الكونغرس بأن «كوريا الجنوبية لم تكن تكوّن جزءاً من محيط دفاع الولايات المتحدة». بعد ذلك بقليل، اجتاحت كوريا الشمالية الجنوب واندلعت

الحرب. ولكن لنكن رؤوفين ولا نرى أبداً دين آشسون كنوع من ماكيافيل رهيب. لنقر بأنه قد أخطأ في القضية الكورية، كما كان قد أخطأ حين نُفذ عام 1941 الحصار على المحروقات الذي أوصل بلده إلى الحرب مع اليابان. لنعطِ منفعة الشك إلى الولايات المتحدة بشأن القضية الكورية بقولنا إنّ الحرب الباردة قد بدأت وإن آلياتها المعقدة لم تكن بعد تعمل جيداً. ولكن في المقابل، أطل النزاع العراقي في أوج حكم الرئيس بوش، بعد ثماني سنوات من ترتيب العالم من قبل الرئيس ريغن، بعد التدخل ـ الاختبار في باناما وخاصة بعد إضعاف الأمبراطورية السوڤياتية. لا أريد أن أستخرج استنتاجات متسرعة، في كل حال، بعد ستة أسابيع من اجتياح الكويت، في 18 أيلول/ سبتمبر، كان جون كيلي قد أعتبر مجدداً في لجنة الشرق الأوسط لمجلس النواب:

> وجهت له الملاحظة التالية: «لقد أعطيت انطباعاً، بأن سياسة الولايات المتحدة لم تكن للدفاع عن الكويت في حال تعرضه للاجتياح». (غالوا)

في 2 آب/أوت عام 1990، دخل العراق الكويت ليدعم «الانتفاضة الكويتية». بعد ستة أيام، قرر البرلمان إعادة دمج هذا الجزء من ولاية البصرة القديمة في الجمهورية العراقية. قبل ذلك بتسع سنوات، عام 1981، كان بلد من المنطقة، «اسرائيل» قد ضم جزءاً من أراضي بلد آخر مستقل، عضو في الأمم المتحدة، كما يقال في العلن مرتفعات الجولان، جزء متداخل مع سوريا، لم يكن أبداً ينتمي إلى إسرائيل. طبعاً، هذه الأرض الأكثر صغراً والأقل كثافة سكّانياً من الكويت، ولكن ما يهم في الحقيقة المجتمع الدولي غير المقبول موقفه هو أن اسرائيل في الواقع هي حليفة للولايات المتحدة. إن الفرق ذو أهمية بالغة. تلت الضم الإسرائيلي احتجاجات داخل الأمم المتحدة. في المقابل، عقاب العراق لخطيئة من نفس الطبيعة هو مختلف تماماً. إن قوة تدمير تساوي ست قنابل من هيروشيما وُزعت على العراق. قدر الجنرال شوارزكوف بـ 100 000 عدد خسائر القوات البرّية العراقية. حدد غرينبيس بـ 15 000 الخسائر بين المدنيين وبـ 200 000 مجموع الضحايا العراقية بفعل القصف.

لقد كان قد نفذ كل ذلك وكأنه نوع من حرب كوريا محسنة حيث أن الأمم المتحدة أخذت على عاتقها تحمل المسؤولية مجدداً بينما الولايات المتحدة تعطي

الأوامر وتوزع الضربات. ولكن التنفيذ تلقى بعض التحسينات بالنسبة لكوريا: 1) أعفي الجنود من فرض وضع القبعات الزرقاء الخبيثة؛ 2) الألمان واليابانيون الذين ليس لهم الحق قانونياً بالمشاركة في غزوات عسكرية خارج أراضيهم ساهموا في الحرب بواسطة ماركاتهم وينّاتهم؛ 3) وحتى لا يقال إنها حرب عنصرية، أقنعت عدة دول عربية باللهاث لتوزيع الضربات تأديباً للعراقيين. إن مشاركة سوريا ـ المسجلة كأرهابية على اللائحة السوداء الأميركية ـ أعتبرت من أحد أهم النجاحات لهذه الحملة من العلاقات العامة. ولكن مشاركة مصر كانت أيضاً أكثر رقياً وفي المقابل، ألغيَ جزء كبير من دينها ـ 7 مليار دولار ـ إن لم أخطئ.

تعلم العالم عندئذٍ قولاً مأثوراً نعرفه جيداً نحن المكسيكيين، منذ وقت طويل: «مع المال يرقص الكلب» (Con dinero baila el perro). إنه من الممكن، على كل حال، بأن يكون هذا القول مصدر العنوان الإنكليزي لفيلم «أصحاب النفوذ» (Wag the dog)، الذي يعني شيئاً مثل «حرّك الكلب». إن القول المأثور الموضوع على رأس مقدمة الفيلم تكشف لنا المعنى الخفي لهذه الكلمات:

«لماذا يحرك الكلب ذيله؟
لأن الكلب أكثر دهاءً من الذيل
لو كان الذيل أكثر ذكاءً لكان حرّك الكلب.

في المقابل، قد اتخذت اليمن عبرة من النسخة المقالة للقول المكسيكي: «إن لم يرقص الكلب، لا يدخل المال». في 30 تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1990، أثناء التصويت على قرار الأمم المتحدة الذي يجيز اللجوء للأسلحة ضد العراق، فقط بلدان صوتا ضد القرار: كوبا واليمن. كوبا، نعرف ذلك، هي خارج اللعبة، ولكن تصويت اليمن أثار غضباً لدى الدبلوماسيين الأميركيين الذين انقضوا في الممرات لإعلام نظرائهم اليمنيين بأنهم كانوا قد أعطوا الصوت الأثمن في تاريخهم[1].

كل ذلك يسمح لنا أن نرى بأن تلك الحرب الثانية للأمم المتحدة، عدا أن تكون حرباً ذات تقنية عالية (طائرات مخفية، صواريخ بعيدة المدى، ضربات جراحية (دقيقة وفعالة)، هي حرب معولمة (مدولة). يمكن لكل العالم أن يشارك فيها في جو من

---

(1) كل ذلك كان قد جرى، طبعاً، بطريقة غير رسمية كلياً. تلقيت ذلك من وثائقي أميركي انتج في عام 2000 وعرض في 2001 على محطة ARTE (آرتي)، يمكنكم إذن أن لا تبالوا بذلك.

الفرح وحسن المزاج، بما أنها الحرب الأولى من نموذج «دون أي قتيل». فهي نذير الحروب الإنسانية المقبلة. الفرق الأساسي بين حرب الأمم المتحدة الأولى (كوريا) وحرب الخليج لا يركن في الأربع عشريات التي تفصل بينهما ولكن في الواقع بأن حرب ڤيتنام وقعت بين الاثنتين. لنتذكر ما قاله بوب ماكنامارا بعد أن أعترف بالخطأ الفادح المرتكب في ڤيتنام:

«أتمنى أن أستطيع القول: «هذا أمر بنّاء» نستطيع أن نستخرجه من ڤيتنام، هو درس يمكن تطبيقه في عالمنا اليوم وغداً».

لا بد أن ماكنامارا، الذي كتب بين 1994 ـ 1995، بعد حرب الخليج بالطبع، يعرف عما يتكلم، حتى إن لم يدع شيئاً يظهر في كتابه. أي شيء أكثر بناء من التوصل إلى القيام بحرب نظيفة؟ حرب ليس فقط أن يعود منها فتياننا سالمين إلى البيت، ولكن حرب لا يلطخ فيها دم الأجساد التي مزقوها حتى على زيهم العسكري؟

مع العلم، أن هذا الإنجاز لم يطبق كلياً في الخليج. لقد لطخت بعض الأزياء، ووقع بعض الضحايا، ولكن تحت طلقات ما يسمى من الآن فصاعداً «نار صديقة» بشكل أساسي. الحرب النظيفة والمثالية لم يمكن أن تصبح فعالة، إلّا خلال حرب يوغسلافيا، طبعاً بعد ظهور كتاب ماكنامارا.

وربما لإخفاء الشائبة العراقية فقد جهّز سلاح أكثر فعالية أيضاً، أكثر نظافة، وأقل كلفة[1]: الحصار الاقتصادي من قبل الأمم المتحدة، مستوحى من الحصارات القديمة الفعالة للعصور القديمة. لن أعطي أرقاماً حتى لا أسعد أولئك الذين يمكنهم أن يُسروا من هذا الهجوم العنصري الصناعي ولكن لنتذكر أنه في بداية عام 2000، استقال الأعضاء في بعثة مساعدة من الأمم المتحدة مركزها في بغداد. لأنهم ربما أدركوا ما كانت عليه منظمتهم.

وهذا لم ينته.

إن حصار العراق يستمر أيضاً اليوم وفي شباط/ فبراير عام 2001، وليفتتح رئاسته (وربما إكراماً لوالده)، كثف جورج بوش الثاني القصف الذي تابعوه أسلافه على مدار العشر سنوات الماضية منذ انتهاء القتال رسمياً. ولكن رسمياً، ليس هناك حرب.

---

(1) قد يقال يأتي في سياق الإعلان عن مسحوق غسيل، وبالفعل، كان ذلك بداية تنظيف شعب بكامله.

ومما لا يمنع التحالف الأنكلو ـ أميركي الذي يراقب المجال الجوي العراقي بالقيام على الأقل بغارة أسبوعياً على مواقع عسكرية تقريباً، أحياناً تقتل عرضياً، أحياناً تسبب فقط أضراراً مادية عرضية.

خلافاً لما جرى لفيتنام، يجب الاعتراف بأن الولايات المتحدة لم تجعل نفسها مدعاة سخرية في هذه القضية البعيدة من أن تكون منتهية. لا أستطيع القول في المقابل الشيء عينه عن مشاهدينا الذين يكون أمام صورة أحد طيور القوق المبلّل بالمازوت بينما في الوقت نفسه ينهمر بساط من قنابل الأمم المتحدة. في بعض الأحيان، تنهار أعصابي فعلاً من أولئك المشاهدين، ولذلك قررت أن أكتب كتاباً بدل أن أحضر وثائقياً لأنني بدأت أجد صعوبة في تصور من كان سيشاهد برنامجنا، ومن كان سيضحك من دعاباتي، من يأسي، ومن إحباطي. نهاية عام 1990، التلفاز، تلفازنا، ذلك الذي كنت أريده (وما زلت أريده) أن ينقل تلك الآراء، عرض شهادة امرأة كويتية شابة مسكينة التي تصف المشهد الفظيع لمستشفى توليد في مدينة الكويت نهبه الغزاة العراقيون الذين يتسلون برمي الأولاد الحديثي الولادة على الأرض. ذكر الرئيس بوش الأول نصف دزينة من المرات هذا الجرم ليعزز بدرجة إضافية الرأي العام لديه على حملته الصليبية الجديدة. الجميع صرخ: يا للفضيحة. الفضيحة موجودة، فقط بأنها تقع بالأولى في سجل نقابي أو جمركي. المرأة الكويتية المسكينة الشابة، التي، حسب معاييري المتواضعة، هي بالفعل «شابة»، «امرأة» و «كويتية» ليست «مسكينة» كلياً. هي لا تنتمي إلى أية نقابة ممثلين في الولايات المتحدة ولا تملك حتى إذناً بالعمل، ولكن أثناء اجتياح الكويت، تواجدت إذن في الولايات المتحدة بما أنها ابنة سفير الكويت في واشنطن. إن لم تكن تملك قوة بصر بأشعة X مثل سوبرمان، فكانت ستجد صعوبة بأن ترى بعينيها اقتحام مستشفى التوليد (Gallois).

ستردون عليّ بحجة أنه في كل امرأة يوجد ممثلة كامنة، ولكن المشكلة هي أنه في الولايات المتحدة هناك قواعد صارمة عندما يُلعب أمام كاميرات السينما أو التلفاز. أنظروا، مثلاً، مقطعاً من «أصحاب النفوذ» حيث أن مستشار الرئيس (روبرت دي نيرو) قدم مشهداً لشابة ألبانية تهرب من مختصبيها الشريرين: الممثلة التي قامت بدور الألبانية هي أميركية ومنتسبة للنقابة. لم تقم سوى بخرق واحد لأصول الإجراء القانوني، لقد وقعت ورقة دون أن تعلم وكيلها. . . في القضية الكويتية، في المقابل،

فأن شركة هيل وكنولتون (Hill & Knowlton)، التي وضعت عشرة ملايين من الدولارات بتصرفها لتنفيذ إعلانها، رفضت إشراك ممثلة حقيقية (مع العلم إننا نعلم كم يجد زملاؤنا الممثلون صعوبة لإيجاد عمل)، أو حتى مسكينة حقيقية (نعلم أيضاً كم يجهد إخواننا المساكين للحصول على المال). يجب القول بأنه منذ قضية باناما، بدأ أصحاب النفوذ في الولايات المتحدة التفكير بأنه يمكنهم اغتصاب كل القواعد.

مدان: داخل هذا البلد، ما زالت القواعد محترمة. ربما لن يمكننا أبداً معرفة إن كانت غطرسة رجال الرئيس تلك مسؤولة عن فشل جورج بوش الأول في انتخابات عام 1992، ولكن من المسلّم به أن خلفه كاد أن يطرد بسبب قضية سخيفة حيث اتهموه بتحويل المكتب البيضاوي إلى مكتب شفوي. روت الألسن السيئة بأنه أوجد الحرب اليوغوسلافية عام 1999 ليجعل الشعب ينسى الطعم المر لزائدته الدودية وسيجاره الدومينيكاني. سأحاول أن أبيّن لاحقاً بأنه لا شيء له علاقة بالموضوع وبأن حرب يوغوسلافيا هي ضمن الامتداد المباشر لحرب الخليج: في منطق الإحاطة بأمبراطورية المساواة القديمة.

لنضع أنفسنا الآن للحظة مكان رئيس الأركان السوفياتي في أثناء أزمة الخليج. لا بد أن يكون أولئك العسكريون كلهم مستائين من معرفتهم بأن قوة مسلحة شمال ـ أميركية ستنتشر على آلاف الكيلوميترات من الحدود الجنوبية للاتحاد. إلّا أن غورباتشوف صوّت على قرار الأمم المتحدة في 30 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1990 الذي يسمح (أو يأمر) ـ في المعنى المهذب للنسخة الفرنسية، «الأكثر صرامة في الأنكليزية ـ باللجوء إلى القوة ضد العراق». في الحقيقة، إن كان هناك فخ، فلم يكن بلد صدام سوى هدف ثانوي. علماً أنه إذ كان صدام لا يزال في السلطة، فلأنه يبني الحجة الأفضل لكي يسمح للجيوش الأميركية باحتلال المنطقة بشكل غير محدود. شرح لنا الدكتور (Zbi) الهدف الحقيقي لهذه الحرب:

> في الخليج الفارسي، سلسلة من المعاهدات الأمنية، عُقدت بأغلبيتها في نهاية الغزوة العقابية القصيرة ضد العراق عام 1991، قد حولت هذه المنطقة، الحيوية للاقتصاد العالمي، إلى محمية للقوات الشمال ـ أميركية.

فهو يكشف هنا الفائدة الاقتصادية للاجتياح، ولكن يتصور أيضاً الفائدة

الاستراتيجية التي كانت، بعد سنتين من الانسحاب السوفياتي من أفغانستان، مواصلة محاصرة الاتحاد السوفياتي في النضال من أجل التحكم بأوراسيا.

«من أجل أن يمتد التفوق الشمال ـ أميركي، يقول لنا أيضاً بريجنسكي، يجب تحاشي إمكانية أن تصبح أي دولة أو مجموع دول مهيمنة على المدى الأوراسيوي». (بريجنسكي)

كان غوربي يعلم، حتى وإن لم يكن يعلم بعد بأنه سيترك الكرملين فيما بعد بثلاثة عشر شهراً، وبأن بلده سينفجر إلى قطع، بأنه تخطى نقطة اللاعودة في انخراطه مع الغرب. ربما ظن بأنه كان من الأفضل، كي لا يزعج شركاءه القادمين، أن يلعب دور الطالب الجيد؟ على أي حال، لقد سبق ووضع في جيبه جائزة نوبل للسلام، وفي هكذا ظروف، يمكنه، دون أن يطرح على نفسه الكثير من الأسئلة الميتافيزيكو ـ اقتصادية، أن يصوت مع الحرب.

سنعلم ربما يوماً ما إن كان ميخائيل غورباتشوف يتأسف لعمله. في أي حال، لا بد أن المليون دولار من جائزته لعبت ـ على الأقل أثناء بعض الوقت ـ دوراً فعالاً ضد الانهيار النفسي إلى حد ما.

إن موقف الصين تركني أيضاً مندهشاً أكثر. هنا، يتفق الاختصاصيون: ليس لها شيء خاص تتسوله من الغرب، ما عدا تنظيم علاقات تجارية مضطربة بعد قضية ساحة تيان آن من (Tian An Men) عام 1989. هذا هو التفسير الوحيد الذي يمكننا أن نقدمه في الساعة الحالية، ولكن أظن بأنه لم يكن سبباً كافياً لقبول انتشار عسكري أميركي عملاق بهذا الشكل على القارة الأسيوية. إلّا أنه في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر، امتنعت الصين وقت التصويت في مجلس الأمن. بعض الاختصاصيين يفسرون ذلك الفعل (أو بالأحرى، اللافعل) بسبب غياب السياسة الشاملة للصين[1].

فيما بعد بتسع سنوات، في يوغوسلافيا، ستظهر الولايات المتحدة للعالم بأنها تستطيع أن تمرر الأمر من الأمم المتحدة، للقيام بالحرب. ولكن هذا الامتناع الصيني يساوي جيداً الأربعة أشهر من الجهود المستمرة للوصول إلى هذه النتيجة: كان

(1) عارضت الصين مرتين فقط بالفيتو في مجلس الأمن، عارضت لمرتين في إرسال مراقبين من الأمم المتحدة، المرة الأولى الى السلفادور والثانية الى مقدونيا، سبب رفض الصين كان مرتبطاً برد الجميل أو مشروع رد جميل من تايوان من قبل هذين البلدين.

بالإمكان البدء بالتخلي عن أمبراطورية الوسط الغامضة وذات الألفيات الأربع من العمر.

الخاتمة المكسيكية

إن ذهبتم إلى الشمال من شمال المكسيك، من جهة تيخوانا (Tijuana)، وإن واصلتم أيضاً طريقكم نحو الشمال، ستكونون ملزمين بالتوقف أمام ستارة من حديد، ستارة حقيقية من حديد حقيقي، وليس ستارة مجازية مثل التي كانت تقطع أوروبا قديماً إلى اثنتين. ستارة حديدية عالية مدعاة للحزن بما فيه الكفاية، مثل الجدار الاسمنتي الذي كان يمتد في برلين. ولكن ليس متطابقاً كلياً، بما أن ذلك الجدار، الممتد على طول عدة عشرات من الكيلومترات، مصنوع من معدن غليظ وصلب. في الليل، ومن الجهة الأخرى من الجدار، إضاءات كبيرة تضيء الظلمة وعلى تلك الأرض الواسعة، يمارس كل مساء رياضة خاصة جداً التي تتشبه بصيدنا بواسطة ركوب الخيل أو بواسطة الكلاب. مع فرق بسيط هو أن فرائس تلك اللعبة هم ـ على رأي كاتب هذا النص على الأقل ـ من البشر.

في بداية التسعينات من القرن السابق، بعد تحرير الكويت، حزمت قوات «منظمة» الولايات المتحدة قسماً كبيراً من معداتها. ولكن الألواح المعدنية التي كانت تستخدم في بناء مدارج للهبوط على عجل لم يكن لها أي استعمال. كان لدى موظف ذي خيال خصب، بدون شك مشبع بالذهنية البيئية لذلك العصر، فكرة مدهشة ببساطتها: إعادة تصنيعها. إعادة تصنيع تلك الألواح المعدنية لبناء جدار المكسيك.

الحرب الصليبية ـ الجديدة الثالثة: يوغوسلافيا (1999)
قوة التحالف: محاصرة الأمبراطورية القديمة.

ـ ألبانيا؟

ـ نعم.

ـ لماذا؟

ـ لِمَ لا. ماذا تعرف عن ألبانيا؟

ـ لا شيء.

ـ صحيحاً.

آن هيش وروبرت دي نيرو. «رجالات النفوذ» باري لفنسن.

إتبعوني أولاً في جبال الكاربات والبلقان كما قُلمت من قبل مورنو (Murnau) تود براونينغ، ترانس فيشر، ورنر هرزوغ أو فرنسيس فورد كوبولا. على ضوء القمر البدر، لنقرأ كلمات الكونت الرهيب التي نقلها لنا برام ستوكر:

مَن إذن، بين الأمم الأربع، تلقى بفرح أكثر منا «السيف الدامي»، أو تجمع بسرعة حول راية الملك عندما دوّي النداء للسلاح؟ ومتى إذن غُسل العار الكبير لبلدي، عار كاوسوفا، عندما نُكسَت رايات الفلاشيين (رومانيا) والمجريين (هنغاريا) تحت الهلال؟ أليس واحد من أتباعي هو الذي اجتاز الدانوب ليذهب يحارب التركي في عقر داره؟ نعم، إنه دراكولا!

لنتصور الآن جميع الأوجه التي استوحاها الكونت دراكولا في السينما. ولكن لنفترض بأن تقاسيم ماكس شيريك ذابت مع تقاسيم بيللا لوغوزي، ثم مع تقاسيم كريستوفر لي، كلاوس كنسكي، وغاري أولدمان. سنحصل عندئذٍ على وجه الرئيس اليوغوسلافي الذي لا يسمى، سلوفودان ميلوسيفتش.

يجب، قبل البدء، أن أعترف بأنني لم اكتشف تنوع الشعوب البلقانية إلّا في جامعة السوربون في السبعينات. قبل ذلك، كنت أسوي بكل بساطة الصربيين «باليوغوسلافيين»، الأمر الذي لم يكن في النهاية بالغ الحماقة. في المقابل، الفرنسيون، هم، يعرفون منذ وقت طويل شجاعة الشعب الصربي، وروحه الاستقلالية، نضاله ضد الأمبراطورية التركية، الأمبراطورية النمساوية ـ الهنغارية، والأمبراطوريتين النازية والستالينية. مع ذلك فإنه منذ 1991 أي منذ اختفاء امبراطورية الشر السوفياتية، وُصف الصربيون في وسائلنا الإعلامية كطغاة، متعطشين للدم، ساديين. وما إن نُصب كحاكم قام الدكتور كوشنير بحفر الأرض بحماسة للتفتيش على 14 000 جثة التي كان قد حلم فيها بكل تأكيد في كوابيسه الناجمة عن برامجه «التوك شو» (Talk-shows) المقابلات المتلفزة المضنية.

بما أن موجة من فقدان الذاكرة يبدو أنها ضربت فرنسا وأوروبا، ليتوجب علينا هنا أن نطرح على أنفسنا الأسئلة الأكثر بدائية. من هم إذن أولئك الصرب، أولئك

الشياطين الجدد الذين حلّوا مكان الشياطين الروس؟ ما هي تلك الأمبراطورية للشر الصغيرة التي تسمى يوغوسلاڤيا، صربيا، وأحياناً، بشكل مخطىء، يوغوسلاڤيا السابقة؟ من هم أولئك الشهداء الجدد الألبان؟.

بعد انتخابات يوغوسلاڤية في عام 2000 التي أفضت برحيل الوحش ميلوسيفيتش دون أن تستطيع صحافتنا المتعطشة جداً للدم أن تشير إلى حادثة واحدة خطيرة، ربما سيصبح عليّ أقل صعوبة بعض الشيء أن أتقبل بأن الروس والصرب هم كذلك أيضاً بشر. إلّا أنني مازلت أستطيع أن ألاحظ من حولي العواقب الخطيرة الناجمة عن القصف الاعلاني الحقود الذي هبط على أوروبا الغربية على مدى العشرية الأخيرة من الألفية الثانية. مازلت أسمع غالباً يقال بأن التغييرات الايجابية المتأتية حديثاً في يوغوسلاڤيا هي تعود حصرياً لضربات الحلف الأطلسي. وفي محاولة فهم تلك القضية المعقدة بشكل أفضل بقليل، سيتوجب علينا توجيه نظرنا مجدداً بعيداً نسبياً نحو الماضي.

ومن أجل الوضوح ولكي لا نبتعد كثيراً عن موضوعنا، سنركز تفكيرنا على المنطقة التي كانت رهان الحرب بين الولايات المتحدة ويوغوسلاڤيا، إقليم كوسوفو اليوغوسلاڤي.

لنبدأ من النهاية. ماذا أصبح ذلك الإقليم في عام 2001 الجميل، الذي من أجله كان قد وعدنا ستانلي كوبريك وأرثور كلارك بملحمة الفضاء الرائعة؟ لا أحد، حتى المراقب الأكثر تعصباً، لن يمكنه أن ينفي بأن ذلك الاقليم قد أصبح تحت حماية الأمم المتحدة ـ والحلف الأطلسي وأن الصرب والسكان غير الألبان كانوا مجبرين أن يغادروا (إما بانتقالهم أو بموتهم) وحيث أن الذين كانوا ما زالوا يقطنون فيه يعيشون بشكل غير مريح إلى حد ما. البعض يرى ذلك طبيعياً بعد الصعوبات المكبّدة من قبل الباني كوسوفو أثناء حرب 1999. أنا لست متأكداً جداً بأن يكون ذلك طبيعياً، ولكن ما أنا متأكد منه، هو أن هذا الوضع ليس جديداً تماماً. لأنه، على مدى التاريخ تناوب الصرب والألبان في السيطرة على كوسوفو. إن تاريخ المنطقة يعود إلى زمن قديم، ولكن سنبدأ بتاريخ رمزي جداً: 1389. سنضع أنفسنا في مكان لا يحمل القليل من المعاني: سهل شاسع له نقطة مركزية هي كوسوفو بوليي (Kosovo polje) «حقل الشحرور»[1]. فهناك بالتحديد وفي ذلك الوقت كانت قد حصلت

(1) كوسوفو، في الصربي ـ الكرواتي، هي اشتقاق من كلمة «كوس» التي تعني الشحرور.

المعركة الشهيرة عند مواجهة القوات الصربية والقوات التركية التي تشير إلى بداية هبوط صربيا. لأنه عكس ما رواه لنا الكونت دراكولا، فليس الفلاشيون (الرومانيون) ولا المجريون (الهنغار) هم اللذين تقاتلوا في كوسوفو ولكن بالفعل هم الصرب.

من جهتهم، الألبان، بأكثرية مسيحية، قاوموا هم أيضاً الأتراك ولكن، مع الوقت، أخضعوا، وأسلموا بشكل كبير. حتى وإن لم يهتدوا جميعاً، فإن الأسلمة مهمة بشكل كافٍ من أجل أن يجدوا أنفسهم ممنوحين معاملة مفضلة من قبل السلطات العثمانية. استمرت السيطرة الألبانية في المنطقة حتى القرن التاسع عشر. وأصبح مسؤولو زعماء العشائر إذن أسياداً، والأقل ثروة تجندوا في فرق الاحتياط غير النظامية في القوات العثمانية، الباشي ـ بوزوك الشهيرة العزيزة على الكابتن هادوك[1] وقد تميزوا خلال الأزمة البلقانية. (1876 ـ 1878) بالأهرامات الجميلة التي تفلوها برؤوس البلغار والصرب.

مع انعطافة القرن، بدأ حظ الألبان بالهبوط. دخل إذن بيار الأول كراجورجيفيتش إلى المسرح جاعلاً صربية مستقلة عملياً ثم، خلال الحروب البلقانية (1912 ـ 1913) عندما نجح باستعادة تلك الأجزاء من صربيا ـ القديمة التي هي كوسوفو وميتوهيا (Metohija). أخيراً، بعد الحرب العالمية الأولى، نجح ابنه الكسندر في توحيد الصرب، الكروات، والسلوفين في مملكة واحدة التي أطلق عليها اسم يوغوسلافيا عام 1929، بلد سلاف الجنوب. ذلك الصغير بيار الأول له شهرة كبيرة جداً في فرنسا بحيث كان له الحق بجادة باريسية أكثر شياكة أيضاً من تلك المكرّسة للرئيسين ويلسون وروزفلت: جادة بيار الأول الصربي.

كان يُنظر حقيقة للصربي بشكل جيد في تلك الحقبة ويباع جيداً في سوق العلاقات العامة الغربية. يجب التذكير بأنه لئن انفجرت الحرب العالمية الأولى بسبب الفعل العنيف لصربي في سرايفو، لم تتهم أبداً فرنسا أو انكلترا (أو الولايات المتحدة) هذا الشعب بتهمة الإجرام أو القتل العنصري. إن زيارة فرانسوا ـ فرديناند إلى سرايفو في

(1) باشي ـ بوزوك هي إحدى الشتائم المفضلة للكابتن هادوك في «مغامرات تان تان». استعملها منذ الألبوم الأول حيث ظهر، «Le crabe aux pinces d'or» «السلطعون ذو المقارب الذهبية. الباشي ـ بوزوك كانوا أيضاً مجندين بين الأكراد وشعوب مصر العليا، إنه تعبير تركي يعني «الرأس العاطل».

يوم العيد الصربي الأكبر نُظر اليها كاستفزاز حقير من قبل صرب البوسنة الذين يعيشون منذ أربع عقود من الزمن تحت السيطرة النمساوية الهنغارية. في تلك الظروف، ظن غافريلو برنسيب بأنه لن تكون فكرة سيئة بقتل الأرشيدوك. لم يفكر بأنه كان بصدد إعطاء الحجة المنتظرة من وقت طويل من فيينا لكي تقوم بالحرب على صربيا وضمان أخيراً، بدعم من ألمانيا، الهيمنة الكلية في البلقان. ففي هذا الشكل الغبي قليلاً بدأت الحرب؛ حرب ذات قساوة غير مسبوقة، لم يكن يتواجد أبداً شخص ليضع على عاتق «القومية الصربية» مسؤولية ملايين القتلى التي سببتها.

فيما بعد، سيستولي الألبان المتحالفون مع النمسا ـ هنغاريا على بعض المناطق من صربيا، التي هي كوسوفو وميتوهيا. ولكن في خريف 1918، بعد اجتياز جبهة سالونيك ستحرر قوات التحالف (الفرنسية بشكل أساسي) تحت أمرة فرانشيت ديسبيري ـ هذه المناطق لإعادتها، دون طرح أسئلة، للسلطات الصربية. وساد إذن جو من شهر عسل بين الصرب والغربيين.

في نهاية الحرب، ولدت إذن مملكة الصرب، والكروات والسلوفين في الذهنية الأكثر توافقاً وصحة في العالم من الناحية السياسية. كان الصرب، الكروات والسلوفين من بين القلة السعداء الحظ التي سمح لها بالتمتع بـ «حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها» الشهير. وطبعاً، في المناطق الحرجة بدرجة عالية مثل كوسوفو، ميتوهيا ومقدونيا، هناك حيث أن ثقل التركة العثمانية حفرت أعمق حفرة بين الحضارات، لم تمر الأمور دائماً في جو هادئ؛ خاصة إعادة الشعب الصربي. ولكن، نظرياً أقله، شعوب هذه المنطقة، قرروا، هم أيضاً، مصيرهم بنفسهم.

في عام 1931، أُلغيت المناطق القديمة التاريخية من مجمل يوغوسلافيا الحديثة واستبدلت بتسعة أقاليم (banovines) إدارية بشكل خالص التي لا تبالي للأصل الإثني للسكان. إن كوسوفو الحالية موزعة بالتالي على ثلاثة أقاليم (زيتا، موراڤا، وڤاردار) والسكان الألبان لكل واحد بينها موجود فيه، طبعاً، أقلية صغيرة جداً (Batakovic). حسب ستانكو سيروفيك، مدير تحرير القسم الصربوكرواتي، لراديو فرنسا الدولي، في تلك الحقبة اتجهت شعوب يوغوسلافيا نحو اندماج وطني ممكن وكانت ستصل اليه ـ دائماً حسب رأي سيروفيك ـ لو كانوا قد استطاعوا العيش معاً خلال ثلاثة أجيال لا بل جيلين حتى. ولكن، لن نعلم أبداً ما كان سيحصل إلا إذا أردنا أن نمارس نوعاً

من التنبؤات في علم الاجتماع، لأن الحرب وضعت في طريقهم. خلال هذه الحرب، التي ليست أقل بشيء من الحرب العالمية الثانية، غيّر الحظ مجدداً الموقف. فالحكومة اليوغوسلافية التي لديها أسباب كثيرة للخوف من الألمان فضلت أن تمضي، في 25 آذار/مارس 1941، اتفاق تعاون مع ألمانيا من أجل أن لا يكون لديها مشاكل. ولكن، بعد يومين، مجموعة من الضباط بأغلبية صربية أتتها فكرة القومية السيئة بالإطاحة بالحكومة لتقف في وجه الرايخ الثالث (Batakovic). في 6 نيسان/أفريل، وتبعاً لمبدأها بعدم إعلان الحرب، تغلغلت ألمانيا النازية مسنودة من الفرق العسكرية الإيطالية، البلغارية، والهنغارية، في يوغوسلافيا كي تعاقب الصرب، الذين بسببهم كان لا بدّ من تأجيل الهجوم المرتقب ضد الاتحاد السوفياتي عدة أسابيع. لا أريد أن أذمّ الكروات، ولكنها واقعة معروفة بأن الجيوش الألمانية أستقبلت بالفرح الشعبي في زغرب حيث أعلن استقلال كرواتيا في 10 نيسان/أفريل. ووضعت الدولة الجديدة تحت نظام أوستاشي (من جماعة أوستاشا: متمردين) لأنتي بافليتش الذي أهدى اليه هتلر البوسنة والهرسك، وهو أقليم سبق واندمج في صربيا عام 1918 ـ حتى قبل اتحاد المملكات الثلاث.

بعد عدة جولات من القصف الألماني الجراحي (الدقيق والفعال) ـ على بلغراد خاصة ـ، استسلمت القوات اليوغوسلافية في 17 نيسان/أفريل. ووضعت صربيا الوسطى وأقليم ميتروفيكا (في كوسوفو الحالية) تحت الانتداب الألماني بينما وُزعت المناطق المحيطة بهما كقالب حلوى إلى الحلفاء الإقليميين للرايخ. تلقت بلغاريا الجزء الناطق بالسلافية من مقدونيا. وضمت هنغاريا جزءاً من شمال صربيا (الى حد ما ڤويفودين الحالية) حيث توجد (وما زالت توجد) أقلية مجرية على جانب ما من الأهمية.

ولكن لنهتم هنا بالأجزاء الواسعة من كوسوفو، من ميتوهيا ومن مقدونيا، وأيضاً بذلك الجزء الصغير من مونتنغرو، حيث نجد فيه ألباناً بكثافة كبيرة تقريباً. في 12 آب/أوت أعيد ربط تلك المناطق بألبانيا الكبرى تحت الانتداب الإيطالي. وأقامت السلطات الجديدة فيها إدارة ألبانية ـ إيطالية وأصبحت المدارس ألبانية ورُفع العلم الألباني. ربما سيكون هذا الوضع مثالياً لو أن الإيطالو ـ ألبان لم يقتلوا ويطردوا بالتوازي قسماً كبيراً من السكان الصرب والغجر في تلك الأراضي.

بعد استسلام ايطاليا عام 1943، وقعت كوسوفو وميتوهيا كلياً تحت السلطة

الألمانية التي جمعت عندها القوات الألبانية في الفرقة SS Skanderbeg 21[1] التي انحرفت مرتدية الزي العسكري الألماني ومرتكبة أبشع الجرائم التي كنا نراها غالباً في أفلام الحرب. البالي كومبتار (Balli kombëtar) (الجبهة الوطنية) لألبانيا الكبرى لمعت إذن بمجازر ضخمة في كوسوفسكا ميتروفيكا، بك وبريشتينا حيث أنشىء مخيم اعتقال للصرب (Batakovic). إن التهجير الكبير الأخير لصرب كوسوفو ـ ميتوهيا، قبل تهجير 1999 ـ 2000، كان في بداية عام 1944. ولكن كل ذلك طبيعي: لقد عودتنا السينما بتقبل أخطاء النازيين.

لقد انهزم النازيون وحلفاؤهم وانتهت الحرب. إلّا أنه، بعكس ما كان يمكننا أن نفكر، بما أن الشعب الصربي كان من أحد شعوب يوغوسلافيا الذي لم يتعاون بشكل جماعي مع المحتل؛ فنهاية الحرب لم تكن نهاية مشاكل الصرب. وعند التحرير الحقيقي، يجب تحديده، لأنه نضيع أحياناً مع كل أولئك المحررين ـ القاتلين (libérateurs)؛ لم يسمح للمستوطنين الصرب بالعودة إلى الأراضي التي ضمت إلى ألبانيا الكبرى. باعتباره كان كتدبير مؤقت من ناحية المبدأ، فالمرسوم المتعلق بمنع العودة اكتسب في الواقع صفة نهائية، بما أن أغلبية الـ 60 000 مستوطن المطرودين لن يعودوا أبداً إلى كوسوفو. ولكن في الوقت ذاته الـ 70 000 إلى 75 000 ألباني الذين أسكنوا فيها من قبل حكومة موسوليني مُنحوا الجنسية اليوغوسلافية (Batakovic). وسيبدو أنه بعد الحرب، كان هدف تيتو إيجاد توازن لجمهورية يوغوسلافيا الجديدة. كان أحد تلك الأهداف الرئيسية «هدم أسوار هيمنة صربيا الكبرى»، إذ حسب رأيه، هذه القومية (مما هو غير خاطىء حسابياً)، تقل ديموغرافي وسياسي معتبر داخل الدولة. لقد أنشأ عام 1946 الجمهوريات الست الفدرالية، فاصلاً مقدونياً، مونتنغرو والبوسنة والهرسك[2] مما كانت عليه صربيا قبل إعادة توزيع المملكة إلى تسعة أقاليم عام 1931. وفي الاندفاع الجراحي ذاته حدد تيتو إقليمين أو منطقتين ذات حكم ذاتي في الداخل نفسه لجمهورية صربيا الجديدة: أقليم فويفودين

---

(1) من اسم البطل الألباني في القرن الخامس عشر (سكندربرغ، إسكندر ـ باي: الأمير الكسندر) الذي دافع عن بلده ضد الاجتياح التركي. نستطيع أن نرى اليوم تمثاله في جادة تيرانا الأساسية.

(2) في تشرين الثاني/نوفمبر 1918، أي قبل التأسيس الرسمي لمملكة الصرب والكروات والسلاف في الأول من كانون الأول/ديسمبر، كانت قد أعلنت البوسنة والهرسك (48 من بلدياتها الـ 54) ومونتنغرو (في الاتحاد) اتحادها مع صربيا.

ذات الاستقلال الذاتي (في الشمال) وإقليم كوسوفو ـ ميتوهيا ذات الاستقلال الذاتي (في الجنوب) الذي أصبح كوسمت (Kosmet) ثم كوسوفو.

إنني أعتبر ذلك التقسيم كتفصيل بأعلى مستوى من الأهمية. إن انطلقنا من مبدأ (الذي سيصبح معارضاً من الكثير) أن تيتو كان بالأحرى رجلاً ذا إرادة طيبة، سنحكم على هذا التقسيم كتدبير فيه بعض الحكمة. لذلك، فإن تقسيم صربيا إلى أربع جمهوريات (صربيا، مونتنغرو، البوسنة والهرسك ومقدونيا)، يعطي إلى صربيا وزناً أقل ثقلاً بكثير ويؤدي إلى إعادة توازن فدرالية يوغوسلافيا بأجمعها. ولكن كان قد تُرك عندها التوازن المتوخى من التقسيم الاداري المحض في عام 1931 للعودة إلى التقسيم بالقوميات الذي كان قد أعيد إدخاله من قبل المحتلين الجرمانو ـ ايطاليين والذي كان لديه سيئة إزكاء الخصوصيات الإثنية، الدينية أو الثقافية.

إلّا أنه، يجب وضع أنفسنا في مجرى أحداث العصر. في نهاية الحرب، عندما امتدت امبراطورية المساواة، المثل الأعلى هو النموذج السوڤياتي الذي أنجح الأعجوبة في التحام الشعوب الأكثر تنوعاً معاً في حضن الاتحاد السوڤياتي بفضل الذراع الواقية للرفيق ستالين، الأب الصالح للشعوب. فجمهورية روسية الفدرالية الاشتراكية، هي فدرالية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفاتية تؤلف إذن المثل الأكثر كمالاً لفدرالية في قلب فدرالية، حسب نموذج الدميات الروسية. وهذا، لاستعمال لغة عزيزة على رجالاتنا السياسيين في أيامنا، تجسيد للوحدة في الأكثرية. إننا نتواجد في العصر الذهبي للشيوعية، مرحلة يرى فيها المترقبون الكبار العالم القادم كتكتل لكتل فدرالية أو كونفدرالية كبيرة تجمع كل البلدان الأخوة دون إلغاء خصوصياتهم. ذلك الهجوم الأخوي وصل إلى درجته القصوى مع ولادة مكتب الاستعلامات للأحزاب الاشتراكية والعمالية (Kominform) كومينفورم، عام 1947، حيث حُدد مركزه فعلياً في بلغراد (Lesage)[1]. إننا بعيدون جداً عن التصور أن كل ذلك سينتهي إلى التفتيت الإرادي للمنطقة في التسعينات. وسيمكنني إذن أن أسمح لنفسي بالاستنتاج، كمراقب خارج تلك القضية كلياً، بأن تأسيس منطقة كوسوفو ـ

(1) هذه الطريقة في رؤية الأمور سيجعل أولئك الذين يدعون بأنه في آخر الحرب كان يتواجد مخطط كومينترن (Komintern) لتفكيك يوغوسلافيا، بالصراخ من الغضب. لا أرفض هذا الطرح، ولكن لا أتكلم هنا إلا عن أولئك الذين كانوا يحلمون بصوت عالٍ بأفضل العوالم.

ميتوهيا ذات الحكم الذاتي، لم يكن بحد ذاته فعلاً سيئاً، كما كان عليه، مثلاً، التأسيس الاصطناعي في عام 1921 من قبل إنكلترا للأقليم الشمال ـ ايرلندي من ألستر (Ulster) حيث كان أحد الأهداف الرئيسية تسميم استقلال إيرلندا.

إلّا أن، تحديد الحدود الداخلية ليوغوسلافيا تذكرني بشكل حتمي بخطوط أخرى ارتسمت في الحقبة ذاتها: بين 1945 و1947، لقد سُجلت على خارطة بعض بلدان في العالم خطوط ستسبّب آلاماً لا تنتهي (لا تنتهي، في كل معنى الكلمة اللغوي) وأمواتاً بالملايين. الخط الذي ارتسم مع عدم مبالاة على كوريا في حجة تقسيم العالم في يالطا بين فريق الحرية وفريق المساواة. الخط الڤيتنامي الذي ارتسم في بوستدام (Postdam)، ثم تساوم به بكل قساوة بين الڤيتناميين، فرنسيين وأميركيين لإنقاذ العدد الأقصى من الأرواح بشكل متتابع من جهنم الرأسمالية وجهنم الشيوعية. خط باكستان الذي كان مرغوباً من المسلمين الهنود وارتسم من قبل الإنكليز بسرعة وفرح جد ماكرين لأنهم يعرفون التقلبات الإيرلندية البائسة الناجمة عن الخط الذي رسموه فيها. الخط، أخيراً، المفروض من الأمم المتحدة في فلسطين تحت السيطرة الإنكليزية، ذلك الخط، الذي كان مثل الكثير من الأمور المفروضة من الأمم المتحدة، لن يكون محترماً، ولكن سيغرق المنطقة في الغم، الإحباط والتعاسة.

والآن بعد أن تحققنا من الأضرار العرضية التي يمكن أن تسببها ضربة قلم بسيطة، لنقم بتجربة صغيرة. لنمحِ الخط الذي يقسم مقاطعات ألستر الست، عن الـ 26 مقاطعة الأخرى من ايرلندا، ماذا حصّلنا؟ ايرلندا متجانسة متقبلة أقلية بروتستانتية التي يجب فعلاً أخذها بعين الاعتبار. هذا بالتحديد ما فعله سلوفودان ميلوسيڤيتش ـ الذي كان لديه بالتأكيد بعض الخلفيات الانتخابية، ولكن أي سياسي ليس لديه؟ ـ عندما أمحى عام 1989 الخطوط التي تفصل صربيا، ڤويڤودين وكوسوفو ـ ميتوهيا، وباسطاً المبدأ الديموقراطي غير القابل للجدل «رجل» = «صوت» في كل الأرجاء الصربية. لا يؤلف الألبان أكثر من 18% من سكان صربيا (9% من يوغوسلافيا).

وأصبحت بشكل آلي أقلية تتمتع بكل حقوقها، ولكن محرومة من امتيازات كانت تتمتع بها داخل الحدود المرسومة من قبل تيتو. لأنه، على مدى النزاعات اليوغوسلافية، تغافلت وسائلنا الإعلامية أن تشير بأن الاحتجاجات الألبانية ابتداءً من عام 1988 كانت تعود أساساً إلى فقدان امتيازات عوضاً أن تعود إلى اضطهاد

خاص، من جهة الحكومة الصربية أو من الحكومة الفدرالية اليوغوسلافية (Batakovic)[1].

سيعارض البعض بأن محو الخطوط المرتسمة من قبل تيتو داخل صربيا كانت قد نفذت من نظام برلماني مضبوط بيد من حديد من الرئيس الصربي. ولكن لماذا أولئك الذين ينكرون «البرلمانية السلطوية» لصربيا في 1988 ـ 1989 يتخلون القرارات المتخذة من قبل نظام جوزيب بروز تيتو، حيث أن البرلمانية لم تكن فيها أقل سلطوية، وكأنه كلام إنجيلي.

إن الإعلان الشهير لميلوسيفيتش، «لا أحد له الحق في ضربكم»، أمام حشد من صرب كوسوفو في نيسان/أفريل من عام 1987، كان قد عرض على شاشاتنا التلفزيونية كمثل للديماغوجية الاستنسابية التي قادت ميلوسيفيتش إلى رئاسة صربيا. لذلك فهي ساعدته في أن يصبح رئيس الصرب. ولكن تلك الجملة كانت فعالة لأنه منذ عام 1945 وضع الصرب في ذلك الأقليم المستقل ذاتياً كان حقيقة غير مريح. لقد ذكروا لنا آلاف المرات تهديد جندي صربي لألبان كوسوفو: «لا ترجعوا أبداً إلى كوسوفو، إنها أرض صربية!». في المقابل، وحدهم المطّلعون يعرفون نتائج تحقيق أجري بين عامي 1985 و1986، عن الهجرة الصربية من كوسوفو حيث أن عجوزاً في عمر الـ 78 أعلن في خصوص للألبان: «إن أولادهم يصرخون وراءنا في الشارع «سنطردكم في يوم من الأيام»، وهذا ما فعلوه».

سيظن البعض بأنني مروج بائس لـ «النظام القومي ـ الشيوعي» للرهيب ميلو. للأسف[2]. بقيت مقتنعاً بأن ملايين اليوغوسلاف الذين صوتوا ضد ميلوسيفيتش في تشرين الأول/أوكتوبر عام 2000 وحتى أولئك الذين يكرهونه بعمق[3] سيفهمون بأنني

---

(1) صحيح أن كان الألبان كانوا يرون أنفسهم بهذا الشكل معرضين الى بعض السيطرة الثقافية، ولكن تلك السيطرة لم تكن أكثر حدة من تلك التي كانت موجودة في نفس الحقبة في فرنسا على أقليتها الكورسيكية، البريتونية، الألزاسية أو الباسكية. لا أقول بأنني أجده جيداً جداً تصرف فرنسا أو مقدونيا، ولكن أنا، شخصياً، لن أجبرهم على حضور مؤتمر دولي لحل هذه المشاكل.

(2) عرضية.

(3) إن استشهاد المعارض فوك دراسكوفيتش، ضحية عبوة ناسفة في أواسط شهر حزيران/جوان 2000، يستحق أخذه بعين الاعتبار. مع أنه معارض لمختلف حكومات ميلوسوفيتش. في التسعينيات، عندما رأى أزمة كوسوفو تقترب، قبل مركز نائب رئيس الوزراء، قبل أن يقال من منصبه في خضم الحرب، في 28 نيسان/أفريل عام 1999. بالإجابة على مقال إسماعيل قداريه؛ لقد أشار الى الإساءات المرتكبة

لست في سياق الدفاع عن الرجل وعن نظامه. أحاول فقط أن أفسر، من وجهة نظري كأجنبي، مسألة كوسوفو المستعصية. وحدهم اليوغوسلاف (من ضمنهم ألبان ـ كوسوفو) سيكونون جديرين بحل مشاكلهم يوماً ما. وأنا متأكد بأن القذائف وجيوش الحلف الأطلسي لم تساعدهم في ذلك النوع من التمرين. لنلخّص إذن ظاهرة الذهاب والإياب (رقاص الساعة) التي عاشتها كوسوفو وميتوهيا. فخلال السيطرة التركية، كانت تلك الأقاليم منفصلة عن صربيا، وكان الألبان فيها أصحاب امتيازات بشكل كبير. بعد الحروب البلقانية، اندمجت كوسوفو وميتوهيا مجدداً في صربيا وكان الصربيون فيها أصحاب امتيازات «طبيعياً». قلبت الحرب العالمية الثانية التوازن من جديد. وثبت تيتو ذلك الوضع شرعياً عام 1946 ثم قوّى المراقبة الألبانية على كوسوفو (كوسمت) في دستور عام 1974. ومع تبني اصطلاحات دستورية، عام 1988، التي تسحب من الأقاليم ذات الحكم الذاتي (كوسوفو وفويفودين) حق الفيتو على الدستور الصربي، وكذلك جزءاً من الامتيازات الشرعية، القانونية والإدارية، فعاد رقّاص الساعة إلى الجهة الأخرى. ومع احتلال اقليم كوسوفو الصربي (ما زال معترفاً به رسمياً هكذا) من جيوش الحلف الأطلسي (إضافة إلى قوة روسية رمزية)، لن

= من قبل الألبان في حقبة الحكم الذاتي لكوسوفو. تنقل عنها مقطعاً منه حيث سنشير في خلاله بأن دراسكوفيتش لم يكن يستلطف تيتو: «في دياكوفيتشا، دمرت السلطة التيتوية، في 27 كانون الثاني/جانفي عام 1950، كنيسة «يسوع ـ المخلص» «Christ-Sauveur» حيث كان قد دفن فيها أجساد خمسة الآف طفل صربي قتلهم الجوع خلال الحرب العالمية الأولى؛ ومن ذلك الدمار، بنى الألبان مقصورات عامة في المدينة. في پاك (Pec)، أحرق الألبان، في 16 آذار/مارس 1981، مبنىً قديماً للبطريركية. [...] في قرية سامودريزا (Samodreza)، قتل المهاجر الألباني فيرات موجو (Ferat Mujo) دانيلو ميليتيش (Danilo Malicic) في 3 حزيران/جوان 1982. قبل عشرة أعوام، كان والد دانيلو قد قتل، وفي عام 1944، ماركو، الجد. وفي قرية ميس (Mece)، قتل الألبان، في 4 تموز/جويليه 1981، ميودراغ ساريش (Miodrag Saric) أثناء هجومهم الثلاثين على منزله. وكانت أرملته سميليكا (Smilijka) وأولادها الأربعة الصربيين الوحيدين من تلك القرية حيث كانوا الأغلبية عام 1945 [...]. وفي مقبرة قرية غراس (Grace)، قرب فوشيترن (Vucitrn)، نبش أطفال ألبان، في 27 تشرين الأول/أوكتوبر 1988، جثتي طفلين توأمين لرانكو سافيتش من قبرهما وقطعوهما. [...] يمكن للائحة هكذا جرائم أن تمتد الى مالانهاية. السلطة الصربية في بلغراد التي تحررت بشكل بطيء من الخوف من تيتو، كانت عاجزة، لأن القضاء والبوليس كانا في أيدي ألبان كوسوفو. وكان الصرب قد نزلوا الى الشارع، في صيف 1988، لإعلان نهاية أعمال العنف والاحتلال، ويضمون نهاية لدستور تيتو. وردّ الألبان بمظاهرات لدعم السياسة التيتوية واستراتيجية تدمير صربيا» (*Le Monde diplomatique, Manière de voir* no 45 mai- juin 1999).

يتمكن أحد، حتى الأكثر تعصباً من مؤيدي النظام العالمي الجديد، من الإنكار بأن الرقاص غيّر بوضوح مركزه. هناك فرق بالحجم: منذ ذلك الحين تبارك ذلك الوضع بختم الأمم المتحدة، مما جعله محترماً في عيون «المجموعة الدولية» العصية على التعريف. البعض يأسف، طبعاً، للرحيل الكثيف لصرب الإقليم، لإزعاجهم اليومي. وقتل الصرب أو الغجر من وقت لآخر، ولكن بما أن كل شيء حصل في إطار الحلف الأطلسي والأمم المتحدة، ستصنف تلك الأحداث تحت زاوية «أضرار جانبية».

لا أظن أن أكون قد ابتعدت عن موضوعي بالقيام بذلك التوضيح التفصيلي التاريخي. أعتقد أنه من الضرورة النظر إلى الوراء من أجل إيضاح وضع معقد الذي كان يقدم أحياناً بشكل جرائمي مقتضب. لا أريد أن أبرئ الصرب ولا أثقل على الألبان. ولكن، وعلى أي حال، وإن كان الصرب نعاجاً جرباً، والألبان وديعين مثل الحملان، فالتدخل الإنساني للولايات المتحدة ولخدامها قد يكون برأيي غير مبرر كلياً. لأن، كما قال بصورة جلية نعوم شومسكي: إن حق التدخل الإنساني إن وجد، يقوم على «نية» المتدخلين «الحسنة»، والتي لا بد أن تقدر لا بمقياس خطابهم، إنما على قاعدة أعمالهم السابقة. حق التدخل الإنساني، إن وُجد، لا يمكن إلّا أن يرتكز على «الإيمان الصالح» للمتدخلين. ويجب أن لا يكون تدخلهم مقيّماً على مقياس خطابهم، وإنما على أفعالهم الماضية. والحال باستثناء أن نترك الماضي ونبدأ من جديد، كما كان يريد ذلك السيد وليم كوهين قبل أن يقوم برحلته إلى ڤيتنام، فالماضي دائماً حاضر هنا...

وهذا الماضي ليس بعيداً جداً، حتى أنه كان حاضراً كلياً. اليوم، بدأ اعتبار الحرب التي أقدمت عليها منظمة الولايات المتحدة عام 1991 لإنقاذ النفط الكويتي، كمجزرة أكثر وأكثر. ولكن، عام 1999، فذلك عاد للماضي الذي يمكننا محوه كلياً. المسألة، كانت أنه عام 1999 (واليوم أيضاً) كان الشعب العراقي بمجمله (ومازال) رهينة من قبل القوات الأميركية ومساعدتها الإنكليزية من أجل إمكانية مراقبة البلد، وكما أشرت له من قبل، اكتمال محاصرة روسية. في عام 1996، عندما طُلب، أثناء مقابلة متلفزة، من وزيرة الخارجية مادلين ألبريت ردات فعلها في خصوص موت نصف مليون طفل عراقي خلال خمسة أعوام، كان جوابها:

> كان ذلك اختياراً صعباً جداً، ولكن نظن بأن ذلك يستحق دفع الثمن.

فنعوم شومسكي الذي أورد هذا التعليق في عز حرب 1999 يستنتج: إن التقديرات الحالية ما زالت تقول بـ5000 طفل يموتون كل شهر، والثمن هذا له ما «يبرره»[1].

في تلك الظروف، ليس لديّ أي وخز ضمير بالقول بأن الآلام التي تحملها الشعب الألباني على أيدي الصرب خلال قصف الحلف الأطلسي عام 1999 تعطي صورة نزهة ريفية إلى جانب المجزرة السريعة لحرب الخليج والموت البطيء للشعب العراقي من جراء الحصار الاقتصادي من الأمم المتحدة. ولكن حتى إن تكلم البعض عن «جريمة ضد الإنسانية» لوصف حصار الأمم المتحدة ضد العراق، فلم يكن لدى أي كان باستثناء فكرة تنظيم مؤتمر دولي لإجبار الولايات المتحدة ومنظمة الأمم المتحدة العائدة لها بوضع نهاية لهذا الوضع وفي حال الرفض، لمعاقبتهم ببعض الضربات الجراحية. في المقابل، أصبحت يوغوسلافيا هدفاً لكل أنواع المؤتمرات والقرارات الدولية[2] وبركةً لكل خطايا العالم.

كان الرئيس إبراهام لنكولن مسيحياً صالحاً، مليئاً بالعطف والشفقة. البعض قد يمنحونه بكل طيبة خاطر الخاصيتين الرئيسيتين اللتين لا تعطيان إلّا لله عند المسلم الصالح: رحيم وغفور. مع العلم أنه كان قد أجبر على خوض حرب رهيبة ضد شعبه بذاته لإنقاذ وحدة بلده، وهذه الحرب كانت أكثر دموية بثلاث مرات تقريباً من الحروب التي خيضت في نهاية القرن العشرين من قبل الرئيس سلوفودان ميلوسفيتش ضد شعبه بذاته «لإنقاذ وحدة بلده». ولكن الفرق الكبير هو أن السيد لنكولن ربح حربه وأنه أصبح بطلاً. وخسر السيد ميلوسفيتش حروبه، فأصبح إذن خارجاً عن القانون.

---

(1) هذا الاستشهادان لتشومسكي: Le Monde diplomatique, *Manière de voir n°45*, mai-juin 1999, La Nouvelle Guerre des Balkans, p.79-80.

(2) أيلول/ سبتمبر 1991: مؤتمر دائم عن يوغوسلافيا (التي سنسميها فيما بعد يوغوسلافيا السابقة). شباط/ فبراير 1992. إرسال من الأمم المتحدة 14 000 جندي الى كرواتيا. أيار/ ماي 1992: الحصار الثلاثي (نفطي، جوي، وتجاري) على صربيا ومونتينيغرو، 22 أيار/ ماي 1992: قُبلت البوسنة، كرواتيا وسلوفانيا في الأمم المتحدة. أيلول/ سبتمبر 1992: طردت يوغوسلافيا من الأمم المتحدة. شباط/ فبراير 1993: إنشاء المحكمة الجنائية الدولية من قبل الأمم المتحدة من أجل يوغوسلافيا السابقة. شباط/ فبراير 1994: التهديدات الأولى بالقصف من الحلف الأطلسي. أيار/ماي 1998: وساطة أميركية بين السيدين روغوفا وميلوسفيتش ـ شباط/ فبراير 1999: مؤتمر رامبوييه (Rambouillet).

تجرأ ستانكو سيروفيتش بدفع التحليلات أيضاً أبعد من ذلك، وأن يرى ميلوسفيتش كنموذج من الإسكندر الفاقد التركيز الذي قد يبدأ بقطع العقد الغوردية في الأماكن السيئة والأوقات غير المناسبة. فحسب رأيه، فإن سلوفودان ميلوسفيتش هو المسؤول الرئيسي عن إضعاف يوغوسلافيا بما أنه حث على القومية المتطرفة الصربية وأعطى شكلاً انفصالياً لإصلاحات الدستور الصربي من 1989 ـ 1988. ولكن سيروفيتش اعترف بأنه بعد عشرة أعوام في عامي 1998 و1999:

> لم يكن ميلوسفيتش أبداً يبحث في التحريض على نزاع مع كوسوفو كما كان قد فعله في وقت وصوله للسلطة. لم يفتعل تلك الحرب كما افتعل سابقاتها.

في عام 1999 كان «التكولن الفقراء» قد سبق وخسر حربه ضد الانفصال. في عام 1999، كان «الإسكندر القصير النظر» سبق وندم، منذ زمن طويل، لقطعه العقد بكثرة حيث لا يلزم. مع ذلك هذا الوقت بالذات اختارته الولايات المتحدة ـ البلد الذي كان في طريق إعدام العراق صناعياً ـ لتهب لنجدة الشعب الألباني الكوسوفي. ما الذي حصل؟

لحسن الحظ، لقد ساعدنا البروفسور بريجنسكي في فهم لماذا، رغم الهدوء النسبي الذي سيطر في المنطقة منذ اتفاقات دايتون عام 1995. (التي وضعت قوانين تقسيم البوسنة والهرسك)؛ لقد عُمل كل شيء للحث على نزاع جديد في هذا الجزء من العالم. جعل لنا الدكتور زبي (Zbi) القضية جد واضحة، بأن أصل حتى إلى فهم قصف السفارة الصينية في بلغراد بشكل أفضل.

لقد سبق وتكلمنا عن النظرية الرئيسية التي عرضها، أي التحكم بأوراسيا التي يراها «كرقعة شطرنج مشوهة وشاسعة، التي تمتد من لشبونه إلى فلاديفودستوك»؛ فهي نوعاً ما تتمة للعبة الشطرنج العملاقة التي رُبحت ضد الاتحاد السوفياتي، والتي يكمن الآن في الغاء ترسباتها من أجل تحاشي تهديد جديد من أن يؤسس مجدداً. إن الفصل الأول من كتاب البروفسور زبي، الذي يحمل العنوان الجميل «سيطرة نمط جديد»، يعرض لنا سلسلة خرائط لأمبراطوريات مختلفة عبر التاريخ: الكتلة الصينية ـ السوفياتية الكبيرة من العصر الذهبي للشيوعية؛ الأمبراطورية الرومانية في ذروتها؛ الأمبراطورية المنشورية في ذروتها؛ الهيمنة الأمبراطورية المنغولية؛ العظمة العالمية

لأوروبا في بداية القرن؛ السيطرة البريطانية الفائقة في ذروتها؛ وأخيراً، التفوق الأميركي العالمي في المرحلة الزمنية التي حُرر فيها هذا الكتاب. ولكن، إذا نظرنا بدقة إلى تلك الخارطة الأخيرة، سنرى أكثر من لعبة شطرنج، إن الذي لُعب هو لعبة محاصرة. إن كلمة «عيّا»: محاصرة روسيا، قلعة امبراطورية المساواة. إن دوائر النفوذ أو السيطرة الجيوسياسية للولايات المتحدة في العالم مشار اليها على الخارطة بشكل متتابع باللون الرمادي الفاتح والغامق. أوروبا مغطاة بأكملها تقريباً بالرمادي الفاتح. ولكن الخارطة تعرض ثقباً أبيض غير محتمل. ما هذا؟ إنه يوغوسلافيا (أو بالأحرى، ما تسمى يوغوسلافيا السابقة) وألبانيا. يقلنا البروفسور زبي ما الذي يجب القيام به لملء هذا الثقب:

«إنه يعود بالمنفعة للولايات المتحدة في المدى القريب بتمتين وصيانة الأغلبية الجيوسياسية التي تغلب على خارطة أوراسيا. وبانحراف التدابير السياسية والمعالجات، سيتمكن عندها ترقب بروز تحالف عدائي الذي قد يمكنه البحث عن معارضة تفوق الولايات المتحدة، مما قد لا يمنع فعلياً أي دولة أن تتصور القيام بذلك بنفسها. (بريجنسكي).

بـ كلمة «مدى قريب»»، يقصد حوالى الخمس سنوات، والحال، إذ اعتُبر أن بريجنسكي حرر كتابه بين العامين 1995 و1996، يقع حسابه بشكل مناسب ضمن الاستحقاقات: جزء لا بأس به من الثقب الأبيض مُلِيء بسرعة بعد تطبيق اتفاقات (قد يسميها زبي «مناورات سياسية» و «معالجات» دايتون حول البوسنة والهرسك. الحرب التي قادتها الأمم المتحدة عام 1999 ملأت تقريباً مجمل الأبيض. وحدها تبقى يوغوسلافيا الحالية، المبتور منها في الواقع اقليمها كوسوفو، وحيث تهمشت تجارتها وصناعاتها بفعل القصف. ذلك التفصيل الأخير مهم إلى أقصى درجة لأنه يخدم في إجبار السلطات اليوغوسلافية أن تتسول المساعدة مقابل تصرف أكثر خضوعاً كما استطعنا ملاحظة ذلك أثناء شراء الرئيس السابق ميلوسفيتش.

لنستعد الأحداث: كانت سلوفينيا وكرواتيا قد دخلت في الدائرة أورو ـ ألمانية وكانت البوسنة والهرسك، ألبانيا، مقدونيا واقليم من الفدرالية اليوغوسلافية، كوسوفو، واقعة، بدرجات مختلفة، تحت وصاية الأمم المتحدة ـ الحلف

الأطلسي[1]. إن الأداء مميز، وخاصة إن كان في ذهننا بأنه قبل اندلاع الحرب بعدة أشهر ضد يوغوسلافيا، كانت الأمم المتحدة قد استقبلت في حصتها ثلاثة أعضاء جدد رغم الاحتجاجات الصارمة من روسيا: بولونيا، هنغاريا والجمهورية التشيكية. لنحاول الآن متابعة الطريق الذي سيقودنا نحو حرب يوغوسلافيا عام 1999. إن كانت مسالك الولايات المتحدة لا تخترق، فهي تضاعفت أيضاً وتحوي مرونة مدهشة. إنه فقط في هذا الشكل تستطيع «التدابير السياسية» و «المعالجات» التي نادى بها بريجنسكي، الوصول إلى فعاليتها القصوى. فخلال حرب العراق، استخدموا أداة الأمم المتحدة ليُظهروا بأنه كان بإمكانهم ضبطها وخاصة ضبط منافسيهم الصينيين والسوڤيات. في يوغوسلافيا، لقد تصرفوا بشكل مغاير تماماً.

عندما بدأت الأمور تصبح مقلقة في البلقان في النصف الأول من التسعينات، لعبت الولايات المتحدة لعبتها القديمة الانعزالية، ولعبتها جيداً إلى درجة إن الأوروبيين الغربيين أخذوا يسترضونها محاولين إيقاظ مصلحتها من أجل القضية البوسنية. كان ذلك، الزمن القديم السعيد، لنتذكره، حيث كان لدى الرئيس وليم جيفرسون كلينتون (1993 ـ 2001) وزير خارجية اسمه جيمس بيكر، هذا السيد الذي لديه شكل وجه جانبي لرجل ساذج قد نسي بسرعة، رُمي وأستبدل بوجه Titi المنتفخ لذات الصوت الحاد مادلين ألبرايت[2]. ولكن، باستشهاده بالأزمة

---

(1) خلال شهري أيلول/سبتمبر وتشرين الثاني/أوكتوبر من عام 2000، ذهبت للعمل في ألمانيا من أجل فيلم لا يخص موضوعنا. استطعت فيه ملاحظة تواجد مركبات «اتحاد أوروبا الغربية» في كل مكان. إنها منظمة عسكرية داخلة في الحلف الأطلسي حيث أن مركزها في تيرانا مؤثر جداً. قد أضيف، فقط من أجل الأقصوصة، بأن جنوداً عديدين من (KFOR) (قوة احتلال الأمم المتحدة ـ الحلف الأطلسي) يتنزهون كسياح بسيطين في شوارع تيرانا ولكن بزيهم العسكري.

(2) Titi (تيتي) هو الاسم الذي أعطيَ في فرنسا للطائر الصغير تويتي (Tweetie) في الصور المتحركة من وارنر. إنه خبيث بعض الشيء بما أنه يصل دائماً إلى اقناع جدته بأن الهر الفج سيلفستر يريد أكله ـ والذي هو في النهاية صحيح. كانت الجدة تنهي دائماً تقريباً بضرب الهر. إن عدد 17 أيار/ماي عام 1999 من مجلة التايم، حيث كان العنوان: «Albright at war» «ألبريت في حرب»، وكانت تظهر وزيرة الخارجية الرهيبة في زي حربي وهي تتكلم بالهاتف وتطلق نظرة تهديد من فوق نظارتيها. قارئ، «مفاجئ» من تلك الصورة، كتب للمجلة لكي يقول بأنه لا يعلم إن كانت هذه الصورة سترهب الصرب، ولكن كان لها تأثير مخيف الى حد ما على نفسه.

فذلك يذكرني طرفة كانوا يحكونها في يوغوسلافيا خلال القصف: في الحلف الأطلسي، إن البلدان الأعضاء التسعة عشر لم تتوصل أن تتفق في خصوص تبرير مناسب لهجوم ما. وجدت عندها مادلين

اليوغوسلافية، تفوه جيمس بيكر في أحد الأيام بكلام سيكون له طعم «سبق وشاهدناه» لقرائي:

> في هذه الحرب، ليس لدينا كلبنا.

لا تقولوا لي بأن ذلك لم يجعلكم تفكرون بما كان يقوله وزير الخارجية دين أتشيسون عندما أعلن أمام الكونغرس عام 1950 بأن كوريا الجنوبية لم تكن تنتمي إلى محيط دفاع الولايات المتحدة. يمكن التفكير أيضاً إلى واقعة أحدث بكثير: اللقاء الشهير بين الرئيس صدام حسين والسفيرة آبريل التي أعلنت بهدوء بأن بلدها «لم يكن لديه رأي حول النزاعات بين العرب كما وحول عدم اتفاقاتكم في موضوع حدود الكويت».

لا أريد أن أؤكد هنا بشكل قطعي بأن الولايات المتحدة افتعلت الأزمة اليوغوسلافية، ولكن حرب عام 1999 تكفلت بملء ثقب بريجنسكي الأبيض لدرجة أن الأفكار السيئة لا تتوقف عن تثقيل كاهلي.

لقد سبق ورأينا بأنه، حسب ستانكو سيروفيتش، المحرك الرئيسي لتفكك يوغوسلافيا كانت القومية المناهضة للصرب لسلوفودان ميلوسفيتش. ولكن أظهر لنا أيضاً بأن بعض الدبلوماسيين الغربيين كانوا يعتبرونه «كمجنون مفيد»:

> عدو لا يحل محله أحد لأنه يقضي واجباته في كل عمل وسخ الذي قد لا يستطيع أحد غيره القيام به. كان للحرب فائدتها في الوقت الذي كان يجب البدء فيه بخلق النظام الجديد في أوروبا بعد الحرب الباردة. (Cerovic)

روى لنا سيروفيتش (معادٍ للشيوعية وصديق للغرب) أنه في تلك الحقبة، كان يعتبر ميلوسفيتش كخطر على يوغوسلافيا لأنه نجح في جعل شعبه الصربي متعصباً حول مسألة كوسوفو.

«هكذا كان الصرب منذ عشر سنوات»، أعترف لنا سيروفيتش. ثم أضاف جملة جمّدت دمي:

= اليريت حلاً جد فعال. تناولت مكبر الصوت وتوجهت للمجلس بالشكل التالي: «يا فتياتي، قرروا، ماذا تفضلون، ممارسة الحرب أم ممارسة الحب؟» مرتعبين من الإيحاء البسيط لرؤية كهذه، بدأوا جميعهم بالصراخ بصوت واحد: «الحرب!، الحرب!».

كان يتوجب إذن معاقبتهم، قصفهم. لم آسف أبداً بأنني مدحته بشكل متواصل، حتى أمامهم في قلب بلغراد: في نهاية المطاف، قد يكونون شاكرين لذلك.

غواوو ـ !!!. الصورة الأولى التي أتت إلى ذهني عند قراءة تلك الأسطر هي صورة لمساعد ـ القائد ماركوس طالباً من عمو بوش (بالبريد الألكتروني، حسب عادته) في الذهاب لقذف بعض القنابل على مصفاة أو على قصر رئاسي ليرى إن كان في هذه الطريقة يتوصل الرئيس والشعب المكسيكي إلى التفاهم بشكل أفضل. وقد يمكننا أن نتصور في نفس الطريقة آلان كريفين (Alain Krivine) أو آرليت يناشدون قوات الحلف الأطلسي لتقدم إلى فرنسا (بواسطة صواريخها) هبة العدالة الاجتماعية التي هي بحاجة ماسة إليها.

إن تلك الأمنيات بدأت لسوء الحظ أن تصبح حقيقة في شهر أيار/ماي 1995 عندما بدأ طيران الحلف الأطلسي، في إطار عملية تسمى «قوة محدودة»، بقصف مدينة پال البوسنية ـ الصربية. لا أعلم لماذا يفكر سيروفيتش بذلك، لم يقله في كتابه، وحتى منذ أصبحنا أصدقاء لم أتجرأ أبداً أن أطرح عليه السؤال. على أي حال، في تلك الحقبة لم تكن پال تنتمي بعد إلى يوغوسلافيا لأن البوسنة والهرسك سبق واعتبرت من قبل الجميع كبلد منفصل، وحتى ميلوسفيتش بذاته كان قد فك تضامنه مع صديقه السابق كرادزيتش (Karadzic). في الواقع، وبكل وضوح، فإن الولايات المتحدة، أسياد الحلف الأطلسي بلا منازع، كانت قد بدأت تجد كلبها في تلك الحرب. سلحوا عندئذٍ الكرواتيين، إلى مستوى أن هؤلاء نجحوا في هزم القوات اليوغوسلافية التي تحتل الجزء الشرقي من كرواتيا. ففي خلال تلك الحادثة طُرد، في آب/أوت 1995، 000 300 صربي من أراضيهم، وبعكس ألبان كوسوفو الذين طردوا من أرضهم خلال «ضربات» عام 1999، لقد طردوا منها نهائياً. البعض، مثل صرب كراينا دي كنين (Krajina de knin)، كانوا قد قطنوا فيها في القرنين السابع عشر والثامن عشر من قبل النمساويين للدفاع عن الأمبراطورية ضد الأتراك. أتصور أن الرئيس كليتون أو شيراك لم يباليا بذلك «التطهر العرقي» (استعمل كلماتهما الخاصة بهما)، لأنهما لم يذرفا الدموع المعتادة التي تذرف في ظروف من هذا النوع؛ على أي حال، مصلحتهم، «كلبهم»، لم يكن موجوداً في ذلك الحين في صربيا ولكن في البوسنة والهرسك حيث أن الصراع كان متعصباً إلى درجة أن قوة تدخل من الحلف الأطلسي أصبحت ضرورية ودائمة.

إنه بالفعل من البوسنة والهرسك قد يواصل إذن ملء ثقب بريجنسكي. أمام هزيمة خدامها، قررت الولايات المتحدة أن تتكفل مباشرة بالملف آمرة بقصف شهر آب/ أوت على پال. ثم، نظمت وحدها، كي لا يشك أحد بأنهم هم من يشد الحبال، مؤتمراً في قاعدة عسكرية في دايتون، الذي يجب أن يضع نقطة النهاية لهذه الفوضى ويؤمن الحضور الدائم للجيوش الغربية في الأراضي البوسنية. أثناء التحضير للمؤتمر، حصل شيء غريب. الرئيس البوسني ـ الصربي رادوڤان كرادزيتش وذراعه الأيمن الجنرال ملاديتش بما أنهما كانا متهمين «بجرائم ضد الإنسانية»، لم يكونا أحمقين إلى حد ما ليلعبا ويضعا نفسيهما في فم الذئب ويقيا في الدار. تصالحا إذن مع صديقهما السابق اليوغوسلافي، سلوڤادان ميلوسيفيتش وطلبا منه أن يقدم لهما خدمة بالذهاب إلى دايتون مكانهما. فإنه عندئذٍ أصبح الخبيث ميلوسيفيتش، الذي كان رأسه مطلوباً مقابل ثمن قبل ثلاثة أشهر من قبل منظمة أطباء شرطي العالم على يافطات دعائية باريسية، ملاكاً بسرعة كي يتمكن من حضور المؤتمر عن البوسنة والهرسك.

ومع التوصل إلى اتفاق في كانون الأول/ ديسمبر 1995، ظُن أن القضية كلها قد رُتبت. ولكن في الحقيقة، هي لم تكن سوى أن بدأت. الآن ونحن نرى كل شيء مع العودة إلى الوراء كما قال ماكنامارا، يبدو لي حتى أنني اسمع الـ تيك ـ تاك للآلة الجهنمية التي ستنفجر في عام 1999 من أجل أن تكتمل تنبؤات المتنبئ زْبي (Zbi). إن واقعتين ذات أهمية ساعدتا في المحافظة على آلية القصف في حالة العمل، في شباط/فيفري 1996، برزت لأول مرة قوات تحرير كوسوفو (اوشتريا سليريمتار إي كوسوفيس، (Ushtria Çlirimtare e Kosovës) التي أصبحت منذ ذلك الوقت الشهيرة UÇK) مدّعية سلسلة من الاعتداءات بالمفجرات. ثم، في نهاية السنة ذاتها، أعيد انتخاب الرئيس كلينتون وأجرى بعض التغيير في مجلس وزرائه مستبدلاً جيمس بيكر بمادلين أولبرايت. كما البروفسور بريجنسكي، فمدام أولبرايت هي أيضاً من أصل سلافي. في نفس طريقة المستشار البولوني السابق، الوزيرة التشيكية تطعمت صناعياً ضد كل ما يمكن أن يكون لديه رائحة الشيوعية، وخاصة كل ما يمكن أن يفيد، حتى بطريقة جزئية صغيرة جداً، إخوانها السلاف، الروس.

بعد عامين، اجتاحت الحرب الأهلية اقليم كوسوفو. لن نعلم مبكراً إن كان صدفة قد حصلت معظم الأمور أم أن كل شيء كان يعود إلى مخطط طبخ على نار خفيفة في أحد مكاتب مجلس الأمن القومي (NSC). الـ (UÇK)، أعتبر بداية من قبل

الولايات المتحدة كمنظمة إرهابية، لديها صعوبة في الحصول على الأسلحة؛ يمكن للبوليس والجيش اليوغوسلافي إذن احتواء المتمردين دون اللجوء إلى عمليات ظاهرة جداً. ولكن في آذار/مارس 1998، بعد الانهيار الاجتماعي ـ الاقتصادي للجارة ألبانيا، كمية مهمة من الأسلحة مهربة في التكتلات الألبانية مرّت إلى كوسوفو، مما يشير إلى بداية انتفاضة ألبان كوسوفو المضبوطة بإيقاع منظمة تحرير كوسوفو (UÇK). في وقت أولي، لم يتحرك الرئيس اليوغوسلافي. جرب ستانكو سيروفيتش تفسيراً: برقية (أصبحت عامة خلال حرب 1999) مرسلة من واشنطن في 24 كانون الأول/ ديسمبر 1992 إلى ميلوسيفيتش في حين لم يكن سوى رئيس لصربيا، تمنعه بشكل قاطع من شن عملية عسكرية في جنوب بلده. افترض سيروفيتش بأنه في بداية انتفاضة عام 1998، أخذ الذعر ميلوسفيتش أمام مقدمات حرب قد لا يتمكن من السيطرة عليها بما أنها ستحصل في المنطقة المحظورة من قبل الولايات المتحدة. فإنه من المحتمل جداً لهذا السبب أنه، استطاعت الـ UÇK في بداية الانتفاضة ضبط كل إقليم كوسوفو عملياً، بما أن القوات الفدرالية لم تخرج من ثكناتها. إلّا أنه، أفهم ميلوسيفيتش فيما بعد بأن الـ UÇK كانت مصنفة من قبل الولايات المتحدة في خانة الإرهابيين، مما حتّم على الرئيس اليوغوسلافي في التحرك. في آب/أوت، كانت قوات ألبان ـ الكوسوفية قد هُزمت عملياً وفي ذلك الوقت بالتحديد، بعد أن دُفع ميلوسيفيتش للمعركة، بدأ القول في كل مكان بأن القوات اليوغوسلافية هي في طريق ذبح الشعب في جنوب البلد، مولداً مشكلة إنسانية خطيرة.

في ذلك الحين، كنت أعمل في ألمانيا وأشاهد الـسي إن إن. أثناء الحرب الأهلية لعام 1998، كانت المحطة الشمال ـ اميركية تبث برامج عن منطقة في العالم التي عملياً لم يكن يسمع أحد يتكلم عنها أبداً: كوسوفو. كانت تنظم، مثلاً، «محاورات» دون أي صربي ولا أي شخص يمكنه تقديم وجهة نظرهم. ربما فاتتني حلقة واحدة، ولكن مجرّد تنظيم محاورة واحدة التي تجري كحوار متفق عليه وحيث أن جميع المكالمات الهاتفية المتلقاة تلعب في نفس الاتجاه (معادية للصرب) بدى لي غريباً إلى حد ما. سمعت أيضاً عدة «خبراء» يقولون بأن كوسوفو كانت جمهورية يوغوسلافية قديمة والتي تستحق معالجة تساوي التي منحت للجمهوريات الانفصالية الأخرى. ولكن، يبدو لي جيداً بأن حالة كوسوفو كانت مختلفة كلياً: حتى في دستور

عام 1974، كانت قد أعطيت فقط مكانة إقليم مستقل ذاتياً في داخل جمهورية صربيا.

لم تبق التلفزيونات الأوروبية في الخلف ووصلت قليلاً قليلاً إلى وضع أوصل مشاهدينا إلى الاستنتاج بأن قصفاً على يوغوسلافيا قد يكون فعل خير أكثر من فعل تدمير. فوجدت نفسها الحكومة اليوغوسلافية عندئذ في وجه خيارين بين تلقي قصف كما الذي كان قد حصل في بال عام 1995 أو قبول وجود 2 000 «مراقب غير عسكري» من منظمة الأمن والتعاون الأوروبية في كوسوفو. لا بدّ أن حكام بلغراد كانوا يعرفون جيداً بأنه إبتداء من ذلك الوقت يدخلون في كواليس جهنم. إسرائيل، حليفة وفية للولايات المتحدة، أبت دائماً على نفسها بكل وضوح أن تتلقى هذا النوع من المهمات الدولية أثناء الانتفاضة. ولكن يوغوسلافيا حقيقة لم يكن لديها الخيار.

كانت مهمة المراقبة في كوسوفو برئاسة وليم والكر الذي، لحسن الصدف، كان سفير الولايات المتحدة في أميركا الوسطى خلال سنوات إعادة تنظيم العالم من قبل الرئيس ريغان ـ بعد ذلك بعدة أشهر، في كانون الثاني/ جانفي عام 1999، أبتكرت «مجزرة راكاك». وما زلنا لا نعرف اليوم ما الذي حصل حقيقة في راكاك، ولكن والكر استعمل فوراً التعبير المعروف «جريمة ضد الإنسانية» الذي تكرر ألف مرة. لقد أستخدمت هذه الحجة لدفع اليوغوسلاف نحو فخ مؤتمر رامبوييه. لا بدّ أنهم كانوا يعلمون جيداً بأنهم يتورطون في فخ، أكثر فظاظة بكثير من الذي نصب للعراق، ولكن الشياطين المساكين الذين طُلب منهم حفر قبرهم تحت تهديد المسدس حفروه، حتى إن علموا بأنهم سيلقون حتفهم هناك.

وبعد أقل من شهرين، كانت قنابل الحلف الأطلسي تتساقط على مجمل الأرض اليوغوسلافية.

وفي خضم الحرب، كتب مدير الـ «موند ديبلوماتيك»، ايغناسيو رامونيه، حيث إن وجهة نظره تتقارب غالباً مع وجهة نظري، مقالاً يعتبر فيه بأن الحلف الأطلسي كان قد «ورط نفسه قبل الأوان بكثير وفي نوع من عدم التحضير التام إن جاز القول». عرّف ستانكو سيروفيتش تلك الحرب كتصرف صبياني لطفل مدلل الذي يستطيع أثناء إحدى ثورات غضبه أن يطلق قنابل نووية. أظن العكس تماماً. من أجل سببين على الأقل. بداية لأنني لا أظن بأن استراتيجيي البنتاغون والمكتب البيضاوي قد يكونون أغبياء بالخالص، كما لدى الكثير من الأوروبيين ميل لتصديق تلك. بعد ذلك، لأنني

مقتنع بأن الرجال (والنساء، كمدام أولبرايت) الذين يختنقون بكل برودة الشعب العراقي ليسوا جديرين بالبكاء أمام متاعب شعب ألبان ـ كوسوفو. الشيء الوحيد الذي قد يمكنه أن يهزهم عرضياً، هو التأثير القوي المضمر لأولئك الألبان على الرأي العام الغربي، لأن دعم هذا الرأي أساسي في النظام المجهز من قبل الطغيانية الإعلامية.

إن ذلك هو الذي حملني على التفكير بأن مؤتمر رامبوييه الشهير البائس لم يكن سوى فخ مطبوخ على مهل من زمن، على الطريقة العراقية؛ لم يكن هدف ذلك المؤتمر في الحقيقة التوفيق بين الصرب وألبان كوسوفو، بما أنه فشل عند ذلك حتى وإن توصل الفريقان إلى اتفاق. علماً أن ذلك الاتفاق وُصف من قبل بعض فلاسفتنا بـ «ميونيخ الصربية» لأنه كاد أن يتحاشى الحرب، وذلك الذي لم يكن الهدف الحقيقي للمؤتمر، فلا بد إذن من إضافة شرط سري لهذا الاتفاق كي تكون أهداف المؤتمر واضحة جداً. كان في الواقع يتعلق، كما اعترف به راموتيه، «بفرض حضور قوات الحلف الأطلسي على أرض كوسوفو وفي مجمل الجمهورية، اليوغوسلافية، من أجل السهر على التطبيق الصحيح للاتفاقات». في هذه الطريقة، إن وقع الطرفان على الاتفاقات، سيكون الثقب الأبيض على خارطة بريجنسكي امتلأ بما أن الحلف الأطلسي سيشق بحرية طرقات كل الفدرالية اليوغوسلافي. وإن فشلت الاتفاقات، سيكون الثقب مملوءاً رغم كل شيء بما أن الحلف الأطلسي ستقوم بالحرب في يوغوسلافيا وسيربحها طبعاً.

إننا نعلم الآن بأن الحرب كانت الخيار المختار. ولكن في عيون مشاهدي العالم الحر، وكل المسؤولية كان يجب أن تقع على الحكام اليوغوسلاف. لم يترك شيء للصدفة لنعيد قراءة البروفسور زبي:

> باختصار، وبالنسبة للولايات المتحدة، إن تعريف اتجاه جيوستراتيجي لأوراسيا يفرض أولاً وضوحاً في الأسلوب: من الضروري تنظيم السياسات المقررة في خصوص الدول التي تنعم بموقع جيوستراتيجي ديناميكي ومعالجة الدول المؤثرة بانتباه. في العمق، هذا التقرب ليس له معنى إلا بقدر ما يخدم مصالح أميركا [الشمالية]، أي بكلمة مختصرة، التطور نحو مساهمة عالمية مؤسساتية. في مصطلحات أمبراطوريات الماضي الفجة، إن صيغ الأمر الكبيرة الثلاث الجيوستراتيجية قد تلخص هكذا: إحذروا الاتفاقات بين التابعين وأبقوهم في

حالة خضوع التي تبرر أمنهم، وحفيوا طاعة الرعايا المحمية، امنعوا البرابرة من تأليف تحالفات هجومية». (بريجنسكي)

كيف بوسعنا التفكير بأن حرب يوغوسلافيا هي حرب خرقاء عندما نرى نجاحها الاستراتيجي؟ آلاف القتلى، هجرة الألبان المؤقتة، هجرة الصرب والغجر النهائية هي ليست سوى أضرار لا قيمة لها، جانبية، كما هم جميع القتلى العراقيين السابقين، الحاضرين والآتين. هذا يستحق العناء، ستقول مدام أولبرايت.

في الحقيقة، كان نجاح تلك الحرب كاملاً عملياً. لقد جرى انتقاد الأخطاء الفيتنامية وتركها والبدء من جديد. تحولت روسيا تقريباً إلى حالة بربرية جانبية. أختبرت ردات فعل الصين بعدة صواريخ مقصودة، ولعب مسؤولو واشنطن مجدداً دور الأغبياء بإيجادهم التفسير الأكثر التواء والذي لا يصدق: لقد أخطأوا لأنهم كانوا قد نسيوا شراء خارطة حديثة لبلغراد. سبق وحذرنا النائب غرايسون (كيفن كوستنر)، في «ج. ف. ك» (JFK):

كان هتلر يقول دائماً: «كلما كانت الكذبة ضخمة، كلما كانت فجة». بعد تقديم الاعتذار، عادة عزيزة للرئيس كلينتون، وُزعت عدة ملايين من الدولارات لإرضاء الحكام الصينيين واغرقوا حزن أصحاب الحق من الضحايا. وهكذا اكتشفوا، بعد كل شيء، بأن الصينيين ليسوا نملاً، ولكن بشر بؤساء، مثل الروس، ومثلي أنا ـ كلب مكسيكي! ـ: نُباع بالمال.

وبدهاء المكسيكيين تقريباً، عرض اليوغوسلاف على الساحة نظاماً بارعاً لمزاد علني لبيع رئيسهم السابق، مطلوباً بتعطش من قبل محكمة الأمم المتحدة الدمية المسخ، والتي كانت تريد أن تمرر طلاء الشرعية على جرائم الحلف الأطلسي ـ نعلم بأن الولايات المتحدة كانت دائماً بحاجة لخلق إطار شرعي حول جنحاتها. في 31 آذار/مارس 2001، في ليلة تعليق مساعدة الـ 100 مليون دولار، أوقف البوليس ميلوسيفيتش لسجنه في سجن في بلغراد. في 28 حزيران/جوان 2001، قبل قليل من اجتماع مانحي رؤوس الأموال الذين يجب أن يقدموا مليار دولار إلى يوغوسلافية كوستونيكا، نُقل ميلوسيفيتش إلى زنزانات الأمم المتحدة في لاهاي.

نعلم منذ وقت طويل بأن السيولة المالية تؤلف التشحيم الأساسي للعدالة.

أعتذر صدقاً كوني كنت مجبراً في عرض الغسيل الوسخ للألبان، مما هو مضاد لعاداتي. إن ازدراء الشعوب الصغيرة، هو بالأحرى مهمة (مهمة؟) أجهزة الإعلام

المرتية ولكن بُصق كثيراً على الصرب وأنتخب كثيراً على الألبان، إلى درجة أردت أن أساهم بحبة الرمل الصغيرة في محاولة إعادة التوازن بين كفّتي الميزان. دون تواجد الولايات المتحدة وتابعيها الأورو ـ حلف أطلسيين فإن نضال شعب ألبان كوسوفو كان سيبدو لي جديراً، وحتى محبباً. بشكل عام، فطالما المقاومون ـ الإرهابيون، لا يأتون ويزعجوننا في ديارنا، يبدون لنا مثيرين للإعجاب إلى حد ما. لنتذكر هو هو هو شي منه وتشي تشي تشي غيفارا. لنسمع ماتو شاو يغني مدائح مساعد ـ الرئيس ماركوس. للأسف، لم أتمكن أبداً أن اتحد بذاتي مع ألبان كوسوفو أولئك الذين كانوا يعلنون، بابتسامة، بأن الحلف الأطلسي كان القوة الجوية لمنظمة تحرير كوسوفو (UÇK) ومثل البانامیین لعام 1903، البان كوسوفو لعام 1999 لم يكونوا سوى أداة فعالة. كان سيسمي زِبي ذلك «بيدق شطرنج». وما إن لا يعودوا مفيدين للأمبراطورية أو لخدامها الرئيسيين، فسيمكن للوضع أن ينقلب جيداً عليهم. لنتذكر أنه في عام 1989 أفنت الولايات المتحدة بشكل هادىء كما بشكل جانبي عدة مئات من البانامیین كي تلتذ بإذلال عميلهم الأسبق نورييغا. اليوم، إن تطور الوضع في وادي بريشيفو وفي مقدونيا يجعلني أفكر بأننا ربما لا نتواجد بعيدين جداً من وقت التضحية بالبيدق الألباني. ربما سيكون ذلك إذن دور مقدونيا أن تعاني الشهادة والانفصال. لنتذكر ما الذي تأتى لكمبوديا عندما كان لدى أميرها الفكرة المشؤومة باستقبال الزيارة السرية لسفير الولايات المتحدة في كانون الثاني/ جانفي عام 1969. ولكننا لسنا بحاجة للذهاب بعيداً جداً لإيجاد أمثلة أخرى لشعوب ظنت بأن العالم الحر كان سينقذهم. كان الديموقراطيون الصربيون، خلال النظام الشيوعي أو خلال سنوات ميلوسيفيتش يعتقدون بقوة بأن السلام سيأتي من الغرب. في كتابه، يخبرنا ستانكو سيروفيتش بأنه خلال القصف الجوي كان «مؤيداً لتدخل بري»... بالنسبة لي إن هذا التأثير الأكثر رهبة للإمبريالية، مرحلتها «المطلقة»، إن سمح لي بترداد قول الرفيق فلاديمير ايليتش: الوصول إلى اقناع المغزوين بأن غازيهم يجلب لهم العدالة.

اليوم، ما عاد سيروفيتش يؤمن بالعالم الغربي ويعبر بمرارة عن الاحساس كونه سقط في فخ، كونه خُدع من قبل ذلك الغرب الكريم الذي كان قد وعد بالحرية لشعوب أوروبا الشرقية والذي جلب مكانها الليبرالية والقذائف للذين لا يرغبون بهم.

خلال الحرب، أستخدم اليوغوسلاف المؤيدون للغرب كطعم لتحريض الرأي العام الغربي المقدس. لنعيد قراءة سيروفيتش:

الوضع في بلغراد، عدا أنه متوتر، لم يكن له علاقة مع ما كان يروى في الغرب: كانوا خائفين، بكل تأكيد، كانوا متفاجئين، ولكن المواطنين كانوا يُبدون تسامحاً فيما بينهم، وكان يتواجد القليل جداً من بقايا الفاشية. كان على رئيس تحرير إذاعة المعارضة B92 أن يمثل، في اليوم الأول، أمام قوات الشرطة. لقد أقيم الكثير من الضجة حول ذلك الحادث، عندما أفترض أنه قد يتوقف، وحتى يُعدم. وقد أُطلق سراحه بعد استجواب مخفف. ولكن مع ذلك لم تتوقف الحكومة البريطانية من أن تضيف إلى ذلك، خلال يومين بأكملهما حصلت بشكل محدد تدخلات لوزيري الدفاع والشؤون الخارجية لبريطانيا العظمى اللذين كانا يعلنان على الملأ من خلال التلفاز، بأن محطة الراديو تلك ورئيس تحريرها كانا يتعاونان مع انكلترا وكانت ممولة من حكومتها. لقد كان استدعاءاً دون حكم مسبق، في الغرب؛ قد يمر ذلك جيداً، وذلك قد يبرهن بأن ميلوسيفيتش كان طاغية. إن صحافيي ذلك الراديو، الذين كانوا دائماً يحاربون النظام، صُنعوا [...] فإذا، بينما تتساقط قذائف الحلف الأطلسي حولكم، وسياسيو [...] البلد الذي يُمطرها يعترفون بكم علانية كأحد معاونيهم، تعلمون بماذا تتعلقون، أنتم المتواجدون بين المقصوفين. إن تبرير إنساني لندن كان بأن يسعوا إلى حمايتهم. كيف؟ (آه، هذه البساطة المقدسة للسفهاء الكبار!) لقد أمكننا جميعاً أن نرى إذن ماذا ينفع أننا ناضلنا خلال سنوات ضد الدكتاتورية، وأننا ضحينا من أجل القيم الديموقراطية، منذ الوقت الذي قد تزعج من ذلك البلاد التي يقال إنها ديموقراطية. كان يتوجب بأن يرتكب ميلوسيفيتش ونظامه الجرائم الأكثر سرعة ممكنة والأكثر شراسة. أربعة أيام فيما بعد، رأينا اللاجئين الألبان يزدحمون عند الحدود؛ استطاع الحلف الأطلسي أن يتنفس قليلاً، ولكن ذلك لم يكن كافياً، لأن الكثير من الناس كانوا قد لاحظوا المصادفة بين ذلك الازدحام وبداية الضربات.

بحثنا أيضاً عن ضحايا في كل مكان. أدارت لندن في تلك الأيام، بروباغندا شبيهة في اتجاه مونتنغرو. بثت البي بي سي كل أنواع المعلومات الخاطئة (كلها آتية من مراسل غامض من رويترز في مونتنغرو)، وبموجبها، أن جيوش صربية كانت قد تغلغلت في الجمهورية وكان يبدو هجوم القوات اليوغوسلافية ضد نظام مونتنغرو وشيكاً. نحن بذاتنا، غادرنا بلغراد إلى مونتنغرو، في أجل أن نكون شاهدين لهذه الحرب الجديدة. لم يكن كل شيء سوى كذبة. كان الوضع بالتأكيد متأزماً، كان البلد قد قصف من حلفاء

الحكومة، مما دفع السكان تحت سلطة ميلوسيفيتش. كان المسؤولون يتوصلون تقريباً إلى الحفاظ على الهدوء. لم يكن يكفي سوى شرارة. المعلومات السرية بإدعاء من الحكومة البريطانية كادت أن تدفع مونتنغرو في خوف بشكل قد يمكن أن يُفسد في حرب مدنية إلى نتائج مذهلة، ولكن أهلاً وسهلاً للحلف الأطلسي. سيفتتح عندها جبهة جديدة ضد ميلوسيفيتش، على الصعيد العسكري على صعيد البروباغندا».

تكلم كيبلينغ، أكرر ذلك، عن «حمل الإنسان الأبيض»، هذا الواجب، أحياناً شاق، الذي يجب أن يتحمله الرجل الأبيض لتمدين العالم. بكل الوسائل. تكلم ريجي دوبراي بسخرية عن «حمل الإنسان الصالح» الذي يحل مكان حمل الإنسان الأبيض. بالنسبة إلي، يجب بكل أسف أن أقرّ بأنه يوجد مهمة أخرى بدونها لا يمكن لمهمة الإنسان الصالح أن تكتمل تماماً: إنه العمل الدقيق والمتقن للشعوب الصغيرة كي يقتنعوا بأنهم هم، وليس الإناس الصالحون الذين يسيطرون عليهم، حاملي وناشري الخطايا ورذائل النوع البشري. إنه حمل الإنسان البائس ـ تستطيع عندئذٍ الشعوب الصغيرة أن تكون قادرة على بكاء الجنود الأميركيين الذين سقطوا في فيتنام وهم يصفقون بانتظام على الخمير الحمر. وأنه بسحر ذلك الجلد الذاتي السامي قد وجدوا من الطبيعي أن يتلقى هنري كسينجر جوائز ومئات الألوف من الدولارات، بينما أوغوستو بينوشيه الذي يحظى بحمايته لم يجن سوى مذكرات التوقيف.

سأذكر مثل ماريو فارغاس ليوزا الذي، في التلفزيون الإسباني في أيار/ماي عام 1999 ـ في خضم حرب يوغوسلافيا ـ أيّد القصف باسم العدالة والديموقراطية. في تلك الحقبة لم يكن بعد السيد فوجيموري قد بدأ رحلته إلى اليابان وأتساءل عما كان سيظن ليوزا إذا يوماً ما، قرر «المجتمع الدولي» الخيالي بأن رئيس البيرو لم يعد لائقاً وأنه كان يجب طرده «بضرب» ليما باسم ـ طبعاً ـ العدالة والديموقراطية. لن أكون مفاجئاً اطلاقاً بأن أراه يؤيد ذلك.

المكسيك، مكسيكي الغالي، حتى أنه اخترع كلمة للدلالة على حب وتفضيل المكسيكيين لكل شيء يأتينا من البلدان الغنية: المالنشية، كلمة من وحي اسم مالنش، تلك الأرستقراطية التوتانية التي أصبحت عشيقة هرنان كورتيس. لنأخذ مثلاً واحداً: ما هو اسم المكسيك الرسمي، البلد الذي يعتبر منارة عدم الانحياز، وناطقاً باسم عدم التدخل، والصديق المثالي لكوبا؟ إنه يدعى في الواقع الولايات المتحدة

المكسيكية، اسم حمله منذ تبني دستور عام 1884 بعد وقت قليل جداً من الاستقلال، بعد عدة سنوات، عندما دحر خواريز ومؤيدوه الفرنسيين إلى الخارج:

> إن الحكام الذين يتولون أوامر الوطنيين في 1867 قرروا إصلاحه على الصعيد السياسي، الاجتماعي الاقتصادي والثقافي تبعاً لبعض الأفكار المجردة ونموذج ملموس: الولايات المتحدة. إن المسؤولين عن مصير المجتمع المكسيكي لا يفكرون به فقط، ولكن يقولونه: «الولايات المتحدة [...] يجب أن تكون دليليا». تلك الأدمغة والأذرع، أولئك الرجال ذوو البنية العملاقة، قادة الجمهورية المستعادة، كانوا يعرفون تماماً أين يريدون الذهاب، والى ماذا يسعون، ولكنهم قلما كانوا يعون الأغوار التي يلجونها، مبهورين بالفكرة الوحيدة في دفع خططهم التجديدية نحو الأمام. (Cosio Villegas)

ترون جيداً، قرائي الأعزاء في العالم، بأنه ليس فقط أوروبا الشرقية لأواخر القرن العشرين قد غُرِّرت، ولكن مكسيك عام 1867، الذي كان قبل عشرين عاماً مسلوباً من أكثر من نصف أرضه، وقع أيضاً تحت سحر تلك السلطة الكبيرة. السلطة، كلمة تفسر كل شيء. جميعنا يحلم بالسلطة والثروة، إننا منجذبون بفعل تلك القوة كفراشات الليل التي تتسارع نحو الضوء الذي يؤدي في النهاية إلى إحراقها. في ذلك الوقت، نحن المكسيكيين، كان لدينا حظ أوفر: فنحن أيضاً أميركيون ولدينا حدود طويلة مشتركة مع الولايات المتحدة. هذا الموقع الجغرافي، الذي يعتبره البعض كسوء حظ، يسمح لنا بالفهم بسرعة أكثر بأن كل السعادة الموعودة من قبل الأخ الأكبر ليست بالضبط سوى حلم بالتحديد. في هذا الشكل فإن يقظتنا أقل مرارة بكثير من تلك التي عاشها أوروبيو الشّرق، لأنهم، اعتقدوا بكل قواهم بأن ذلك البلد الذي يسمونه «أميركا» كان سينقذهم.

إلا أن، تلك الحسرة يمكنها أن تبدو مفيدة وتفتح ضمائر هذه الشعوب إلى صحوة كبيرة جداً.

> أسرّ سيروفيتش بأنه إن كانت كل صلة مع الواقع مقطوعة في الغرب، ففي بلغراد، كان عقل الناس في الداخل بالكامل. هناك فرق كبير جداً بين الوضوح والوعي الذي كان، ميدانياً، يجعلكم ترون الأمور وكأنها تحت ضوء كاشف، والظلمات التي كانت قد هبطت على الضمائر الأوروبية و [الشمال] أميركيين.

لسوء الحظ فإن سيروفيتش، متحسراً جداً بكل تأكيد، لم يستطع أن يسمح لنفسه باستخلاص صيغة إيجابية:

> في الواقع، إن ذلك «الاكتشاف» عادي: فاقتراب الموت يجعل الضحية دائماً واعية، بينما المصالح التي تسعى اليها للارتضاء بالجريمة فهي تعمي.

فإننا بعيون تلك الضحية نظرنا إلى العالم على مدار هذه الدراسة. النظر من خلال تلك العيون، يظهر الجيوسياسية مختلفة كثيراً عما تعودنا أن نراه في التلفاز. تلك العيون لم تكن تذرف أية دمعة أمام قصف جراحي (قد يسميه الحلف الأطلسي «ضربات») على واشنطن أو لوس انجلس[1] في هدف التنصيب عليها نسخة عن الدكتور كوشنير الذي قد يحل مسألة الهجرة المكسيكية كما حلّ المسألة الألبانية ـ الصربية في كوسوفو ـ تلك العيون قد سبق واستهلكت كل دموعها أمام السيرك المشؤوم الذي يجري على الحدود الجنوبية للولايات المتحدة. تلك العيون ذاتها، في المقابل، لم تكن تنظر أبداً بودٍ إلى الإيرلنديين، والفلسطينيين أو التيبيتيين إن كانوا قد استدعوا الولايات المتحدة لكي تقصف لندن، تل أبيب أو بكين من أجل الحصول على تلك العدالة التي هم بحاجة ماسة لها.

في أحد الأيام استقبل سراً الأمير سيهانوك سفيراً. في يوم ما تمنى سيروفيتش قصف بلده. وفي يوم ما قدم الأفغان المساعدة للتحرر من الشيوعية... ربما في يوم ما ستدرك الشعوب الصغيرة بأن بابا نويل غير موجود. أو أنها قذارة.

قبل الوصول إلى نهاية هذا السيناريو، أريد أيضاً أن أبرهن بأنني حساس اتجاه الدموع التي ذرفها عدد من سكان أوروبا الغربية أمام أجهزتهم التلفزيونية خلال تلك الحرب. أولئك الجيران الأعزاء، أولئك الفلاسفة الأعزاء، أولئك مشاهدو التلفزيون الأعزاء الذين أصبحوا، فترة أخبار الساعة الثامنة مساءً، مشاهدي التلفزيون، كانوا ينظرون إلى الألعاب النارية للحلف الأطلسي والى طوابير اليان ـ كوسوفو وكانوا يكون وهم يقولون بأنه يجب التحرك جيداً، يجب المعاقبة جيداً، يجب التدخل جيداً على الأرض كما في السموات.

إن أرادوا يوماً أن يظهروا شجاعتهم، إن أرادوا فعلاً تخفيف آلام وبؤس العالم،

---

(1) القذائف الذكية قد تتحاشى، طبعاً، القيام بأضرار جانبية على هوليوود، كي تستمر بإنتاج أروع أفلامهم.

على طريقة، مثلاً، تلك الألبانية الجليلة التي كانت تدعى الأم تيريزا[1]، أظن بصدق بأن الحرب الإنسانية، القصف الإنساني، القنابل الذكية الإنسانية، الـ B-2 الإنسانية، الـ B-52 الإنسانية، الـ F-117 الإنسانية، الميراج والتورنادو الإنسانية، وكذلك مشاتهم ومرتزقتهم (فرقهم) الإنسانية تتركهم دائماً غير راضين.

الشيء الوحيد الذي سأتمكن من تصوره لأخفف عنهم قليلاً، هو أن أوحي إليهم بإضاءة الفيديو في الوقت ذاته مع تلفزيوناتهم ليشاهدوا مشهداً صغيراً لفيلم مهم، «غاندي» السيد (السير) ريتشارد اتنبوروغ، حيث نرى فيه صفاً طويلاً انتظم بتعقل أمام مدخل مصنع. رجال الشرطة الذين يحرسون الباب يضربون بشكل منتظم بضربة أو عدة ضربات من الهراوة كل رجل يتواجد. كل مرة يقع فيها رجل، يحل محله آخر. النساء تلمّ أولئك الذين يقعون ويعالجنهم. الصحافي الأميركي (مارتن شين) صرخ ناقلاً مقالته على الهاتف واصفاً الشعب الهندي منتصراً على الأمبراطورية البريطانية العظيمة.

(1) إن مثل الأم تيريزا، الحائزة على جائزة نوبل للسلام عام 1979، والتي كانت تستحق حقاً مليونها من الدولارات، تدل جيداً بأن حكماء أوسلو كانوا يستحون أموالهم حقاً كيفما اتفق. لن أيأس إذن بإمكانية أن أربح يوماً الجائزة الكبرى لذلك اليانصيب «نوبل».

العالم الأمثل

توقف عن تبريجها، من المفترض أنها اغتصبت من قبل إرهابيين.

أصحاب النفوذ، باري ليڤنسون

لا يوجد، طبعاً، أي سبب لكي تتشبه التوتاليتارية الجديدة بالقديمات، فالحكومة بواسطة الهراوى وفصائل الاعدام، والمجاعات المصطنعة، والأسر والنفي بكثافة، هي ليست فقط غير إنسانية (ذلك، لا أحد يهتم به جداً في أيامنا)، هي (يمكن برهان ذلك) غير فعالة: وفي عصر التكنولوجية المتقدمة، فعدم الفعالية هي خطيئة ضد روح القدس. إن دولة ذات نظام شمولي (توتاليتاري) حقاً «فعّال» قد تصبح تلك التي سيكون في داخلها للجمعية التنفيذية النافذة للقادة السياسيين وجيشهم من المدراء، اليد الطولى على سكان من العبيد الذين قد يصبح غير مفيد إكراههم، لأنه سيكون لديهم حب عبوديتهم. أن يجعلونهم يحبونها ـ تلك كانت المهمة المفروضة على وزراء الدعاية، ورؤوساء تحرير الصحف، والى معلمي المدارس.

آلدو. هاكسلي، مقدمة عام 1946 لكتاب العالم الأمثل.

البعض يحبه حاراً

ـ ماذا لو منحوا الرئيس جائزة نوبل للسلام؟

ـ هيه، ينتهي عملنا عند الانتخابات.

ـ نعم، ولكن رغم ذلك. . .
ـ من أجل معادلة الأمر؟
ـ بالضبط.
ـ إن استطاع كيسنجر أن يفوز بجائزة نوبل، فباستطاعتي ربح جائزة ديانا.
ـ هذا صحيح، ولكن رجلنا جلب السلام.
ـ نعم، ولكن لم يكن هناك حرب.
ـ أقوى أيضاً. . .

داستن هوفمن وروبرت دي نيرو، أصحاب النفوذ باري ليفنسون.

بعد أكثر من مئتي عام من نشأتها، نستطيع الملاحظة بأنه إن حققت الولايات المتحدة تقدماً كبيراً جداً، فهي ما زالت غير كاملة. ستجدون بصعوبة بلداً يمكن لحرية التعبير فيه أن تمارس بشكل منفتح، جريء، حرية تعبير تتحرك بالطرق الأكثر تجارية. يكفي كي ندرك ذلك أن نستأجر من عند الفيديو ـ كلوب المفضل لديك فيلم «أصحاب النفوذ». ولكن ستجدون أيضاً بصعوبة أكثر بلداً ـ خاصة الآن بما أن الرايخ الثالث والاتحاد السوفياتي قد اختفيا ـ كان قد حمل الموت والعذاب في العالم بفعالية رهيبة. فلا أحد كاملاً.

في داخل البلد، يبدو كل شيء الآن يدخل مجدداً ورويداً رويداً في النظام وسكّانه ينذهلون أمام تطوراته ليتعلق بالعدالة والتسامح. إلّا أنه يجب الإضافة أن تلك التطورات كانت جد مؤثرة في الواقع إلى درجة أن تلك الديموقراطية انطلقت مع إعاقة بالغة. مع علمها بأنها ليست كاملة، حتى أنها لم تتعنَ بمحو البنود المعيبة المسجلة في **إعلان الاستقلال** الخاص بها، وفي **دستورها**. نستطيع عندئذٍ أن نقرأ فيه أن الهنود كانوا قتلة متوحشين يقتلون الرجال والنساء والأطفال. إنه دستور شرّع العبودية خلال قرن تقريباً في بلد الحرية.

كان التمييز العنصري يمارس بشكل واسع ورسمي في الولايات المتحدة حتى الستينات على الأقل (1950)،. ولكن لا أحد كاملاً، وقد أكد لنا بأنه منذ ذلك الوقت كل شيء دخل مجدداً في النظام وبأنه لم يعد يجدي بأن تنظم منظمة الوحدة الأفريقية حريقاً جديداً في أطلنطا من أجل أن تسود العدالة فيها. يدّعي البروفسور زبي أيضاً، وقد يكون على حق، بأن العالم بأجمعه يريد تبني أسلوب الحياة الاقتصادية والثقافية للولايات المتحدة.

الى الجاذب الذي يقدمه النظام السياسي [الشمال] أميركي وتأثيره أضيف الانجذاب الممارس من قبل نموذج المبادرة الحرة ونتيجته الطبيعية: حرية التبادل، والمنافسة. إن الدولة ـ العناية، كالتي مارستها الديموقراطيات الغربية، تبين حدودها الاقتصادية، بما فيها الشكل الألماني «للإدارة المشتركة» بين أرباب العمل والنقابات العمالية. وأكثر وأكثر من الأوروبيين اعتبروا بأنهم إن أرادوا أن يزيلوا تأخرهم، عليهم تبني الثقافة الاقتصادية [الشمال] أميركية، الأكثر منافسة، والأصلب. حتى في اليابان، بدأوا من الآن وصاعداً يقبلون أن النزعة الفردية، في الدائرة الاقتصادية، هي عامل نجاح. (بريجنسكي).

كل هذا جميل جداً، خاصة إن غيرنا في وجهة النظر ونظرنا من جديد إلى الأمور بعيون أوروبيتنا الغربية.

فعلياً، منذ بداية القرن العشرين، كانت الولايات المتحدة مصدر خلاص، وعزاء، وحكمة لأوروبتنا الطيّبة العجوز المثخنة بالصراعات الأكثر عاراً: تلك التي قتلت أوروبيين غربيين. حتى أن الرئيس ويلسون سيخاطر في ترك شؤونه الداخلية ليأتي ويقول لنا ما هو الجيد والصحيح. فيما بعد، أنقذتنا أميركا الأنكلو ـ ساكسونية من التوتاليتارية النازية، ثم حمتنا من الشيوعية. فإنه خلال ذلك النضال قد سال دمها للدفاع عن مثالياتنا الخاصة بنا في كوريا وفي فيتنام. وبالتالي، هزمت الشيوعية، وحمت نفطنا في الخليج، واليوم بالذات، تعرض علينا درعها الجوّي الذي لا يخرق لتحررنا أخيراً من الكابوس الغولي (gaulois) القديم حيث يخشى كل يوم أن تهبط السماء على رؤوسنا.

ولكن في الواقع، بيننا كديموقراطيين، ولكي يكون كل شيء كاملاً، قد يتوجب تبني الحل المقدم من قبل الرسام الساخر المكسيكي آبل كيزاداد: قد يتوجب على كل العالم أن يكون لديه الحق بانتخاب رئيس الولايات المتحدة.

إنه حل بسيط وشفّاف، إلّا أن ذلك لا يخلو من الخطورة. من أجل ذلك، فالأوروبيون الغربيون، الراغبون أيضاً أن يكونوا أكثر ديموقراطية من الولايات المتحدة، قد يكون لديهم فكرة طلب مشاركة «كل العالم» بالمعنى الحقيقي للكلمة، ومما قد يتضمن أيضاً «مستوعب نفايات» هذا العالم، المهاجرون غير الشرعيين (دون أوراق) البرابرة، الصغار، وأولئك الذين لا يستحسن النظر إلى انتاجهم المحلي القائم (PIB). ماذا تريدون، لا أحد كاملاً.

إلّا أنه يجب الأخذ في الحسبان بتفصيل صغير أخير.

روز ماريز بابيي (Rosemary's baby)
IM God we trust (نؤمن بالله)
جملة مسجلة على الدولارات الأميركية.

كان جان ـ فرانسوا رڤيل في الحقبة التي لم يكن يبدو فيها أن الشيوعية تريد أن تتركنا في سلام، يقول بفكرة على جانب كبير من الصحة. كان يستنتج بأن الشيوعية كانت، نوعاً ما، أسوأ من النازية لأن هتلر على الأقل لم يكن يخدعنا بالبضاعة التي كان يعرضها علينا. وهكذا، نحن، الديموقراطيين، باعتبارنا متنبهين للأمر، كنا قد تحالفنا ضده. في المقابل كان الأوغاد (الشيوعيون)، الذين كانوا أيضاً أشراراً، ولكن أدهى من الفاشيين، يعدوننا بما لا طاقة لهم عليه. نحن، الديموقراطيين، الذين كنا بقدر دهائهم، لم نصدقهم، ولكن الكثير من الشعوب ـ المعدمين، الصغار، الفقراء، وأولئك الذين، حسب بريجنسكي، هم الوحيدون القادرون على منح أنفسهم امتياز القتال ـ انخدعت. هذه الخدعة تبين في الواقع أنها ليست سوى خدعة إعلانية عادية لا غير. كان واجبنا إذن أن نجلب لهم النور من أجل انقاذهم من مخالب تلك الإيديولوجية الخادعة.

حتى الساعة، ليس في وسعي أن أعرف ما إذا كان السيد رڤيل فكر بأن تلك الشعوب وجدت فعلياً الخلاص، الآن وقد زالت الشيوعية عملياً من الوجود.

تبعاً لذلك النمط من الفكر، بتشجيع من تصريحات رئيس بلدية لندن، كنيث لفنغستون (كين الأحمر، للمقربين)، الذي تجرأ على القول بأن «الرأسمالية سببت ضحايا أكثر من النازية»، قررت الذهاب حتى نهاية الحجة الجان ـ فرانكو ـ رڤليه، وتوصلت إلى نتيجة يفترض بها ألّا تدهشكم في نهاية هذا الكتاب: إن النظام المعروض من قبل الولايات المتحدة بالفعل هو أيضاً أسوأ من ذلك المقدم من السوڤيات. لقد خدعنا أيضاً أكثر في بضاعته. بالفعل، فإن شعوب البلدان الشيوعية الشجعان كانوا يشكّون مع ذلك، بعض الشيء بأن شيئاً ما لم يكن يسير على ما يرام في نظامهم، لأنهم لم يكونوا أبداً فخورين جداً بمستوى معيشتهم. إضافة إلى أن حكامهم كانوا يصفقون على الدولارات ولكنهم يعودون فيطلبونها. في المقابل، عندما تنظر الولايات المتحدة وخدامها القريبون في المرآة، يعون إنهم يعيشون في عالم كامل. أو يكاد: في أفضل العوالم الممكن.

وعندما يكون لديهم شك، يديرون تلفازاتهم، يفتحون جرائدهم، هذه النوافذ

المفتوحة على العالم، فيرون أن في الأماكن الأخرى الحياة بأي حال أقل كمالاً.

ولكن نحن الذين ذهبنا من الجهة الأخرى من المرآة، نحن الذين نقف من الجهة الأخرى من شاشات التلفزة، استطعنا رؤية الآراء الغربية المشوشة لمنظمة السلام تلك التي تسمى الأمم المتحدة. لقد رأينا كيف يمكنها أن تكون هشة إلى درجة أن يؤخذ منها مئات من الجنود رهينة من قبل متمردين لبلد صغير مثل سيراليون. رأينا كيف أمكن لها أن تجعل من نفسها مهزأة بتحرير قرارات لن تصبح أبداً محترمة. ولكن رأينا أيضاً كيف أمكن لها أن تتحول إلى وحش مفترس ومتعطش للدم عندما يسيطر جنود الولايات المتحدة على كيانها.

ربما لم يكن في النهاية آية الله الخميني مخطئاً إطلاقاً؛ ربما أن الشيطان الأكبر بعد كل شيء، لم يستطع أن يتجنب «البلد الذي لا يمكن تجنبه» وهذا البلد الذي تلقى الفكرة الفريدة جداً بطبع اسم الله على العملة. وربما كان يريد فلاديمير إيليتش لينين، في لغته التقنية جداً بعض الشيء، أن يحذرنا من ذاك عندما كان يتكلم عن أعلى مراحل الرأسمالية». فأية قوة غير القوة الشيطانية تستطيع أن تجعل سكان البلاد الغنية الشجعان يفكرون بأنهم سيجلبون العدالة والتفاهم، على متن صواريخهم التوماهوك؟ هل يمكن تفسير، كيف قد توصلوا إلى التفكير بأن ذلك السلاح ـ المسمّى على اسم السلاح التقليدي لشعب أبيد من الولايات المتحدة ـ يمكنه أن يطوّع البشر ليصبحوا أخوة وأحراراً، بعد أن أدركوا أن هؤلاء ليسوا مساوين لهم، هل يمكن ذلك بغير حالة تلبس شيطانية؟

مناظرة ڤالادوليد (Valladolid)

لا أحد كاملاً

البعض يحبّه حار، يللي ويلدر.

أترك كلمة النهاية لجان ـ كلود كاربير الذي قدم فكرة جيوساسية أعمق بكثير وذلك من دراستي الصغيرة في «مناظرة ڤالادوليد» التي نفذها دانييل ڤرهايغ بشكل رائع للتلفزيون. نحن في ڤالادوليد، في القرن السادس عشر. التأمت محكمة لمناقشة طبيعة سكان القارة الأميركية ومصيرهم:

الكاردينال سلڤادور رونسيري (جان كارميه)

إن الوقت يداهمنا الآن. يجب أن أتخذ قراراً بعد الظهر قبل العودة إلى روما. أخ بارتولومي، حاول أن تعيد لنا قول كل شيء ببضع جمل. لا تعود إلى المجازر.

بارتولومي دو لاس كاساس (جان ـ بيار ماربيل)

ـ أن يكونوا بشراً مثلي، لا يمكنني الشك في ذلك، لأنهم إخوتي الهنود، وأنا معترف بي من قبلهم. أنا، لم أحضر أي انقلاب فجائي، ولكن عندما أراهم، عندما أنظر إليهم، أسمع صرخة كل الدم الذي سال، وكل تلك الأسئلة على الكثير من الشفاه: لماذا تقتلونني؟ لماذا تحرقونني مع خيمتي، مع كتبي، لماذا كانوا أطفالي؟ يُرد عليّ دائماً، «نعم، لكنهم كانوا يضحون ببشر لآلهتهم»، وهذا صحيح. نعم، هذا صحيح، ولكن لنرجع إلى أنفسنا قليلاً: كان ابراهيم يستعد لتقديم ولده قرباناً لله. وهذا جيد لأنه كان يفكر بأن الله قد يستحسن تلك الفضيحة. إلهنا، الإله الحقيقي، لم يكن يكره دائماً أن تقدم له أرواح بشرية قرابين، حتى إنه قدم ابنه قرباناً.

الكاردينال

ـ إن المقارنة مبالغ بها كثيراً.

بارتولومي

ـ نيافتك، التضحية تعطي لله برهاناً لعبادتنا. أولئك البشر، الذين لم ينورهم بعد الإيمان الحقيقي، والذين كانوا يطيعون بشكل أعمى القانون الطبيعي، ويقدمون إلى آلهتهم المزيّفة أثمن ما عندهم، حياتهم...

البروفسور جينز دو سيبولفيدا (جان ـ لوي ترنتينيان).

إن الحجة مموهة، إنها تضع بشكل متوازٍ افتراضاً وواقعة معلنة، فلا يمكن إثباتها.

الكاردينال

ـ بروفسور، إن الحكم على ذلك يعود إليّ، لا تتدخل.

بروتولومي.

ـ في كل الأحوال، لإبادة تلك العادات، التي تسميها بربرية، لقد تصرفنا أيضاً بأكثر بربرية. كيف تريد أن يفهموا؟ تقول لهم: «لا يجب قتل مثيلك، تحت أية حجة». وليكون ذلك واضحاً، تقتلونهم!.

الكاردينال

ـ لنفترض بأنهم شبيهون لنا! لأنه إن كنا نؤمن بأرسطو...

برتولومي

ـ أرسطو النفي! أرسطو ثني! ليحترق في نار جهنم! اليوم سنتكلم باسم المسيح. إن كلام أرسطو كان غلطة فظيعة، جبروتية، جهنمية. كل الفلسفة المسيحية تلعنه... ماذا نقرأ في كل صفحة من الإنجيل؟ بأن كل إنسان هو شبيهي، وأنه يجب عليّ أن أعامله كما أريد أن يعاملني. إن الإسبان تدفقوا مثل الذئاب بين النعاج، ولكن المسيح قال العكس تماماً: «لقد أرسلتكم نعاجاً بين الذئاب». هل تريد أن تسمع القديس بولس؟ أن تسمعه حقاً؟ إسمع المبشر: «لا يوجد يهود ولا يونانيون، لا يوجد عبيد ولا بشر أحرار، لا يوجد ذكر ولا أنثى، لأنكم جميعكم في المسيح». الكل واحد. ففي قلوبهم يجب علينا تهشيم أوثانهم، في قلوبهم فقط، لأنه، كيف سيكونوا مسيحيين وعبيداً في الوقت ذاته؟ كيف؟

الكاردينال

ـ ماذا تقترح، أخ برتولومي؟

برتولومي

ـ لقد تعلمت أمراً: وهو بأن الحقيقة تتقدم وحدها، ضعيفة. مُهاجمة دائماً من آلاف الأعداء. الكذبة، بالعكس، لديها الكثير من المناصرين... يجب إرجاع حريتهم الأولية للهنود، لأنهم أحرار بالفطرة. أقترح بأن ينسحب الإسبان من الأراضي الجديدة، وإن لم يفعلوا، فإسبانيا ستصبح ملعونة وتضرب من الله بقساوة...

البروفسور

لا، العكس بالتحديد.

الكاردينال

ـ كيف ذلك، العكس؟

البروفسور

ـ ستكيل المدائح لإسبانيا لكونها خلّصت الكرة الأرضية من جنس دموي وملعون، وكونها أوصلت البعض إلى الرب الحقيقي، وكونها علّمتهم كل ما نعلم. وخاصة، وستكافأ جهودنا لعملنا على إظهار الحقيقة. لقاؤنا هنا، نقاشنا، ليس له مثيل في تاريخ الأمم. ستكون كلها في تمجيد إسبانيا.

الكاردينال.

ـ هل تعتقد ذلك حقاً؟

البروفسور

ـ نعم، أعتقد ذلك. اعتقد ذلك بكل صراحة. السؤال ليس بترك الهند، تعلم جيداً بأن ذلك هو حلم، وإننا سنبقى دائماً هناك. السؤال هو الوحيد الذي يطرح على كل فيلسوف: «ماذا يجب علينا، وماذا يمكننا أن نفعل؟» لقد قلته بنفسك: يجب علينا أن نجعلهم جميعاً مسيحيين. «Compelle eos intrare» قال القديس لوقا: «أجبروهم على الدخول» خارج ذلك، لا خير في هذه الحياة، لا خلاص في الآخرة. كيف نهديهم؟ في كم من الوقت وبأي ثمن؟ هذا الجزء الثاني من السؤال، وفي هذه النقطة، أخ برتولومي، نحن نختلف. تقول: «مسيحيون وعبيد، لا، الكلمتان تنفيان الواحدة للأخرى» وأنا أقول، لمَ لا؟ خلال بعض الوقت، على أي حال، بانتظار توبة عامة، لأن ذلك ما يهمنا. قلت أيضاً: «إن الحروب التي خضناها لم تكن عادلة»، وأنا أقول: الحرب العادلة هي التي تؤدي إلى العدالة. ما هو الخير المطلق؟ تتكلم بلسان القديس بولس، أنا، أرد عليك بلسان القديس أغوسطينوس، «خسارة روح غير معمدة، قال القديس أغوسطينوس، هي مصيبة أكبر من موت ضحايا لا يحصى عددها، حتى إن كانت بريئة» الخير المطلق هو خلاص الروح. من أجل ذلك تتمسك بشدة بهدايتهم، لأنه دون ذلك تكون روحهم تائهة ولا شيء في هذا العالم أو في الآخر أغلى من روحهم.

كاهن

ـ تقر إذن أن لديهم روحاً.

البروفسور

ـ أرغب أن أكون قد فُهمت جيداً: أقول بأنهم ليس لديهم روح كروحنا، من النوعية ذاتها، يلزمهم الكثير، وليس لدينا أي سبب لمعاملتهم مثلنا. ولكن إن كنت مخطئاً، وهذا ممكن في اعتقادي ـ في حال كان أرسطو مخطئاً ـ، لئن كانت روحهم شبيهة لروحنا، أقول إذن بأنها اللؤلؤة الأثمن للخليقة وإنه يجب إنقاذها بأي ثمن.